
سلسلة مؤلفات سماحة الشيخ عبدالله ابن جبرين رحمه الله
٨
ج
التعليقات الزكية
على
العقيدة الواسطية
لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
رحمه الله (ت ٧٢٨هـ)
العقيدة
تأليف
سماحة الشيخ العلامة
د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين
(ت ١٤٣٠هـ)
أعيد طبعه بإشراف مؤسسة الشيخ عبدالله ابن جبرين الخيرية

© مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن جبرين، عبدالله بن عبدالرحمن
التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية./ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين - ط ٢ - الرياض، ١٤٤١هـ
٦١٦ ص؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٣ - ٠٨ - ٨٢٢٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- العقيدة الإسلامية ٢- التوحيد أ- العنوان
ديوي: ٢٤٠ ١٤٤١/٩٩٧٢

رقم الإيداع: ١٤٤١/٩٩٧٢
ردمك: ٣ - ٠٨ - ٨٢٢٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ١٤٢٦١٠٠٠ ١ ٩٦٦+
فاكس: ١٤٢٦٣٧٠٠ ١ ٩٦٦+
جوال: ٠٠٨٠١٠٠ ٥٦ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com
book@ibn-jebreen.com





مؤسسة ابن جبرين الخيرية
Ibn Jebreen Foundation



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فحيث إن مؤسسة ابن جبرين الخيرية بعد وفاة سماحة الشيخ الوالد عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله حملت مهمة نشر تراثه العلمي، وحصلت من ورثته على الحق الحصري لنشر تراثه من كتب وغيرها.

وقد قامت المؤسسة بعدة خطوات في ذلك منذ وفاة الشيخ رحمه الله: حيث عملت على جمع المواد الصوتية والمرئية وتصفيتها وفهرستها وترتيبها وتفريغها، وجمع ما كتبه الشيخ بخط يده أو أملاه من كتب ورسائل وفتاوى؛ وذلك لإخراجها في عدد من المنتجات الورقية والإلكترونية والصوتية وغيرها.

وفي خطوة للتعجيل بنشر بعض كتب الشيخ رحمه الله وقع اختيار المؤسسة على عدد من الكتب التي طبعت في حياة الشيخ رحمه الله، وكان اختيار هذه الكتب لسببين: وهما: أهمية الكتاب، وكون العمل فيه متقنًا في الجملة.

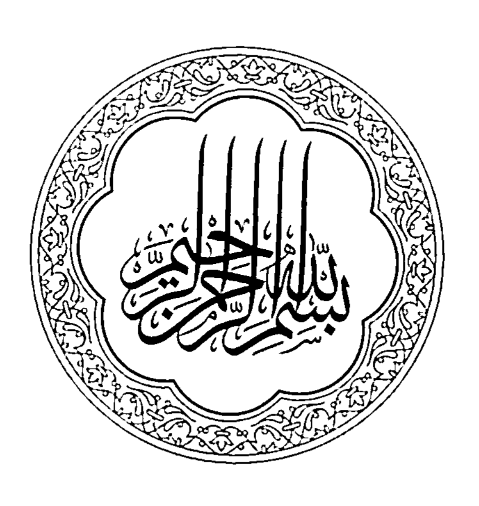
وكان من هذه الكتب كتاب (التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية)، والذي اعتنى به وطبعه سابقًا الشيخ (علي بن حسين أبو لوز): فندعو الله أن يثيبه ويجزيه خيرًا على ما بذل من جهد.

والمؤسسة إذ تسعى في إعادة طباعته رغبة في نفع القارئ، وإكمالًا لرسالة الشيخ رحمه الله في نشر العلم الشرعي، وأملًا في أن يستمر أجر هذا العلم لمؤلفه ومن سعى فيه.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء سماحة الشيخ المؤلف ومشايخه رحمهم الله، وأن يسكنهم فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

قسم البحث العلمي في مؤسسة ابن جبرين الخيرية





مقدمة المعتني

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من الكتب المختصرة في عقيدة أهل السنة والجماعة ، وقد كانت جامعة لأكثر معتقد أهل السنة والجماعة .

وقد أكبَّ العلماء على شرح هذه العقيدة العظيمة ، وبيان معانيها ،

وذلك لأهميتها واعتمادها على النصوص الصريحة والصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

ومن هذه الشروحات :

١ ـ الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض .

٢ ـ التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد .

٣ ـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

٤ ـ مختصر الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان .

٥ ـ مع عقيدة السلف العقيدة الواسطية ، إعداد مصطفى العالم .

٦ ـ التعليقات المفيدة على العقيدة الواسطية ، تعليق وتخريج عبد الله بن عبدالرحمن الشريف .

٧ ـ شرح العقيدة الواسطية ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين .

٨ ـ شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ محمد خليل هرّاس .

٩ ـ شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ صالح بن فوزان الفوزان .

والآن بين يديك ـ أخي القارئ ـ شرح العقيدة الواسطية لفضيلة شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ، والمسمى :

(التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية).

وأصل هذا الشرح دروس لفضيلة الشيخ مسجلة في أشرطة تم تفريغها . ثم قمت بتهذيبها وتنقيحها وعزو الآيات وتخريج الأحاديث ، وعمل فهرس تفصيلي للموضوعات والمسائل والفوائد .

وبعد إتمام العمل قمت بعرضها على فضيلة الشيخ لمراجعتها وإجازتها ، حتى نتمكن من نشرها مصححة ومنقحة من قبل فضيلته .

وبهذه المناسبة فإنني أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب ، وخاصة أولئك الذين قاموا بنسخ الأشرطة ، أسأل الله تعالى أن يوفقهم ، وأن يكتب لهم الأجر والمثوبة .

كما أخص بالشكر الإخوة في دار الوطن الذين ساعدوني في التهذيب والتخريج فجزاهم الله خير الجزاء .

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، طالبًا به الأجر والمثوبة والدرجة العالية ، وأن يثقل به ميزاني يوم ألقاه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وأسأله تعالى أن يحسن ختامنا ، ويجعلنا ممن يختم لهم بعقيدة صافية على ما كان عليه نبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام من بعده ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

أخوكم

أبو أنس علي بن حسين أبو لوز

الجمعة: ١١/ ٧/ ١٤١٤هـ

تقديم سماحة الشيخ العلامة
د عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله

الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الموصوف بصفات الكمال ، المنزه عن الأشباه والأمثال؛ أحمده سبحانه وأشكره ، وأستعينه وأستغفره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ظهير ولا معين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق الأمين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . **أما بعد**:

فقد كنت شرحت العقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - لرجل من أهل واسط ، والتي احتوت على عقيدة السلف الصالح بما دل عليه القرآن والحديث ، وذلك أن علماء الحنابلة في الأزمنة الماضية لم يشرحوا هذه العقيدة؛ بل ولا اللمعة ، ولا ما كتبه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من العقائد ، وإنما كان الحنابلة يعتنون بكتب الفقه ويتوسعون فيه إلا القليل منهم ، كأبي يعلى القاضي والإمام البربهاري والموفق ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والسفاريني ، ثم أئمة الدعوة من علماء نجد رحم الله الجميع .

لكن هذه العقيدة رغم أهميتها لم تحظ بعناية أحد منهم ، فلما احتيج إلى تدريسها في المعاهد العلمية وحلقات المجالس والمساجد تعين أن يعتنى بها ، فشرحها بعض علماء هذه البلاد كالشيخ عبد العزيز بن رشيد والشيخ زيد بن فياض - رحمه الله تعالى - والشيخ عبد العزيز بن سلمان - رحمه الله تعالى .

فلما كان في حدود سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة رغب إلي

بعض طلبة العلم أن أشرحها لهم ، والتزموا بحفظ المتن وتسجيل الشرح ، فأجبتهم إلى ذلك رغم ما أقوم به من الدروس النظامية في الكلية ، وإمامة المسجد الجامع الكبير بالنيابة ، وقد توسعت في الشرح لرغبتهم في الإيضاح ، ولم أتمكن من مراجعة الشروح الأخرى ولا من النقل من كتب المؤلف أو غيرها؛ وإنما اعتمدت في الشرح على ما في الذاكرة من العلوم والفوائد التي تلقيتها عن مشايخي الأجلاء ، أو على ما علق بالذهن من الكتب حال المطالعة والقراءة القديمة وقت الفراغ .

ولا شك أن ما اعتمد فيه على الذاكرة قد يكون خطأ أو فيه خلاف أو تقديم وتأخير أو إبدال كلمة بأخرى أو نحو ذلك ، ورغم أني لم أعتمد فيه على الكتب المؤلفة قبلي فقد رأى أولئك الطلاب أن فيه فائدة أو فوائد ، وأن من المصلحة الاحتفاظ به ثم نشره ، فقاموا بإفراغه ونسخه من الأشرطة وهذبوه وعرضوه علي بعد نسخه ، فقرأته مع ما أنا فيه من شغل البال وكثرة الأعمال ، فأصلحت ما ظهر لي أنه خطأ ، وحذفت منه ما هو مكرر أو استغني عنه ، وأذنت بنشره كما هو ، فعسى أن يكون فيه نفع لمن أراد الله به خيرًا ، وعسى أن إخوتي ينبهوني على ما وقعت فيه من زيادة أو نقص أو سهو أو غفلة أو غلط في اللفظ أو في المعنى ، فإن المؤمن مرآة أخيه المؤمن ، والحق أحق أن يتبع .

ونسأل الله أن يعفو عنا الخطأ والزلل وأن يجعل هذا الشرح خالصًا لوجهه الكريم ، مقربًا للزلفى لديه .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين



تقديم فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الموصوف بصفات الكمال، المنزه عن الأشباه والأمثال،
أحمده سبحانه وأشكره، وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ظهير
ولا معين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله السابق إلى الأمور كلها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد كنت شرحت العقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى
لرجل من أهل واسط، والتي احتوت على عقيدة السلف الصالح بما دل عليه القرآن والحديث،
وذلك أن علماء الحنابلة في الأزمنة الماضية لم يشرحوا هذه العقيدة ولا اللمعة ولا ما كتبه
الإمام أحمد رحمه الله تعالى في هذا الحق، وإنما كان الحنابلة يعتنون بكتب الفقه ومن يؤلفون
فيه إلا القليل منهم كأبي يعلى القاضي والإمام البربهاري والموفق ابن قدامة وشيخ الإسلام
ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والسفاريني ثم أئمة الدعوة من علماء نجد رحمهم الله جميعاً. لكن
هذه العقيدة رغم أهميتها لم تحظ بعناية أحد منهم فلما احتيج إلى تدريسها في المعاهد
العلمية وحلقات المجالس في المساجد تعين أن يعتنى بها فشرحها بعض علماء هذه البلاد
كالشيخ عبد العزيز بن رشيد والشيخ زيد بن فياض رحمهما الله تعالى والشيخ عبد العزيز بن سلمان
رحمه الله تعالى، كما أني كنت في حدود سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة رغب إلي بعض
طلبة العلم أن أشرحها لهم والتزموا بحفظ المتن وتسجيل الشرح فأجبتهم إلى ذلك رغم ما أقوم
به من الدروس النظامية في الكلية وإمامة المسجد الجامع الكبير بالنيابة، وقد توسعت في الشرح
لرغبتهم في الإيضاح، ولم أتمكن من مراجعة الشروح الأخرى ومن النقل من كتب المؤلف أو
غيره، وإنما اعتمدت في شرحها على الذاكرة من العلوم والفوائد التي تلقيتها من مشايخي
الأجلاء أو مما علقته بالذهن من الكتب حال المطالعة والقراءة التي تجاوزت الثلاثين سنة، ولا
شك أن ما اعتمد فيه على الذاكرة قد يكون خطأ أو فيه خلاف فقد يهم الإنسان أحياناً أو يبدل الكلمة
بأخرى أو نحو ذلك، رغم ما تحويه الكتب المؤلفة قبلي فقد رأى أولئك الطلاب
أن فيه فائدة أو نحو ذلك من المصلحة الاحتفاظ به ثم نشره فقاموا بإفراغه ونسخه من الأشرطة
وهذبوه ووضعوه على شكل نسخة فقرأته مع ما أنا فيه من شغل البال وكثرة الأعمال وأصلحت
ما ظهر لي أنه خطأ وحذفت منه ما هو مكرر أو مستغنى عنه وأذنت بنشره كما هو نعم لا بد أن
يكون فيه نقص لمن أراد الحق، وعسى أن إخوتي ينبهونني على كل ما وقعت فيه من زيادة
أو نقص أو سهو أو غلط سواء في اللفظ أو في المعنى فإن المؤمن مرآة أخيه المؤمن والحق
أحق أن يتبع ونسأل الله أن يعفو عنا الخطأ والزلل وأن يجعل هذا الشرح خالصاً لوجهه
الكريم مقرباً لديه، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين



ترجمة موجزة لمؤلف العقيدة الواسطية شيخ الإسلام ابن تيمية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه ترجمة موجزة ، للعالم الرباني ، سيد الحفاظ ، وبحر العلوم ، ومفتي الأمّة ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته .

وقد نقلتها من بعض تراجم هذا العالم الجليل ، وأكثر ما نقلت من ترجمة الإمام البزار لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » .

علّها أن تكون مفيدة للمستفيدين وقدوة للمقتدين وحجة لمن قرأها وعرفها .

اسمه ونسبه :

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الخضر بن تيمية النمري الحرَّاني الدمشقي .

مولده ومنشؤه :

ولد شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في حرّان في عاشر ربيع الأول ،

سنة إحدى وستين وستمائة ، وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين ، ثم انتقل به والده - رحمه الله - إلى دمشق المحروسة ، فنشأ بها أتم إنشاء وأزكاه وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه.

وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة[١] ، وختم القرآن صغيراً ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار [٢] .

غزارة علومه:

ولقد كان إذا قُرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته ، والدرس برُمّته ، وهو في تفسير بعض آية منها[٣] .

ولقد أملى في تفسير : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مجلدًا كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥]، نحو خمس وثلاثين كرّاسة . ولقد بلغني[٤] أنه شرع في جمع تفسير لو أتمّه لبلغ خمسين مجلداً[٥].

ومن أعجب الأشياء في ذلك ، أنه في محنته الأولى بمصر ، لما أُخذ

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٨).

(٢) المرجع السابق (١/ ٩) .

(٣) المرجع السابق (١/ ١٠) .

(٤) أي الإمام البزّار ، والإمام البزار ممن رأى وصحب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

(٥) الفتاوى الكبرى (١/ ١٠) .

وسجن ، وحيل بينه وبين كتبه ، صنّف عدّة كتب صغاراً وكباراً ، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار ، وأقوال العلماء ، وأسماء المحدثين ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي فيها ، وأي موضع هو منها .

كل ذلك بديهة من حفظه ؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه . ونُقِّبَت واختُبرت واعتُبِرت فلم يوجد فيها خلل ولا تغيُّر ، ومن جملتها كتاب : « الصارم المسلول على شاتم الرسول» .

وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به [١] .

مؤلفاته ومصنفاته :

فإنه لا يقدر على إحصائها أحد ؛ لأنها كثيرة جداً ، كباراً وصغاراً ، وهي منشورة في البلدان .

فمنها ما يبلغ اثني عشر مجلداً كـ : « تلخيص التلبيس على أساس التقديس » . ومنها ما يبلغ خمس مجلدات كـ : « منهاج الاستقامة والاعتدال» . . . إلخ [٢] .

ومنها :

كتاب : « تفسير سورة الإخلاص»، وكتاب : « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ، وكتاب : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ١٠/ ١١) .
(٢) المرجع السابق (١/ ١١) .

الجحيم »، وكتاب : « الكلم الطيب» ، وكتاب « منهاج الاستقامة». . . إلخ[١] .

وغيرها من الكتب الكثيرة جدًا والتي لا يمكن استقصاؤها بيسر وسهولة .

ذكر تعبده وزهده وورعه وتواضعه وغير ذلك :

أما تعبده :

فإنه قلّ أن سُمع بمثله ؛ لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى[٢] .

وإذا رأى منكرًا في طريقه أزاله ، أو سمع جنازة سارع إلى الصلاة عليها ، أو تأسف على فواتها ، وربّما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث ، فصلى عليها[٣] ، وكان في كل أسبوع يعود المرضى .

أما ورعه :

فكان في الغاية التي يُنتهى إليها في الورع ؛ لأن الله تعالى أجراه مدة عمره كلّها عليه . فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا زراعة ولا عمارة[٤] .

ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ، ولا كان مدّخرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا . وإنما كانت بضاعة مدة حياته وميراثه بعد وفاته العلم[٥] .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ١١).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٧) .
(٣) المرجع السابق (١/ ١٧) .
(٤) المرجع السابق (١/ ٢٠).
(٥) المرجع السابق (١/ ٢٠) .

فانظر بعين الإنصاف إلى ما وُفِّق له هذا الإمام وأُجري عليه ما أُقعد عنه غيره وخذل عن طلبه ، لكن لكل شيء سبب ، وعلامة عدم التوفيق سلب الأسباب. ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا ، التخلي عن غير الضروري منها[١] .

أما زهده في الدنيا ومتاعها:

فلقد اتفق كل من رآه ، خصوصًا من أطال ملازمته ، أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا ، حتى لقد صار ذلك مشهورًا ، بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها .

بل لو سئل عاميٌّ من أهل بلد بعيد من الشيخ : من كان أزهد أهل هذا العصر ، وأكملهم في رفض فضول الدنيا ، وأحرصهم على طلب الآخرة ؟ لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ ![٢] .

فأين حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم وليسوا من أهله ، ممن قد أغراه الشيطان بالوقيعة فيه بقوله وفعله؟

أترى ما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته ، وسماتهم وسماته ، وتحاسدهم في طلب الدنيا ، وفراغه عنها ، وتحاشدهم في الاستكثار منها ، ومبالغته في الهرب منها ، وخدمتهم الأمراء واختلافهم إلى أبوابهم ، وذل الأمراء بين يديه . . . ؟ إلى آخر ما ذكر الإمام البزار[٣] .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٠).

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٢١ ، ٢٢) .

(٣) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٢) .

أما عن تواضعه وإيثاره :

فكان مع شدة تركه للدنيا ورفضه لها ، وفقره فيها ، وتقلُّله منها مؤثرًا بما عساه يجده منها ، قليلاً كان أو كثيرًا ، جليلاً أو حقيرًا ، لا يحتقر القليل فيمنعه ذلك عن التصدق به ، ولا الكثير فيصرفه النظر إليه عن الإسعاف به ، فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئًا نزع بعض ثيابه المحتاج إليه فيصل به الفقير(١) .

وحكى غير واحد ما اشتهر به من كثرة الإيثار ، وتفقد المحتاجين والغرباء ، ورقيقي الحال من الفقهاء والقراء ، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم(٢) .

وأما عن تواضعه :

فما رأيت ولا سمعت(٣) بأحدٍ من أهل عصره مثله في ذلك ، كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير ، وكان يُدْني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلي ، زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنه ربّما خدمه بنفسه ؛ وأعانه بحمل حاجته ، جبرًا لقلبه ، وتقربًا بذلك إلى ربه(٤) .

وكان متوسطًا في لباسه وهيئته ، لا يلبس فاخر الثياب ؛ بحيث يرمق ويمدّ النظر إليه ، ولا أطمارًا ولا غليظة تُشهر حال لابسها ويميّز من عامّة

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٢) .

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٣) .

(٣) يعني الإمام البزار .

(٤) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٥) .

الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها[١] .

ذكر وفاته وكثرة من صلى عليه وشيَّعه :

توفي - رحمه الله تعالى - ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة الحرام، وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . وهو على حاله مجاهداً في ذات الله تعالى ، صابراً ، مُحتسباً ، لم يجبن، ولم يهلع، ولم يضعف ، ولم يتراجع، بل كان إلى حين وفاته مشتغلاً بالله عن جميع ما سواه[٢] ، فغسل وكفن ثم أخْرِجَتْ جنازته، فما هو إلا أن رآها الناس وأكبّوا عليها من كل جانب[٣] .

واتفق جماعة ممن حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه، على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف[٤] .

وقال العارفون بالنقل والتاريخ : لم يُسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد به حنبل - رحمه الله -[٥] .

وصدق الإمام أحمد بن حنبل حين قال[٦] : « قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز » .

فالبدعي يموت وربما لا يشعر بموته أحد ، أما المجاهد في سبيل إحياء السنة، فموته يحدث ضجة في العالم .

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٥) .

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٨) .

(٣) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٩) .

(٤) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٩) .

(٥) الفتاوى الكبرى (١/ ٤٠) .

(٦) هذه النقولات من كتاب تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ، في مقدمة المحققين .

قال ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:

« ما يصنع بي أعدائي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي ، لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » .

قال ابن القيم : وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا ، وأشرحهم صدرًا ، وأقواهم قلبًا ، وأسرّهم نفسًا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكان إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه . فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنّا ذلك كله ، وينقلب انشراحًا ، وقوة ويقينًا وطمأنينة .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] .

فجزاه الله أحسن الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وسبحان من أعطاه ما أولاه ، ومدّه بحسن التوفيق إلى ما هداه ، وأعانه بالصبر الجميل إلى أن توفاه ، ورضي عنه وأرضاه ، ورزقنا وكافة المسلمين الحياة والموت على الكتاب والسنة حتى نلقاه ، والاعتصام بهما في جميع ما نتلقاه[1] .

❁ ❁ ❁

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٤١).

نبذة مختصرة في
تاريخ الفرق والعقائد والمؤلفات في ذلك(*)

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على فطرة سليمة وعقيدة صافية؛ لأنهم اقتصروا في تلقِّيها على الأصلين : الكتاب والسنة .

فلم يظهر هناك أي مخالفات أو محدثات إلا ما كان من أحد الأعراب اسمه ذو الخويصرة عندما اعترض على النبي ﷺ في تقسيمه بعض الغنائم على أصحابه[١] .

وفي عهد عليّ ـ رضي الله عنه ـ خرجت طائفة من الناس وهم الخوارج[٢] وابتدعوا في الدين عدة بدع ، منها وهي أهمها : **التكفير بالكبائر ، واستحلال الدماء والأموال بغير حق .**

(*) هذه النبذة من كلام الشيخ عبد الله بن جبرين ، وقد قالها قبل البدء بشرح الواسطية .

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٠) في المناقب ، باب : « علامات النبوة في الإسلام» . ومسلم برقم (١٠٦٤)ـ١٤٨ في الزكاة ، باب : « ذكر الخوارج وصفاتهم» . من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه ، قال : « بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم ، فقال: يا رسول الله اعدل، قال رسول الله ﷺ : **«ويلك ، ومن يعدل إن لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أعدل »** فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : **«دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية »** .

(٢) الخوارج : هم كل من خرج عن الطاعة ، وكفر بالذنوب ، واستباح بذلك الدماء والأموال . وأول ما خرجوا في عهد علي رضي الله عنه ، فقتلهم بالنهروان ، وقد ورد بشأنهم أحاديث كثيرة ، بينت أنهم كلاب النار وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية مع كثرة عبادتهم . انظر التعليقات على متن لمعة الاعتقاد ص (١٨٦ ، ١٨٧) .



ومن بدعهم : الاقتصار على ما جاء في القرآن وردّ ما جاء في السنة ، كالمسح على الخفين ، وما أشبه ذلك .

وقد وردت أحاديث في التحذير منهم ومن مسلكهم كما جاء في الحديث : « **يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** »[١] ، وفي رواية : « **يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية** »[٢] إلى آخر أوصافهم . مما يدل على سوء معتقدهم وانحراف مسلكهم[٣] .

* **ثم ظهرت بدعة القدرية**[٤] **في آخر عهد الصحابة** ـ يعني فيما بعد

(١) سبق تخريجه ، انظر الصفحة السابقة .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٤) في الأنبياء ، باب : « قول الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ » . ومسلم برقم (١٠٦٤)ـ١٤٣ في الزكاة ، باب : « ذكر الخوارج وصفاتهم » . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) الأحاديث الواردة في الخوارج كثيرة جداً ، منها الحديث الذي ذكرناه في الهامش السابق الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه . وانظر للفائدة كتاب(إتحاف الجماعة) للشيخ حمود التويجري رحمه الله (١/ ٢٧٤) باب ما جاء في الخوارج ، فقد جمع فيه أكثر الأحاديث التي وردت في الخوارج .

(٤) القدرية : هم المنكرون للقدر ، وهو تقدير الموجودات سابقًا ، أو المنكرون لقدرة الله على أفعال العباد . وأول من خرج منهم معبد الجهني ، ثم غيلان القدري ، ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها ، يقولون : لا يعلم الأشياء حتى تحدث ، وهؤلاء الذين قال فيهم الشافعي : ناظرهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا . ثم حدثت فيهم بدعة أشد وهي إنكار قدرة الله على الهداية والإضلال ، وأن الله ليس على كل شيء قدير ، وأنه لا يهدي ولا يضل من يشاء ، وهؤلاء هم القدرية الذين أنكروا القدرة ، وقال فيهم الإمام أحمد : القدر قدرة الله ـ يعني من اعترف بأن الله على كل شيء قدير فقد خصم القدرية ، خاصموهم بهذه الكلمة ، وقولوا لهم : أليس الله على كل شيء قدير ؟ إذًا فكيف يخرج عن قدرته كونه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . انظر كتاب الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد ص ٣٦٣ للشيخ عبد الله بن جبرين .

السبعين من الهجرة ـ فنفوا علم الله السابق الأزلي ، وقالوا : إن الأمر أُنُف ؛ يعني : مستأنف ، فزعموا أن الله لايعلم الأشياء قبل وقوعها . وقد ظهروا في العراق، وكان رئيسهم معبد الجهني[١] وغيلان القدري[٢] .

وقد أنكر عليهم بعض الصحابة هذه البدعة ، كما رُوي عن عبد الله بن عمر وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم[٣] .

(١ ، ٢) معبد الجهني هو أول من أظهر القول في القدر ، وكان ذلك بعد منتصف القرن الأول تقريبًا ، وقد أخذه معبد عن رجل نصراني اسمه سوسن ، أسلم ثم رجع إلى نصرانيته مرة أخرى ، فكان معبد أول من نشره بين الناس .

وتذكر كتب الفرق أن غيلان الدمشقي الذي ورث القدر عن معبد أنه كان مرجئًا . وقد استدعاه عمر بن عبد العزيز وناظره حتى أعلن توبته ، ووعد بعدم العودة إلى الخوض في القدر ، ولكنه رجع إليه بعد موت عمر بن عبد العزيز فأتى به هشام بن عبد الملك وعقد له مجلسًا فناظره ثم قتله .

وكان قتله عام ١٠٥ هـ . فيكون قد عاش في أواخر القرن الأول . انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٧ ، بتصرف .

وقال الأوزاعي : أول من نطق في القدر : رجل من أهل العراق يقال له : سوسن ، كان نصرانيًا ، ثم أسلم ، ثم تنصر ، فأخذ عنه معبد الجهني ، وأخذ غيلان عن معبد . رواه اللالكائي في شرح أصول السنة برقم (١٣٩٨) ، والآجري في الشريعة (٢٤٢) ، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٤١٤، ٤١٥) .

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٨ـ١) في الإيمان ، باب : « بيان الإيمان والإسلام والإحسان . . . » عن يحيى بن يعمر ، قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجّين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمّا يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُف ، قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . . . إلخ الحديث» .

* **ثم ظهرت بدعة الإرجاء**[١]، وكان ذلك في أواخر القرن الأول ؛ حيث قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية ، فما دمت مؤمنًا فلا يضرك ارتكاب أي معصية ، وأنت كامل الإيمان.

وسُمُّوا بالمرجئة ؛ لأنهم أرجؤوا -أي : أخَّرُوا - الأعمال عن الإيمان ، حتى قال قائلهم :

فكثر ما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم على كريم

وقد أنكر عليهم كثير من التابعين .

* **ثم ظهرت بدعةُ الاعتزال**[٢] - في أوائل القرن الثاني - فزعموا أن الذي يرتكب المعاصي ليس بمؤمن ولا كافر ؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين ، هذا في

---

(١) أول من قال بالإرجاء هو : الجهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي ، الذي تنسب إليه فرقة الجهمية الذين اشتهروا بإنكار الصفات والرؤية ، وقالوا بخلق القرآن وغير ذلك مما هو معروف . وكان يقول : (لا يضر مع الإيمان ذنب) ، أي: إذا كنت مؤمنًا فاعمل ما شئت من الذنوب . والجهم بن صفوان ظهر في ترمذ ثم انتقل إلى بلخ وأقام بها يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران حتى نفي إلى ترمذ ، ثم خرج على السلطان مع الحارث بن شريح فقتله سلم بن أحوز البلخي بأصبهان ، وقيل : بمرو سنة ١٢٨. انظر أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٣٧-٤٤).

(٢) **المعتزلة** : هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وهم كثير لا كثرهم الله . فقد انتشر مذهبهم وطبعت لهم مؤلفات ، وممن اعتنق مذهبهم القاضي عبد الجبار صاحب الكتاب المشهور (المغني) وهو من أشهر كتبهم . وممن اعتنق مذهبهم أيضًا الزمخشري صاحب التفسير المشهور بالكشاف فهو معتزلي مبالغ في الاعتزال ، وقد بنوا مذهبهم على خمسة أصول : العدل ، والتوحيد ، وإنفاذ الوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد أكثر العلماء في الرد عليهم وإبطال قواعدهم . انظر كتاب التعليقات على متن لمعة الاعتقاد، لابن جبرين (ص١٨٧، ١٨٨) ، وكتاب الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد، لابن جبرين(ص٣٦٣، ٣٦٤).

الدنيا ، أما في الآخرة فهو خالد مخلد في النار . والذي تولى ذلك رجل يُقال له : واصل بن عطاء[١]، حيث اعتزل مجلس الحسن البصري فسموا بالمعتزلة ، وقد سلك طريقته رجل يقال له : عمرو بن عبيد[٢] .

* **ثم ظهرت بدعة نفي الصفات** - في وسط القرن الثاني - فأنكروا صفات الله التي أثبتها لنفسه ، فقالوا : إن الله لا يحب ولا يرحم ، وليس على العرش استوى ... إلخ .

وكان أول من نُقل عنه ذلك من العرب رجل يُقال له : الجعد بن درهم[٣] . وقد ذكره ابن القيم في النونية في قوله[٤] :

(١) واصل بن عطاء البصري، كانت ولادته بالمدينة عام ٨٠هـ، وتتلمذ على الحسن البصري ثم لما أحدث بدعة المنزلة بين المنزلتين طرده من مجلسه ، فاتخذ له مجلسًا خاصًا وانحاز إليه من وافقه على مذهبه ، توفي عام ١٣١هـ، وقد أحدث بدعتين: الأولى : حكمه على مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، الثانية : زعمه أحد الفريقين المتحاربين من الصحابة فاسق من غير تحديد له، ولهذا فقد طعن في عدالتهم ولم يقبل شهادة أحد منهم . انظر أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٤١، ٤٢).

(٢) عمرو بن عبيد بن باب ، الزاهد العابد القدري ، كبير المعتزلة وأولهم ، أبو عثمان البصري . قال ابن عليَّة : أول من تكلم في الاعتزال واصل الغزال ، فدخل معه عمرو بن عبيد فأعجب به ، وزوجه أخته . توفي سنة ١٤٤هـ . وإليه تنسب فرقة العمروية من فرق المعتزلة . انظر : منهاج السنة لابن تيمية (١/ ٧٥) ، وسير أعلام النبلاء ، للذهبي (١/ ١٠٤) .

(٣) الجعد بن درهم مولى سويد بن غفلة ، أصله من خراسان ، سكن دمشق . ضال مبتدع ، وهو أول من تكلم في صفات الله وأنكرها ، وقال بخلق القرآن ولما أظهر ذلك تطلبه بنو أمية فهرب إلى الكوفة فلقي الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ، وقد قتله خالد القسري أمير الكوفة بالعراق عام ١٢٤هـ. انظر : أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٤١-٤٣).

(٤) انظر الكافية الشافية (نونية ابن القيم) (ص٣٤) ، الأبيات: ٥٠، ٥١.

ولأجلِ ذا ضَحَّى بجعدٍ خالد الـ قســـريّ يومَ ذبائـــحِ القربـــانِ

إذ قـــال إبراهيـــم ليس خليلـــه كـــلا ولا مـــوسى الكليـــم الـــداني

لقد أنكر أن الله يحب ، وأنه اتخذ إبراهيم خليلاً ؛ وأنكر أن الله يتكلم ، وأنه كلم موسى تكليمًا ، ولأجل ذلك قتله خالد بن عبد الله القسري[1] في عيد الأضحى عندما خطب بالناس ، قال في آخر الخطبة : « ضحُّوا تقبَّل الله ضحاياكم ، فإني مُضحٍ بالجعد بن درهم » .

قال ابن القيم :

شكر الضحيةَ كلُّ صاحبِ سنةٍ لله درُّك مـن أخـي قـــربـــانِ

ثم تقلّد تلك البدعة رجل يقال له الجهم بن صفوان السمرقندي[2] ، ثم نشرها ودعا إليها فنُسبت إليه ، فيقال : الجهمية نسبة إليه . وقد حُفِظَ عنه أقوال بشعة ، فقد أنكر علوَّ الله على خلقه واستواءه على عرشه ؛ حتى إنه تمنى أن يُحكَّ قول الله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] من مصاحف المسلمين .

وكان السلف يسمُّون كل من بالغ في نفي الصفات أو نفي التشبيه جهميًا ؛ لأن عمدة الجهمية أنهم ينكرون إثبات كل صفة في المخلوق لله تعالى ، ويقولون : إن إثباتها تشبيه . ثم قتل الجهم بن صفوان ، وجاءت من بعده المعتزلة فانتحلت بدعته .

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري من بجيلة ، أبو الهيثم ، ولد سنة ٦٦ هـ . يماني الأصل من أهل دمشق . وهو الذي قتل الجعد بن درهم .

(٢) سبقت ترجمته ص ٢٤ .



ولكن الجهم ابتدع ثلاث بدع ، وهي :

الأولى : بدعة إنكار الصفات :

وقد كفرهم طوائف من المسلمين بإنكار الصفات . يقول ابن القيم[١] :

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في ... عشرٍ من العلماء في البلدانِ

واللالكائي الإمامُ حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبلَه الطبراني

الثانية : بدعة الجبر :

وهو زعمه أن العبد مجبور على المعاصي ومقسور ، ليس له اختيار ، وأنه بمنزلة من يُقذف به في الماء وهو موثق ، حتى يقول قائلهم :

ألقاه في البحرِ مكتوفًا وقال له ... إياكَ إياك أن تبتلَّ بالماءِ ! !

ويقولون : إن حركته كشجرة تحركها الرياح ليس له اختيار[٢] .

فالعصاة عندهم معذورون ؛ لأنهم مجبرون . وهذه بدعة شنيعة تبطل الشرع ، ومعناها أن ليس لله حجة على العباد ، وأنه لو عذب العصاة لكان ظالماً لهم .

الثالثة : بدعة الإرجاء :

وهي توسعته في الذنوب وقوله : إنه لايضر مع التوحيد ذنب ،

وهذه البدع الثلاث التي ابتدعها الجهم تفرقت :

---

(١) انظر الكافية الشافية (النونية لابن القيم) ص٧٢ الأبيات ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

(٢) يقول ابن القيم في النونية (ص ٣٤) :

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرَّجَفَان

وهبوب ريح أو تحرُّك نائم ... وتحرك الأشجار للميلان

* فبدعة الإرجاء تقلَّدها طائفة المرجئة .

* وبدعة الجبر تقلدها طائفة الجبرية .

* وبدعة نفي الصفات تقلدها المعتزلة .

وهذه الأخيرة - أي بدعة الاعتزال - هي التي تمكنت وانتشرت .

▪ ولما كان القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني الهجري اهتم السلف - رحمهم الله - بالرد على جميع الفرق المبتدعة .

وقد ظهرت كتب ومقالات في الرد على هؤلاء المبتدعة :

* وأقدم من ذُكر أنه كتب في الرد على نفاة الصفات ابن الماجشون ، أحد علماء المدينة في آخر القرن الثاني ؛ فقد كتب ورقتين أو ثلاثاً في الرد عليهم ، وقد نقلها برمتها شيخ الإسلام ابن تيمية في الحموية ، ونقلها الإمام ابن القيم في كتابه « اجتماع الجيوش الإسلامية » ونقلها أيضًا الذهبي في العلو .

ثم كُتِبَتْ رسائل كثيرة في العقائد لبعض الأئمة ؛ منها رسالتان للإمام عثمان بن سعيد الدارمي :

الأولى : كتاب « الرد على الجهمية » يذكر فيه صفات الله تعالى مع سرد الأدلة من الكتاب والسنة على كل صفة .

الثانية : رسالة بعنوان : « رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد » .

وبشر بن غياث المريسي ؛ كان خلفًا للجهم بن صفوان ، فتبنى بدعته ودعا إليها ، وكان ذلك في آخر القرن الثاني .

وكان قد اعتضد ببعض الولاة الذين ساعدوه على نشر بدعته ، وقد تتلمذ له - أي بشر المريسي - فقيه من فقهاء الحنفية يقال له محمد بن شجاع

الثلجي[1] ؛ حيث كان يدرس عليه بالخفاء ، فصار تلميذًا خاصاً للمريسي ، وتبنى عقيدته وكتبها في رسالة سماها : « هذه عقيدة بشر المريسي » ، ولم يصرح باسمه ، ولكنه عرف وكشف بعد ذلك .

والحاصل أن الإمام الدارمي قد رد على بشر المريسي وعلى تلميذه ابن الثلجي ، وبالغ في إبطال ما جاء به ذلك الخبيث من الشبه ، وذكر الأدلة على ذلك ، ومذهب أهل السنة في كل مسألة .

وممن ألف في ذلك الإمام أحمد فإن له عدة رسائل في العقيدة ، منها رسالة عنوانها : « الردّ على الجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن » . وقد طبعت مرارًا ، وقد حققها عبد الرحمن عميرة . وقد ذكر فيها شيئًا من عقائد الجهمية وأقوالهم ، وسبب تشكك الجهم وانحرافه ، وسبب انتحاله لهذه العقيدة .

كذلك له أيضًا كتابات كثيرة في العقائد تجدها في تراجم تلاميذه في المجلد الأول من طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى والذي خصه بتراجم لتلاميذ الإمام أحمد .

وكان ابن أبي يعلى ـ رحمه الله ـ إذا ترجم لأحد تلاميذ الإمام أحمد قال : روى عنه مسائل أو رسالة عنوانها كذا في العقيدة أو غيرها ، ثم يرويها بالإسناد إليه ثم يسردها أحيانًا .

وهذا يدلّ على أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كانت له رسائل يكتبها لبعض

(١) قال الشيخ ابن جبرين : ومن العجيب أن الثلجي هذا مقدس عند الحنفية ، وهو لا يُعْرَفُ عنه شيء . وقد كتب له بعض المتأخرين مثل : زاهد الكوثري المصري ترجمة مطولة بالغ في الثناء عليه ورفع من قدره .

الناس الذين يطلبونها منه ، حيث يأتيه أحدهم ـ وقد يكون من تلاميذه ـ فيقول له : إن بلادنا قد كثرت فيها البدع والمبتدعة وأظهروا معتقداتهم ، فاكتب لي عقيدة أتشبث بها . فيمليها عليه وهو يكتب ، فيأخذها ويحتفظ بها ، ثم يرويها ، ويقول في مقدمتها : هذه عقيدة أملاها عليّ الإمام أحمد أو كتبها لي .

وقد تتبعها الإمام ابن أبي يعلى بالرغم من بعد المسافة التي بينهم ، ولكنه رواها بأسانيد وأثبتها في تراجمهم ، فالحاصل أن فيها ما يدل على ثبوت ما يعتقده ، وأنه أوصى تلاميذه بما يعتقده مما يتعلق بالصفات ، ومما يتعلق بالقرآن وأدلة ذلك .

* وممن ألف في ذلك ـ أيضًا ـ عبد الله ابن الإمام أحمد ، فقد ألف كتابًا سماه « السنّة » ذكر فيه الأحاديث المرفوعة والآثار المروية عن الصحابة وعن السلف فيما يتعلق بالصفات والرد على المبتدعة في ذلك ؛ كالجهمية ونحوهم .

* وممن ألف في ذلك الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في كتابه : « خلق أفعال العباد » .

و هكذا ردوا عليهم في مؤلفاتهم العلمية كصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وغيرها ؛ فقد ذكروا فيها كتبًا في ذلك ككتاب التوحيد أو الإيمان أو السنة ونحو ذلك .

وبعد ظهور هذه المؤلفات والردود في العقيدة في أواخر القرن الثاني ، وفي القرن الثالث ثارت ثائرة المبتدعة ، ومنهم المعتزلة ، وحاولوا نشر بدعهم ، فتغلغلوا في الدولة العباسية بسبب قربهم من بعض الخلفاء وولايتهم الوزارة

والتربية لبعض أبناء الملوك مثل الخليفة المأمون؛ حتى قرّب بعض أكابرهم وهو أحمد بن أبي دؤاد ، فأقنع المأمون بعقيدة المعتزلة ، فزين له القول بأن القرآن مخلوق وإنكار الصفات وإنكار العلو وما أشبه ذلك .

فلما تابعهم المأمون على عقيدتهم ، قالوا له : لابد وأن تبثّ هذه العقيدة في الناس ، وأن تلزم الناس بها ، وأن تفتن من قال بخلافها، فوافق على ذلك، ومن هنا بدأت الفتنة وعظمت المصيبة ؛ حيث امتُحن الأئمة في آخر حياة المأمون، وفي خلافة المعتصم وخلافة الواثق.

ففي زمن هؤلاء الخلفاء الثلاثة قويت بدعة إنكارالصفات وتمكنت ، وصار أهل السنة مستضعفين ؛ بل صاروا في غاية من الاحتقار والإهانة ، وعزّ المتمسك بتلك العقيدة ؛ حيث نُفِّر من عقيدتهم حتى إنهم يستخفون بقولهم لكثرة من هو ضدهم ، وحصل لهم من البلاء ما الله به عليم . وحصلت في ذلك الوقت محنة الإمام أحمد ، وهي معروفة ومشهورة.

وكان هناك من المعتزلة من لهم مكانة مرموقة ومنزلة عالية ومذهب قوي في الاعتزال ، وكان لهم مؤلفات وكتابات كلها على طريقتهم ونحلتهم ، ومن أبرز من ألف في ذلك القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي ، فقد ألف عدة كتب في عقيدتهم ، منها ـ وهو أشهرها ـ كتاب : «المغني»، ومع الأسف فإنه لقي رواجًا في هذه الأزمنة ، قد وُجدت منه نسخ متفرقة أكثرها في البلاد اليمنية . ثم ظهر من اعتنى به وحققه وطبعه طباعة جيدة في بلاد سوريا.

وله كتاب آخر اسمه : «متشابه القرآن» . وقد حمل في هذين الكتابين على أهل السنة وهاجم فيه المعتقد الصحيح ، وهذا الكتاب وهو : «متشابه القرآن» قد حققه رجل من أهل سوريا اسمه : الدكتور عدنان محمد زرزور ،

وقد طبع في مجلدين .

والظاهر أن زرزور هذا على عقيدة القاضي عبد الجبار . وذلك يظهر من خلال تحقيقه للكتاب وتعليقاته عليه وتأييده لتأويلاته ، ثم إنه اختصره في مؤلف سمّاه أيضًا « متشابه القرآن» ، وطبعه في مجلد صغير ، وذكر فيه تأويل آيات الصفات وسماها متشابهًا وخاصة الآيات التي فيها إثبات الصفات . وحمل على أهل السنة ، وحمل على ابن تيمية ، وذكر من كتبه نقولات شنع بها عليه ، وذكر أنه مشبه ، وأنه مجسم وأنه كذا وكذا إلخ ، مما يدل على أن لكلٍّ قوم وارثًا .

وحمل هذا الرجل أيضًا على كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ، وكذلك على كتاب التوحيد لابن خزيمة رحمه الله ، وابن خزيمة من أجلاء العلماء ، صاحب كتاب الصحيح ، ومن أهل القرن الثالث والرابع .

وقد شنع زرزور على هذا الكتاب - أي كتاب التوحيد لابن خزيمة - حتى قال : إن بعضهم سماه : كتاب الشرك أو كتاب التشكيك ، وتمنى أن يحرق ، وماذا يحتوي عليه كتاب التوحيد لابن خزيمة ؟!!

إن هذا الكتاب يقتصر على الأحاديث يرويها بالأسانيد وعهدتها على نقّالها ، ويحتوي على آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، فهؤلاء المبتدعة يلومون ابن خزيمة على تصنيفه هذا الكتاب ، ويقولون : لماذا يكثر من الأدلة في إثبات الصفات ؟! فإذا ذكر صفة اليد مثلاً أتى بعشرة أدلة أو عشرين دليلاً لإثبات صفة اليد .

فلو لم يذكر إلا دليلاً واحدًا لأمكننا التأويل ، ولكن يصعب تأويل عشرين دليلاً .



لذا شنعوا على هذا الكتاب وسموه : كتاب الشرك أو التشكيك .

والحاصل أنه استمر الأمر على هذه الحال إلى آخر خلافة الواثق .

فلما كان الخليفة الرابع وهو المتوكل ، فهداه الله وفرّج به عن أهل السنة ، وأظهرهم به على مخالفيهم ، فنصر السنة وقرَّب أهلها ، وأذن لهم بإظهار عقيدتهم في دروسهم وفي كتبهم .

فعند ذلك قمع الله المبتدعة وأذلّهم ، وفرق كلمتهم ، ومن ثم بادر أهل السنة بالكتابة في العقائد ، فألفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك ، منها المختصرة والمطولة ، وقد ذكر جانبًا منها شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية» ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدَّم ، ومن ذلك : كتاب «السنة» للخلال ، و«السنة» لابن أبي عاصم ، و«اعتقاد أهل السنة» للالكائي ، و«الشريعة» للآجري ، و«التوحيد» لابن خزيمة ، و«التوحيد» لابن مندة ، و«الإيمان» له ، ولأبي بكر ابن أبي شيبة ، ولابن عبيد القاسم بن سلام وهي مطبوعة .

ومن ذلك كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقي وهو مطبوع أيضًا ، ولكن حققه الكوثري وأفسده ؛ حيث تأول كل ما فيه وسلّط عليه التأويلات التي أبطلته ، كما أن المبتدعة لما فسّروا القرآن سلّطوا عليه أنواع التأويلات .

وكتب أيضًا في ذلك الطحاوي عقيدته المشهورة ولم يصرح فيها بالمذهب الصحيح في إثبات صفة الاستواء والعلو الحقيقي والصفات الفعلية على قول سلف الأمّة الذي تؤيده الأدلة الصريحة ؛ لأنه كان في زمن قد كثر فيه المنكرون للصفات .

وإن كان صرح ببقية الصفات ، وعلى كُلٍ فهو قد دخل عليه شيء من شبهات أهل الكلام ، فلأجل ذلك تعاطى شيئًا من بدعهم واستعمل شيئًا من

عباراتهم ، والله يعفو عنه ، وعقيدته صالحة لكن لما لم تكن صريحة شرحها أتباع المعتقد الأشعري على طريقتهم ، وشرحها أهل السنة على عقيدتهم ، وشرحها المعتزلة على عقيدتهم ، وكل منهم يقول إنه على عقيدتنا .

ومن المبتدعة الذين أنكروا بعض الصفات وتأولوها الأشاعرة ، فقد كتبوا في العقائد ولهم مؤلفات كثيرة نظمًا ونثرًا ، ومن ذلك عقيدة اسمها العقيدة السنوسية ، والعقائد النسفية ، والجوهرة ، وهي مطبوعة في مجموع المتون ولها عدة شروح نثرًا على طريقة الأشاعرة .

وأيضًا هناك منظومة اسمها : الخريدة على عقيدتهم . ومنظومة أخرى اسمها الشيبانية وهي أقرب إلى السنة وإن كان فيها بعض التأويلات : وأولها :

سأحمد ربي طاعةً وتفردًا   وأنظم عقدًا في الشريعة أوحدًا

وأشهد أن الله لاربَّ غيره   تعزز قدمًا بالبقاء وتفردا

إلى أن يقول مما هو مستنكر عليه ، وإن كان له احتمال صحيح :

فلا جهة تحوي الإله ولا له   مكان تعالى عنهما وتمجدا

إذ الكون مخلوق وربي خالق   لقد كان قبل الكون ربًا وسيدا

ولا حل في شيء تعالى ولم يزل   غنيًا حميدًا دائم العز سرمدا

فالأشاعرة كتبوا عقائد كثيرة منها ست أو سبع عقائد مطبوعة في أول مجموع الفتاوى ، وبه نحو من اثنين وستين متنًا وشروحها مشهورة عندهم .

فعليك أيها المسلم الموحّد بمؤلفات أهل السنة وكتبهم وخاصة كتب السلف المتقدمين وبعض كتب المتأخرين مثل : لمعة الاعتقاد لأبي محمد بن قدامة المقدسي ، صاحب المغني ، وله كتب في إثبات العلو وغيره ، وقبله

القاضي أبو يعلى كتب في الصفات وإبطال التأويلات .

ثم جاء شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - والذي ظهر - رحمه الله - في وقت قل فيه واستغرب من هو على منهج أهل السنة والجماعة ، فضلًا عن وجود من يجهر بذلك ، فألهمه الله الحق وصدع به ، وتصدى لمن خالف ذلك ، وأظهر الأدلة الواضحة التي تدل على ما ذهب إليه . وكتب في ذلك مؤلفات كثيرة مختصرة ومبسوطة .

فلما كتب هذه العقيدة نوظر فيها من قبل الأشاعرة ، وأحضروا هذه النسخة ، وطلبوا منه الحضور ، ثم قرئت عليه في عدة مجالس ، ثم حاسبوه عن كل كلمة قالها وناظروه : فبين لهم أنه الصواب بالأدلة الشرعية فحجهم وبين لهم البيان الواضح .

وكتب مناظرته أيضًا وهي مطبوعة . وكان ابن تيمية رحمه الله قد أمهلهم ثلاث سنوات على أن يأتوا بكلمة واحدة في هذه العقيدة تخالف ما كان عليه اعتقاد السلف الصالح فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا .

ثم كتب عقيدته التي هي أوسع منها ، وهي العقيدة الحموية لأهل حماة . وقد كتبها في أواخر القرن السادس الهجري في حدود سنه ستمائة وثمان وتسعين . ولما كتبها أيضًا حصل له بسببها أذي وافتتن - رحمه الله - فحبس لأجلها ونوظر ولكن لم يقدروا أن يردوا عليه، ثم اشتهرت وانتشرت فكفره أهل مصر ، وقالوا إنه كافر مشبه... وأنه... وأنه ، إلخ . ووشى به علماء السوء والسلطة إلى السلطان آنذاك، فاستدعاه السلطان لمناظرة علمائه .

فلما وصل إلى مصر حضر عند قاضي كبير يقال له : ابن مخلوف ، حنفي المذهب ، وتصدى لمناظرته رجل من علماء الشافعية يقال له: ابن عدوان .

فلما مثَلا بين يدي ابن مخلوف ، قال ابن عدوان : أنا أدعي على ابن تيمية هذا أَنه يقول إن الله على العرش بذاته ، وأنه يقول إن الله ينزل نزولاً حقيقيًا إلى السماء الدنيا ، وأنه يقول : إن الله يتكلم بحرف وصوت .

عند ذلك قال له ابن مخلوف : ما تقول يا فقيه ؟ - يخاطب ابن تيمية - فابتدأ ابن تيمية بالحمد لله والثناء على الله فقطعوا عليه حمده ، وقالوا له : ما أتينا بك لتخطب .

عند ذلك قال : فمن يكون الحكم؟! ، فقال : ابن مخلوف : أنا ؟ فقال شيخ الإسلام : كيف تقضي عليَّ ؟ وأنت من جملة الخصوم . فغضب وكتب للسلطان بسجنه ، فأدخل السجن ، ومكث فيه عدة سنين ، وكان هؤلاء يترددون عليه بين الآونة والأخرى فيناظرونه ، ولكن تكون له الغلبة عليهم في كل المرات .

والحاصل أنه بعد ذلك اشتهرت كتبه وخاصة هذا الكتاب المسمى : بـ «العقيدة الواسطية» ورفع الله ذكره وكثر أتباعه على الحق .

* * *

معنى العقيدة وسبب تسميتها بالواسطية

العقيدة : مأخوذة من العقد ، ومنه عقد الحبل ، وسميت بذلك لأنها مما يجب أن يُعقد عليه القلب .

فالعقائد : هي ما يُعقد عليه القلب ، ولا يتردد فيه ولا يشك في صحته ، كأنه عُقد عليها ، حتى لايمكن تغييرها ولا حِلها ولا إخراجها .

وهذا سبب تسمية هذا النوع من العلم بالعقائد .

وسميت بالواسطية : لأن الذي سألها أو طلب كتابتها من الشيخ رجل من أهل واسط ؛ جاء إليه في أحد مواسم الحج وهو جالس في المسجد بعد صلاة العصر ، فشكا إليه انتشار الفرق والأهواء والعقائد ، وقال له : اكتب لي عقيدة تكون عمدة لي ، فكتب له هذه العقيدة ، وهو جالس في مجلسه بعد العصر .

ولما كتبها نُسخت في مجلسه أيضًا ، أو نسخها وأبقى عند شيخ الإسلام الأصل .

والحاصل أنه كتبها من حفظه ولم يُراجع أية كتاب ، وأملاها في مجلس واحد .

❁ ❁ ❁

مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية

قال شيخ الإسلام وعمدة الأنام ، الإمام العالم الرباني الزاهد أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ابتدأ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كتابه بالبسملة شأنه شأن جميع المؤلفين .

فقد افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كُتِبَتْ في أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا[1] .

والأرجح : أنها للفصل بين السور كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه : ﴿بِسمِ اللَّه الرحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ »[2] .

ومن قال بأنها آية من الفاتحة رأى الجهر بها في الصلاة ، والذين لم يروا فقد أسرُّوا بها .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٧٨٨) ، في الصلاة ، باب : (من جهر بها) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦٤) ، والمشكاة (٢٢١٨) .

. . . .

والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسِرُّون بالبسملة ، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو أيضًا مذهب أبي حنيفة والثوري وابن حنبل(١) .

ويُسنّ للعبد أن يقول : باسم الله عند الأكل والشرب ، ولبس الثوب ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، وعند الركوب ، وعند أول الوضوء ، وعند الذبيحة ، والبعض أوجبها عند الذبيحة ونحو ذلك ، للأحاديث الواردة في هذه الأمور وغيرها .

قوله : (بسم) : الباء للاستعانة وهي متعلقة بفعل محذوف يلزم تقديره متأخرًا ليفيد :

١ ـ الحصر .

٢ ـ التبرك والتيمن والاستعانة ونحوها .

والاسم في اللغة : ما دل على مسمى .

وفي الاصطلاح : ما دل على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان .

قوله : (الله) : علم على الرب تبارك وتعالى ، أي اسم للرب ، ولا يسمى به غيره . ويقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات . ومعناه : ذوالألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وهو مشتق من أله يأله ألوهة بمعنى عبد يعبد عبادة . فالله إله بمعنى مألوه أي معبود .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٧).

. . . .

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقًا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] أي أنه هو المألوه في السماوات والأرض ، وهذا أرجح ما قيل فيه .

والمألوه أي المعبود ، فهو سبحانه المعبود في السماوات والأرض .

قوله : (الرحمن) : مشتق من الرحمة وهو على وزن فعلان ، ومعناه : ذو الرحمة الواسعة ، وهو اسم من أسماء الله تعالى ، فلا يطلق على غيره .

قوله : (الرحيم) : على وزن فعيل ، وهو دال على الفعل ، ومعناه : ذو الرحمة الواصلة ، ويطلق على الله عز وجل وعلى غيره منكرًا .

فقوله : (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم .

وهما اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بالرحمة على ما يليق بجلاله .

والرحمن ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات ، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] .

❃ ❃ ❃

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالـهُدى وَديـنِ الحقِّ ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ، وَكَفَى باللَّه شهيدًا]



▪ قوله : (الحمد لله) :

ابتدأها بالحمد اقتداءً بالكتاب العزيز ، وعملاً بالحديث المشهور : « كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله - أو : بالحمد - فهو أقطع »[١] وفي رواية ضعيفة : « ببسم الله »[٢] ؛ ولأن النبي ﷺ كان يبدأ بالبسملة في خطبه ومكاتباته ومراسلاته[٣] ، وهكذا أهل العلم من السابقين واللاحقين .

والحمد لغة : الثناء باللسان على الجميل الاختياري على وجه التعظيم والتبجيل .

واصطلاحًا : هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ؛ ولا شك أن المحاسن في حق الله تعالى هي الصفات العُلى والأسماء الحسنى والنعم الكثيرة .

وبعضهم يُعرِّف الحمد بأنه : فعلٌ ينبئُ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا

(١ ، ٢) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٩٤) في النكاح ، باب : « خطبة النكاح »، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٩)، وابن حبان (١٩٩٣) - موارد)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤) و(٤٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الألباني في الإرواء رقم (٣) : الحديث ضعيف لاضطراب الرواة، عن الزهري، وكل من رواه منه موصولاً ضعيف، أو السند إليه ضعيف، والصحيح عنه مرسلاً . وانظر الإرواء رقم (١ ، ٢)، وأبو داود برقم (٤٨٤٠) في الأدب ، باب : « الهدي في الكلام » ، وانظر السلسلة الضعيفة برقم (٩٠٢).

(٣) ومن ذلك ما كتبه الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم فقال ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم...إلخ». أخرجه البخاري برقم (٧) في بدء الوحي، باب(٦)، ومسلم برقم (١٧٧٣) في الجهاد والسير، باب : كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

. . . .

على الحامد وغيره . فقوله : « فعل» مثل قولك : أحمد الله ، هذا فعل « ينبئ» يعني يخبر عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره .

والله تعالى يُحمد على كل شيء ؛ يحمد على أسمائه الحسنى ، ويحمد على صفاته العلى ، و يحمد على عطائه ، كما يحمد على ابتلائه بالخير أو بالشر . فيحمد سبحانه بكل حال وعلى كل حال ؛ ولذلك يقولون : الحمد لله على كل حال ، ونعوذ به من حال أهل النار .

لكن الغالب أنهم عندما يحمدون الله تعالى يذكرون بعد الحمد شيئًا من الصفات التي هي صفات كمال .

■ قوله : (الذي أرسل رسوله) :

وهذا من أعظم صفات الكمال لله تعالى ، وهو : إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن أشرفهم وأعظمهم نبينا محمد ﷺ ؛ ولذلك قال ـ رحمه الله ـ : **الحمد لله الذي أرسل رسوله** يعني محمداً ﷺ . فحمده لكونه أرسل هذا الرسول .

والرسول لغة : من بعث برسالة .

واصطلاحاً : إنسان ذَكَر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه . فإن أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغه فهو نبي ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً .

■ قوله : (**بالهدى**) :

الهدى لغة : الدلالة والبيان .

وهو ينقسم إلى قسمين :

أ ـ **هدى دلالة وبيان** : وهذا يقدر عليه الرسل وغيرهم من أتباعهم . قال

. . . .

تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢] . وقال ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[١] .

ب ـ هدى توفيق وإلهام : وهذا لا يقدر عليه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[القصص: ٥٦] .

والمعنى أن الشريعة التي جاء بها الرسول محمد ﷺ وبلّغها ، فيها الهدى والدلالة إلى الرشاد ، وفيها دين الحق .

■ قوله : (ودين الحق) :

الدين : هو ما يدان ويلتزم به ، والمراد هنا جميع ما شرعه الله من الأحكام الاعتقادية أو القولية أو الفعلية . .

■ قوله : (ليظهره على الدين كله) :

يعني يُعليه ويعلي دينه وينصره على جميع الأديان من يهودية أو نصرانية أو غيرها ، يعليه بالحجة والبيان والجهاد حتى يظهر على مخالفيه من أهل الأرض ، ولا شك أن المسلمين قاموا بهذا الأمر ، وهو الجهاد ، فجاهدوا في الله حق جهاده ، حتى انتشر هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها .

■ قوله : (وكفى بالله شهيداً) :

يعني كفى بشهادة الله سبحانه وتعالى إثباتاً على صدق نبيه محمد ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٩) في الجهاد ، باب : «فضل من أسلم على يديه رجل» ، ومسلم برقم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة . باب : « من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه» .

. . . .

وصدق ما جاء به . وإلا لو كان هذا النبي كاذبًا على الله في دعواه وفي نبوته وفي رسالته لعجل له بالعقوبة ، ولكن أيده ونصره على أعدائه ، وما ذاك إلا دليل قاطع على صدق هذا النبي ﷺ .

والمؤلف رحمه الله تعالى أخذ هذه الجملة من الآية التي في آخر سورة الفتح وهي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨] .

والحاصل : هذا هو سبب الحمد ؛ وهو إرسال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ؛ يعني بالعلم النافع والعمل الصالح ، وإظهار دينه ﷺ على جميع الأديان .



[وَأشهَدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ إقْرَارًا به وَتَوْحِيدًا] .



بعد أن حمد الله وأثنى عليه جاء بالشهادتين . وقد رُوي في بعض الأحاديث : « **كل خطبة ليس فيها تشهَد فهي كاليد الجذماء**»[1] أي المقطوعة والمشلولة . ولكنه حديث ضعيف .

■ قوله : (**وأشهد أن لا إله إلا الله**) :

هذه الشهادة الأولى وهي المقدمة ، وهي متضمِّنة للشهادة الثانية المتضمنة للعبادة كلها ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي إفراد وتخصيص الله بالألوهية .

والألوهية مأخوذة من التألُّه وهو التعبد ؛ يعني التحبُّب والتودُّد إليه سبحانه ، ويدخل في ذلك كل أنواع التعبد .

والعبادة هي كما قال ابن القيم - رحمه الله - : « غاية الحب مع غاية الذل» ولهذا قال - رحمه الله تعالى - في نونيَّته :

وعبادةُ الرحمنِ غايَةُ حبِّه ... مع ذلِّ عابدِهِ هما قطبانِ

أي : ركنان أساسيان .

وهي : « اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوالِ والأعمالِ

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٤١) في الأدب ، باب : « في الخطبة» والترمذي برقم (١١٠٦) في النكاح ، باب : «ما جاء في خطبة النكاح» . وأحمد في مسنده (٢/ ١١٤٣) . و ابن حبان برقم (٥٧٩) ، (١٩٩٤) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . وانظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم (١٦٩) .

. . . .

الظاهرة والباطنَة » كما عرَّفها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بذلك [١] .

فيدخل فيها قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، فعندما تشهد لله سبحانه وتعالى بتوحُّده وتفرده بالألوهية والعبادة فكأنك تعترف بأنه يجب عليك أن تُؤلِّهه .

كيف تشهد أن لا إله إلا هو ولا تَؤلَّهُهُ سبحانه ؟!

كيف تُقرُّ بأنه إلهك ولا تَألَّهُهُ ؟!

فالتألُّه هو التذلُّل والتعبد ؛ أي الطاعة والاتباع والامتثال مع المحبة والخوف والتعظيم . أو باختصار : هو غاية الحب مع غاية الذل .

فإن قولك : أشهد أن لا إله إلا الله : أي أقرّ واعترف أنه لا معبود بحق إلا الله .

وقد اشتملت هذه الكلمة على نفي وإثبات ، فالنفي (لا إله) والإثبات (إلا الله) .

▪ قوله : (**وحده لا شريك له**) :

تأكيد لذلك الإقرار (**وحده**) تأكيد للإثبات (إلا الله) . (**لا شريك له**) تأكيد للنفي (لا إله) .

فهو سبحانه لا شريك له في عبوديَّته ، كما أنه لا شريك له في ملكه وفي أسمائه الحسنى وصفاته العلى .

▪ قوله : (**إقرارًا به وتوحيدًا**) : أي اعترافًا باللسان بأنه لامعبود بحق سواه . (**توحيدًا**) : أي إفراداً وإخلاصًا له بذلك سبحانه وتعالى في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية .

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨ .

. . . .

تنبيهات :

التنبيه الأول :

إن المقصود من هذه الكلمة معرفة معناها لا مجرد التلفظ بها ؛ فأما من أتى بحروفها ولم يعمل بها فإنها لا تنفعه يوم القيامة، ولا تكون سببًا لنجاته من النار والعياذ بالله .

فالغاية من قولنا : « لا إله إلا الله» هي أن نتَّخذه إلهًا ومعبودًا ولا نؤلِّه غيره، والتأله كما تقدم هو التحبب والتودد إليه سبحانه ؛ فلابد لمن يعمل بلا إله إلا الله أن يحب الله من كل قلبه أعظم محبة ، ولابد له أيضًا أن يتذلل لله وأن يتواضع له غاية التواضع، وأن يعظِّمه غاية التعظيم ، ويرجوه غاية الرجاء، ويخافه أشد الخوف، ويخشع ويخضع له سبحانه .

فإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق العبادة ولابد مع ذلك أن يخلع تألُّهَ غير الله من قلبه؛ فلا يذل لغيره ، ولا يخضع لغيره ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو إلا إياه ، ولا يحب غيره كمحبته ، ونحو ذلك . ومن كان كذلك فإنه يكون من أهل لا إله إلا الله .

وأما الذين يقولونها بألسنتهم ثم يقعون في خلافها وفيما ينقضها فإنها لا تنفعهم؛ لأنهم جهلاء بمدلولها ، فهم يقولونها وهم معتقدون أن من تلفظ بها فقد عصم ماله ودمه وحسابه على الله ،ولكنهم ما عرفوا أن النبي ﷺ لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال[1] ، بل ولامعرفة معناها مع لفظها ، بل

---

(١) ثبت عن النبي ﷺ عدة أحاديث في الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وفي بعض الألفاظ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة . وفي بعضها : من قال : لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، وفي بعضها : من وحّد الله.

. . . .

ولا الإقرار بذلك ، بل أضاف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله (١) .

التنبيه الثاني :

إن كثيراً من الناس يفسّرون «لا إله إلا الله» بأنه لا خالق إلا الله ، أو لا رازق إلا إياه ، أو نحو ذلك ، أو يقولون إن معناها : لا نعبد إلا الله ولا نصلي إلا له . . . إلخ .

لكنهم لا يدرون ما معنى العبادة التي خلقوا من أجلها فيصرفونها لغير الله ولا يشعرون بذلك ؛ فإن كل طواعية لمخلوق وذلٍّ له وخضوع له هو عبادة له في الحقيقة . فمن صرفها لقبر ميت ، أو لقبر وليّ ، تذلل له ، وخضع ودعاه ، وناداه وهتف باسمه ، وذبح له ـ مثلاً ـ ، فإنها عبادة له في الحقيقة ، وإن لم يعترف بذلك .

فهذا ما عبد الله حق عبادته ، بل أشرك به سبحانه ؛ فلا يكون من أهل كلمة لا إله إلا الله الذين تُعصم دماؤهم وأموالهم .

التنبيه الثالث :

ليعلم أن لهذه الكلمة العظيمة شروطًا سبعة لابد من معرفتها :

أولها : **العلم المنافي للجهل** : والدليل قوله تعالى : ﴿ فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] . والذين يقولونها ولا يعلمون معناها قد يقعون في

---

(١) يشير الشيخ وفقه الله إلى حديث طارق أشيم الأشجعي الذي رواه مسلم برقم (٢٣) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حَرُمَ ماله ودمه ، وحسابه على الله» .

. . . .

خلافها أو في ما يناقضها ، فلابدّ من العلم بمعناها .

الثاني : **اليقين المنافي للشك** : لأن المنافقين قد يقولونها لكنهم لا يوقنون بمضمونها ، بل يشكون في ذلك . قال ﷺ : «**أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»[١] . وقال ﷺ : «**من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»[٢] .

الثالث : **الإخلاص المنافي للشرك** : لأن بعضًا من الناس قد يقولونها ولكنهم لا يخلصون دينهم لله ، بل يصرفون بعضه لغير الله كاليهود مثلاً . قال تعالى : ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[البينة : ٥] وقال ﷺ حينما سئل : من أسعد الناس بشفاعتك ، فقال عليه الصلاة والسلام : «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»[٣] .

الرابع : **الصدق المنافي للكذب** : لأن هناك من يقولها بلسانه ولكن قلبه مكذب بها ، فلا يكون صادقًا في تلفظه بها . قال ﷺ : «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار**»[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧) ـ ٤٤ في الإيمان . باب : « الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا » . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣١) ـ٥٢ في الإيمان . باب : « الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا » . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٩) كتاب العلم . باب : « الحرص على الحديث » . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له برقم (١٢٨) في العلم . باب : «من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا» . ومسلم برقم (٣٢) ـ ٥٣ في الإيمان . باب : « الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا » . عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

. . . .

الخامس : **المحبة المنافية للكره والبغض** : فلابد أن يكون قائلها محبًا لله غاية المحبة ، ومحبًا كذلك لعبادة الله .

السادس : **الانقياد المنافي للتردد أو التكبر** : فلابد أن يكون قائلها مُقبلاً على عبادة الله بكل قلبه .

السابع : **القبول المنافي للرد** : فيجب على من قالها أن يتقبّل كل ما جاء عن الله على ألسنة الرسل فلا يرد شيئًا من لوازمها ومقتضياتها .

التنبيه الرابع :

قال شارح العقيدة الطحاوية(١) : « وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت به ملائكته وأنبياؤه ورسله : قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد ، والردّ على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها ، من أجلِّ شاهد ، بأجلّ مشهود به .

وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كلها لا تنافي بينها ، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ، صفحة : ٤٣ ، ٤٤ ـ تحقيق الدكتور : عبد الله التركي .

. . . .

وثانيها : تكلمّه بذلك ، وإن لم يُعْلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ، ويذكرها وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بها بما يشهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به » . ا . هـ

❁ ❁ ❁

[وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا] .



■ قوله : «وأشهد أن محمدًا» :

هذه هي الشهادة الثانية وهي الإقرار والاعتراف بأن محمدًا ﷺ مرسل من عند الله تعالى . فهو المُرْسَل والله المُرْسِلُ ، وقد أرسله سبحانه برسالة وأمره بتبليغها للناس كافة ألا وهي الإسلام والشريعة التي جاء بها وهي هذا الدين العظيم وما يتضمنه من الأوامر والنواهي .

■ قوله : (عبده ورسوله) :

شهادة له بالعبودية والرسالة، وقدّم العبودية لأنها صفة مدح في حقه ﷺ ، فهي من أشرف مقامات العبد مع الله، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصفه بها في أشرف مقاماته ﷺ في سورة الإسراء، قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] .

ثم جاء ذكر « الرسالة» في قوله : (ورسوله) والرسول هو الذي يحمل الرسالة من المرْسِل إلى المُرْسَلِ إليه والمُرْسِل هو الله والمُرْسَل إليه هم جميع الناس ، فالله سبحانه وتعالى قد أرسل مع نبينا محمد ﷺ رسالة وأمره بتبليغها لجميع الثقلين الجن والإنس، وهي هذا الدين الذي يدعو الناس إلى أن يعبدوا الله وحده ويطيعوه .

والرسول عند أهل العلم من أوحي إليه بشرع وأمرَ بتبليغه ، ونبينا محمد ﷺ نبي رسول ، فأول ما أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

. . . .

إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] فكان بها نبيًا عليه الصلاة والسلام. ولما نزلت عليه هذه الآيات: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] كان رسولاً مأموراً بالإنذار عليه الصلاة والسلام.

■ قوله: (صلى الله عليه):

الصلاة من الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، كما ذكر ذلك أبو العالية حيث قال رحمه الله: «صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى» رواه البخاري[١]، وهذا هو المعنى الصحيح لذلك.

والله سبحانه وتعالى يثني على عباده الذين يحبهم في ملأ من الملائكة وهم الملأ الأعلى. كما في الحديث القدسي: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[٢].

وقال بعضهم: إن الصلاة من الله على رسوله معناها الرحمة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في قول الملائكة في آل إبراهيم: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] ولكن هذا القول ضعيف.

والرسول عليه الصلاة والسلام أخذ من هذه الآية قوله في التشهد الأخير: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[٣]، فهو ﷺ يشير إلى هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٠) في الدعوات. باب: «هل يصلى على غير النبي ﷺ»، ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة. باب: «الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد».

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥) في التوحيد. باب: «قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾» [آل عمران: ٢٨]، ومسلم برقم (٢٦٧٥) ٢١ في الذكر والدعاء. باب: «الحث على ذكر الله تعالى»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذه إحدى صيغ الصلاة على النبي ﷺ وقد أخرجها البخاري برقم (٣٣٧٠) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

. . . .

يعني كما ترحمت عليهم . ولكن الأقرب هو ما ذكره أبو العالية رحمه الله: أن صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى .

أما الصلاة من الملائكة فهي الاستغفار .

وأما الصلاة من الآدمي فهي الدعاء .

■ قوله : (**وعلى آله**) :

آل النبي ﷺ هم أهل بيته من المؤمنين كزوجاته وبناته ، كما ورد ذلك منسرًا في حديث أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - في صفة التشهد الأخير أنهم قالوا : كيف نصلي عليك يا رسول الله ؟ فقال : «**قولوا : اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم**»[1] .

فهذا يدل على أن آل النبي ﷺ هم أزواجه وذريته يعني المؤمنين منهم ، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية .

وذهب أكثر العلماء إلى أن معنى الآل هم الأتباع ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٦] يعني أتباع فرعون .

واستدلوا أيضًا بماروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **سلمان منا آل البيت** »[2] مع كونه فارسيًا .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٠) في الدعوات . باب : «هل يصلى على غير النبي ﷺ» ، ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة . باب : « الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد» .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٨) وقال الذهبي في التلخيص : سنده ضعيف . وضعفه الألباني وهو في ضعيف الجامع رقم (٣٢٧٢) .

. . . .

ولذلك قال بعض الشعراء :

آل النبي هم أتباعُ ملته ... من كان من عجمٍ منهم ومن عربِ

لو لم يكن آله إلا قرابته ... صلى المصلّي على الطاغي أبي لهبِ

وقال أحدهم :

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرم ... وحبُّك للدنيا هو الذُّل والسقم

وليس على عبد تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا حقَّقَ التقوى وإن حاك أو حجم

يعني أن الرفعة عند الله ليست بالحب ولا بالنسب ولا بالقرابة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنها تكون بالتقوى والاتباع .

وكذا قال بعضهم :

لعمرك ما الإنسانُ إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسبِ

فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشركُ الشقيَّ أبا لهبِ

فالحاصل أن آل النبي عليه الصلاة والسلام في الأصل هم أهل بيته وأقاربه من المؤمنين ، وهذا هو القول الصحيح ، ويدخل فيه أيضًا أتباعه على دينه إلى يوم القيامة .

■ قوله : (وصحبه وسلم) :

أي أصحابه ، وهم الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به واتبعوه وماتوا على ذلك . وقوله : «وسلم» : التسليم يعني من الآفات والشرور ونحوها أي أننا ندعو الله تعالى أن يصلي على نبينا محمد ﷺ ، أي يثني عليه في الملأ الأعلى

. . . .

كما تقدم ، وكذلك يسلم عليه ، أي يسلمه ويبرئه من الآفات والعيوب والشرور ونحوها . وهذا هو الأرجح والله أعلم.

وقيل : إنه اسم من أسماء الله تعالى .

■ قوله : (**تسليماً مزيداً**) :

هذا مصدر مؤكد لما قبله أي تسليمًا زائدًا على الصلاة .



الفرقة الناجية :

[أَمَّا بَعْدُ ، فَهَذَا اعْتَقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ] .



■ قوله : (أما بعد) :

هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر . و يؤتى بها في الغالب بعد مقدمة الخطب ونحوها .

■ قوله : (فهذا) :

إشارة إلى الشيء الذي تصوره في ذهنه وعزم على إلقائه يعني على قاضي واسط وعلى طلابه ، ثم على كتابته .

■ قوله : (اعتقاد) :

هو ما يعقد عليه الشخص ويدين به ، والاعتقاد في اللغة مشتق من العقد الذي هو إثبات الشيء وإحكامه وتقويته ، أما في الاصطلاح : فهو التصميم الجازم الذي ينشأ عن التصديق الجازم الذي لا يقبل الشك .

■ قوله : (الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) :

وصفهم بثلاث صفات هي :

الأولى : أنهم ناجون .

والثانية : أنهم منصورون إلى قيام الساعة .

والثالثة : أنهم أهل السنة والجماعة .

. . . .

الفرقة : بكسر الفاء يعني الطائفة من الناس ، وذلك إشارة إلى قلتهم بين الناس ، وأن الذين حولهم منحرفون عن ذلك .

فإن أهل السنة في كل زمان هم الأقلون ، ولذلك سُمُّوا فِرْقَة وقد أخبر النبي ﷺ بذلك في الحديث المشهور : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك**»[١] .

الناجية أي: من بين الفرق الهالكة الذين ذكرهم النبي ﷺ في قوله: «**وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال : الجماعة** »[٢] . وفي رواية : « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣] ، والحديث له روايات أخرى ، وهو حديث حسن صحيح .

وسميت ناجية ؛ لأنها تنجو من الشرك والبدع والمعاصي في الدنيا ، وتنجو في الآخرة من العذاب .

المنصورة إلى قيام الساعة أي: المؤيدة على من خالفها بالحجة والبيان إلى أن تقوم الساعة ، أي ساعة موتهم . وسميت هذه الطائفة منصورة لأنهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى كما أخبر بذلك النبي ﷺ[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٠) في الإمارة . باب: قوله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ...» عن ثوبان رضي الله عنه .

(٢ ، ٣ ، ٤) سبق تخريجه .

. . . .

أهل السنة : السنة لغة : الطريقة أو السيرة .

واصطلاحًا لها عدة تفسيرات : **الأول** : هي أحاديث الرسول ﷺ .

و **الثاني** : الأعمال المستحبة أو التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها ، والمقصود بها هنا هي الطريقة المحمدية التي قال فيها عليه الصلاة والسلام في بيان الفرقة الناجية : « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** »[1] .

الجماعة أي : المجتمعون على الحق ، ولو كانوا قليلاً بالنسبة إلى غيرهم ، ولو كثر أعداؤهم وخصومهم . هؤلاء هم أهل السنة .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية [2] :

هَذَا وسَادسُ عشرِها إجماعُ أهـ ـلِ الحقِّ أعني شيعة الرضوان

منْ كُلِّ صَاحِبِ سنة شَهِدَتْ لَهُ أهْلُ الحديثِ وعَسْكَرُ القرآن

لا عبرة بمخَالفٍ لهم ولو كانوا عَديد الشاء والبعران

فقد يوجد من يخالفهم في كثير من الأزمنة ، ولكن لا عبرة بهم . وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ » .

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع ، فأهل البدع كالجهمية متفرقون ، والمعتزلة متفرقون ، وغيرهم ممن ليس على الحق متفرقون . أما أهل السنة والجماعة فهم دائمًا مجتمعون حتى وإن حصل بينهم خلاف فإنه خلاف لا يؤثر ولا يضر ؛ بل يعذر بعضهم بعضًا حيث إنه خلاف بالدليل ،

---

(١) سبق تخريجه ص٥٩ .

(٢) انظر الكافية الشافية لابن القيم (النونية) ص ١١٩ . الأبيات رقم (١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠).



. . . .

ولا يضلل بعضهم بعضًا ، فتتسع صدورهم لهذا الخلاف .

فأهل السنة والجماعة حقًا هم الذين اعتقدوا واعتمدوا على ما جاءهم عن الله وعن رسوله ، وتقبلوه بدون تردد ، ولم يغيروا ولم يبدلوا شيئًا من ذلك ، ولم يبتدعوا ، ولم يجعلوا مرجعهم الأول والأخير هو العقل ، بل جعلوا ما جاء في الكتاب والسنة هو الحكم وهو المرجع وردوا ما خالفه .

ويدخل في أهل السنة والجماعة : الصحابة ، فإنهم أئمة أهل السنة والجماعة ، فإنه لم تظهر فيهم ولا بينهم بدعة .

ويدخل فيهم ـ أيضًا ـ : جلُّ التابعين وهم تلاميذ الصحابة إلا من انحرف منهم ، كالخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه ، وهم كلابُ أهل النار[١] ، وكالقدرية مجوس هذه الأمة ، والجهمية وإن كانوا قلة في ذلك الوقت .

ويدخل فيهم أيضًا : جل أتباع التابعين ، فإن أتباع التابعين ـ غالبًا ـ كلهم متمسك بالكتاب والسنة .

وقد كانوا في القرن الثاني ، وأدرك قليل منهم القرن الثالث .

ويدخل فيهم أيضًا : الأئمة الأربعة ؛ الإمام أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . وهؤلاء كلهم داخلون في مسمى أهل السنة والجماعة ، بل هم أئمة السنة .

ويدخل فيهم أيضًا الأئمة المقتدى بهم ، وهم علماء الأمة ، الذين اشتهرت كتبهم وتلقاها المسلمون بالقبول ، كالإمام البخاري صاحب الصحيح ، والإمام مسلم صاحب الصحيح ، والإمام أبي داود صاحب السنن ،

---

(١) لحديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الخوارج هم كلاب النار» . أخرجه ابن ماجه برقم (١٧٣) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٥٥) ، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٢٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٨) . وانظر المشكاة للألباني (٣٥٥٤) ، والسنة لابن أبي عاصم (٩٠٤) و (٩٠٥) .

....

والإمام الترمذي صاحب السنن ، والإمام النسائي صاحب السنن ، والإمام ابن ماجه صاحب السنن ، وغيرهم كثير من أصحاب الكتب المعروفة ، وتلاميذهم ومشايخهم ، كل هؤلاء من أهل السنة .

قولهم : السلف أسلم ، والخلف أعلم وأحكم :

ثم بعد ذلك في أكثر القرن الثالث وما بعده خبت أصوات السنة وضعفت ، وانتشرت البدع، وظهر المبتدعة ، وراجت أسواقهم ، فظهرت مقالة خبيثة وانتشرت بين الناس ، وهو قولهم : **(طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم)** .

ويقصدون بطريقة السلف : الإيمان بآيات وأحاديث الصفات على ما جاءت عليه ، بدون التعرض لتكييفها ولا تمثيلها ولا تأويلها .

ويريدون بطريقة الخلف : الخوض في معانيها وتحريفها (ويسمونه تأويلًا).

فزعموا أن الخلف أولوها حتى حملوها على محامل مستساغة في نظرهم ، وأن السلف سكتوا عن الخوض في معانيها وقرءوها كما جاءت وأبقوها على ما هي عليه .

فيقولون : السلف أسلم؛ حيث إنهم ما تكلموا ؛ بل فوضوا علم ذلك إلى الله ، والخلف أعلم وأحكم؛ حيث أوتوا من العلم ما أزالوا به الشبهة وردوا على المخالف .

والجواب عن ذلك بأن يقال :

إن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم ، فإن السلف ليس كما تظنون أيها المتأخرون يقرؤون ألفاظًا جوفاء ليس لها معاني، بل السلف يقرؤونها ويعلمون معانيها ، ويعتقدون مدلولها ، إلا أنهم لا يشبهون الله بخلقه ، ولا

. . . .

يعطلون أسماءه وصفاته ، ولا يقولون : إن ظاهر هذه الأسماء والصفات كفر ، وإنها تقتضى التشبيه ، بل يعرفون أنها دالة على صفات حقيقة ، إلا أنها ليس كصفات المخلوق ، بل هي صفات تليق بالخالق جل وعلا .

فقد شبه هؤلاء المتأخرون السلف الصالح بالأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]. يعني إلا تلاوة، والسلف ليسوا كذلك ، بل عندهم معرفة وفهم وإدراك للحقائق ، ولهذا فإنهم - رحمهم الله - قرءوا النصوص التي جاءت ، وفهموا معناها ، وبينوها للناس أحسن بيان .

ومن قرأ كتب السلف وأئمة أهل السنة والجماعة عرف ذلك . ولنضرب على ذلك مثلين :

أحدهما : الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي وهو عالم جليل من أهل الشام ممن أدرك التابعين . يقول - رحمه الله - : كنا والتابعون متوافرون نقول بأن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما جاءت به الآيات من الصفات .

فهذا دليل على أن أئمة السلف يؤمنون بمدلول هذه الآيات من العلو والفوقية، ونحوها .

والثاني : الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك العالم الجليل - من أهل خراسان - قيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ فقال رحمه الله : نعرفه بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه كما يليق به ، ولا نقول كما تقول الجهمية .

وهذا دليل آخر على أن السلف كانوا يؤمنون بمدلول هذه الآيات ، وكذلك ما وقع من بعض الأئمة ، لما أتي بمبتدع بل زنديق كان قد عرف بالزندقة ، ثم

. . . .

أظهر التوبة - بعد ذلك - لما جاء به ليستتيبه .

قال له : أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ، فقال ذلك الزنديق : أشهد أن الله على عرشه ، ولا أدري ما بائن من خلقه ، فقال : ردوه إلى السجن ، فإنه لم يتب . وأشباه ذلك كثير .

فمن هذا نعرف أن طريقة السلف أعلم وأحكم ، فإنهم يقرءون النصوص ويؤمنون بمعناها ، إلا أنهم ينفون عنها التحريف والتشبيه .

أما الخلف الذين يزعمون أنهم أعلم وأحكم ، فهؤلاء أهل الكلام الذين كثر في مسائل الدين اضطرابهم . أولئك المتكلمون الذين أخذوا أو ورثوا علم الكلام عن اليونان وعن الفلاسفة ، وأخذوا عن أهل الكتاب ونحوهم ، ثم دسوا ذلك في الإسلام ، ثم تقعروا وأطالوا البحث في ذلك ، فكانت نهايتهم الشك والحيرة والاضطراب ، ولهذا قال بعضهم : أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام [1] ؛ لأنه يموت أحدهم وهو على غير عقيدة .

روي أن أحدهم دخل عليه بعض العامة وهو على فراش الموت ، فقال : لذلك العاصي : ما تعتقد ؟ فقال : أعتقد أن الله ربي ، وأنه على عرشه ، وأنه بائن من خلقه ، وأنه كذا وكذا .

عند ذلك قال له ذلك المتكلم : هنيئًا لك ، لكني والله ما أدري ما أعتقد؟! وأخذ يكرر ويردد قوله : ما أدري ما أعتقد حتى غشي عليه ومات وهو لا يدري ماذا يعتقد ، ومثله ما نقل عن الجويني صاحب « الورقات» ، أنه قال :

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى ص ١٥ .

....

لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم تدركني رحمة ربي فالويل لي . وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي[(١)] . وفي رواية : وها أنا أموت على عقيدة عجائز نساء نيسابور . لأنه من أهل نيسابور في إيران .

ومثلهم أبو حامد الغزالي المشهور صاحب كتاب إحياء علوم الدين ، هذا العالم كان في أول أمره مشتغلًا بالفلسفة وعلم الكلام ، حتى تمكن ذلك العلم منه ، وفي أواخر حياته أراد التخلص منه فصعب عليه ذلك ، مع أنه رد على الفلاسفة في كتاب مطبوع بعنوان (تهافت الفلاسفة) ، ولكنه خاض في علم الفلسفة فبقي في قلبه شيء من آثار تلك العلوم التي خاض فيها . ثم ندم فيما بعد على اشتغاله بتلك العلوم ، وقد ذكروا أنه -رحمه الله- مات وصحيح البخاري على صدره ، ونرجو من الله تعالى أن يتوب عليه .

ومثله أيضًا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير المشهور . وله أيضًا كتاب في العقيدة اسمه (تأسيس التقديس) الذي رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب اسمه (نقض التأسيس) .

فهذا العالم الكبير المشهور كان قد تبحر وتقعر في علم الكلام ، وبحث فيه وخاض غماره ، حتى وقع فيما وقع فيه من قبله .

---

(١) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى (ص١٥) .

. . . .

يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروي غليلاً ، ولا تشفي عليلاً ، ورأيت أقرب الطرق هي طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات: ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [طه: ٥] ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ [القصص: ٨٨]، واقرأ في النفي : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾ [طه: ١١٠] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » ثم قال :

نهاية إقـــدام العقـــول عقـالُ وأكثـر سَعْـيِ العالمـين ضـــلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغـــايـة دنيانـــا أذى ووبـــال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعـنا فيه قيل وقالوا[1]

فعرفنا بذلك أن هؤلاء الذين يزعمون أن طريقة السلف أسلم وطريقتهم أعلم وأحكم ، أنهم هم أهل الحيرة والشك ، وأهل الريب والتردد ، فطريقة السلف هي الجامعة للأوصاف كلها ، فهي الأسلم والأعلم والأحكم .

والسلف رحمهم الله هم الذين ورثوا العلم ، وورثوا العمل، وورثوا العقائد الصحيحة عن الصحابة والتابعين ، فكانت عقائدهم سليمة صافية كما جاءت في الكتاب والسنة .

وليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا .

---

(١) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى ص ١٥ .

. . . .

فعرفنا بذلك أن طريقة السلف هي التمسك بالوحيين ، والسير على منهاجهما سواءً في القول أو في العمل .

ثم طريقتهم بلا شك هي المثمرة ، فإنك متى عرفت الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كانت النتيجة من ذلك أنك تطيعه ، وأنك تعبده ، ومتى عرفت الرسل ووظائفهم ، كان نتيجة هذه المعرفة هي أنك تتبعهم وتسير على نهجهم، ومتى عرفت القرآن وحرمته ، وأنه منزل من لدن حكيم حميد ، كان نتيجة ذلك أنك تتلوه حق تلاوته ، وتصدق ما جاء فيه من الأخبار السابقة واللاحقة وأحكامه .

فطريقة السلف هي المثمرة لسعادة الدارين ، أما طريقة هؤلاء فإنها تضعف تصديقهم بالأمور الغيبية ، فيقل انتفاعهم بالقرآن والسنة ، فتقل أعمالهم وامتثالهم لأوامر الله ؛ لأن الأعمال تعتمد على العقيدة ، فإذا كانت العقيدة راسخةً في القلوب ، أثر ذلك في الجوارح ، فعملت بطاعة الله، ومتى رأيت من يعصي الله ويجاهر بذلك ، فإن ذلك يدل على ضعف عقيدته ، وأنه ما عرف الله حق معرفته بآياته ومخلوقاته ، ما عرف عظمة من يعصيه ، ما عرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكماله وجلاله وكبريائه وعظمته ، ما عرف واعتقد أن الله يثيب الطائع ويعذب العاصي . أو أنه عرف ذلك ولكنه لم يستحضره، وذلك لضعف عقيدته ولضعف إيمانه .

فعرفنا بذلك أهمية معرفة العقيدة الصحيحة السلفية ، عقيدة السلف الصالح، وأن أصحاب هذه العقيدة هم أهل السنة والجماعة ، وهم الفرقة

. . . .

الناجية والطائفة المنصورة الفائزة بسعادة الدارين ، الناجية من العذاب يوم القيامة ، والمنصورة في الدنيا قبل الآخرة . نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وأن يحشرنا في زمرتهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



أركان الإيمان الستة

[وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ].



■ قوله: (وهو الإيمان بالله، وملائكته ...):

بعدما ذكر المصنف رحمه الله هذه المقدمة الموجزة ، شرع في ذكر أركان الإيمان على وجه الإجمال. فذكر الأركان الستة المشهورة والتي ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى : ﴿ ليس البرَّ أن تُولُّوا وُجُوهكُمْ قبل الْمشْرق والمغْرب ولكنَّ الْبرَّ منْ آمن بالله والْيوْم الآخر والْملائكة والْكتاب والنبيين﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

وقوله تعالى : ﴿ومن يكْفُرْ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيدا﴾[النساء: ١٣٦].

هذه خمسة أركان، والسادس ذكره الله في قوله: ﴿إنَّا كُلَّ شيْءٍ خلقْناهُ بقدرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد ذكرها النبي ﷺ في سنته في حديث جبريل المشهور عندما سأله عليه السلام عن الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : «الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1] .

(١) حديث جبريل أخرجه مسلم مطولاً من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه برقم (٨) في الإيمان ، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان...» وهو متفق عليه بنحوه مختصراً من حديث أبي هريرة. أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩).

. . . .

الركن الأول : الإيمان بالله :

الإيمان: لغة : هو التصديق الجازم .

وشرعًا : هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان.

وحقيقة الإيمان بالله هو بأن تعتقد اعتقاداً جازمًا بوجود الله تعالى ، وبأنه هو المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العلى ، ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى ، فتؤمن بأن الله سبحانه وتعالى موجود ، وأنه هو المتفرد بالخلق والرزق والملك والتدبير ، وأنه هو المنعم الحقيقي سبحانه وتعالى.

ثم كذلك : تعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الله هو الإله الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، فهو المستحق للعبادة وحده لاشريك له ، ولا يجوز صرف نوع من أنواع العبادات لغيره فلا تصح العبادة إلا له جل وعلا .

ثم كذلك تعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الله تعالى هو المتفرد بالأسماء الحسنى التي سمى بها نفسه في كتابه ، أو سماه بها رسوله ﷺ في سنته وأنه كذلك متفرد بالصفات العلى التي وصف بها نفسه في كتابه ، أو وصفه بها رسوله في سنته، وأن هذه الأسماء والصفات على حقيقتها . وبهذه الأمور يكون العبد قد حقق الإيمان المطلوب .

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

أي أن تعتقد اعتقادًا جازمًا بوجود الملائكة بأسمائهم وأعمالهم التي وصفهم الله بها في كتابه ، ووصفهم بها رسوله ﷺ في سنته .

. . . .

ومن أكبر أوصافهم : ما ميزوا به من القوة الشديدة . وقد ذكر الله بعض الملائكة بأسمائهم في القرآن الكريم ، منهم جبريل وميكال في قوله تعالى : ﴿ من كَانَ عدُوًا لِّلَّه وملائكته ورُسُله وجبْرِيل وميكال فإنَّ اللَّه عدُوٌّ لِّلْكَافرِين ﴾ [البقرة: ٩٨]. وذكر مالكًا عليه السلام خازن النار في قوله تعالى : ﴿ ونادوْا يا مالكُ ليقْضِ علينا ربُّك ... ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وذكر النبي ﷺ في سنته بعض الملائكة بأسمائهم منهم جبريل وميكال وإسرافيل في قوله ﷺ في دعاء الاستفتاح في قيام الليل : «**اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل**»[1] الحديث.

ومنكر ونكير ذكرهما ﷺ في حديث عذاب القبر في قوله ﷺ : « **فيأتيه منكر ونكير**»[2] .

وأما ملك الموت الموكل بقبض أرواح العباد فلم يثبت عن النبي ﷺ بسند صحيح ولا حسن أن اسمه عزرائيل.

وأما عن أعمال الملائكة ووظائفهم فهي كثيرة جداً ، فما من حركة عظيمة في السماء ولا في الأرض ـ كحركات الأفلاك والشمس والقمر والسحاب والنبات ـ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين . باب: «الدعاء في صلاة الليل وقيامه». عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٠٧١) في الجنائز، باب: «ما جاء في عذاب القبر». وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وصححه الحاكم (٧٨٠). وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٩١): إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم. وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لايضر. وقال في تحفة الطحاوية (٥٢٨): إسناده حسن. وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين بـ: «المنكر» و«النكير». وانظر المشكاة (١٣٠).



....

إلا وتصدر من الملائكة بأمر الله تعالى ، ونذكر بعضهم على وجه الاختصار ، فمنهم :

١- جبريل أو جبرائيل - عليه السلام -: وهو الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣، ١٩٤].

٢- ومنهم ميكائيل أو ميكال - عليه السلام - : وهو الموكل بالقطر - المطر - من السماء ، فقد سأل النبي ﷺ جبريل ، فقال له : «**على أي شيء ميكائيل ؟ قال : على النبات والقطر** »(١) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس .

٣- ومنهم إسرافيل - عليه السلام -: وهو الموكل بالنفخ في الصور ، ينفخ فيه ثلاث نفخات . قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟** »(٢) ، رواه أحمد والترمذي ، من حديث أبي سعيد الخدري .

٤- ملك الموت وأعوانه - عليهم السلام - وهو الموكل بقبض الأرواح ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : ١١] الآية .

٥- ومنهم الملائكة المعقبات : وهم الموكلون بحفظ العبد في جميع

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠) رقم (١٢٠٦١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٣٢ ، ٤٣٣) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢) ، وقال : فيه محمد بن أبي ليلى ، وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٣١) في صفة القيامة ، باب : (ما جاء في شأن الصور) ، وأحمد في المسند (٣/ ٧) وقال الترمذي : حسن.

. . . .

الأحوال قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] الآية.

٦ ـ ومنهم الكرام الكاتبون : وهم الموكلون بحفظ وكتابة عمل العبد من خير أو شر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢] وقال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨].

٧ ـ ومنهم منكر ونكير : وهم الموكلون بفتنة القبر .

٨ ـ ومنهم خزنة الجنة : ومقدمهم رضوان عليه السلام : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ ، ٢٤].

٩ ـ ومنهم خزنة جهنم : ومقدمهم مالك عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ [غافر: ٤٩] الآية .

وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠].

١٠ ـ ومنهم حملة العرش: وهم الذين يحملون العرش بأمر الله تعالى . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [غافر: ٧] الآية .

. . . .

وقال: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

١١ ـ ومنهم ملك الجبال: وهو الملك الموكل بالجبال الذي ورد في الحديث المشهور في دعوة النبي ﷺ لأهل الطائف فقال ملك الجبال للنبي ﷺ: «**إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟**»[1].

١٢ ـ ومنهم الملائكة السياحون، الذين يتتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: «**هلموا إلى حاجتكم...**»[2] كما في الحديث. وفي قول النبي ﷺ في الحديث المشهور: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله... إلى قوله: وحفتهم الملائكة**»[3]. الحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وغيرهم من الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ ممن لم يطلعنا الله ولا رسوله ﷺ على وظائفهم، فيجب علينا أن نؤمن بهم على وجه الإجمال، ونؤمن بمن ذكرنا أسماءهم على وجه التفصيل.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٣١) في بدء الخلق، باب: «إذا قال أحدكم آمين...». ومسلم برقم (١٧٩٥) في الجهاد والسير، باب: «ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين» عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٠٨) في الدعوات، باب: «فضل ذكر الله عز وجل». ومسلم برقم (٢٦٨٩) في الذكر، باب: «فضل مجالس الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب: «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر».

. . . .

وجميعهم: ﴿ عبادٌ مُكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] ﴿ يُسبحُون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم: ٦].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

يعني الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله. والكتب: جمع كتاب، وهو يدل على معنى الجمع والضم ومنه سميت الكتيبة بذلك.

والمراد بها هنا: الكتب التي أنزلها الله على رسله ليبلغوها للناس، وقد تكلم الله بها حقيقة، فيجب الإيمان بما سمى الله منها على وجه التفصيل، وهي صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

ويجب الإيمان بما لم يسم الله منها على وجه الإجمال.

وكذلك يجب الإيمان بالرسل الذين أنزلت معهم هذه الكتب، وهم كالتالي:

١ - **إبراهيم** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزلت عليه الصحف العشر الأولى.

٢ - **موسى** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزلت عليه التوراة.

٣ - **عيسى** - عليه الصلاة والسلام - وقد أنزل عليه الإنجيل.

. . . .

---

٤ ـ داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أنزل عليه الزبور .

٥ ـ محمد ﷺ وقد أنزل عليه القرآن الكريم .

الركن الرابع : الإيمان بالرسل :

أي الإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً إلى الناس وأنزل معهم الشرائع ، وفرض طاعتهم والتصديق بما جاؤوا به من الحق ، وأنزل عليهم الكتب وهي من كلامه سبحانه وتعالى .

فيجب الإيمان بهم على وجه الإجمال ، والإيمان بمن سمى الله منهم على وجه التفصيل ، وقد ذكر الله تعالى منهم في القرآن الكريم خمسة وعشرين فردًا ، وورد في السنة أن عدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر ، وأن عدد الأنبياء يزيد على العشرين ألفًا ، كما ورد ذلك في حديث[1] .

ويجب الإيمان بأن كل نبي ورسول كان يبعث إلى قومه خاصة، وأن نبينا محمدًا ﷺ بعث إلى الناس عامة ، لقوله ﷺ : «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[2] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية. وقال تعالى : ﴿وما أرسلناك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٧٨ ، ١٧٩) ، وهو من رواية عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر . قال البخاري : ولم يذكر سماعًا من أبي ذر .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٥) في التيمم، باب: «١». ومسلم برقم (٥٢١) في المساجد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

. . . .

إلاَ كافةً للناس بشيرا ونذيرا ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويجب الإيمان بأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين لقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وغيرها من الآيات ، ولقوله ﷺ : « أنا خاتم النبيين»[1] ، وفي لفظ : « جئت فختمت الأنبياء»[2] .

وكما نؤمن بأنه خاتم النبيين فإننا نؤمن بأن شريعته خاتمة الشرائع ، وأن دينه خاتم الأديان ، وبه نسخت جميع الأديان ، ولا يقبل الله من أحد دينًا إلا هو ، قال تعالى : ﴿ ورضيتُ لكُمُ الإسْلام دينا ﴾ [المائدة: ٣]، وقال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقْبل منهُ وهُو في الآخرة من الْخاسرين ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكذا القرآن الكريم ، فإن الله أنزله مهيمنًا على الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿ وأنزلْنا إليْك الكتاب بالْحق مُصدقًا لما بين يديْه من الْكتاب ومُهيمنا عليْه ﴾ [المائدة: ٤٨]. الآية.

ويجب الإيمان بأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ كغيرهم من سائر البشر ، يعتريهم ما يعتري البشر من الأمراض والشهوات ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٣٥) في المناقب ، باب: «خاتم النبيين». ومسلم برقم (٢٢٨٦) [٢٢] في الفضائل ، باب: «ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٨٧) في الفضائل. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

وأنهم يتزوجون، ويأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وأنهم لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] .

وغير ذلك من الأمور المعروفة .

الركن الخامس : **الإيمان بالبعث** :

البعث في اللغة: هو الإثارة والتحريك .

وفي الاصطلاح : هو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة للقضاء والجزاء .

ولم يقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (الإيمان باليوم الآخر)، كما ورد في الحديث ، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن اليوم الآخر قد يقر به بعض الناس مع عدم إقراره بالبعث الحقيقي للأجساد بعد الموت ، كبعض الفلاسفة ؛ حيث إنهم يؤمنون باليوم الآخر ، ولكنهم لا يقرون بالبعث الحقيقي الذي هو بعث الأجساد وحشرها ونشرها ، لأنهم يزعمون أن البعث والجزاء والحساب يكون على الأرواح فحسب ، وأن الأجساد لا تبعث مرة أخرى ؛ لأنها قد بليت .

فيجب الإيمان والتصديق الجازم بأن الله يبعث الناس من قبورهم أحياءً يوم القيامة ، ليجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، أو يعفو عنه سبحانه وتعالى ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

....

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره :

القدر : لغة : هو الإحاطة بمقادير الأمور .

واصطلاحًا : هو علم الله تعالى بمقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ثم إيجادها .

فيجب الإقرار والتصديق الجازم بعلم الله الأزلي الشامل لكل ما كان ويكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

فهو سبحانه العليم الذي شمل علمه الغيب والشهادة ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وهو الحكيم الذي يحكم الأمور ويتقنها ، ويضع الأمور في مواضعها ، قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

وسيأتينا الكلام مفصلًا عن القدر وعن مراتب القدر عند قول المؤلف رحمه الله تعالى : (وتؤمن الفرقة الناجية - أهل السنة والجماعة - بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر على درجتين ...) إلى آخر كلامه رحمه الله .

فهذه الأركان الستة - وهي أركان الإيمان - من الأمور الغيبية التي يجب على المؤمن أن يعتقد وجودها ، ويقر بها إقرارًا كاملًا ، ومن أنكرها أو أنكر واحدًا منها فهو كافر بالله العظيم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦].

والبحث في ذلك معرفة وتفصيلًا يسمى بعلم العقائد ، فمنه ما يتعلق بالتوحيد بأنواعه الثلاثة ، ومنه ما يتعلق بالشرك وأنواعه الثلاثة ، ومنه البحث فيما يتعلق باليوم الآخر وتفاصيله ؛ لأنه من الأمور الغيبية ، ومنه البحث في أخبار الأمم السابقة ، يعني : معرفة ما أخبر الله به وأخبر به رسله عن الأمم السابقة، ودعوة رسلهم لهم وما حل بهم من العذاب لعصيانهم وتكذيبهم .

فهذه الأمور مما لا يعلمها إلا الله ، فإذا جاءت في الكتاب والسنة فيجب علينا التصديق بها ، فصارت من العقائد الغيبية . وكذلك معرفة أركان الإيمان الستة التي مضى الكلام عليها ، وهكذا كلام العلماء - رحمهم الله - في القرآن ، وأنه كلام الله... إلخ . كل ذلك داخل في العقائد ، وقد سمي بعلم العقائد ؛ لأنه مما يعقد عليه القلب ، فيثبت فيه ولا يتزعزع ؛ لأن العقد هو الشد والإحكام والربط .

ثم ركز الأئمة في تصانيفهم في العقائد على الصفات - صفات الله سبحانه - وذلك لكثرة الخلاف فيها ، وإن كان قد حصل الخلاف في غيرها مما ذكرناه أو لم نذكره ، فوقع الخلاف في البعث بعد الموت مع الفلاسفة ، ووقع الخلاف في الأسماء والصفات مع المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم .

وسيأتينا تفصيل ذلك فيما يلي .

* * *

مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته إجمالاً

[وَمِنَ الإيمَان باللَّهِ الإيمَـانُ بمَا وَصَفَ اللَّهُ به نفْسَهُ في كِتَابه، وبما وَصَفَـهُ رَسُـولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ ولا تعْطِيـلٍ ، ومِنْ غَيْـرِ تكْيِيفٍ وَلاَ تمْثِيلٍ ،بَلْ يُؤْمنُونَ بأنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ﴿ليْس كمثْله شيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ﴾] [الشورى: ١١].



▪ قوله: (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه رسوله محمد ﷺ):

هذا الكلام يتعلق بمسألة الإيمان بالصفات ، فإن منهج أهل السنة في ذلك أنهم يثبتون من الصفات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه ، وما أثبته له رسوله ﷺ في سنته ، بخلاف الذين جحدوا صفات الله تعالى؛ كالجهمية وغيرهم من المبتدعة ، فجحدوا أن الله سميعٌ ، وأنه بصير ، وأنه عليم ، وأنه متكلم ، وأنه . . . إلخ .

فقالوا : سميع بلا سمع ، عليم بلا علم ، بصير بلا بصر . . . إلخ .

ووصفوه بالعدم المحض، فرد عليهم أهل السنة والجماعة ، وقالوا لهم : إنكم لم تؤمنوا بإله معبود موصوف بصفات الكمال ، بل آمنتم بإله معدوم ليس له صفات ، والواجب عليكم أن تثبتوا ما أثبته لنفسه من الصفات العلى، وتنزهوه سبحانه عن النقص .

فإن صفات الله تعالى مصدرها الكتاب والسنة، فإن الله تعالى أعلم



. . . .

بنفسه، ورسولُه ﷺ أعلم بمن أرسله، وهو الله تعالى فلا يثبت له من الصفات إلا ما أثبتها لنفسه .

وإذا آمنا بالصفات فيجب علينا الإيمان بمدلولها ، فإذا آمنا بأن الله سميع عليم ، حَمَلَنَا ذلك على أن نخافه ولا نعصيه ، لأنه يسمع ويعلم مانقول ونعمل .

وإذا آمنا بأن الله بكل شيء عليم ، حملنا ذلك على أن نطيعه ونعبده حق عبادته ، ولا نفرط في ذلك ؛ لأنه عالم بكل تصرفاتنا وأحوالنا سبحانه . قال تعالى : ﴿ونَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[ق: ١٦] فيكون المؤمن خائفًا من محاسبة الله له على ما يجول في نفسه ، وما توسوس به نفسه .

وإذا آمنا بأن الله بصير، حملنا ذلك على خشيته في السر والعلانية، في الغيب والشهادة ؛ لأنه يرانا على كل حال ، فكيف نعصيه مع علمنا باطلاعه علينا ، وأنه يرانا سبحانه . قال تعالى :﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

وإذا آمنا بأن الله على كل شيء قدير، حملنا ذلك على أن نخافه أشد الخوف، لأننا نعلم أنه قادر على أن يعذبنا ، وقادر على أن يبطش بنا ، فهو - سبحانه - قادر على أن ينتقم ممن عصاه ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وهكذا آثار هذه الصفات نؤمن بها ، ونتجنب طريق الذين يحرفونها

. . . .

ويلحدون فيها ، ويكيفون أو يشبهون ، أو يعطلون أو نحو ذلك .

■ قوله : (**من غير تحريف ولا تعطيل**) :

التحريف : هو تغيير اللفظ عن ظاهره ومدلوله، وهو على قسمين :

الأول : تغيير اللفظ عن ظاهره مثل قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] . قالوا : إن معنى « استوى » أي استولى ، فزادوا حرفًا ، وكقوله تعالى : ﴿ **وجاء ربُّك والْملَكُ** . . . ﴾ [الفجر : ٢٢] الآية ، قالوا : معناها وجاء أمر ربك فزادوا كلمة . فهذا كله من التحريف الذي ما أنزل الله تعالى به من سلطان .

النوع الثاني : تحريف المعنى وهو صرفه عن حقيقته ، كقول بعض المبتدعة : إن معنى الرحمة : إرادة الإنعام، أو قولهم : إن اليد معناها النعمة والقدرة .

وهم يسمون كل ذلك تأويلاً ، ويعرفون التأويل بأنه : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يقترن به، ولكنه في الحقيقة تحريف ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ [النساء : ٤٦] ويكون فاعله قد شابه اليهود في تحريفهم للتوراة ، فيعرض نفسه لغضب الله تعالى ، ولكنه لا يكفر إلا إذا جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة . فأهل السنة يتجنبون هذا التحريف الذي سماه أهله تأويلاً .

. . . .

والتعطيل : هو الإخلاء ، فكأنهم ـ المعطلة ـ أخلوا الله تعالى من أسمائه الحسنى أو من مدلولها ، حيث أثبتوا الأسماء ونفوا ما تضمنته من الصفات ، فقالوا : إنه سبحانه : سميع ، ولكن بدون سمع ، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم ، فكأنهم بفعلهم ذلك نفوا الأسماء والصفات جميعًا .

وأما أهل السنة فإنهم يثبتون لله تعالى جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، التي أثبتها الله لنفسه في كتابه وأثبتها رسوله ﷺ في سنته على حقيقتها كما يليق بالله تعالى .

■ **قوله: (ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾)** :

التكييف : هو جعل كيفية للشيء ، فقد جعل المكيفون لصفات الله تعالى كيفية محددة معلومة ، ويقولون : إنهم علموا كيفية الصفات التي أخبرهم عنها سبحانه في كتابه .

وأهل السنة لا ينفون وجود كيفية لصفات الله تعالى ، ولكنهم ينفون العلم بالكيفية ؛ لأن الله تعالى لم يطلعنا عليها .

وكذلك فإن أهل السنة ينكرون على من سأل عن الكيفية مجرد سؤال ، ولذلك ورد عن الإمام مالك رحمه الله أنه سُئل عن كيفية الاستواء ، فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . . . إلخ ، وأمر بذلك السائل فأخرج من مجلسه .

والتمثيل : هو إثبات مماثلة الله للمخلوقين بشيء من صفاته ، وقد رد الله

. . . .

تعالى عليهم بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه رد على الممثلة الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه . وقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة النفاة ، الذين نفوا صفات الله تعالى .

والمقصود أن إثبات أهل السنة للصفات على حقيقتها لا يقتضي التشبيه ولا التمثيل ولا التكييف ولا التعطيل ، لأنهم أثبتوا ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ووصفوا الله تعالى بأنه لا سمي له ، ولا شبيه له ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه ، ووصفوه بأنه أصدق قيلاً ، وأحسن حديثًا من خلقه ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وكذلك فإن نفي أهل السنة عن الله تعالى مشابهة المخلوقين لا يعني تعطيل أسماء الله وصفاته كما فعله المعطلة ؛ لأن الله تعالى أعلم بنفسه وأعلم بغيره ، فإذا وصف نفسه فهو أعلم بما وصفها به، وكذلك رسوله ﷺ هو أصدق الناس ، والله تعالى الذي أرسله هو أعلم به ، فقد اختاره واصطفاه من عباده لتبليغ رسالته .

والحاصل أن القاعدة الجامعة لمذهب أهل السنة ؛ هي أنهم يثبتون أسماء الله وصفاته على حقيقتها كما يريد الله تعالى ، من غير وقوع في التحريف أو التعطيل أو التكييف أو التمثيل .

وكذلك فإنهم كما يثبتون الأسماء والصفات ، فإنهم يثبتون مدلولها

. . . .

وأثرها على العبد ، فإذا أثبتنا أن الله تعالى سميع ، فلابد من إثبات صفة السمع له سبحانه ، وإذا أثبتنا له جل وعلا هذه الصفة ، فإنه يجب علينا أن لا ننطق ولا نتكلم إلا بخير ، لعلمنا واعتقادنا بأن الله سميع، وكذلك فإننا ندعوه تعالى بهذا الاسم بإخلاص وصدق ويقين ، وكذلك إذا آمنا بأن الله رحيم يرحم عباده ، فإننا نرجو رحمته وندعوه بذلك ، وإذا آمنا بأن الله قدير ذو قدرة عظيمة ، فإننا نجتنب ونبتعد عن معاصيه، لأنه قادر سبحانه على أن يبطش بنا ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى . وإذا آمنا بأنه سبحانه يغضب إذا انتهكت محارمه ، فإن ذلك يجعلنا حذرين من أسباب غضبه التي أخبر عنها وحذرنا منها ، وهي في الجملة معصية أمره ، والإصرار على ذلك . وهكذا إذا آمنا بأنه يلعن من يشاء من أهل معصيته ثم يعذبه عذابًا عظيمًا ، كقوله : ﴿ ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذابا عظيما ﴾ [النساء: ٩٣] ، ﴿ وأعدَّ لهُمْ جهنَّم وساءتْ مصيرا ﴾ [الفتح: ٦] .

إذا آمنا بذلك، دفعنا إيماننا إلى الابتعاد عن أسباب اللعن وأسباب العذاب، وإذا آمنا بأن الله يرضى عن عباده المؤمنين كقوله : ﴿ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضُوا عنْهُ ذلكَ لمَنْ خشيَ ربَّهُ ﴾ [البينة: ٨] دفعنا ذلك إلى عمل الصالحات ابتغاء مرضاة الله ، ودعائه سبحانه بأن يرضى عنا بأن يقول الواحد منا في دعائه : اللهم إني أسألك رضاك والجنة ، وأعوذ بك من سخطك والنار ، وما أشبه ذلك .

. . . .

وهكذا في بقية الصفات يجب علينا أن نثبت آثارها في العباد ، وبذلك تتضح أهمية العقيدة ، وأهمية دراسة الأسماء والصفات ، وذلك لما تتركه من أثر بليغ على من درسها وتأمل في معانيها .



[فَلا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلا يُمَثِّلُون صِفَاتِه بِصِفَاتِ خَلْقِهِ] .



هذا الكلام هو خلاصة مذهب أهل السنة في أسماء الله وصفاته .

■ **قوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) :**

أي أنهم لا ينفون عن الله سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه في كتابه الكريم ، أو ما وصفه به رسوله ﷺ في سنته المطهرة من الصفات العلى ، كما فعل ذلك المعطلة ، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات ، ولكن كما يريد سبحانه ، وكما يليق بكماله وجلاله .

■ **قوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) :**

أي كما أنهم لا ينفون الصفات بالكلية ، فإنهم كذلك لا يلجأون إلى تغيير كلام الله تعالى وإمالته عن موضعه ومعناه الصحيح ، بل يثبتونه ، وذلك بإمرار النصوص وإثباتها على ظاهرها ، وإمرار الصفات كما وردت ، من غير تغيير لها أو لمعانيها كما قال غيرهم - مثلاً - في قوله تعالى : ﴿ وجاء ربُّك والْملكُ صفًّا صفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] يقولون : إن معناها : «وجاء أمر ربك» ، وفي قوله تعالى : ﴿ وكلَّم اللَّهُ مُوسَىٰ تكْليماً ﴾ [النساء: ١٦٤] قالوا المعنى أن موسى هو الذي كلم الله ، فجعلوا « موسى» هو الفاعل ، ولفظ الجلالة «الله» هو

. . . .

المفعول به . وقال بعضهم : بل المعنى أن الله تكلم في الشجرة ، فتكلمت الشجرة مع موسى ونحو ذلك . وكقولهم في قوله تعالى : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة: ٦٤] قالوا: قوته ونعمته .

وغير ذلك من الآيات والصفات التي حرفها هؤلاء .

وأما أهل السنة فإنهم يثبتون جميع الصفات ويمرونها كما جاءت ، فيقولون في قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [الفجر: ٢٢] : هو مجيء الله سبحانه وتعالى بذاته للفصل بين العباد ، وهو مجيء حقيقي ، ولكنه يليق بكماله وجلاله .

ويقولون في قوله : ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤]: إن الله تعالى هو الذي كلم موسى، وأن هذا الكلام بحرف وصوت مسموع ، ولكن كما يليق بكماله وجلاله .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة: ٦٤]: إن لله تعالى يداً حقيقية تليق بكماله وجلاله ، لا تشبه أيدي المخلوقين ، ولا يعلم كيفيتها إلا الله عز وجل .

■ وقوله: **(ولا يلحدون في أسماء الله وآياته)** :

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها . اهـ[١] .

---

(١) بدائع الفوائد ص١٦٩ .



. . . .

ثم ذكر أنواع الإلحاد في أسماء الله تعالى ، فقال ما ملخصه :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبًا .

الثالث : وصفه تعالى بالنقائص ، كقول اليهود عنه : إنه فقير ـ تعالى الله عن قولهم ـ .

الرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول الجهمية : سميع بلا سمع ، عليم بلا علم ، وبصير بلا بصر . . . إلخ .

الخامس : تشبيه صفاته بصفات خلقه ، كقولهم : إن يد الله كأيدينا ، وسمعه كسمعنا ، ونحو ذلك .

وأما الإلحاد في الآيات : فهو الميل بها عن المعنى المراد ، يعني عن مقصود الله تعالى بها .

فأهل السنة بريئون من الإلحاد في أسماء الله تعالى ، ومن الإلحاد في آياته سبحانه .

■ قوله : **(ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه)** :

قد تقدم الكلام على ذلك مفصلاً .

. . . .

والخلاصة أنهم ينفون علم كيفية الصفات عن المخلوقين ، وكذلك فإنهم يمنعون من السؤال بكيف عن صفات الله تعالى ، ولا يمثلون ولا يشبهون صفات الله تعالى بصفات خلقه . فلا يقولون مثلاً : إن يد الله تشبه أيدينا ، أو تشبه يد فلان أو فلان . . . إلخ .

❁ ❁ ❁



[لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا سَمِيَّ لَهُ وَلا كُفْؤَ لَهُ وَلا نِدَّ لَهُ ، وَلا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وأصْدَقُ قِيلاً ، وَأحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ].



بعدما ذكر المصنف رحمه الله منهج أهل السنة في الأسماء والصفات ، وأنهم يثبتون لله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العلى على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، إثباتًا بلا تشبيه ولا تمثيل ، وينفون عنه النقائص والعيوب، نفيًا بلا تحريف ولا تعطيل ، علل ذلك المنهج المتوازن بالثناء على الله تعالى ، وأنه ليس كمثله شيء في أسمائه وصفاته .

■ قوله: (لأنه سبحانه لا سمي له):

أي لأنه سبحانه وتعالى لا نظير يساميه. قال تعالى : ﴿هلْ تعلمُ لهُ سميًا﴾ [مريم: ٦٥] .

■ قوله: (ولا كفؤ له):

أي لا مكافئ ومماثل له سبحانه في أسمائه التي بلغت الغاية في الحسن ، وصفاته التي بلغت الغاية في العلو والسمو ، قال تعالى : ﴿ولَمْ يكُن لَهُ كُفُوًا أحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] .

■ قوله: (ولا ند له):

أي لا شبيه له سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا للَّه أندادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] .

. . . .

ومعنى السمي والكفؤ والند متقارب ، وهو المثيل والنظير .

■ قوله: (ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى) :

أي أنه سبحانه لا يقاس بخلقه قياسًا يقتضي المساواة بينه وبينهم ؛ لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ؛ لأنه قياس مع الفارق العظيم بينه وبينهم ، فهو الإله الحق وما سواه عبد له .

وهو الخالق وغيره مخلوق ، وهو المتسمي بالأسماء الحسنى ، المتصف بالصفات العلى ، فلا يجوز قياسه على خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

■ قوله : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) :

أي أنه سبحانه وتعالى أعلم بذاته وبأسمائه وبصفاته وبأفعاله ، وكذلك فهو أعلم بخلقه ؛ لأنه هو الذي خلقهم وصورهم ورباهم بنعمه ، فكيف لا يكون الأعلم بهم؟! ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨] ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠] ، فعلم الله تعالى شامل وكامل لذاته سبحانه ولخلقه .

فهو أعلم بمراده من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي ذكرها في كتابه الكريم ، وذكرها رسوله محمد ﷺ في سنته المطهرة .

فكأن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول للمبتدعة : إذا كنتم تعلمون ذلك ،

. . . .

فلماذا تتقدمون بين يديه ، وتحرفون الكلم عن مواضعه ، وتلحدون في أسمائه وآياته ، وتمثلون وتشبهون صفاته بصفات خلقه ؟! .

■ قوله : **(وأصدق قيلاً)** :

أي وهو كذلك سبحانه أصدق من تكلم ، وليس بحاجة إلى أن يتكلم بغير الواقع - سبحانه وتعالى - قال تعالى : ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾ [النساء : ١٢٢] .

■ قوله : **(وأحسن حديثا من خلقه)** :

أي أن كلامه سبحانه - كذلك - أحسن كلام ، وكلامه بلا شك ولا ريب أحسن من كلام خلقه ؛ لأنه هو الذي خلقهم وهو الذي أنطقهم : ﴿ **ألم نجعل له عينين ۝٨ ولسانا وشفتين** ﴾ [البلد : ٨ ، ٩] .

فكلامه أحسن كلام ، وأوضح كلام ، وأبين كلام ، فيجب علينا أن نصدقه سبحانه تصديقًا تامًا فيما يخبر به عن نفسه أو عن خلقه ، فهو سبحانه ذو العلم التام الكامل الشامل بنفسه وبخلقه ، وهو أصدق قيلاً وأحسن حديثًا .

فمن وقع في تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل في أسماء الله تعالى وصفاته ، فإنه لم يقدر الله حق قدره ، ولم يعظمه حق تعظيمه ، ولم يتيقن أن الله أعلم بنفسه من خلقه ، وأنه أصدق قيلاً ، وأحسن حديثًا من خلقه ، والعياذ بالله من ذلك .

❁ ❁ ❁

[ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَـدَّقُونَ . بِخِـلافِ الَّذِيـنَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لا يَعْلَمُونَ]



▪ قوله : (ثم رسله صادقون مصدقون) :

أي أنه سبحانه هو أعلم برسله الذين أرسلهم إلى خلقه لتبليغ رسالته ، ووظيفتهم هي تبليغ رسالته إلى خلقه ، وقد اختارهم واصطفاهم على من سواهم من خلقه لاتصافهم بالصدق ، وهم مصدّقون : أي يجب على أممهم تصديقهم وقبول أخبارهم والتصديق بها ، ومن لم يصدقهم فهو كافر بالله العظيم ، وكذلك فإن الله صدَّق الرسل وأيدهم . قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦] .

وفي نسخة من الكتاب : (صادقون مَصْدوقون) فيكون المعنى : أنهم مصدوقون من قبل الله تعالى ومن قبل الوحي ـ جبريل عليه السلام ـ فكل ما أوحي إليهم فهو حق وصدق .

والحاصل : أنه يجب التصديق برسل الله وما جاءوا به من الشريعة ومن الأخبار على وجه العموم ، ولا يجوز قبول بعض أخبارهم دون بعض ، فإن من فعل ذلك فإنه لم يؤمن بالله ورسله حق الإيمان ، بل يكون ممن آمن ببعض

. . . .

وكفر ببعض ؛ لأنه قبل بعض الشريعة دون بعض ، وقد كفَّر الله تعالى من فعل ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ **إنَّ الَّذين يكْفُرُون باللَّه ورُسُله ويُريدُون أن يُفرِّقُوا بين اللَّه ورُسُله ويقُولُون نُؤْمنُ ببعْضٍ ونكْفُرُ ببعْضٍ** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **أُولْئك هُمُ الْكافرُون حقًّا** ﴾ [النساء : ١٥٠ ، ١٥١] الآية .

فالذي يقبل بعض الشريعة دون بعض فهذا من الكافرين حقًا ، كمن يقبل أحكام الشريعة فيما يتعلق بالعبادات ، ولا يقبل ما يتعلق بالأموال - مثلاً - فكذلك المبتدعة يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فإنهم يقبلون ما يتعلق بالأحكام والأوامر والنواهي ، ويردون ما يتعلق بالأسماء والصفات ، فلابد من قبول ما جاءت به الرسل ؛ لأنهم الصادقون المصَدَّقُون .

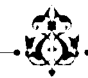
- قوله : (**بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون**) :

فإن هناك كثيراً من المبتدعة يتخرصون في صفات الله ، ويقولون على الله بلا علم ، فهؤلاء في مرتبة المشركين ؛ لأن الله تعالى قرنهم بأهل الشرك ، ورتب ذلك ، فقال تعالى : ﴿ **وأن تُشْرِكُوا باللَّه ما لمْ يُنزِّلْ به سُلْطانا وأن تقُولُوا على اللَّه ما لا تعْلمُون** ﴾ [الأعراف : ٣٣] . وينطبق هذا على نفاة الصفات الذين يقولون : لا يجوز أن يوصف الله بأنه يعلم ، ولا بأنه يقدر ، ولا بأنه يرحم ، ولا بأنه ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا ، ولا بأنه مستو على العرش ، ولا بأنه قريب من عباده ، وغير ذلك من الصفات الذاتية والصفات الفعلية .

. . . .

فهؤلاء هم الذين يقولون على الله ما لا يعلمون ، بخلاف الرسل الصادقين المصدوقين ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله ، فإنهم قد بلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ، وبينوه أبلغ بيان ، وأوضحوا ذلك للثقلين .





[ولهذا قال: ﴿سُبْحانَ ربّكَ ربِّ الْعزّةِ عمّا يصفُون (١٨٠) وسلامٌ على الْمُرْسَلِين (١٨١) والْحمْدُ للّه ربِّ الْعالَمينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] ، فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلـرُّسُلِ ، وسَلَّمَ عَلَى المُرْسَلِينَ لِسَلامَةِ مَا قَـالُوهُ منَ النَّقْصِ وَالعيْبِ] .



استدل ـ رحمه الله ـ على كلامه السابق بهذه الآيات .

■ قوله: (ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ ربّك ...﴾) :

فإن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وهي قوله سبحانه: ﴿سُبْحان ربّك ربِّ الْعزّةِ عمّا يصفُون﴾ قد نزه نفسه عما يصفه به الذين ينفون الصفات عن الله تعالى ، الذين يقولون بأن الله لا يوصف بأن له يدًا ، ولا يوصف بأنه يسمع ويرى ، ولا يوصف بأنه ينزل كما يشاء ، ولا يوصف بأنه مستوٍ على عرشه ، ولا بكذا وكذا . هؤلاء الذين يقولون ذلك ، هم الذين نزه الله تعالى نفسه عنهم وعن مقالاتهم وبدعهم ، فقال : ﴿سُبْحان ربّك ربِّ الْعزّةِ عمّا يصفُون﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وسلامٌ على الْمُرْسلين﴾ سلم على المرسلين لسلامة ما قالوا من النقص والعيب ، فإن ما جاء به المرسلون هو الحق الذي لا مرية فيه . فمن أجل ذلك سلم عليهم ، لسلامة ما جاءوا به من الشريعة أن يكون فيه كذب أو نقص أو خلل أو عيب ، لأنهم ـ كما تقدم ـ صادقون مصدقون ، فيجب قبول ما جاؤوا به والإذعان له .

. . . .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأثنى على نفسه سبحانه وهو أهل للثناء ، لأنه هو رب العالمين الذي رباهم بنعمه ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨] ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] .

* * *

[وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ. فَلا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرْسَلُونَ ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ] .



■ قوله : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات) :

الله سبحانه وتعالى قد سمى نفسه بأسماء حسنى ، ووصف نفسه بصفات عُلى في كتابه الكريم ، وقد جمع في ذلك بين النفي والإثبات ، ولكن النفي - في الغالب - مجمل ، وهو نفي كل ما يضاد كمال الله وجلاله . والإثبات - في الغالب - مفصَّل متوسع فيه .

فمثال النفي المجمل : قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، وقوله : ﴿ هل تعلم له سميًا ﴾ [مريم: ٦٥] ، وقوله: ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [النحل: ٧٤] ، وقوله: ﴿ ولم يكن له كفوًا أحدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] ، وقوله: ﴿ فسبحان الله رب العرش عمَّا يصفون ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

ومثال النفي المفصل: قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا ﴾ [الجن: ٣]، وقوله: ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، و قوله: ﴿ ولم يكن له

. . . .

شريكٌ في المُلْك ولمْ يكُن لَهُ وليٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿ لا تأْخُذُهُ سنةٌ ولا نومٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لإثبات كمال قيوميته. وقوله: ﴿ ولا يُحيطُون به علْمًا ﴾ [طه: ١١٠] لإثبات كمال علمه وإحاطته. ونحو ذلك.

والحاصل أن النفي المجمل أو المفصل لا فائدة منه إلا إذا أثبتنا ضده من الكمال.

كذلك الإثبات، كقوله: ﴿ الرَّحْمنُ على الْعرْش اسْتوىٰ ﴾ [طه: ٥] هذا فيه إثبات الاستواء لله على ما يليق بجلاله، وقوله: ﴿ وهُو معكُمْ أيْن ما كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] فيه إثبات المعية العامة كما يشاء سبحانه، وقوله: ﴿ واعْلمُوا أنَّ اللَّه بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١] فيه إثبات العلم. وقوله: ﴿ واللَّهُ علىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فيه إثبات القدرة. وقوله: ﴿ إنَّ اللَّه هُو السَّميعُ الْبصيرُ ﴾ [غافر: ٢٠] فيه إثبات السمع والبصر، وهكذا فقد جمع بين النفي والإثبات.

■ **قوله: (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين ...):**

ومتى كان كذلك فلا عدول ولا ميل لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون؛ لأنهم إذا عدلوا فإنهم سيسلكون سُبل الشياطين على كل سبيل

. . . .

منها شيطان .

والنبي ﷺ عندما قرأ قوله تعالى : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً ﴾ [الأنعام: ١٥٣] خطَّ خطًا ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال: « هذه سبل وطرق، على كل طريق منها شيطان يدعو إليها»[(١)] .

فالصراط المستقيم الذي قال الله عنه : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] هو طريق الأنبياء ، ومنهم إمامهم نبينا محمد ﷺ ، وطريق الصحابة وسلف الأمة ، وطريق الأئمة وأتباعه ﷺ إلى يوم الدين، هذا هو الطريق الحق ، وهو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، وهو الموصل إلى الجنة، وهو صراط المنعم عليهم الذين ذكرهم الله في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ ومَن يُطِعِ اللَّه والرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مع الَّذِينَ أنْعَم اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِين والشُّهداء والصَّالِحِين وحَسُنَ أُوْلَئِكَ رفيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فقد أخبر سبحانه بأن من أطاع الله طاعة تامة كاملة ، وأطاع الرسول ﷺ ، فإنه مع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم أتم نعمة وأكبر نعمة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فقد هداهم سبحانه إلى الطريق الذي يرضيه عنهم ووفقهم لسلوكه . فالنبيون: هم الذين بعثهم الله لإصلاح أعمال الخلق

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٣٥، ٤٦٥) ، وابن ماجه برقم (١١) في المقدمة ، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . وحسن الألباني إسناده كما في تعليقه على أحاديث المشكاة رقم (١٦٦) هامش رقم (٢) . وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤١٤٢): إسناده صحيح .

. . . .

ودلالتهم على الصراط المستقيم . **والصديقون** : هم الذين صدقوا المرسلين ، ولم يترددوا في ذلك ، فكانوا غاية في الصدق والتصديق .

والشهداء : هم الذين وفقهم الله تعالى لإعلاء كلمته، والاستشهاد في سبيله . **والصالحون** : هم أهل الصلاح الظاهر والباطن، الذين أصلحوا أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم ، فكل هؤلاء من المنعم عليهم .

وكذا كل من أطاع الله وأطاع الرسول ﷺ إلى يوم القيامة فإنه مع هؤلاء ، فهم أحق الناس بالرسول ﷺ ؛ لأنهم اتبعوه حق الاتباع في جميع أمورهم ، فلم يكن اتباعهم إياه في بعض الشريعة دون بعض ، أو آمنوا ببعض الكتاب دون بعض، أو تابعوه في العقيدة دون العمل ، أو في العمل دون العقيدة، بل اتبعوه في العقيدة والعمل والأخلاق والسلوك وكل شيء ، فلذلك صاروا من الذين أنعم الله عليهم ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم .



القسم الأول

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

١ ـ الجمع بين النفي والإثبات من القرآن الكريم :

[وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ سُورَةِ الإِخْلاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؛ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾] [الإخلاص : ١ ـ ٤] .



■ قوله : (وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه ... إلخ) :

يشير شيخ الإسلام بذلك أن من صفات الله التي نؤمن بها ما تضمنته سورة الإخلاص ، وهي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فإنها اشتملت على النفي والإثبات .

ففي قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إثبات للإلهية ، وإثبات للأحدية .

وفي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ إثبات الصمدية .

فهذا في الإثبات .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي الولد والوالد عن الله تعالى .

وفي قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ نفي للكفؤ ، وهو المكافئ .

فهذا في النفي .

. . . .

فالحاصل أنها اشتملت على نفي وإثبات .

فالصفة الأولى: صفة الإلهية، ومعنى الإلهية : هي الاستحقاق للتأله ، ومعنى أنك تألهه أي تحبه وتخضع له ، وذلك يؤخذ من اسم الله ؛ لأنه في الأصل الإله.

ولفظ الجلالة « الله » بمعنى : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، أي المستحق لأن يألهوه ، أي يعبدوه .

الصفة الثانية : صفة الأحدية ، فكونه أحدًا بمعنى واحد . أي هو الإله الواحد ، فلا تجعلوا معه آلهة أخرى.

أي لا تألهوا في قلوبكم أحدًا غيره ، أي لا تحبوا غيره كحبه، وتتقربوا إليه كتقربكم إلى الله ونحو ذلك ، بل الله سبحانه هو إلهكم وحده . كما في قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ [البقرة: ١٦٣] أي هو المتفرد بالإلهية . وكقوله : ﴿ **وما من إله إلا إله واحد** ﴾ [المائدة: ٧٣] .

الصفة الثالثة: صفة الصمدية . **والصمد** : معناه الذي تصمد إليه القلوب ، أو السيد الذي انتهى في سؤدده . فهو من أسماء الله تعالى التي تقتضي معاني ، فنعتقد أن من أسماء الله الصمد ، وأنه الذي تصمد إليه القلوب ، وأنه السيد الذي انتهى في سؤدده . فهذا في الإثبات .

وأما النفي : فنعتقد أن الله لم يلد ولم يولد : أي لم يكن له والد ولا

. . . .

ولد. وقد أكثر الله من نفي الولد ؛ لأن المشركين جعلوا له ولدًا .

كما في قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وكما قال : ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ [الصافات: ١٤٩].

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا (٨٨) لقد جئتم شيئا إدا (٨٩) تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا (٩٠) أن دعوا للرحمن ولدا (٩١) وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا (٩٢) إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] .

فسبب نفي الله الولد عن نفسه هو أن المشركين جعلوا له ولدًا ، والله تعالى منزه عن ذلك ، وهكذا النصارى قالوا: المسيح ابن الله . واليهود قالوا: عزيرٌ ابن الله في قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة: ٣٠] .

وقد حكى الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ [الجن: ٣] ، وقال: ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ [الأنعام: ١٠١] يعني زوجة ، فذلك كله تنزيه لله تعالى ؛ لأن الولد غالبًا يشبه أباه ، والله تعالى يقول : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى: ١١] ؛ ولأن الولد يقوم مقام أبيه ، ويعينه في ملكه ، والله تعالى لا يحتاج إلى ذلك ؛ لكمال قيوميته ، فهو المتفرد بذلك جل وعلا .

وأما قوله: ﴿ ولم يولد ﴾ [الإخلاص: ٣] فهو يدل على أنه القديم الأول

. . . .

الذي لم يسبق بعدم ، فليس له والد ولا ولد .

وأما قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] فإن الكفو : معناه المكافئ ، والمساوي، والند ، والنظير ، والمثيل .

فالمعنى : أنه ليس لله تعالى مثيل ، ولا شريك ، ولا نظير أيًا كان ذلك من الكفو ، فهذا في النفي .

فإذا قرأت هذه السورة ؛ فيجب عليك أن تعتقد عدة أمور :

الأول: ألوهية الله : يعني أنه هو الإله الحق الذي يجب أن يفرد بالألوهية.

ثانياً: وحدانيته وتفرده بالألوهية ، وأنواع العبادة .

ثالثًا: سؤدده وصمديته ، وهذه الثلاثة في الإثبات .

رابعًا: أن تنزهه عن الولد والوالد .

خامسًا : أن تنزهه عن الكفؤ يعني المكافئ والمساوي ، وهذان الأمران في النفي ، فتجمع بين الإثبات والنفي .

فهذه السورة سورة عظيمة ، حتى أخبر النبي ﷺ بأنها تعدل ثلثَ القرآن[١] ، يعني في الفضل ؛ لأن فضلها كفضل ثلث القرآن ، وسميت

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠١٣) في فضائل القرآن، باب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ من حديث أبي سعيد الخدري. ومسلم رقم (٨١١) كتاب صلاة المسافرين، من حديث أبي الدرداء. ورقم (٨١٢) من حديث أبي هريرة باب: «فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

. . . .

سورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت في إثبات الصفات لله تعالى ، أو لأن من يؤمن بها ويعتقد بما دلت عليه يكون من المخلصين .

❁ ❁ ❁

[**وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيةٍ فِي كِتَابِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ : ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا - أي: لا يُكْرِثُهُ ولا يُثْقِلُهُ - وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** [البقرة :٢٥٥].

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ].



▪ **قوله: (وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيةٍ فِي كِتَابِهِ ، حَيْثُ يَقُولُ : ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...﴾) :**

هذه الآية العظيمة من جوامع الكلم التي جمع الله فيها - أيضًا - بين النفي والإثبات ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن : « **من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان ، حتى يصبح** »(١)، وما ذاك إلا لاشتمالها على جملة من صفات الله في تنزيهه وتقديسه.

* **ففي قوله : ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات الألوهية له سبحانه، ونفيها عما سواه، يعني : لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا يستحقها أحد سواه.**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٠) في فضائل القرآن ، باب : (فضل سورة البقرة) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

....

والإله هو الذي تألهه القلوب ، يعني : تعظمه وتحبه ، وذلك لا يكون إلا لله وحده، فلا يصح أن يكون غيره مألوهًا، أي : مبجَّلًا معظَّمًا كتعظيم الله، ومحبوبًا كمحبة الله أيًّا كان ذلك ؛ لأن ما سواه سبحانه مخلوق ، ولو كان عظيمًا أو وجيهًا عند الله، كأن يكون نبيًا أو رسولًا ، أو ملكًا مقربًا ، أو وليًا ، أو غير ذلك.

* وفي قوله : ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: الحي ، يعني : المتصف بأكمل أنواع الحياة ، فإن حياة الإنسان وحياة البهائم حياة ناقصة ؛ لأنها مسبوقة بعدم ، ويطرأ عليها الانتهاء والانقطاع . وكذلك فإن الإنسان في حياته يحتاج إلى النوم ، ويعتريه الإغماء والغشية والغفوة ، ويعتريه الموت . فهي حياة ناقصة من جميع الوجوه ، بخلاف حياة الرب تعالى ، فهي حياة كاملة دائمة ، لم يسبقها عدم ولا يعتريها عجز ولا نقص ، فهو الحي بكامل الحياة سبحانه.

كذلك القيوم : وهو القائم بنفسه المقيم لغيره من خلقه ، فهو القائم على عباده على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم برزقهم وتربيتهم ، وهو المراقب لهم والمطلع على أحوالهم ، الذي لا يخفى عليه خافية من أمرهم . **فهذا في الإثبات** .

* وفي قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: السنة : النعاس . والنوم : معروف.

وقد ورد في الحديث : « **إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام** »[1] ، الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان ، باب : (في قوله عليه السلام : **إن الله لا ينام...**) ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

وذلك لأنه يراقب خلقه بالليل والنهار ، والنوم شبه الموت ، فلأجل ذلك نزه الله تعالى نفسه عن النوم حتى لا يحصل اختلال في الكون ؛ لأنه هو الذي يمسك جميع مخلوقاته العظيمة ، ولو اختلت لم يمسكها غيره ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٤١] لو زالت واختل نظامها ما أمسكها أحد غيره .

ويقول تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] فهو الذي يمسك هذه المخلوقات بقوته وقدرته ، فلا تعتريه غفلة ولا نوم . ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]. فقوله : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو من باب النفي .

* وفي قوله: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: له الخلق كلهم الذين هم في العالم العلوي - السموات - والذين في العالم السفلي - الأراضين - ملكًا وخلقًا واستعبادًا ، وهو خلقهم له وحده ، فهم عبيده ، يعني : معبَّدون له لا لغيره ، فهو المالك لهم ملكًا وخلقًا واستعباداً . فهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه .

والشفاعة: هي التوسط ، والوساطة مأخوذة من الشفع : أي لا يقدر

. . . .

لنبي المرسل ، ولا الملك المقرب ، ولا الولي أن يشفع عند الله لأحد من الناس إلا إذا أذن الله له ، وقال له : اشفع ، فلا يشفع إلا لمن رضي الله عن عمله ، وهم أهل التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ [الأنبياء : ٢٨]، وهذا من باب النفي .

* وفي قوله : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] : في هذا إثبات صفة العلم وهي من صفات الكمال ؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات الكمال ، فهو سبحانه العليم ، ومن علمه أنه يعلم خبر ما قبلنا وما بعدنا وما بين أيدينا : يعني ما سيحدث قدامنا في الزمن الحاضر والمستقبل من أمور الدنيا وغيرها ، ويعلم ما خلفنا ، يعني : ما يكون من أمور الدنيا في المستقبل ، فهو سبحانه يعلم ما كان قبل خلقنا إلى مالا نهاية له ، كذلك ما كان بعدنا إلى ما لا نهاية فالله سبحانه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون . فهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] : أي أن جميع المخلوقين لا يعلمون من العلم إلا ما أعلمهم إياه ، فلا يستطيعون أن يعلموا شيئًا إلا إذا أعلمهم به وأطلعهم عليه سبحانه ، ولا يستطيعون علم شيء زائد عما أعلمهم به سبحانه وتعالى .

وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر**

. . . .

عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] . فهذا من باب النفي .

* وفي قوله : **﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾** : الكرسي : هو موضع قدمي الرب سبحانه كما يشاء . أو هو كالمرقاة بين يدي العرش ، هكذا فسره السلف وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى العظيمة ، وهو دون العرش ، فأخبر الله تعالى أنه اتسع فشمل السموات والأرض ، فهذا يدل على عظمة هذا الكرسي فخالقه أعظم سبحانه وتعالى . فرغم سعة السموات والأرض ، فالكرسي أكبر منها وأعظم ، وقد ورد أن الكرسي « **كالحلقة الملقاة في فلاة بالنسبة إلى العرش** »[1] وإذا كانت هذه عظمة الكرسي فالعرش أعظم منه ، والكرسي أعظم من السموات والأرض بل ورد في الحديث قوله : « **ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة** »[1] .

والترس : هو المجن الذي يجعل على الرأس . وإذا كانت هذه عظمة الكرسي ، فكيف تكون عظمة العرش؟! وإذا كانت هذه عظمة العرش ، فكيف تكون عظمة رب العرش ؟! وإذا كانت هذه عظمة رب العرش ، فكيف يستطيع أن يصفه الواصفون على حقيقته ؟! أم كيف يعصيه هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولانفعًا ، ولا ملكًا ولا موتًا ، ولا حياة ولانشورًا ؟! فهذا معنى قوله : **﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) ، والذهبي في العلو رقم (١٠٥) ، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني رقم (١٠٩) .



. . . .

وهذا من باب الإثبات .

* وفي قوله : ﴿ولا يئوده حفظهما﴾ : فسر الشيخ يؤوده : بمعنى يكرثه ويثقله ، أي لا يشق عليه حفظ المخلوقات بأسرها ، وعلى رأسها السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما ، فهو سبحانه يحفظها وليس في حفظها مشقة عليه ولا إعياء ولا تعب ، فلا يكلفه ذلك ولا يثقله ولا يشق عليه ، بل هو سهل عليه ، ويسير عليه سبحانه، وهذا من باب النفي .

* وفي قوله : ﴿وهو العلي العظيم﴾ : ختم هذه الآية العظيمة، بإثبات صفتي العلو والعظمة ، فإنه سبحانه عليّ على جميع خلقه، عظيم، بلغ في العظمة غايتها ، فله العلو المطلق سبحانه وتعالى .

ومنه علو الذات ، فهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه . قال تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه : ٥] .

وعلو القهر ، قال تعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: ١٨] .

وعلو القدر ؛ لأنه أرفع قدرًا من كل ما سواه ولأنه القادر على كل شيء سبحانه ، قال تعالى : ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [المائدة : ١٢٠] فهذا من باب الإثبات.

فعلينا أن نعتقد ونؤمن بهذه الصفات التي مرت علينا في هذه الآية

. . . .

العظيمة . فإذا قرأت هذه الآية ، فيجب عليك أن تستحضر ما فيها من الصفات العظيمة ، فيكون ذلك زيادة في يقينك ، ومتى زاد يقين العبد زادت أعماله وحسنت .

والحاصل من هذه الآية أن الله تعالى قد جمع في أسمائه وصفاته بين النفي والإثبات ، نفي النقائص والعيوب ، وإثبات ضدها من الكمال .

ثم ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح[1] ، فهذا يدل على عظم هذه الآية وفضلها ؛ بل هي أعظم آية في كتاب الله ، كما ورد ذلك في حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ حينما سأله النبي ﷺ عن أعظم آية في كتاب الله ، فقال أبي : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ فوضع النبي ﷺ يده على كتفه ، وقال : « **لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر** » رواه مسلم[2] . والله أعلم .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٠) في فضائل القرآن ، باب : «فضل سورة البقرة» عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨١٠) في صلاة المسافرين ، باب : «فضل سورة الكهف وآية الكرسي» عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

٢ ـ الجمعُ بيْن عُلُوّه وقُرْبه وأزليّته وأبديّته :

[وقوْلُهُ سُبْحانهُ: ﴿هُو الأوّلُ والآخرُ والظّاهرُ والْباطنُ وهُو بكُلّ شيْءٍ عليمٌ﴾ [الحديد: ٣] **وقوْله سُبْحانهُ : ﴿وتوكّلْ على الْحيّ الّذي لا يمُوتُ﴾** [الفرقان: ٥٨] **الآية] .**



▪ قوله : (وقوله سبحانه : ﴿هُو الأوّلُ والآخرُ والظّاهرُ والْباطن. . .﴾) :

هذه الآيات التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ فيها إثبات صفة العلم ونحوه، وإثبات بعض الأسماء الأخرى الدالة على بعض الصفات .

* **فالآية الأولى** : وهي قوله تعالى : **﴿هُو الأوّلُ والآخرُ والظّاهرُ والْباطنُ وهُو بكُلّ شيْءٍ عليمٌ﴾** فيها إثبات هذه الأسماء ، وقد فسرها النبي ﷺ ؛ حيث كان يقول في دعاء الاستفتاح في آخر الليل : « **اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر** » رواه مسلم(١) .

ينبغي علينا أن نعرف أولاً أن كل اسم من أسماء الله سبحانه له ثلاث دلالات :

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧١٣) في الذكر والدعاء، باب: «ما يقول عند النوم وأخذ المضجع». عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

. . . .

---

١ ـ دلالة على ذات الرب تعالى بالمطابقة .

٢ ـ دلالة على الصفة المشتقة بالتضمن .

٣ ـ دلالة على بقية الصفات بالالتزام .

فالأول : ينطبق على الرب تعالى لا يصح لغيره . وكذلك **الآخر** : لا يسمى به إلا الله تعالى ، وكذلك **الظاهر والباطن** ، فهذه الأسماء لا تنطبق إلا على الذات الربانية .

كذلك هذه الأسماء تدل على الصفات المشتقة منها :

فالأول: يدل على القدم والأزلية .

والآخر: يدل على البقاء والأبدية .

والظاهر : يدل على صفة العلو .

والباطن : يدل على صفة القرب والمعية.

وكل أسماء الله يشتق منها صفات ، فمثلاً : العليم: يؤخذ منه صفة العلم، والعزيز : يدل على صفة العزة، والرحيم : يدل على صفة الرحمة، والغفور: يشتق منه صفة المغفرة ، والتواب : يشتق منه صفة قبول التوبة من عباده المؤمنين ، والقهار : يؤخذ منه صفة القهر ، وهكذا . . .

قال تعالى : ﴿وتوكَّلْ علَى الْعَزِيزِ الرَّحِيم﴾ [الشعراء: ٢١٧]، هذه الآية



. . . .

يؤخذ منها اسمان من أسماء الله : العزيز : وهو دال على صفة العزة ، والرحيم : وهو دال على صفة الرحمة .

وكقوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]، و﴿ وهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] ونحو ذلك من الأسماء الحسنى ، فكل اسم منها دال على صفة .

* الآية الثانية : وهي قوله سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ على الْحَيِّ الَّذي لا يَمُوت ﴾ [الفرقان: ٥٨] الآية : فهذه الآية فيها ما تقدم أن كل اسم من أسماء الله تعالى يتضمن صفة مشتقة منه ، ففي قوله جل وعلا : ﴿ وتوكَّلْ على الْحَي ﴾ ذكرٌ لاسم من أسماء الله تعالى وهو « الحي » والذي يتضمن صفة الحياة الكاملةَ لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، فحياته سبحانه ليست كحياة مخلوقاته ، فإن حياة سائر المخلوقات ناقصة ، ومعرضة للزوال في أي وقت من الأوقات ، إذا شاء الله سبحانه الذي خلقها .

وأما حياته سبحانه فهي حياة أزلية كاملة لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه . وقد أكد ذلك بقوله : ﴿ الَّذِي لا يمُوت ﴾ ، يعني الذي لا يطرأ عليه الموت ، وهو انقطاع الحياة ، بل حياته أزلية أبدية باقية .

❁ ❁ ❁

٣ ـ إثْبَاتُ صِفَةِ العِلْم :

[وَقَوْلُهُ : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩] ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وما يخْرُجُ منْهَا وما ينزلُ منَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤] ، ﴿وعندَهُ مفاتحُ الْغَيْب لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ من ورَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَات الأَرْضِ ولا رطْبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وَقَوْله: ﴿وما تحْملُ منْ أُنثَىٰ ولا تضعُ إلاَّ بعلْمه﴾ [فاطر: ١١] وقوله : ﴿لتعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ علَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وأَنَّ اللَّه قَدْ أحاطَ بكُلِّ شَيْءٍ علْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]] .



الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ ...):

هذه الآيات دالة على صفة العلم ، وهي إدراك جميع المعلومات ، وقد دلت عليها آيات أخرى كثيرة ، كقوله تعالى: ﴿يعلَمُ ما بين أيديهِمْ وما خلفهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . ﴿ما بيْن أيْديهِمْ﴾ يعني: ما سبقهم، ﴿وما خلْفهُمْ﴾ يعني: ما بعدهم إلى آخر الدنيا . فأثبت في هذه الآية العلم الأزلي له سبحانه .

وكذلك قوله : ﴿ولا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ علْمه إلاَّ بما شاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

. . . .

ففيها سعة علمه سبحانه وتعالى وشموله لهما .

* الآية الأولى : وهي قوله : ﴿ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى ، وقدتكرر في القرآن ذكر هذين الاسمين فيذكرهما الله تعالى على وجه التمدح كغيرهما من الأسماء الحسنى ويعتقد أهل السنة أن كل اسم من الأسماء التي سمى الله تعالى نفسه فإنه يدل على إثبات صفة أو صفات ، فالعليم يدل على صفة العلم العام ، فهو صفة مبالغة . وكثيراً ما يختم الله به الآيات التي تشتمل على التخويف ، ويصف نفسه أنه بكل شيء عليم ، واسم الحكيم دليل على إثبات صفة الحكمة ، والحكمة وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها ، أي إن أحكامه وأوامره وزواجره كلها في غاية الحكمة والمصلحة .

* الآية الثانية : وهي قوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ [الأنعام : ٧٣] ففيها إثبات اسمين من أسماء الله دالين على صفتين ، وهما : الحكمة والخبرة ، وكلا الصفتين لهما تعلق كبير بصفة العلم .

الحكيم : هو المتقن للأشياء ، الذي يضع الأمور في مواضعها ، أو هو الحاكم في أقواله وأفعاله ، وفي حكمه الكوني القدري ، وفي حكمه الشرعي الديني .

والخبير : أي ذو الخبرة ، وهي العلم التام الكامل بالأشياء ، ظاهرها وباطنها ، مع الإحاطة بذلك ، فالخبير أخص من العليم ، وهو دال على صفة العلم الكامل لله سبحانه وتعالى .

* الآية الثالثة : قوله سبحانه : ﴿ يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها

. . . .

وما ينزلُ من السَّماءِ وما يَعْرُجُ فيها ﴾ [الحديد: ٤] الآية .

ففيها إثبات صفة العلم التام الكامل من جميع الوجوه لله سبحانه وتعالى، فقد أخبر سبحانه أن من تمام علمه أنه يعلم كل ما يدخل في الأرض من أموات ، ومن بذور ومعادن ونحوها ، ويعلم كل ما يخرج من الأرض من نباتات وأشجار وأزهار ونحو ذلك ، وكل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ونحوها ، وكل ما يعرج ويصعد إلى السماء من الملائكة والأعمال وأرواح العباد ونحوها ، فهذا يدل على كمال علمه سبحانه وشموله وإحاطته بجميع المعلومات .

* **الآية الرابعة** : وهي قوله سبحانه : **﴿ وعندهُ مفاتحُ الغيْب لا يَعْلَمُها إلاَّ هُو ويعْلمُ ما في الْبرِّ والْبحْرِ وما تسْقُطُ من ورقةٍ إلاَّ يعلمها ولا حبَّةٍ في ظُلُمات الأرْضِ ولا رطْبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ ﴾** [الأنعام: ٥٩] هذه الآية فيها إثباتُ صفة العلم .

قوله سبحانه : **﴿ وعندهُ مفاتحُ الْغَيْبِ ﴾** ، مفاتح الغيب : هي الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله . ومفاتح الغيب هي التي ذكرها الله تعالى في قوله : **﴿ إنَّ اللَّهَ عندهُ علْمُ السَّاعَة ويُنزلُ الْغيْث ويعْلمُ ما في الأَرْحامِ وما تدْري نفْسٌ مَّاذا تكْسبُ غداً وما تدْري نفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تمُوتُ إنَّ اللَّهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾** [لقمان: ٣٤] كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن

. . . .

عمر أن النبي ﷺ قال: « **مفاتح الغيب خمس ، لا يعلمهن إلا الله**»[١] ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

* **الآية الخامسة**: وهي قوله سبحانه: ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** ﴾ [فاطر: ١٢] فهذه الآية كذلك فيها إثبات صفة العلم، فقد أخبر الله تعالى فيها أنه لا يقع من حمل إلا بعلمه، ولا وضع ولا إسقاط، ولا موت ولا حياة إلا بعلمه، فهو سبحانه عالم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

* **الآية السادسة**: وهي قوله سبحانه: ﴿ **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [الطلاق: ١٢] فيها إثبات صفتي القدرة والعلم، وفيها التأكيد على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، والأمور الظاهرة والباطنة، فدل ذلك على أنه سبحانه مطلع على كل شيء في السموات والأرض، فيجب علينا أن نؤمن بذلك وأن نعبده حق عبادته سبحانه وتعالى.

فهذه الآيات فيها إثبات صفة العلم الكامل التام لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وقد وردت آيات أخرى كثيرة تدل على هذه الصفة العظيمة، وقد جمعها واستقصاها كثير من العلماء، ومن جملتهم: الإمام الدارمي صاحب كتاب «الرد على الجهمية»، فإنه كان في هذا الكتاب إذا ذكر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٨) في التفسير [سورة لقمان]، باب: «إن الله عنده علم الساعة» وأخرجه البخاري أيضًا برقم (١٠٣٩) في الاستسقاء بنحوه.

. . . .

صفة استوفى كل ما يتعلق بها من الآيات والأحاديث حسب وسعه، وذلك لأن الجهمية كانوا ينكرون صفة العلم لله تعالى ، فرد عليهم وأثبتها وأتى بأدلة صريحة من الكتاب والسنة عليها، وكذلك المعتزلة الذين هم ورثة الجهمية كانوا ينكرون صفة العلم، بل ينكرون كل الصفات، فيثبتون الأسماء وينكرون دلالتها على الصفات، ويزعمون أنها مترادفة يعني لا تدل على معان أصلاً، فعندهم لا فرق بين الرحيم والقهار، ولا فرق بين العزيز والغفور.

قالوا: إنما هي مجرد أعلام فحسب ، كما لو سمي إنسان باسم واحد أو بخمسة أسماء ، فلا تدل على صفات ، ومعلوم أن الإنسان قد يسمى بأسماء حسنة من باب التفاؤل ، ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون منطبقة عليه بما تدل عليه، فليس كل من سمي صالحًا يكون من أهل الصلاح ، وليس كل من سمي سعيدًا يكون من أهل السعادة ، وليس كل من سمي زاهدًا يكون من أهل الزهد ، أو سالمًا يكون من أهل السلامة، لكن ذلك يقع من باب التفاؤل.

فهؤلاء المبتدعة يقولون : إن أسماء الله تعالى كذلك ، فلا تدل على الصفات ، ويُصَرِّحون بالنفي ، فيقولون : عليم بلا علم ، رحيم بلا رحمة ، عزيز بلا عزة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر وهكذا ، يعني : إنما هي أسماء مجردة .

وليس الأمر كذلك ؛ لأنه لو كان كذلك ما ختمت الآيات بالأسماء التي تناسبها ، فإن الرب تعالى يختم كثيرًا من الآيات ببعض أسمائه بما يلائم ما

. . . .

دلت عليه، فآية تقسيم الصدقات، وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ...﴾ [التوبة: ٦٠] الآية. ختمها سبحانه وتعالى بذكر اسمين من أسمائه الحسنى وهما: عليم حكيم يدلان على صفتين وهما: صفة العلم وصفة الحكمة، والعلم معروف، والحكمة هي : وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا﴾ [البقرة: ٢٢٦]أي رجعوا عن الحلف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فدل على أنه أراد مغفرة ما سبق ورحمته ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧] أتى بسميع عليم هنا ؛ لأن الله يسمع ما يقولونه من الطلاق، ولم يقل : فإن الله غفور رحيم بعد قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فإن هذا لا يناسب المغفرة والرحمة، فدل ذلك على أن معاني هذه الأسماء مقصودة .

فالعلم صفة من صفات الله، وهو عام يدخل فيه ما كان وما يكون في أمور الماضي والحاضر والمستقبل، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولذلك فإن من عقيدة أهل السنة أنهم يقولون: إن كلام الله من علمه، وعلمه صفة من صفاته، ولهذا فإنه ليس بمخلوق كما زعمت المعتزلة ونحوهم، بل إن كلامه جل وعلا من علمه الذي هو صفة من صفاته .

ومعلوم أن نفي العلم يستلزم إثبات ضده، وضده الجهل، وهما

. . . .

متلازمان، فإذا أثبتنا أحدهما نفينا الآخر.

فإذا قيل: إن الله ليس بعالم، كان المخلوق الذي يعلم ولو قليلاً من العلم أكمل منه جل وعلا، فإن صفة العلم صفة كمال، ونفيها صفة نقص، فدلالة هذه الآيات واضحة؛ حيث إن منها ما ورد بالاسم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ومنها ما ورد بالمعنى كقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥] يعني في الماضي، فدل على أنه سبحانه علم ما قد مضى. ومنها ما ورد بصيغة الحاضر يعني المضارع كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] ونحوها، في آيات كثيرة، فإذا قال الله يعلم فمعناه: أنه يعلم في الحال وفي الاستقبال، فإذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] فمعناه أنه لا يخفى عليه من أموركم شيء.

فورودها بهذه العبارات يدل على أنها مقصودة المعنى، وأن العلم ضد الجهل، وأنه يدخل فيه العلم بالحوادث والأشياء الماضية والحاضرة والمستقبل.

فعرفنا أن أهل السنة يثبتون صفة العلم بالعقل والنقل، وعرفنا أن الذين أنكروها كالمعتزلة وتكلفوا في تأويل وتحريف الأدلة على ما يريدون هم منحرفون عن الصراط المستقيم، حتى إنهم يصرون على ذلك، ولكنهم في

. . . .

بعض الأحيان يثبتون العلم ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنهم - يعني المعتزلة الذين ينكرون العلم - أولوا الكرسي بالعلم ، فقالوا: ﴿وسع كرسيه﴾ يعني وسع علمه ، وإن كان هذا من التحريف .

كذلك الأشاعرة والماتريدية : أثبتوا صفة العلم وبعض الصفات ، ولكنهم أنكروا كثيراً من الصفات الفعلية ، فوقعوا في المتناقضات . ثم من عقيدة أهل السنة : أن علم الله قديم ، وأنه يعلم ما يتجدد وما يحدث في وقته قبل أن يحدث .

وخالفهم في ذلك القدرية ، فقالوا: إنه سبحانه لا يعلم عن الأشياء إلا بعد وقوعها ، يعني بعدما تحدث ، وفي أمثالهم نزل قوله تعالى : ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون﴾ [فصلت: ٢٢].

يعني أنهم ظنوا أن الله لا يعلم أعمالهم إذا استخفوا بها وعملوها سراً ، وقد نزلت هذه الآية في أناس من المشركين ، ولكنها تنطبق على هؤلاء الذين يقولون : إن الله لا يعلم ما سيحدث في المستقبل ، أو أنه يعلم الكليات ولايعلم الجزئيات ، أو أنه لا يعلم بأعمال العباد حتى يحدثوها، يعني أنه لا يعلم أعمالك حتى تعملها من خير أو شر ؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . بل الله تعالى يعلم الجزئيات ، كما يعلم الكليات ؛ لأنه سبحانه عليم بكل

. . . .

شيء ، بل يعلم ما توسوس به النفوس كما قال سبحانه : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦] . وقال : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] . وقوله: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٧] .

فكل ذلك دليل على إثبات هذه الصفة وهي صفة العلم ، وأنها كسائر صفات الكمال ، فيجب إثباتها لله على ما يليق بجلاله وعظمته ، وإذا أثبتناها قلنا: علم الله كسائر صفاته الحسنى ، نؤمن بها ، ولا نكيفها ، ولا نمثلها ، فلا نقول مثلاً : إن علمه سبحانه كعلم المخلوق الذي هو إدراك المحسوسات فقط ، أو نحو ذلك لا ، إنما هو علم خاص بالله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، ولا يشبهه في ذلك أحد من خلقه ، فعلمه سبحانه علم كامل تام شامل ، لا يلحقه نقص أو قصور بوجه من الوجوه ، فيجب علينا أن لا نعمل إلا ما يرضيه سبحانه ، وأن نجتنب الأعمال والأقوال التي تسخطه سبحانه وتعالى ؛ لأنه مطلع علينا ، لا تخفى عليه خافية من أمرنا سبحانه وتعالى .

❁ ❁ ❁



٤ ـ إِثْبَاتُ صفة الرِّزْق وَالقُوَّةِ والمَتَانَة :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨]] .



▪ قوله : (وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾) :

هذه الآية تتضمن إثبات ثلاث صفات من صفات الله سبحانه ، ألا وهي : صفة الرزق المتتابع ، وصفة القوة ، وصفة المتانة . فيجب علينا الإيمان بهذه الصفات وإثباتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .

فنثبت أن الله هو الرزاق وحده لا غير : فإنه سبحانه هو الذي ابتدأ بالنعم قبل استحقاقها ، أو مع عدم استحقاقنا لها ، وهذا لأنه سبحانه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين ، فيجب علينا شكره على ذلك بالقلب واللسان والجوارح .

وكذا صفة القوة : فإنه سبحانه هو المتصف بصفة القوة الكاملة الشاملة المطلقة ، التي لا يماثله ولا يشابهه فيها أحد من خلقه سبحانه ، بل هو الذي وهب خلقه القوة ، فهو سبحانه ذو القوة ، أي صاحب القوة الشديدة .

وكذا صفة المتانة : وهي الشدة ، يجب إثباتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .

❊ ❊ ❊

٥ - إِثْبَاتُ صِفَتِيِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ :

[وَقَوْلُه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نعِمَّا يَعِظُكُم به إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]] .

الشرح

▪ قوله: (وقوله: ﴿ لَيْس كمثله شيءٌ وهُو السميعُ البَصيرُ ﴾ ...):

هذه الآيات فيها إثبات صفتي السمع والبصر ، وقد ذكر الله سبحانه هذا الوصف بعدة تعبيرات ، فمنها بالزمن الماضي كقوله: ﴿ قد سمع اللَّه ﴾ [المجادلة: ١] وبالمضارع كقوله: ﴿ واللَّهُ يسمعُ ﴾ [المجادلة: ١]، وكذلك بالاسم كقوله: ﴿ إنَّهُ هُو السَّميعُ ﴾ [الأنفال: ٦١]. فهذه الصفات نثبتها لله سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته ، ثم نقول: إن لذلك الإثبات فائدة ، وهي أن العبد إذا اعتقد أن ربه يسمع كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فيسمع حركاته وسكناته ، حمله ذلك الاعتقاد على المراقبة لله سبحانه في جميع الأحوال وفي جميع الأمكنة والأزمنة ، فيقول: كيف أنطق بكذا وهو يسمعني ؟! وكيف أتكلم بما يسخطه وهو يسمعني ولا تخفى عليه خافية من أمري؟

فإذا اعتقد ذلك بحق أدى به إلى شدة المراقبة لربه ومعبوده سبحانه وتعالى، فحينئذ تجده حافظًا للسانه ، حافظًا لجوارحه عن كل ما يسخط الله

. . . .

سبحانه ، خائفًا من ربه ؛ لأنه لا تخفى عليه منه خافية ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

وكذلك صفة البصر ، نثبت لله تعالى هذه الصفة كما يشاء ، وكما يليق به ، وأنه يبصر ويرى كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] . وفائدة هذا الإثبات أيضًا : أن العبد لا يعمل المعصية لا في الجهر ولا في السر ، فلا يستخفي بمعصية مهما كانت ، وفي أي مكان كان ، ولو في الظلام الدامس ، ولو في أبعد مكان ؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله يراه ، وأنه لا يخفى عليه في أي مكان كان .

وزيادة على ذلك : أن الله قد وكل به من يحفظه من الملائكة ، ووكل به - من يحفظ أعماله - من الكرام الكاتبين . وزيادة على ذلك : أن الله ينطق جوارحه في يوم القيامة بما عملت : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤] ، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، ولو حاسبهم الله بما يعلمه عنهم لكانت له الحجة عليهم ، وذلك لأنه لا يظلم أحدًا ، ولا يظلم مثقال ذرة ، ولكن من باب إقامة الحجة، ومن باب قطع المعذرة أن يقال له: هل ظلمك الكتبة ؟ هؤلاء الكتبة الحافظون الكرام قد دونوا عليك كل شيء من أعمالك ، فلا يستطيع العبد الإنكار . كذلك أيضًا يقال له : هذه جوارحك قد نطقت وشهدت عليك ، فهل جوارحك تكذب عليك ؟ فلا يستطيع جوابًا، وذلك لأنه يختم

. . . .

على أفواههم في ذلك اليوم - يوم القيامة - ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ [يس: ٦٥]. وهنالك عندما يرون هول الموقف ماذا يحدث؟ لا يكتمون الله حديثًا . قال تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ [النساء: ٤٢] يسول إليهم في أول الأمر. فينكرون كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، قال تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ولكن يعترفون بعد ذلك عندما يرون كثرة البينات وتضافرها .

فالحاصل: أن من عقيدة أهل السنة : إثبات هاتين الصفتين لله على ما يليق بجلاله وعظمته ، فيثبتون أن الله تعالى يسمع كل شيء ، ويبصر كل شيء ، وأن سمعه يدرك الأصوات كلها، وأن بصره يدرك جميع المرئيات، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماوات ، وأن كل دقيق أو جليل فإنه يسمعه سبحانه ، فهو يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يرى كل شيء ويسمع كل شيء، ولا يخفى عليه خافية ، وسع كل شيء علمًا.

۞ ۞ ۞

٦ - إثْبَاتُ صِفَتَي المَشيئةِ والإرَادَةِ :

[وَقَوْلُه: ﴿ولَوْلا إذْ دخَلْتَ جنَّتَكَ قُلْت مَا شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ باللَّه﴾ [الكهف: ٣٩]، وقَوْله : ﴿ولَوْ شاءَ اللَّهُ ما اقْتتلوا ولَكنَّ اللَّه يفعلُ مَا يُريدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقَوْلُه: ﴿أُحلَّتْ لَكُم بهيمةُ الأَنْعَامِ إلاَّ ما يُتْلَىٰ علَيْكُمْ غيْرَ مُحلِّي الصَّيْد وأَنتُمْ حُرُمٌ إنَّ اللَّه يحْكُمُ ما يُريد﴾[المائدة: ١] ، وَقَولُه: ﴿فَمَن يُرِد اللَّهُ أن يَهْديَهُ يشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلام ومَن يُرِدْ أن يُضلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]].



■ قوله: (وقوله: ﴿ولَوْلا إذْ دخَلْتَ جنَّتكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّه...﴾):

هذه الآيات تدل على إثبات صفتي المشيئة والإرادة . فقد وصف الله تعالى نفسه بأنه يشاء ، وبأنه يريد كما في هذه الآيات : قوله: ﴿ولَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾، وقوله: ﴿ولَكنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ ، وقوله: ﴿إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، والمشيئة والإرادة متقاربتان، إلا أن الإرادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: إرادة شرعية دينية .

الثاني: إرادة كونية قدرية .

فالإرادة الشرعية: هي التي تتعلق بالمأمورات ، وبما يحبه الله ويرضاه ، فإن الله تعالى أراد من عباده شرعًا أن يطيعوه ويوحدوه ويفعلوا ما يحبه

. . . .

ويرضاه، أراد منهم شرعًا أن يؤمنوا به وأن يعبدوه حق عبادته، وأراد منهم شرعًا أن يصلّوا ويزكوا ويصوموا ويحجوا و. . . و. . . إلخ. هذه إرادة شرعية.

وأما الإرادة الكونية القدرية: فهي أنه سبحانه أراد كل ما حدث ويحدث في الوجود، فكل ما في الوجود فهو داخل في إرادته الكونية القدرية، حيث لا يخرج شيء عن إرادته.

فالإرادة الكونية عامة لكل ما هو حادث من خير أو شر، من معصية أو طاعة، من مصيبة ونقمة، أو نعمة ورخاء، فإن الله سبحانه هو الذي كتبها وأرادها، ولو شاء ما حصلت، قال تعالى: ﴿ولَوْ شاء ربُّك ما فعلوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَمَا تشَاءُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ ربُّ الْعَالمين﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦] فلا يذكرون شيئًا إلا وقد أرداه الله وقدره، إرادة كونية قدرية فهذه الإرادة عامة ويراد بها المشيئة.

والإرادة الشرعية خاصة كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ ليُبيِّن لكُم﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقد تجتمع هاتان الإرادتان في إيمان المؤمنين وطاعة الطائعين؛ لأن ذلك يكون عن إرادة كونية قدرية، ثم عن إرادة شرعية دينية.

وأما كفر الكافرين ومعصية العاصين، فهي إرادة كونية قدرية وليست

. . . .

شرعية دينية ؛ لأنها ليست مما يحبه الله ويرضاه ، بل أراده سبحانه لحكم عظيمة ، قد ندركها وقد لا ندركها .

فإذا فهمنا ذلك الفهم سلمنا من تحريف بعض النصوص أو تعطيلها .



٧- إثباتُ صفةِ المحبَّةِ والمودةِ:

[وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] ، ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] ، وَقَوْلَهُ : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤]] .



هذه الآيات فيها إثبات صفة المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته . وهي غير صفة الإرادة والمشيئة ، كما سيأتينا - إن شاء الله - .

▪ قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥]، والمحسنون : هم المتقنون لأعمالهم غاية الإتقان ، فأخبر سبحانه أنه يحبهم .

▪ وقوله جل وعلا : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، والمقسطون : هم العادلون الذين يعدلون في جميع الأمور ، وعلى جميع الأحوال ، ففي هذه الآية أخبر سبحانه أنه يحبهم .

. . . .

▪ وقوله عز وجل : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٧] ، والمتقون : هم الذين يجعلون بينهم وبين سخط الله وعذابه وقاية بطاعته ، وذكر أن من صفاتهم الوفاء بالعهد ، وعدم الخيانة ، فالله سبحانه يحب المتقين .

▪ وقوله سبحانه : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة : ٢٢٢] . والتوابون : هم الراجعون إلى الله ، النادمون على ذنوبهم ، والمتطهرون : هم أهل الطهارة الحسية : وذلك بتطهير الظاهر - البدن - من الأنجاس والأرجاس بالوضوء والغسل ونحوه ، والمعنوية : بتطهير الباطن - القلب - من الشرك ، فأخبر سبحانه أنه يحب هذين الصنفين من الناس .

▪ وقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١] ، في هذه الآية جمع الله بين محبتهم له ومحبته لهم ، وشرط ذلك باتباع الرسول ﷺ . وهذه الآية تسمى بآية المحنة .

ذكر الحسن البصري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية ، قال : لما ادعى قوم أنهم أحباب الله ؛ امتحنهم الله بهذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فجعل علامة صدق من ادعى محبة الله تعالى هي اتباع رسوله ﷺ ، ليكون ذلك مميزاً للصادق من الكاذب في دعوى المحبة .

. . . .

وجعل من ثواب هذا الاتباع هذا الفضل العظيم ، والفائدة العظيمة ، وهي محبة الله لهم ، ومغفرته لذنوبهم في قوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فدلت هذه الآية على أن الله تعالى موصوف بالمحبة .

▪ وقوله تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] في هذه الآية قدم الله سبحانه وتعالى محبته على محبتهم ، فهو يحبهم لكونهم عباداً صالحين مطيعين ، ويحبونه لكونه ربًا منعمًا متفضلاً ، تفضل عليهم في الدنيا بأن هداهم للصراط المستقيم ، ويتفضل عليهم في الآخرة برضاه عنهم وإدخالهم في جنات النعيم .

▪ وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] ، يعني أنه يحب الذين يجاهدون في سبيله لتكون كلمته هي العليا ، فصرح بأنه يحبهم على هذا العمل . فدل ذلك على إثبات صفة المحبة له سبحانه .

▪ وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] في هذه الآية : إثبات أن الله تعالى غفور ستار لذنوب عباده ، وأنه هو الودود ، يعني الذي يحب عباده المؤمنين محبة خالصة ؛ لأن الودَّ هو خالصُ الحبِّ ، فهو سبحانه محب ودود لعباده المستغفرين له .

. . . .

فنخلص من هذه الآيات بأسباب حصول المحبة من الله للعبد ، وهي :

١ ـ الإحسان وإتقان الأعمال ، كما في الآية الأولى .

٢ ـ القسط والعدل في جميع الأحوال ، كما في الآية الثانية .

٣ ـ تقوى الله سبحانه ، كما في الآية الثالثة .

٤ ـ التوبة والرجوع إليه سبحانه كما في الآية الرابعة .

٥ ـ الطهارة : يعني تطهير القلب وتطهير البدن والثياب من النجاسات ونحوها ، كما في الآية الرابعة كذلك .

٦ ـ اتباع الرسول ﷺ وطاعته ، كما في الآية الخامسة .

٧ ـ الجهاد في سبيل الله ، كما في الآية السابعة .

فهذه بعض الأسباب التي تجلب محبة الله للعبد .

وبعد أن عرفنا أسباب حصول محبة الله تعالى ، وتحققنا أن الله تعالى يوصف بالمحبة ، وأنه يحب عباده المؤمنين ، نعرف أيضًا أنه سبحانه يوصف بالبغض والكره ، فإن البغض والكره ضد الحب ، وقد ذكر الله تعالى أنه لا يحبُّ أقوامًا ، ذكر وصفهم في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾** [القصص: ٧٧] ، وقوله : **﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾** [البقرة: ٢٠٥] بمعنى أن الله يبغضه ويكرهه ، وصرح تعالى بالكراهية ، كما في قوله تعالى : **﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾** [التوبة: ٤٦] يعني كره إثارتهم



. . . .

للجهاد في سبيل الله ، وكذلك أيضًا أثبت لنفسه المقت : وهو أشد البغض ، وقد أثبته الله لنفسه في قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [الصف : ٣] .

وسيأتينا الكلام على ذلك مفصلاً - إن شاء الله تعالى - .

فعرفنا أن الله يحب ويبغض ، وقد أثبت هذه الصفة - يعني صفة المحبة - أهل السنة ، وقالوا : إن الله يحب كما يشاء ، وإن المحبة صفة من صفاته ، وردت بها الآيات والأحاديث ، وقد تقدمت جملة من الآيات .

ومن الأحاديث ، قوله ﷺ : « إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي »[1] . وقوله : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[2] . فصرح بأن الله يحب .

فأثبتها أهل السنة ، وقالوا : محبة الله ثابتة له كما يليق به ، وهي تختلف عن المشيئة والإرادة ، وعن الرحمة ، وأنكرها المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم ، أما المعتزلة فقد عطلوا هذه الصفة ، ونفوها عن الله تعالى كما نفوا أكثر الصفات .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٥) في الزهد .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٤٣٨٦) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠١) ، وقال : رواه أبو يعلى عن عائشة ، وفيه مصعب بن ثابت ، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة . وحسنه الألباني لشواهده ، وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١١١٣) .



. . . .

وأما الأشاعرة فقالوا : إن المحبة لا تكون إلا في المخلوق ، ولا يوصف بها إلا المخلوق ؛ لأن المحبة هي : ميل النفس إلى المحبوب بسبب رقة تحصل فيه ، قالوا : وهذه نقص ، والله منزه عن النقص ، فامتنعوا من إثباتها ، وقالوا : إن المحبة هي إرادة الإنعام . والغضب ، والبغض : هو إرادة الانتقام ، ولكنهم أثبتوا الإرادة والمشيئة .

والإرادة هي : ميل النفس لجلب محبوب أو دفع مكروه .

فأثبتوا صفة الإرادة ، ونفوا صفة المحبة ، مع أن صفة المحبة تتفق مع الإرادة في جلب المحبوب ، فوقعوا في المتناقضات ، فقال لهم أهل السنة : لماذا أثبتم الإرادة ونفيتم الرحمة ؟ فقالوا : نحن أثبتنا إرادة خاصة بالله جل وعلا ، وهي تختلف عن إرادة المخلوق التي تقدم تعريفها . فقال لهم أهل السنة : ونحن أيضًا لا نثبت المحبةالتي تزعمون يعني : محبة خاصة بالمخلوق التي تقدم تعريفها ، وإنما نثبت محبة خاصة بالله ، تليق بجلاله وعظمته ، كما أنكم تثبتون إرادة تليق بجلال الله كما يشاء ، فاقطعوا الطريق ، وقولوا : نثبت محبة لله تليق به ، ولا تتكلفوا في التأويل .

ثم إن الأشاعرة قالوا : إننا استدللنا على إثباتها - يعني الإرادة - بالعقل ؛ لأن الفعل الحادث دال على القدرة ، والتخصيص دال على الإرادة ، وضربوا على ذلك أمثلة ، قالوا مثلاً . لو أن هناك أخوين ، أحدهما تقي والآخر

. . . .

شقي، أو أحدهما فقير والآخر غني ، أو أحدهما ضعيف والآخر قوي - مثلاً - .

فهـذا أراد الله به خيرًا ، وهذا أراد الله به شراً ، فلما شاهدنا ذلك عرفنا أن الله موصوف بالإرادة . فنحن إذن استدللنا عليها بالعقل - هذا زعمهم - .

والجواب أن نقول لهم : نحن أيضًا نشاهد أن الله تعالى يكرم أولياءه وينصرهم ، وهذا دليل على أنه يحبهم ، ونشاهد - أيضًا - أنه تعالى يخذل أعداءه ويهزمهم ، وهذا دليل على أنه لا يحبهم ، بل يكرههم ويبغضهم .

فنصر الله للمؤمنين وتأييدهم والتمكين لهم دليل على أنهم محبوبون لديه . وهزيمة الكفار وخذلانهم وإيقاع العقوبة بهم دليل على أنهم غير محبوبين لديه .

وكذلك إكرام الله للطائعين وإدخالهم الجنة دليل على محبته لهم ، وإهانته العصاة الكافرين وإدخالهم النار دليل على كرهه وبغضه لهم . فدل ذلك على أن المحبة شيء وآثارها شيء آخر .

فالخلاصة أن صفة المحبة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته ، وهي محبة خاصة به ، لا نعطلها ولا نشبهها بمحبة المخلوقين . فمحبة الله سبحانه لبعض الأعمال والأشخاص قد ذكرها في كتابه وذكرها رسوله ﷺ في سنته ، وكذلك فإن محبته لبعض الأشخاص لها لازم، وهو إرادته

. . . .

سبحانه لإكرامهم وإثابتهم ، وكذلك بغضه وغضبه على بعض الأشخاص يستلزم إهانتهم والانتقام منهم ، فنعلم من ذلك أن هناك فرقًا بين الصفة وبين لازمها والله أعلم .





٨ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] ، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[الأنعام: ١٢]، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ... ﴾):

هذه الآيات تتعلق بصفة الرحمة لله تعالى ، فإن من أسمائه سبحانه : الرحمن والرحيم . ومن صفاته : الرحمة وهي كسائر صفاته، نؤمن بها ولا نكيفها ، ولا نمثلها ، ولا نقول : إنها كرحمة المخلوق ـ يعني أنها ناتجة عن رقة وضعف ، فالمخلوق يتصف بالرحمة كما في قوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، وكما في قوله ﷺ : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[١] ، فدل ذلك على أن الإنسان قد يرحم

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٤١) كتاب الأدب . والترمذي برقم (١٩٢٤) كتاب البر والصلة . وقال الترمذي : حسن صحيح، وصححه الألباني ، وهو في صحيح الجامع رقم (٣٥٢٢).

. . . .

غيره . ولما قبّل النبي ﷺ أحد أولاد ابنته، قال له الأقرع بن حابس - رضي الله عنه - : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت أحدًا منهم، فقال النبي ﷺ : « **أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة** »[١] .

وكذلك قال أعرابي : أتُقَبّلون الصبيان، فإنا لا نقبلهم، فقال رسول الله ﷺ : « **من لا يرحم لا يُرحم** »[٢] .

ولما رفع إلى النبي ﷺ ولد ابنته ، وهو في سكرات الموت ، ونفسه تتعقع ، فاضت عيناه ﷺ - يعني بكى - ، فلما سئل عن ذلك قال : « **هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** »[٣] .

فدل ذلك على أن الرحمة تكون في قلب الإنسان ، فالرحمة التي في قلبك تظهر آثارها وهي الرقة نحو الذي ترحمه ، يعني أنك ترق على المرحوم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٨) في الأدب، باب : «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته». ومسلم برقم (٢٣١٧) في الفضائل، باب : «رحمته ﷺ الصبيان والعيال . . .» عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٧) في الأدب، باب : «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته». ومسلم برقم (٢٣١٨) في الفضائل، باب : «رحمته ﷺ الصبيان والعيال . . .» عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤) في الجنائز، باب : «قول النبي ﷺ : «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه** . . .»» . ومسلم برقم (٩٢٣) في الجنائز، باب : «البكاء على الميت». عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، ومعنى قوله : ونفسه تتعقع : القعقعة : حكاية حركة الشيء يسمع له صوت . والمعنى : وروحه تضطرب وتتحرك لها صوت وحشرجة كصوت الماء إذا ألقي في القربة البالية .

. . . .

وتعطف عليه، وتشفق عليه ، ويكون من آثار رحمتك له : أنك تدله على الخير ، وتأمره به، وتحذره من الشر ، وأنك تحميه وتواسيه . . . إلخ .

فهذه هي رحمة الإنسان ، وهذه هي آثارها ، وأما رحمة الله ـ تعالى ـ فنؤمن بها على الظاهر ،ولا نكيفها ، ولا نمثلها ، ولا نشبهها برحمة المخلوقين ،ونقول : إن من آثارها : كونه يرزق عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم: ٥١]، بعد قوله: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥٠] فجعل ـ سبحانه ـ إحياء الأرض من آثار رحمته ، وكذلك إرسال السحب ، وإنزال المطر من آثار رحمته ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، فجعل رحمته لها آثار ، وكأنه لما رحم العباد كان من آثار رحمته إياهم أن رزقهم ، وأغدق عليهم الخير .

فهذه من آثار رحمة الله في الدنيا ، وهي رحمة عامة للمؤمنين والكافرين، وهذا هو معنى اسمه الرحمن الذي يدل على الرحمة الواسعة الشاملة لجميع الخلق: مؤمنهم وكافرهم ،جنهم وإنسهم.

وأما « الرحيم » فهو يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] .

فالرحمة العامة للخلق كلهم من آثارها : أنه يرزقهم ، ويعطيهم ، ويمنحهم ما يشاؤون ، وأنه لم يعاجلهم بالعقوبة لو كفروا ، ولو فَسقوا ، ولو

. . . .

عصوا ؛ لأنهم عباده وخَلْقُهُ ، فهو يرزقهم ويعافيهم ويمهلهم ، وإن كانوا مستحقين للعقوبة ، ولكن يرحمهم في الدنيا .

أما رحمة الله للمؤمنين ، فإن لها أيضًا آثارًا ، **فمن آثارها في الدنيا** : أنه تعالى يهديهم ، ويوفقهم ويسدد خطاهم ، ويُقيم معوجهم ، ويتوب على من تاب منهم ، ويقبل أعمالهم ويضاعفها ، وما أشبه ذلك .

ومن آثارها في الآخرة : أنه يتجاوز عن المسيء ، ولو كانت سيئاته كثيرة ، إذا كان معه أصل التوحيد ، وأصل الإيمان ، وأنه يرفع درجات المُحسن ، ويُضاعف له الأجر .

وقد قال ﷺ : « **جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ؛ خشية أن تصيبه** »[١] . وفي لفظ : « **إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباقُ ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة** »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٠٠) في الأدب ، باب : «جعل الله الرحمة مائة جزء» . ورقم (٦٤٦٩) بنحوه في الرقاق . ومسلم برقم (٢٧٥٢) [١٧] في التوبة ، باب : «في سعة رحمة الله تعالى» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٢) [٢١] في التوبة ، باب : «في سعة رحمة الله تعالى» . عن سلمان رضي الله عنه .

. . . .

ومن آثار هذه الرحمة التي أنزلها : أن الدابة ترفع حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه، فإذا كان يوم القيامة رَحِمَ الله عباده بهذه التسع والتسعين رحمة الباقية ، وذلك لأن الخلق كلهم يجتمعون من أولهم إلى آخرهم ، فيرحمهم بهذه الرحمة الواسعة التي هي تسعة وتسعون . والمقصود بذلك هو التمثيل لما خلقه الله من الرحمة بعباده ، وليس المقصود هو انقسام صفة الرحمة إلى تسع وتسعين .

فنقول: إن الله متصف بأنه يرحم ، وبأنه راحم ، وبأنه قد رَحِمَ ، وبأنه رحْمَن ورحيم ، وكما أن الله تعالى ذكر الرحمة في القرآن بالاسم والصفة ، فقد ذكرها بصيغة الفعل الماضي ، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] ، وقال : ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤٢]. فدل ذلك على أن الله تعالى موصوف بالرحمة بلفظ الفعل، وذكرها بأفعل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] ، فدل ذلك على أن الخلق يرحمون، ولكن الله أرحم ، أي : أرحم منهم، بل أخبر النبي ﷺ بعظيم رحمته لعباده ، لما رأى امرأة أضاعت ولدها ، ثم وجدته فألزقته ببطنها ، وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها ، فقال: « **الله أرحم بعباده من هذه بولدها** »[1] يعني أنه رحيم بهم فلا يعاجلهم بالعقوبة، ورحيم بهم فيتجاوز عن سيئاتهم، ويضاعف حسناتهم ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٩) في الأدب ، باب: «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته». ومسلم برقم (٢٧٥٤) في التوبة، باب: «في سعة رحمة الله تعالى». عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

. . . .

فلذلك قال: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فعرفنا مما سبق من الآيات والأحاديث أن لله تعالى رحمة تليق به، وهي رحمة أزلية أبدية كاملة شاملة، كما أنه قد يوصف بعض المخلوقين بالرحمة، ولكن ليست رحمتهم كرحمة الله، بل هي رحمة قاصرة وزائلة.

ومع ذلك فقد أنكر صفة الرحمة بعض المبتدعة، كالأشعرية والمعتزلة، وقالوا: بما أن الرحمة هي: رقة في القلب ويكون من آثارها: ذل وانكسار للمرحوم، وبما أن ذلك لا يليق بالله؛ فلا يجوز وصف الله بها هكذا قالوا. فقلنا لهم: لماذا أثبتم الإرادة؟

قالوا: أثبتناها بالعقل؛ لأننا نجد أن الاثنين المستويين قد يخص أحدهما بالخير والهدى دون الآخر، أو بالصحة دون الآخر، أو بالغنى دون الآخر، فعرفنا من ذلك أن الله أراد، وأنه مريد، فوصفناه بذلك.

قلنا لهم: فكذلك الرحمة، لها آثار: فإننا إذا وجدنا أن الله تعالى يرزق هؤلاء، ويقوي هؤلاء وينصرهم على أعدائهم دلنا ذلك على أنه قد رحم هؤلاء، وقد غضب على أولئك ومقتهم، فمثلاً: من آثار رحمته أن أنجى بعض عباده؛ فأنجى نوحًا ومن معه في السفينة، وكذلك نجّى هودًا وصالحًا وشعيبًا والمؤمنين بهم من أممهم، وكذلك نصر النبي ﷺ، وَقوّاه على من كَفَر به من قومه، وأذلهم حتى رجعوا إلى الإسلام يوم فتح مكة راغبين راهبين، فدل ذلك كله على أن الله رحمهم لما نصرهم، وكذلك من آثار رحمته - سبحانه -: أن نصر المسلمين في صدر هذه الأمة، فقواهم حتى انتصروا على الدولتين العظميين اللتين كانتا آنذاك وهما: الفرس والروم، فتغلبوا عليهم

. . . .

وتملكوا بلادهم في نحو خمس وعشرين سنة أو أقل، حتى تَوغَّلوا وتوصّلوا إلى أقاصي البلاد ، فكل ذلك من آثار رحمة الله.

فالرحمة إذن قد دل عليها العقل كما دل عليها النقل ، فدل ذلك على اضطراب هؤلاء المبتدعة وتفريقهم بين المتماثلات .

ورحمة الله تعالى واسعة كما قال تعالى: ﴿ورحْمتي وسعتْ كُلَّ شيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولكن ينبغي أن نعرف أنه لا يجوز أن نتكل على رحمة الله، فنرتكب المعاصي والكبائر والموبقات ،فإن كثيرًا من الناس يرتكبون المعاصي والكبائر وينهمكون في الذنوب ، وإذا عاتبت أحدهم رد عليك قائلاً: رحمة الله واسعة ، الله أرحم بعباده، الله غفور رحيم ، هذه ذنوب صغيرة ،وما أشبه ذلك . **والجواب على ذلك أن يقال له :**

أولاً : إنك إذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة ، فإن الإصرار على الصغائر من جملة الكبائر .

ثانيًا : إنك لا تأمن إذا تهاونت بالصغيرة أن تجرك إلى كبيرة.

ثالثًا : إن المعاصي بريد الكفر ، فإنك إذا أكثرت من الصغائر جرتك إلى الكبائر ، ثم جرتك الكبائر إلى مقدمات الكفر والشرك، ثم إلى الكفر والشرك.

رابعًا : لا تأمن من عقاب الله لك على هذه المعصية حتى ولو كنت مسلمًا موحدًا فإن الله قد يعذب على المعصية ، سيما من تهاون بها مع معرفته بعظم الجرم ولو عقوبة قليلة ، فإن الإنسان لا يتحمل شيئًا من غضب الله ومن ناره ، فقد



. . . .

يعاقب فيدخل النار ولو زمناً قليلاً ، فكيف يتحمل عذاب النار وبئس المصير .

خامسًا : أن الله تعالى ذكر في هذه الآية سعة رحمته ، وحدّد المستحقين لها ، فقال : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] الآية .

فلابد من الاتصاف بهذه الأوصاف حتى تكون من أهل الرحمة ، فالذي يتعلق بالرحمة ولا يأتي بأسبابها لا يكون من أهلها ، فلابد من التقوى وتطهير النفس وتزكيتها بتوحيد الله ، ثم اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا ، والتقيد بأقواله وأفعاله ، وعدم الخروج عن إرشاداته ، فإن هذا هو حق الاتباع ، فمتى اتصف العبد بهذه الخصال كان من أهل الرحمة ، ولو لم يكن منها إلا التقوى التي وردت في أول الآية السابقة ، والتقوى كلمة عامة جامعة يدخل فيها فعل الخيرات كلها ، وترك المنكرات كلها ، فكيف يتعلق بالرحمة من لم يتصف بتلك الأوصاف .

سادسًا : تأمل في آيات الله تجد أن الله تعالى كلما ذكر الرحمة ذكر بعدها العذاب ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] . واقرأ قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ

. . . .

الرَّحِيمُ (٤٩) وأنَّ عذابي هُو العذابُ الأليمُ﴾ [الحجر : ٤٩] . واقرأ قوله تعالى : ﴿غافر الذَّنب وقابل التَّوب شديد العقاب﴾ [غافر : ٣].

فقد جمع الله تعالى في هذه الآيات بين الرحمة والعذاب حتى لا يتعلق المُفَرِّطُ بآيات الرحمة ، وينهمك في المعاصي ونحوها، بل يكون راجيًا خائفًا؛ إذا قرأ آيات الرحمة رجا ، وإذا قرأ آيات العذاب خاف، ويكون الخوف والرجاء له بمنزلة الجناحين - جناحي الطائر - لا يغلب أحدهما على الآخر.



٩ ـ إثْبَاتُ صِفَاتِ الرِّضَى وَالغَضَبِ والسُّخْطِ والأسَفِ والكُرْه والمَقْتِ :

[قوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] ، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾[النساء: ٩٣]، وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨] ، ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]] .



■ قوله: (قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ...):

هذه الآيات تضمنت صفاتٍ فعلية لله جل وعلا ، وكما هو معلوم أن صفات الله تعالى على قسمين :

الأول: الصفات الذاتية.

والثاني: الصفات الفعلية .

والفرق بينهما أن الصفات الذاتية هي الصفات اللازمة للموصوف دائمًا مثل: صفة الوجه، واليد، والسمع، والبصر ، والكلام، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، ونحوها، فهي صفات ملازمة لله سبحانه ، يعني أنها ملازمة لذاته سبحانه ، لا تنفك عنه بوجه من الوجوه .

. . . .

أما الصفات الفعلية: فهي الصفات التي يفعلها إذا شاء متى شاء لا على وجه الدوام ، وقد تُعرَّفُ بأنها التي تقوم بالموصوف وقتًا ، ويقوم به ضدها في وقت آخر ، مثل صفة النزول ، والمجيء ، والإتيان ، والرضا ، والغضب ، ونحوها .

• وقد تضمنت الآية الأولى : إثبات صفة الرضى لله سبحانه وهي قوله سبحانه : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [البينة: ٨] والرضا في المخلوق: هو انبساط القلب إلى المرَضيّ عنه ، وظهور البِشْر والفرح والسرور عليه، هذا في حق المخلوق، أما الرضا في حق الله: فإنه حقيقي ، ولكن لا نكيفه ، ولا ندري ما كيفيته .

والدليل على أنه الرضا الحقيقي أنه قارنه برضا المخلوق ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ في عدة آيات في القرآن ، منها هذه الآية في آخر سورة البينة ، ومنها الآية التي في سورة التوبة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فأثبت أنه رضي الله عنهم ، فدل على أنه يرضى ، وأنهم رضوا عنه . ورضاهم : قناعتهم بما أعطاهم ، كما في الحديث الصحيح: « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : هل رضيتم ، فيقولون: وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من العالمين ؛ ألم تبيض وجوهنا ، ألم تثقل موازيننا ، ألم



. . . .

تدخلنا الجنة وتنجينا من النار . . .الحديث» فهذا رضا المخلوق ، وأما رضا الخالق فهو - كما في بقية الحديث - أنه سبحانه يقول لهم : « **أُحِلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[1] ، فأثبت أنه يرضى ، وأن له رضى ، وأثبت ضده وهو السخط ، ومن الأدلة على أن الرضى هو ضد السخط .

● **الآية الثانية**: وهي قوله تعالى: ﴿ **ذلك بأنَّهُمُ اتبَعُوا ما أسْخط اللَّه وكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** ﴾ [محمد: ٢٨] السخط هو الغضب ، وهو ضد الرضا وقد أثبت الله لنفسه الغضب ، وأثبت لنفسه السخط ، ووصف نفسه بأنه يسخط ويرضى ويغضب .

فهؤلاء المنافقون: ﴿ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ يعني اتبعوا الشيء الذي يسخطه ويغضبه ، وهو عصيانهم وتمردهم عن طاعة الله .

وفي حديث الشفاعة المشهور يقول آدم ونوح وإبراهيم : « **إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله** »[2] .

فدل على أن الغضب صفة حقيقية ثابتة يتصف بها سبحانه إذا شاء متى

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٤٩) في الرقاق ، باب : «صفة الجنة والنار» . ورقم (٧٥١٨) في التوحيد . ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان ، باب : «معرفة طريق الرؤية» . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء ، باب : «قول الله عز وجل : ﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾» ، ومسلم برقم (١٩٤) في الإيمان ، باب : «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

شاء ، فهي من الصفات الفعلية ، ثم قال : ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ فذكره بالاسم - رضوانه - أي رضاه ، وقد ورد الرضا بالاسم والفعل .

• **الآية الثالثة:** وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥] فيها أيضًا إثبات ضد الرضى وهو الأسف بمعنى الغضب أو شدة الغضب . قوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ يعني أغضبونا ، جعل الأسف مكان الغضب ، يعني: أنهم اتبعوا الشيء الذي غضب الله عليهم لأجله ، وقد سمى الله الغضب أسفًا في قوله : ﴿ ولمَّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه غضْبان أسفًا ﴾ [الأعراف: ١٥٠] يعني غضبان غضبًا شديدًا.

فنقول: إن الله سبحانه يغضب ويأسف ويسخط كما يشاء، وهي من الصفات الفعلية .

• **الآية الرابعة :** وهي قوله تعالى : ﴿ ومن يقْتلْ مؤْمنا مُتعمِدًا فجزاؤُهُ جهنَّمُ خالدًا فيها وغضب اللَّهُ عليْه ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذابًا عظيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] .

والشاهد منها قوله : ﴿ وغضب اللَّهُ عليْه ولعنه ﴾ ففيها إثبات الغضب واللعن ، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، والغضب صفة فعلية يتصف الله بها إذا شاء ، وقد أثبتها أهل السنة لله سبحانه على ما يليق به ، ونفاها غالب المبتدعة ؛ كالأشاعرة ، والمعتزلة ونحوهم، فإنهم ينكرونها ، يقولون: لانعرف الغضب إلا أنه خاص بالمخلوق ، ويقولون: إن الغضب

. . . .

هو غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا لا يليق بالله ، فيقال لهم : إن هذا ما تعرفونه من صفات المخلوق ، فأما غضب الخالق فهو كما يليق به ، والآيات في الغضب أيضًا كثيرة منها قوله تعالى في آية اللعان : ﴿ **وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [النور : ٩]. فدل على أن الله يغضب إذا شاء .

• **الآية الخامسة** : وهي قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٤٦]، الشاهد قوله : (كره) ففيه إثبات الكره والكراهة بمعنى البغض ، دل على أن الله يكره ويبغض إذا شاء ، ومعنى الآية : أن الله تعالى كره خروج المنافقين مع المؤمنين للقتال ، فحبسهم عن ذلك لحكمة .

فكُره الله لخروجهم يفيدنا إثبات صفة الكراهية ، وهي أيضًا من الصفات الفعلية التي يتصف بها إذا شاء متى شاء .

• **الآية السادسة** : وهي قوله تعالى : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٣] فيها إثبات المقت ، ومثلها قول الله تعالى : ﴿ **لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [غافر : ١٠]. والمقت : هو البغض الشديد ، دل ذلك على أن الله يمقت أي يبغض وهو ضد الحب ، وورد في الأحاديث إثبات صفة البغض لله تعالى كما في الحديث الصحيح : « **إن الله إذا أبغض عبدًا نادى جبريل ، فقال : إني أبغض فلانًا فأبغضه** »[١] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٧) في البر والصلة ، باب : «إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

فيجب علينا إثبات هذه الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي: صفة المقت والكراهية، وهي متقاربة، والكراهية ضد المحبة، ويجب إثبات الغضب والأسف، وهي متقاربة، واللعن والسخط والأسف.

وهذه الصفات ـ كما تقدم ـ هي صفات فعلية ـ يفعلها الله إذا شاء متى شاء ـ كما يليق به سبحانه، فنثبتها له سبحانه من غير تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تكييف، فالله سبحانه يرضى إذا شاء ويغضب إذا شاء ويحب إذا شاء، ويكره ويبغض إذا شاء . . . إلخ.

فهي صفات فعلية اختيارية، قد تسمى أفعالاً بالنسبة إلى ورودها بلفظ الفعل: كره ورضي، فهي أفعال، وتسمى صفاتًا؛ حيث إنه يتصف بها ذلك الكاره والمحب، والمبغض ونحوه. ويجب إثبات كل ذلك على ما يليق بجلال الله وكماله.

❁ ❁ ❁

١٠ ـ إِثْبَاتُ صِفَتي الإتْيَان وَالمَجيء:

[وَقَولُه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾[البقرة: ٢١٠]، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢] ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥]].



▪ قوله: (وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ... ﴾):

هذه الآيات فيها إثبات مجيء الله تعالى وإتيانه لفصل القضاء كما يشاء ، وكما يليق بجلاله ، وقد جاءت بلفظ المجيء ، وبلفظ الإتيان ، فيجب إثبات هاتين الصفتين الفعليتين لله تعالى كما يليق بجلاله وكماله .

• الآية الأولى : في سورة البقرة : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ .

قال بعض السلف : إن الملائكة هي التي تأتي في ظلل من الغمام ، والله تعالى يأتي فيما يشاء ، ففرَّق بين إتيانه وإتيان الملائكة ، فقال : يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ، يعني : وتأتي الملائكة .

وقيل : إن الظُّلَل هي الملائكة ، يعني أنه يأتي ، وكذلك الملائكة تأتي

. . . .

وكأنهم ظلل من الغمام ، والغمام هو : قطع السحاب المتفرق الذي يكون ظلاً دون الشمس . فشبه إتيان الملائكة بالغمام لكثرتهم ؛ حيث إنهم يسدون الأفق .

● أما الآية الثانية : في سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : ﴿ **هَلْ ينظُرُون إلاَّ أن تَأْتيَهُمُ الْمَلائكَةُ أَوْ يَأْتي رَبُّكَ أَوْ يَأْتي بَعْضُ آيَات ربِّك يوْم يأْتي بعْضُ آيات ربِّكَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

فهي - أيضًا - صريحة في إتيان الله تعالى ، لأنها جاءت بلفظ الإتيان ، أو يأتي كما في قوله : ﴿ **هلْ ينـظُرُون إلاَّ أَن تَأْتيَهُمُ الْملائكَةُ** ﴾ يعني : هل ينتظر هؤلاء المكذبون الجاحدون إلا أن تنزل عليهم الملائكة بالعذاب في الدنيا ، أو تأتيهم الملائكة في الآخرة ، وقوله : ﴿ **أَوْ يأْتي ربُّك** ﴾ يعني هل ينتظرون إلا يوم القيامة الذي يأتي الله فيه لفصل القضاء ومحاسبة العباد . ففيه دليل على الفرق بين قوله : ﴿ **أن تأْتيهُمُ الْملائكة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **أوْ يأتي ربُّك** ﴾ . فدل ذلك على إثبات إتيان الملائكة وإتيان الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ **أوْ يأْتي بعْضُ آيات ربِّك** ﴾ يعني : أو هل ينتظرون إلا أن تأتيهم عقوبة الله لهم ، أو آياته المعجزات الباهرات التي يريها عباده . ثم بعد ذلك ﴿ **يوْمَ يأْتي بعْضُ آيات ربِّك لا ينفعُ نفْسًا إيمانُها لمْ تكُن آمنت من قبْلُ أوْ كسبت في إيمانها خيرًا** ﴾ .

يعني : إذا أتت آية من آيات الله ؛ فإنه يُخْتم بعدها على الأعمال ، فلا يقبل من نفس إيمانها بعد الكفر إذا لم تكن مؤمنة من قبل ، بل كلٌّ يبقى على

. . . .

ما هو عليه من الإيمان أو الكفر قبل نزول أو ظهور تلك الآية ، وذلك لقرب قيام الساعة.

وفسرت هذه الآية بأنها طلوع الشمس من مغربها يعني: يوم تطلع الشمس من مغربها ، هنالك في ذلك الوقت لا ينفع نفسًا إيمانها ؛ لأن الإيمان في ذلك الحين يكون قد انتهى واكتمل ، فليس بعده إيمان ؛ لأن الناس قد رأوا ذلك عياناً فلا ينفعهم الإيمان ، فمن أراد أن يؤمن أو يزداد إيمانًا بعد ظهور تلك الآية فلا يقبل منه ذلك ولا ينفعه ، وقد ورد في الحديث : « **إن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس ؛ آمنوا كلهم أجمعون** » قال النبي ﷺ : « **فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا** »[١] ، وفي الحديث : « **لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها** »[٢] ، وفي حديث آخر ، قال ﷺ : « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** »[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٦) في الرقاق، باب: «٤٠». ومسلم برقم (١٥٧) في الإيمان، باب: «بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٢) وصححه الألباني أثناء كلامه على الحديث رقم (١٦٧٤) من السلسلة الصحيحة. وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٦٧١): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٤٧٩) في الجهاد ، وأحمد في المسند (٤/ ٩٩). والدارمي (٢/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) رقم (٢٥١٣). وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٥٠، ٢٥١). والطبراني في الكبير (٩/ ٣٨٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٤٦٩). وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٤/ ٢٤٠). والمشكاة (٢٣٤٦). والإرواء (١٢٠٨). ويشهد له حديث أحمد السابق.

. . . .

فدل ذلك على أنها إذا طلعت من مغربها انقطعت التوبة ، وفيه حث الإنسان أن يستعجل ويبادر بالتوبة قبل أن يأتي وقت لا تقبل فيه توبته ، فيندم على ذلك أشد الندم .

• **أما الآية الثالثة** : في سورة الفجر ، وهي قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢١ ، ٢٢].

هذا أيضًا في يوم القيامة ، ومعنى قوله : ﴿ دُكَّتْ ﴾ أي رُصَّت ومدت كما في الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣]، وقوله تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٦ ، ١٠٧] .

فيوم القيامة تمد الأرض مدًا كبيرًا ، بحيث تتسع للأولين والآخرين من الجن والإنس والملائكة ، وكذلك تسوى بحيث تكون مستوية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، لا ترى فيها خفض ولا رفع ولا قصر ولا جبل ولا شجر .

الشاهد قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . يعني جاء الله وجنس الملك وهم الملائكة صفوفًا ، فهذه الآية فيها إثبات صفة المجيء لله تعالى .

• **أما الآية الرابعة** : من سورة الفرقان ، وهي قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : ٢٥]. يعني أنه في يوم القيامة تشقق السماء وتتقطع قطعًا وتكون كأنها غمام لكثرة قطعها وتفاوتها .

. . . .

وقد ذكر الله تعالى في آيات أخرى أن السماوات تتقطع وتتفطر كما في قوله : ﴿ إذا السَّماءُ انشقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿ إذا السَّماءُ انفطرتْ ﴾ [الانفطار: ١] ، وقوله: ﴿ وفُتحت السَّماءُ فكانتْ أبْوابا ﴾ [النبأ: ١٩] ، وقوله : ﴿ يوْم تكُونُ السَّماءُ كالْمُهْل ﴾ [المعارج: ٨] .

فالحاصل أن السماء تتقطع وتكون كالغمام ، وينزل الملائكة الذين فيها : ﴿ ونُزِّل الْملائكةُ تنزيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥] . فدل ذلك على أن الملائكة ينزلون .

نأخذ من هذه الآيات إثبات إتيان الله ومجيئه . وهاتان الصفتان من الصفات الفعلية الغيبية التي نؤمن بها ولا نكيفها، ولا نمثلها، بل نقول : إن الله تعالى يأتي كما يشاء وإن مجيئه يليق به ، ولا يلزمنا من ذلك القول بأن العرش يخلو منه أو أنه لايخلو ، أو أن العرش يكون فوقه ، أو أن يكون شيء من المخلوقات حاصرًا له ، تعالى الله عن ذلك .

بل نقول : إن الرب تعالى أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من خلقه ، وإذا أتى فلا يلزم أن يكون محاطاً به ، قال تعالى : ﴿ ولا يُحيطُون بشيْءٍ منْ علْمه إلاَّ بما شاء ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال : ﴿ ولا يُحيطُون به علْمًا ﴾ [طه: ١١٠] ، فلا يحيط بالله شيء من خلقه ، بل هو المحيط بهم . كما في قوله تعالى : ﴿ أحاط بكُلِّ شيْءٍ علْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] . ففي هذه الآيات إثبات المجيء .

. . . .

وكذلك ورد في أحاديث كثيرة إثبات المجيء والنزول ونحو ذلك، كحديث النزول: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...**»(١) فأهل السنة يثبتون هاتين الصفتين، ويمرونهما كما جاءتا من غير تكييف أو تمثيل أو تعطيل.

وأما المبتدعة: من أشعرية ومعتزلة وشيعة ونحوهم، فقد أنكروا مدلول هذه الآيات ونحوها، وقالوا: إن المراد إتيان أمره سبحانه، فلذا يقولون في الآية الأولى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، وأن قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] أي: أمر ربك، وكذلك قوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر: ٢٢] أي: جاء أمر ربك، فيجعلون في الآية إضماراً، وهو خلاف الأصل؛ لأن الأصل أنها لا تحتاج إلى مضمر، بل هي على ظاهرها كما هي، ولا يجوز التكلف في رد هذه النصوص، أو في تأويلها.

واستدلوا على ضلالهم بمثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ [النحل: ٣٣] ونقول: نعم؛ هذه صريحة في أن المراد بأمره يعني: عذابه ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾ يعني بالعذاب ﴿**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾، يعني: أن يأمر ربك بعذاب كصيحة أو رجفة أو ريح مهلكة وما أشبه ذلك، فهذا لا شك فيه ولا إشكال، أن تأتيهم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥) في التهجد، باب: «الدعاء والصلاة من آخر الليل». ومسلم برقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين، باب: «الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الملائكة بالعذاب بأمر من الله ، أو يأتي ربك بالعذاب، فهناك فرق بين قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ، وبين قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ بالمضارع والمستقبل.

وأما الآيات التي يأتي فيها الإتيان بلفظ الماضي ، كقوله تعالى في قصة بني النضير في سورة الحشر : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر: ٢] هنا المراد بقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي : بالعذاب ، أتاهم الله بجنده وحزبه المفلحين فسلطهم عليهم ، فحاصروهم وهزموهم ، فمثل هذا ظاهر البيان ؛ لأنه في الدنيا وبالماضي ، فلا يحتاج إلى أن يقاس عليه ما هو من خصائص الغيب والأمور الأخروية .

فهذه العقوبة التي تنزل بالناس في الدنيا مثل الريح أو الصيحة أو الرجفة ، أو مثل الزلازل أو البراكين أو الخسف - يعني خسف بعض الأماكن لتغير في باطن الأرض - كما يحدث في هذه الأيام - نقول : إن ذلك من أمر الله، ولا يستطيع أحد رده ، ونقول للذين يعللون ذلك - يعني الزلازل والبراكين - بأنها ظاهرة طبيعية أو نحو ذلك : عالجوها وأمسكوها بقوتكم وباختراعاتكم وأجهزتكم ، فإذا كان بركانًا في الأرض ، فلماذا لا تمسكونه ؟ أمسكوه حتى لا ترتجف الأرض وتتزلزل ، أو اصرفوا وادفعوا هذه الريح حتى لا تقع البيوت وتقطع الأشجار ، وردوها من حيث جاءت .

فالحاصل أن ذلك كله من أمر الله ، فهو سبحانه يسلط على عباده أنواعًا



. . . .

وصنوفًا من العذاب ، وهذا في الدنيا كما تقدم .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ فهو في الآخرة، يأتي إتيانًا يليق بجلاله وكماله كما يشاء ، فلا نكيف ولا نمثل ولا نشبه مجيئه بمجيء الإنسان أو المخلوقات ، ولا نقول : إنه إذا جاء يكون محصوراً مجيئه في شيء من مخلوقاته ، بل هو الذي ﴿ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] ، ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

❁ ❁ ❁

١١ ـ إثْباتُ صفة الوجْه :

[وقوْله : ﴿ ويبْقىٰ وجْهُ ربِّك ذُو الْجلال والإكْرام ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، ﴿ كُلُّ شيْء هالكٌ إلاَّ وجْههُ ﴾ [القصص: ٨٨]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ ويبْقىٰ وجْهُ ربِّك ذُو الْجلال والإكْرام ﴾ ...):

هاتان الآيتان دلتا على إثبات الوجه لله تعالى كما يشاء، وقد وردت في القرآن آيات كثيرة فيها إثبات الوجه، كقوله تعالى: ﴿ ولا تطْرُد الذين يدْعُون ربّهُم بالْغداة والْعشيِّ يُريدُون وجْههُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكذلك قوله: ﴿ واصْبرْ نفْسك مع الّذين يدْعُون ربّهُم بالْغداة والْعشيِّ يُريدُون وجْههُ ﴾ [الكهف: ٢٨]. أي يقصدون وجه الله بالرضا، أي رضا وجهه سبحانه، وقوله سبحانه: ﴿ إنّما نُطْعمُكُمْ لوجْه الله ﴾ [الإنسان: ٩] أي: ابتغاء رضاه سبحانه.

ورد أيضًا في السنة أحاديث كثيرة تثبت الوجه لله تعالى، منها قوله ﷺ: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1]، وكقوله ﷺ عن ربه: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٤) في التوحيد. باب: «قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يوْمئذٍ ناضرةٌ ﴾»، ومسلم برقم (١٨٠) في الإيمان، باب: «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى» عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه.



. . . .

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1] ، وقوله: **«أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم »**[2] وغيرها من الأحاديث .

فيجب إثبات صفة الوجه لله تعالى كما يشاء الله ، وكما يليق بجلاله وكماله ، وهو صفة ذاتية أثبتها الله لنفسه ولم يخبرنا بكيفيتها ، وإذا أثبتنا الصفة توقفنا عن الكيفية ، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ومن جملة صفاته : صفة الوجه ، فليس وجهه كوجه المخلوقين ، بل هو صفة تليق به سبحانه . وقد أنكر المعطلة الوجه لله تعالى ، وقالوا: إن المراد بالآيتين المتقدمتين هو بقاء ذاته ؛ لأنه يستحيل أن يبقى وجهه وحده بدون ذاته، ونرد عليهم بأنه سبحانه قد أضاف الوجه إليه في كلتا الآيتين ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾[الرحمن: ٢٧] ، ﴿ وَجْهَهُ ﴾ . فدل ذلك على اتصافه بالوجه .

ولكن نقول: إن المقصود ببقاء وجهه هو بقاء ذاته سبحانه ، فلا يدعونا ذلك إلى إنكار صفة الوجه وتعطيلها أوتأويلها وتحريفها بأنه الجهة أو الثواب أو نحوذلك . وكذلك لا يلزم من إثبات الوجه لله تعالى وصفه سبحانه بأن له جسمًا مكونًا من أعضاء وجوارح ونحو ذلك ، بل نثبت ذلك لله كما يشاء من غير تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان ، باب: «في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينام»». وفي قوله: «حجابه النور...». عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٦) في الصلاة . وصححه الألباني ، وهو في صحيح الجامع رقم (٤٧١٥) .



١٢ ـ إثْبَاتُ صِفَةِ اليَدَيْن :

[وَقَــوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَقَــالَتِ الْيَهُــودُ يَــدُ اللَّهِ مَغْلُــولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيــهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]].



▪ قوله: (وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾...):

هاتان الآيتان أوردهما المصنف ـ رحمه الله لإثبات اليدين لله سبحانه وتعالى حقيقة على ما يليق به .

• **الآية الأولى:** قوله تعالى في سورة « ص» : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، فيها إثبات أن الله تعالى خصَّ آدم ـ عليه السلام ـ بأنه خلقه بيديه سبحانه ، فأثبت الله تعالى لنفسه يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وكماله . وقد حرف ذلك المعتزلة والأشعرية ، فقالوا: المراد خلقته بقدرتي أو خلقته بنعمتي يعني أن المراد باليد : القدرة أو النعمة . **ويجاب عليهم بجوابين:**

الأول: بأن يقال لهم : أليس إبليس مخلوقًا بقدرة الله ؟ إذًا يأتي إبليس يقول: وأنا يا رب خلقتني بقدرتك ، فلا يكون لآدم فضيلة وميزة على إبليس؛ لأن الجميع مخلوقون بقدرة الله. وكذلك فإن الجميع مخلوقون

. . . .

بنعمته ، ليس أحد مستقلاً بنفسه ، وكلٌّ منهم منعم عليه ، فإبليس قد أنعم الله عليه بخلقه وإيجاده ، فكيف يقول الله تعالى لإبليس : اسجد لآدم الذي خلقته بنعمتي وقدرتي ، مع أن إبليس مخلوق بنعمة الله وقدرته ؟! ، فلو كان المراد باليد : النعمة والقدرة ، لقال إبليس : وأنا كذلك يارب خلقتني بقدرتك ونعمتك ، فدل ذلك على تفضيل الله لآدم بأنه خلقه بيديه الحقيقيتين كما يشاء .

الجواب الثاني: أن الله سبحانه وتعالى ذكر « اليد » بلفظ المثنى ، فقال : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ولم يقل « بيدنا» بل ذكرها بلفظ التثنية ، والله تعالى لا يوصف بأن له قدرتان فقط ، فلا يقال : « بقدرتينا» ؛ لأن قدرة الله عامة شاملة ولا تحصر بعدد ، وكذلك لا يقال: « بنعمتيَّ » ؛ لأن نعم الله كثيرة لا تعد، ولا تحصر باثنتين فقط ، فدل ذلك على أن المراد بذلك إثبات يدين حقيقيتين لله تعالى كما يشاء .

وبعض المبتدعة يقولون : إن المـراد بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . يعني: توليت خلقه، وليس المراد إثبات اليد، بل المراد إثبات تولي ذلك والعناية به.

والجواب عن ذلك بأن يقال: إن جميع المخلوقات قد تولى الله خلقها ، فلماذا ذكر الله ذلك في تميز آدم على إبليس مع أن إبليس وآدم قد تولى الله خلقهما جميعًا ؟ فدل ذلك على أن المراد باليدين هما الحقيقيتان على ما يشاء تعالى.

. . . .

وأما قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ [الذاريات: ٤٧] فالمراد بذلك: القوة، فليس الأيد جمع يد بل الأيد: هو القوة، وقد استخدمها العرب بذلك كما يقال: فلان له أيد، يعني قوة، وفلان يملك أيدًا، يعني: قوة. ولا يقال: فلان يملك أيديًا، كما قال الله تعالى عن داود - عليه السلام - ﴿ذا الأيد﴾، أي ذا القوة في عبادة الله، فليس المراد بالأيد هنا جمع يد، بل المراد بالأيد القوة.

• **الآية الثانية**: قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾ [المائدة: ٦٤] قولهم: يد الله مغلولة أي عن النفقة والعطاء، يعني أنه لا ينفق، والعرب تعبر عن البخل بِغَلّ اليد، كما قال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ [الإسراء: ٢٩].

أي لا تجعل يدك مغلولة بحيث إنك لا تنفق ولا تتصدق مما في يدك، وقوله: ﴿**ولا تبسطها كل البسط**﴾ يعني: لا تزد في النفقة إلى درجة الإسراف، فالمراد بقولهم: ﴿**يد الله مغلولة**﴾ يعني عن النفقة، أي لا ينفق بها - سبحانه وتعالى - فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿**غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان**﴾ يعني مبسوطتان بالعطاء وبالرزق وبالفضل على العباد، فالمقصود ببسط اليد هو: كثرة العطاء وكثرة الإنفاق الذي هو أهله، فدل ذلك على إثبات اليدين لله تعالى كما يليق بجلاله؛ لأن التعبير ببسط اليد، وإن كان

. . . .

المقصود به كثرة النفقة والعطاء ، لكنه لا يجوز إطلاقه إلا على من اتصف بهذه الصفة في الأصل .

وقد وردت أيضًا بالجمع كما قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا** ﴾ [يس : ٧١] أي مما خلقنا ، فلماذا ذكرها الله بلفظ الجمع - أيدينا - ؟

الجــــواب : أن ذلك يستخدم في لغة العرب للتعظيم والتفخيم وليس للجمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] ، فقوله : « إنا » يعني : الله نفسه ، وذلك للتعظيم ، فالذي يعظم نفسه ، يذكر نفسه بلفظ الجمع ، يقول مثلاً : ربحنا وخسرنا وأحضرنا وأمرنا وأعطينا ، ومنعنا ، ونحو ذلك ، والضمير يعود على شخص واحد ، فكأنه يعظم نفسه ، والله سبحانه وتعالى أحق بالتعظيم ، وبأن يعظم نفسه ، فكذلك قوله : ﴿ **خلقنا لهم مما عملت أيدينا** ﴾ . أيدينا هنا بلفظ الجمع لأجل التعظيم ، جمع اليد وأضافها إلى ضمير الجمع والمقصود هو ذات الله تعالى .

وقد ورد ذكر اليد بصيغة المفرد كما في قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك** ﴾ [الملك : ١] ، وقوله : ﴿ **وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، والمقصود بها الجنس - جنس اليد - لا العدد ، ووردت بلفظ اليمين كما في قوله تعالى : ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

ووردت بلفظ القبض ، كما في قوله تعالى : ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم**

. . . .

الْقيامة ﴾ [الزمر: ٦٧] فهذه الأدلة صريحة في إثبات اليد الحقيقية لله سبحانه وتعالى، وفيها رد على المعتزلة الذين يحرفونها كما يشاءون، فيقولون: إن المراد باليد: القدرة، أو النعمة، أو المراد بذلك: التهويل - تهويل الأمر - وليس هناك أمور حقيقة، وهذا كله من تحريف الكلم عن مواضعه وإضلال الله لهم.

كذلك أيضًا وردت في السنة أحاديث كثيرة صحيحة صريحة في إثبات اليدين الحقيقيتين لله تعالى على ما يليق به، لا يستطيع المعتزلة وغيرهم تأويلها - تحريفها - كقوله ﷺ: «**المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين مباركة، الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا**»[1].

فقد ذكر هنا لفظ «اليمين» وذكر لفظ «اليدين»، ومعنى قوله: «وكلتا يديه يمين» من اليمن الذي هو البركة والخير، وكذلك في قوله ﷺ: «**يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفقه منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع**»[2].

وذكر ابن كثير أحاديث كثيرة عند قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [الزمر: ٦٧] في قبض الله للمخلوقات يوم القيامة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**يطوي**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٧) في الإمارة، باب: «فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩) في التوحيد، باب: «﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾». ومسلم برقم (٩٩٣) [٣٧] في الزكاة، باب: «الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف». عن أبي هريرة رضي الله عنه.



. . . .

الله السماوات بيمينه ويقبض الأرض بيمينه »[١] .

ومثل قول ذلك اليهودي للنبي ﷺ : « إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك »[٢] ، وقوله ﷺ : « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء »[٣] .

وفي حديث آخر ، قال ﷺ : « يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »[٤] .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : « ما السماوات السبع والأرضون

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣٨٢) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿ملك الناس﴾». ومسلم برقم (٢٧٨٧) في صفات المنافقين، باب: «كتاب صفة القيامة والجنة والنار». عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٤) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾». ومسلم برقم (٢٧٨٦) [١٩ ، ٢١] في صفات المنافقين، باب: «كتاب صفة القيامة والجنة والنار». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤) في القدر، باب: «تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء». عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٨) في صفات المنافقين، باب: «كتاب صفة القيامة والجنة والنار». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

. . . .

السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم» .

فتحصل لنا من هذه الآيات والأحاديث ؛ أن لله يدين حقيقيتين كما يشاء، وأنه يقبض بهما ويبسط ، ويرفع ويخفض ، وأن له أصابع . . . إلخ .

والغرض والقصد من تعلمنا ومعرفتنا لهذه الصفات العلى لله جل وعلا عدة أمور :

الأمر الأول: أنها صفات كمال ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

الأمر الثاني: أنه يجب على المسلم أن يتبع النصوص ويصف الله تعالى بما وصف نفسه، أو وصفه رسوله ، ولا يحرف ولا يعطل ولا يمثل ولا يشبه .

الأمر الثالث: أن فيها تعظيمًا للمتصف بها ، سيما إذا اعتقد من وصفه بها عدم مشابهتها لصفات المخلوقين ، واعتقد عظمتها وعدم إحاطة شيء من المخلوقات بها ، فإن الإنسان متى اعتقد أن الله يقبض السماوات السبع بيمينه - مع عظمتها - والأراضين السبع بشماله مع سعتها ، عرف عظمة خالقه وإلهه ، ولم يجرؤ على معصيته .

كيف يعصيه هذا الآدمي الضعيف ، وكيف يخرج عن طواعيته ، وكيف يبارزه بالمخالفة مع علمه بعظمة ربه وإلهه ، ولهذا ورد عن أحد السلف أنه قال : لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظمة من تعصيه .

فعلم العبد بعظمة الله ، وتَسَمِّيه بالأسماء الحسنى ، واتصافه بالصفات العلى يحجزه عن معصية خالقه، ويدفعه إلى طاعته بامتثال أوامره واجتناب

. . . .

نواهيه.

والخلاصة : أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى يدين حقيقيتين تليق بجلال الله وكماله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تأويل ومن غير تشبيه ولا تمثيل.



١٣ ـ إثْبَاتُ صِفَةِ العَيْنِ :

[وَقَوْلُهُ: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ، ﴿وحملْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه: ٣٩]] .

الشرح

▪ قوله: (وقوله: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ...):

• الآية الأولى : في سورة الطور : ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ المعنى أنا نراك ، وأنت على مرأى منا، ولا تغيب عن نظرنا فسنحفظك ، ففيه إثبات أنه بمرأى من الله ،كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. يعني بمرأى ومسمع مني ، فأثبت الله لنفسه سمعًا يسمع به ، وبصرًا يبصر به.

وأثبت سبحانه لنفسه الرؤية كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، فهكذا قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي نراك ، فأثبت لنفسه العين وجمعها ، وقال: « بأعيننا » لماذا؟ للتعظيم كما تقدم أن الجمع قد يراد به التعظيم ، فلما عظم الله ذاته بأن جعل الضمير « نا » وهو في الأصل للجمع لكنه هنا للتعظيم جمع العين ، فقال: « بأعيننا » فصار الجمع مناسبًا ؛ فجمع الضمير « نا » لتعظيم ذاته وجمع الأعين لمناسبة الجمع للجمع .

. . . .

والمعنى : أنك بمرأى منا ولا تغيب عنا . وليس المراد أنك بداخل أعيننا ، وقد جاءت السنة بإثبات عينين لله تعالى يبصر بهما كما في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : « **إن ربكم ليس بأعور** »[1] يعني أن له عينين سليمتين من العور .

• **الآية الثانية** : في سورة القمر : ﴿ **وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ** ﴾ [القمر : ١٣ ، ١٤] .

يعني أن الله حمل نوحًا ومن آمن معه على سفينة من أخشاب ومسامير ، وأخبر أن هذه السفينة تعوم على الماء وهي تحت نظر الله وبمرأى منه جل وعلا ، وإذا كان الأمر كذلك ، فسيحفظها وسيحرسها وسيكلؤها ومن فيها ، وليس المقصود أنها بداخل عينه جل وعلا .

• **الآية الثالثة** : في سورة طه ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ [طـه : ٣٩] يخبر سبحانه فيها أنه يحب عبده ونبيه موسى عليه السلام محبة خاصة ، ولذلك فستتربى على مرأى مني ومرقب ، فأحفظك من كل سوء ومكروه .

وليس في قوله تعالى : ﴿ **عَلَى عَيْنِي** ﴾ دليل على أن الله تعالى عينًا واحدة ، بل المقصود بذلك جنس العين لا عددها ، لأنه ورد في السنة ما يفيد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٣١) في الفتن ، باب : «ذكر الدجال» . ومسلم برقم (٢٩٣٣) في الفتن ، باب : «ذكر الدجال» عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

. . . .

أن لله تعالى عينين حقيقيتين تليقان به ، وأما عن ورودها في القرآن بصيغة الجمع وبصيغة الإفراد ، فليس فيه دليل لأهل التحريف الذين يحرفون معناها إلى الحفظ والرعاية ، ولا يثبتون لله صفة البصر وصفة العين ؛ لأن ورودها بصيغة الجمع للتعظيم ، وورودها بصيغة الإفراد للجنس - يعني جنس العين لا عددها - وأما الحفظ والرعاية فهو من آثار رؤية الله لعبده ونبيه .

فالحاصل : أن أهل السنة يثبتون لله تعالى عينين حقيقيتين كما يشاء ، من غير تعطيل ولا تحريف ، ومن غير تمثيل ولا تكييف .





١٤ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالرُّؤيَةِ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١] ، وَقَوْلُه : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ـ٢٢٠]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]].



▪ قوله: وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ...﴾):

هذه الآيات أوردها المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات صفتي السمع والبصر، وهاتان الصفتان من الصفات الذاتية .

ثم هذه الآيات صريحة في إثبات السمع ؛ لأنها جاءت بصيغة الفعل ، وجاءت بالمضارع ، وجاءت بالاسم .

. . . .

بالماضي كقوله تعالى في سورة المجادلة : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...﴾ الآية. وكذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ...﴾ ؛ لأن التعبير بسمع في الماضي يدل على أمر قد حصل ، فقد سمع الله قول المجادلة ، وسمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء.

وبالمضارع كقوله في آية المجادلة : ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، والمضارع يؤتى به للحال وللاستقبال ، والمعنى : أن الله يسمع تحاوركما في الحال ، أو يسمع تحاوركما في المستقبل ، فهذا صريح في وقوع السمع، ومثله أيضًا ـ بلفظ المضارع ـ قوله تعالى في سورة طه : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، فقد أثبته بلفظ المضارع، وكذلك قوله في سورة الزخرف : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ .

فالتقدير : بلى نسمع سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ فعبر بالمضارع ليدل على وقوعه في المستقبل ، وفي الحال، ومثله أيضًا قوله تعالى في سورة براءة : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] هذا في الرؤية في المستقبل ، وبالاسم كما في قوله تعالى ، في آية المجادلة ـ في آخرها ـ : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ، وفي بعض الآيات : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ، وفي بعضها : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَاللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ، فإثبات ذلك

. . . .

بلفظ الاسم يدل على تحقق الصفة ، أي تحقق وصف الله بمقتضى ذلك الاسم ؛ لأن الاسم له ثلاث دلالات ، هي :

الأولى : دلالة على الذات ، وتسمى دلالة المطابقة .

الثانية : دلالة على الصفة المشتقة ، وتسمى دلالة تضمن .

الثالثة : دلالة على بقية الصفات ، وتسمى دلالة التزام .

فاسم الله تعالى « السميع » يعني ذو السمع الشامل ، لا ينطبق إلا على الذات الربانية ، فهو يدل على الذات - يعني ذات الله - مطابقة ؛ لأنه اسم الله حقًا .

ويدل على الصفة تضمنًا ، وهي صفة السمع ، وهي : إثبات أنه يسمع ؛ لأن السميع مشتق من السمع ، ويدل عليه التعليل بما قبله ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٧] يعني يسمع طلاقهم . ويدل على بقية الصفات بالالتزام ؛ لأنه إذا كان سميعًا استلزم سمعه أن يكون مدركًا لما يسمع ، واستلزم أن يكون بصيرًا ، واستلزم أن يكون قادرًا وقاهرًا لخلقه كلهم وهكذا .

- الآية الأولى : في سورة المجادلة ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

. . . .

الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة ، جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي إليه زوجها ؛ لأنه ظاهر منها ، يعني قال لها : أنت عليَّ كظهر أمي ، فأخذت تكلمه خفية ، وتقول : أشكو إلى الله ، وأشتكي إلى الله مما فعل ، وتقول عن الصبية الصغار الذين عندهم : « إن ضممتهم إليَّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا» فأنزل الله الآيات في أول سورة المجادلة ، وجعل له كفارة . . . إلخ .

فقوله : ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ يعني في شأن زوجها الذي ظاهر منها ، وقال : أنت عليَّ كظهر أمي ، ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ فراقها لأولادها ، لما قال لها النبي ﷺ : « ما أراك إلا قد حرمت عليه »[1] فهي تشكو أمرها إليه .

والشاهد هو قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فأثبت لنفسه سمعًا يدرك به المسموعات ، وبصرًا يدرك به المرئيات ، وقد ورد أن عائشة رضي الله عنها قالت : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله وأنا في ناحية من البيت ، ما أسمع ما

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٧/ ٣٨٥) ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٦٨) وعزاه لابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في السنن . وقال البيهقي في السنن : هذا مرسل لكن له شواهد . قلت : وفي سنده أيضًا علي بن عاصم . قال ابن معين : ليس بشيء . وقال النسائي : متروك .

. . . .

تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ فدل ذلك أن الله يدرك بسمعه الأصوات على اختلافها.

• **الآية الثانية**: في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ [آل عمران: ١٨١]، هذه الآية نزلت في اليهود، عندما نزل قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله هذه الآية كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد سمع الله قولهم هذا لما تكلموا به، لم يخف عليه منهم خافية وسيجازيهم على ذلك.

• **الآية الثالثة**: في سورة الزخرف، وهي قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٠] هذه الآية نزلت في المشركين، يقول تعالى عنهم: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٩] ثم قال: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ أي بلى نسمع سرهم ونجواهم ولذلك وكلنا بهم رسلاً - يعني ملائكة - يكتبون حسناتهم وسيئاتهم. فلا يخفى علينا شيء من أمرهم وإن استخفوا وتستَّروا.

• **الآية الرابعة**: في سورة طه، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ**

. . . .

وَأَرَىٰ﴾ هذا خطاب من الله لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون ، وأمرهما أن يقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى ، وثبتهما الله على ذلك ، فقال لهما : ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فأثبت بأنه معهما بعلمه وحفظه ويسمع كلامهما لفرعون ويرى مكانهما ومكان فرعون ، لا يحجبه عن ذلك شيء ، فهو يعلم السر وأخفى ، وهذا دليل على سعة علم الله تعالى، فإن سمعه يتسع لجميع الأصوات ، وقد كان دعاءعائشة رضي الله عنها: **الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**، وقالت ذلك لما حكت قصة المجادلة ، وهي خولة بنت ثعلبة .

فكونه سبحانه وسع سمعه الأصوات ، يعني أنه يسمع القاصي والداني ، ولا يخفى عليه شيء من الأصوات ؛ قويها وضعيفها ، سرها وجهرها ، في كل مكان ، وفي كل زمان ، وبأي لغة ، فدلت هذه الآية على إثبات صفتي السمع الذي يدرك الله به جميع الأصوات ، والبصر الذي يدرك الله به جميع المرئيات ، فدل ذلك على اتصافه جلَّ وعلا بهاتين الصفتين.

• **الآية الخامسة**: في سورة العلق ، وهي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وهذه الآية وما بعدها فيها إثبات صفة الرؤية لله تعالى كما ورد في الآية السابقة: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقد نزلت هذه الآية في أبي جهل ـ لعنه الله ـ عندما منع النبي ﷺ من الصلاة بالبيت ووبّخه الله وتوعده، وقال : ألا يعلم هذا الشقي أن الله يرى جميع الأشياء ، ولا يخفى

. . . .

عليه خافية من أمره، حتى يمنع نبيه من عبادته والصلاة في البيت ، فأثبت الله في هذه الآية صفة الرؤية لجميع الأشياء .

• الآية السادسة : من سورة الشعراء ،وهي قوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠] يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ بذلك . والمعنى أنه يراك في ظلمة الليل حين تقوم للصلاة، ولو كنت في جوف بيتك، لا يخفى عليه شيء من أمرك ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ يعني: ويرى تقلبك وتنقلك بين الساجدين - يعني المصلين - من حال إلى حال، فلو كنت في مسجد مثلاً ، والمسجد مليء بالمصلين ، فالله تعالى يراك ويعلم خافيتك ، ويعلم ما في ضميرك : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يعني: أنه يسمع الكلام والقراءة والذكر ونحو ذلك سراً كانت أو جهراً ، وهو عليم بذات الصدور ، وبما يكنه ويخفيه صدرك .

والشاهد قوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ فأثبت تعالى لنفسه البصر الذي يرى به جميع الأشياء .

• الآية السابعة: في سورة التوبة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] حث الله عباده على العمل الصالح ، وأنهم إذا عملوا فإن الله يراهم ، ولا يخفى عليه خافية - من أمرهم - ، فيجازيهم على ذلك أحسن الجزاء ، فرؤية الله عامة في كل زمان

. . . .

وقوله : ﴿ ورسوله ﴾ يعني : عندما يكشف الله له أو يعلمه بذلك . قوله : ﴿ والمؤمنون ﴾ يعني : عندما يرونهم يعلمون أعمالهم الظاهرة .

الشاهد قوله : ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ دل ذلك على إثبات الرؤية لله ، وأنه سبحانه يرى ببصره جميع الأشياء ، ولا تواري منه سماء سماءً وأرض أرضًا .

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى سمعًا حقيقيًا ، يدرك به جميع المسموعات ، وبصرًا حقيقيًا يدرك به جميع المرئيات ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل .

فإذا عرفت ثبوت هاتين الصفتين قد تقول : ما فائدة اعتقادهما؟ أو : ما الذي يستفيده الشخص إذا اعتقد أن الله سميع بصير ، وأن الله يسمع ويرى؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن فائدة هذا الاعتقاد لابد أن تكون محسوسة .

فإذا اعتقد العبد اعتقاداً جازمًا بأن الله يسمع جميع الأصوات ، فإن ذلك يوجب له أن يكون حذرًا من أن يسمع الله منه كلامًا لا يرضيه ، كأن يتكلم كلامًا محرمًا ؛ من كذب ، أو نميمة ، أو غيبة ، أو نحو ذلك ، فيكون دائمًا خائفًا وجلاً ، لا يتكلم إلا بالخير . فإن الله تعالى هو الذي خلقه ، وهو الذي رباه بنعمه ، وهو مالكه ، وقد نهاه عن الكذب ، ونهاه عن النميمة ، ونهاه

. . . .

عن الغيبة ، ونهاه عن قول الزور وشهادة الزور ، ونهاه عن السخرية بإخوانه المؤمنين، إلى غير ذلك مما نهاه الله عنه ، فإنه إذا عَلمَ علْم اليقين أن الله يسمعه، فإنه سيحاسب نفسه، ويقول : كيف أقول ذلك والله يسمعني ، كيف أقدم على هذا الكذب ، والله يسمعني ، كيف أفسد بين الناس والله يسمعني ، كيف أذكر أخي المسلم بما يكره في غيبته والله يسمعني، كيف أقول الزور وأشهد مع فلان على فلان كاذبًا والله يسمعني، كيف أسخر من أخي المسلم والله يسمع ما أقول ، فيكون اعتقاده ذلك رادعًا وزاجرًا له عن الوقوع فيما نهى الله عنه .

وهكذا أيضًا إذا أيقن ، وإذا علم علم اليقين ، واعتقد اعتقاداً جازمًا بأن الله يراه من كل حال وعلى كل حال ، وفي كل زمان وفي كل مكان ، فإن اعتقاده وإيقانه وإيمانه بذلك يردعه ويمنعه ويكفه عن أن يقدم على مالا يحل له، أو يتأخر عن الواجب .

وقد روى أن أحد العلماء أوصى أحد أصحابه ، فقال له : إياك أو احذر أن يراك الله حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك ، ومعنى قوله : يراك حيث نهاك يعني يراك على معصية قد نهاك عنها في مكان فيه صخب ولغو ومضيعة لحدود الله ، يراك في مكان تنتهك فيه حرمات الله ،ويفترى فيه على الله الكذب. يراك في مكان يسخر فيه بآيات الله ويستهزأ بها ، يراك في مكان يُعصى فيه الله علنًا جهارًا ، ويستخفى فيه بمعصية الله ، أو يجاهر بها ، ويستهان باقترافها ، أو يراك وأنت متلبس بمعصية .

. . . .

ومعنى قوله: أو يفقدك حيث أمرك ، يعني : احذر أن تتخلف عن أوامر الله، وعن الأماكن التي يطاع فيها الله وتفعل فيها أوامره ، فاحذر أن يفقدك الله في المساجد ـ مثلاً ـ في أوقات الصلاة ، أو في حلقات العلم أو حلقات الذكر ، أو يفقدك مع الذاكرين الله كثيراً ، ومع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، أو يفقدك مع حجاج بيته الحرام ، أو يفقدك مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ونحو ذلك من أبواب الخير التي أمر الله بها عباده وجعلها واجبة عليهم .

ثم إن هذا يسمى عين المراقبة ، إذا علمت أن الله يراك، واستحضرت ذلك عند كل عمل ، كانت هذه عين المراقبة .

وهناك مرتبة أرفع منها، وهي عين المشاهدة، وهما مذكورتان في قوله ﷺ : « **الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١] .

قوله: « **أن تعبد الله كأنك تراه**» هذه عين المشاهدة، وقوله: « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » هذه عين المراقبة .

فهذه هي ثمرة اعتقاد اتصاف الله تعالى بالسمع الذي يدرك به جميع الأصوات ، والبصر الذي يدرك به جميع المرئيات.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب برقم (٨) في الإيمان، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . .».

١٥ - إِثْبَاتُ صِفَتَي المَكْرِ وَالكَيْدِ :

[وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣]، وَقَوْلُه: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] ، وَقَوْلُه: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠] وَقَوْلُه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]].

الشرح

▪ قوله: (وقوله: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ...):

هذه الآيات فيها بيان شيء من أفعال الله تعالى ،وهي المكر والكيد ، يوقعها الله بمن يستحقها من خلقه من الكافرين والظالمين والمجرمين .

• قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي شديد العقوبة لمن طغا وتمادى في غيه وكفره ، فالجزاء من جنس العمل .

والمكر هو بمعنى الاحتيال أيضًا إلا أنه أخص منه ؛ لأن المكر هو حيلة خفية يتوصل بها إلى أمر لا يرضي الممكور به .

• قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] الذين مكروا هنا هم اليهود ، لما مكروا ليقتلوا عيسى ، فحاولوا بكل جهدهم على المكر به وقتله ، فاجتمعوا وتشاوروا ، ثم دخلوا عليه بغتة هو ومن معه ، فعند ذلك مكر الله بهم ، فألقى شبهه على واحد من الحواريين الذين معه فقبضوا عليه ظنّاً منهم أنهم قبضوا على عيسى فقتلوه وصلبوه ،

. . . .

واعتقدوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ [النساء : ١٥٧] ألقي شبهه على غيره .

• قوله تعالى : ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ [النمل : ٥٠] ، يخبر الله تعالى فيها عن الذين مكروا بصالح عليه السلام لما حاولوا أن يقتلوه هو ومن معه ، وقال تعالى : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون (٤٨) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون (٤٩) ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ [النمل : ٤٨ - ٥٠] مكروا فجاءوا بالحيل ، وحاولوا التسور ، وحاولوا التبيت ، ولكنهم ما نجحوا في مكرهم ، بل عاقبهم الله وأهلكهم مع من أهلك ، فهذا عاقبة مكرهم ، وكذلك قد ذكر الله مكر الأمم السابقة ، قال تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ [إبراهيم : ٤٦] ، دل على أنهم قد احتالوا ومكروا ، والمكر من أعمال الحيل ، ومكر الله تعالى بهم : هو خداعهم وإظهار الشيء كأنه نعمة وهو في الحقيقة نقمة ؛ لأن إنعام الله تعالى قد يكون مكرًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، فهذا قد يكون من باب المكر ، وقد يسمى أيضًا استدراجًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ [القلم : ٤٤] .

وقول النبي ﷺ : « إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على المعاصي ،

. . . .

فاعلم أنه استدراج»[١] وقد يسمى أيضًا إمهالاً ، يعني تأخيرًا ، كما في الحديث : « **إن الله ليملي للظالم** - يعني يؤخره - **حتى إذا أخذه لم يفلته»**[٢] .

• وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا** ﴾ الكيد في الإنسان معروف وهو إعمال الحيل للتوصل إلى شيء خفي ، ولكن كيد الله صفة تليق به ، ليست مثل الصفة الخاصة بالآدمي - يعني الاحتيال - بل هي كما يليق بالله تعالى : ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ معلوم أن الله تعالى ليس بحاجة إلى مداراة أو مجاراة أو نحو ذلك ، ولكن قد يَكون رزقه وإنعامه وجوده ومعافاته فيها استدراج وإمهال ، وقد يسمى ذلك ظاهرًا بالكيد أو المكر .

فهذا ونحوه مما يثبت صفة المكر والكيد والمخادعة ونحو ذلك من الصفات الفعلية التي يفعلها الله ، ولكنها ليست مذمومة ، بالنسبة إلى الله تعالى لوقوعها موقعها ، وليست كصفة المخلوق ، بل هي كما يشاء الله ، ومن الناس من أنكرها وقال : إن المراد بالمكر والخداع والكيد ونحوها المقابلة والمجازاة ، فنقول : بل الله وصف نفسه بذلك ، وأثبتها لنفسه ، فلا يجوز تأويلها كما يقول هؤلاء ، بل نقول إنها كما يشاء الله .

وهذه الصفات لا يجوز أن يشتق منها أسماء لله تعالى ؛ لأن الأسماء لا تشتق إلا من الصفات التي يمدح بها مطلقًا ، أما هذه فإنه قد يمدح فاعلها ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٤٥) بسند ضعيف ؛ فيه رشدين بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) كتاب التفسير . ومسلم برقم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة .

. . . .

وقد يذم ، وكذلك فإنها وردت بصيغة الفعل ، فيجوز أن يقال : الله يمكر بالظالمين ، الله يكيد بالكافرين ، الله يخادع المنافقين ، أو الله يستهزئ بالكافرين، ولكن لا يصح أن يجعل منها أسماء لله عز وجل، فلا يجوز تسميته بالمُستهزئ ، ولا المخادع ، ولا الماكر ، ولا الكائد ، ولا المحتال ، ونحو ذلك ؛ لأنها لا يمدح بها على الإطلاق .

❊ ❊ ❊

١٦ ـ إِثْبَاتُ صِفَاتِ العَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى :

[وَقَوْلُهُ: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] ، ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]] .



■ قوله: (وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ... ﴾):

هذه الآيات فيها إثبات عدد من الصفات ، مثل صفة العفو والغفران والرحمة ، وقد وردت بلفظ الفعل ، ووردت بلفظ الاسم ، وصفة الاسم.

● الآية الأولى: وهي قوله: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

فالعفو اسم من أسماء الله ، وهو من أحب أسمائه إليه ، ويجب أن يُدعى به ، وقد كان النبي ﷺ يدعو به بقوله: « **اللهم إنك عفوٌ ، تحب العفو فاعفُ عني** »[1] .

والعفو: هو الصفح والتجاوز عن الأخطاء ، و العفو من الله هـو أن يصفح عن عباده ويمحو عنهم أخطاءهم وزلاتهم ويعافيهم ، ومنه قول بعضهم :

رب اعف عنه وعافه فلأنت أولى من عفا

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥١٣)، كتاب الدعوات. وابن ماجه برقم (٣٨٥٠) كتاب الدعاء، وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

بمعنى تجاوز واصفح ، وهذا من صفات الله الفعلية يفعلها متى يشاء ، وليس عفوه كعفو المخلوق الناقص ، فإن عفو المخلوق مثلاً قد يكون بإزالة ما في قلبه من الحقد ، فيقول مثلاً : عفوت عن خطئك ، وإساءتك تجاهي ، وذهب ما في قلبي عليك من البغض ، وأما عفو الله ، فهو كما يشاء الله ، وكما يليق به ، ليس منه مجاوزة لحد أو تشبيه لمخلوق .

• الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت في أبي بكر لما قطع النفقة عن مسطح بن أثاثة ، وكان ممن دخل في قول أهل الإفك الذين رموا عائشة بالإفك ، وكان أبو بكر ينفق عليه لكونه قريبًا له ، فلما قال هذه المقالة ، ورمى عائشة بما رماها به ، أراد أبو بكر أن يقطع النفقة عنه ، فعاتبه الله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [1] ثم قال : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ يعني : ليعفوا عما صدر من أولئك ويصفحوا عما كان منهم ، فكما أنهم يحبون أن يعفو الله عنهم فليعفوا عمن أساء إليهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فأمر عبده أن يعفو ويصفح ، فوصف نفسه بأنه غفور رحيم . وصفتا المغفرة والرحمة من الصفات الفعلية ، فالله يغفر ويرحم ويعفو كما يشاء ولمن يشاء .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر هذه القصة في صحيح البخاري برقم (٤٧٥٠) ، في التفسير ، باب : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ...﴾ . ومسلم برقم (٢٧٧٠) في التوبة ، باب : «في حديث الإفك وقبول توبة القاذف» . من حديث عائشة رضي الله عنها .

١٧ - إِثْبَاتُ صِفَةِ العِزَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى :

[وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] ، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]] .

الشرح

▪ قوله: (وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ...):

في هذه الآيات التي ساقها المؤلف رحمه الله: إثبات صفة العزة لله عزوجل.

• الآية الأولى: قوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ردٌّ على المنافق الذي قال: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾، فرد الله عليه بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

العزة : الغلبة والقوة والمنعة ، وكمال القدرة ، فأخبر الله سبحانه بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ هو العزيز الذي يعز رسله ، وهو الذي ينصرهم ، وهو الذي يعز عباده المؤمنين ، وهو الذي يقويهم ، فالعزة صفة ذاتية له ، لأنها من الصفات الملازمة للموصوف .

• الآية الثانية : حكى الله عن إبليس في سورة «ص» أنه أقسم بالعزة، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ دل على أن الله موصوف بالعزة ، وذكر

. . . .

أن أسماء الله تدل على صفاته ، وقد تكرر اسم العزيز في القرآن ، في مثل قوله سبحانه : ﴿ وإنَّ اللَّه لهُوَ الْعزيزُ الْحكيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢] ، ﴿ إنَّهُ هُوَ الْعزيزُ الْحكيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿ وهُو الْعزيزُ الحكيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤] ، فسمى الله نفسه العزيز في هذه الآيات . وكذلك ذكره بلفظ الفعل في قوله: ﴿ وتُعزُّ من تشاءُ وتُذلُّ من تشاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] . وكذلك بلفظ اسم الفعل كما في هذه الآية : ﴿ وللَّه الْعزَّةُ ولرسُوله وللْمُؤْمنين ﴾ .

ويدل هذا أيضًا على جواز الحلف بصفات الله ؛ لأن الحلف بها حلف بالمتصف بها ، ويجوز أن تسأل الله بصفته ، فتقول : أسألك بعزتك التي لا ترام ، ويجوز أن تحلف بها ، فتقول : وعزة ربي كذا وكذا .

ولا يجوز الحلف بعزة المخلوق ؛ فإن ذلك تعظيم لذلك المخلوق ، كما حلف سحرة فرعون لما ﴿ فَأَلْقَوْا حبالَهُمْ وعصيَّهُمْ وقَالُوا بعزَّة فرْعَوْنَ إنَّا لَنَحْنُ الْغَالبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فأقسموا بعزته ، فهذا تعظيم لذلك المخلوق .

مسألة : بعض العوام يحلف فيقول : « ورب العزة» فهل هذا يجوز؟

الجواب: يجوز ذلك لأن الله قد أثبت ذلك ، فقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ربِّك ربِّ الْعزَّة عمَّا يصفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠] فيجوز أن تجعل العزة صفة لله ، وهي مشتقة من اسمه العزيز ، ويجوز أن تضيفها إلى ربوبية الله ، فتقول :

. . . .

رب العزة » يعني : مالك القوة ، والقدرة والاستطاعة كلها مربوبة لله ، كما قال تعالى : ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠]، فإذا قلت : وعزة الله، فيكون مرادك الصفة التي هي من صفاته ، فعزة الله يعني صفة العزة التي له .

وإذا قلت : ورب العزة فيكون مرادك ما خلقه من العزة في المخلوقات ونحوها .

❁ ❁ ❁

١٨ - إثْبَاتُ الاسْمِ لِلَّهِ وَنَفْيِ المِثْلِ عنهُ :

[وَقَوْلُهُ : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وَقَوْلُهُ : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وَقَوْلُهُ : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]].

الشرح

■ قوله : (وقوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ ...) :

هذه الآيات في النفي ، أي أن الله تعالى يصف نفسه بالنفي ، ولكن على وجه الإجمال كقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ . وقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ هذه كلها من الصفات السلبية ، يصف الله نفسه بصفات فيها سلب ، يعني فيها نفي ، فأولاً نفى السمي . والسمي هو المسامي ، يعني : هل تعلم أحدًا يستحق كاسمه؟ أو هل تعلم أحدًا يتسمى باسمه الذي هو الله؟

وقال بعضهم : إنه تعالى قد حفظ هذا الاسم عن أن يطلق على مخلوق من خلق الله ، فلا يحفظ ولا يذكر من تسمى به ، أو من سمى به مخلوق خلقه الله، بل لما سمّى الله به نفسه منع غيره أن يتسموا أو يسموا به . قال تعالى :

. . . .

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وهذا معنى لا سميّ له ، وقيل : معنى سميّ يعني شبيهًا ، أي : هل تعلم له من يساميه أي يشابهه ، والمشابهة هنا تكون في الذات ، أي هل تعلمون من يكون مثله في ذاته .

وقد تكون بالقدرة والصفات ، أي أنك لا تعلمُ له سميّاً يساميه في تمام القدرة ، وفي سعة الرزق والعطاء ، وكذلك في سعة القوة والقدرة ، وفي الاستطاعة على العقاب ، ونحو ذلك : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ . الجواب : لا .

والآية خطاب للنبي ﷺ ، والمراد أفراد أمته يعني : هل تعلم يا محمد أو هل تعلم أيها الإنسان له سميًا؟ ، إن قيل : سميًا ، يعني مشابهًا ، فليس لله شبيه ، وإن قيل : سميًا : يعني مساميًا يساميه ويستحق اسمًا كاسمه ، فلا نعلمه .

وإن قيل : سميًا يعني من تسمى بالله ، سواء أكان محقًا أو مبطلاً ، أو من نفسه أو من غيره ، فلا نعلمه ، وهذه من النفي العام ؛ لأنه يدخل فيها نفي جميع النقائص ، يعني هل تعلمُ له سميًا ، أي مساميًا له في قدرته ، أو مساميًا في استطاعته ، أو سميًا في ملكه وتصرفه ونحو ذلك . الجواب : لا أعلم له سميًا ، فليس لله من يشابهه .

فالآية فيها قولان :

القول الأول : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني هل تعلم من يتسمى باسم « الله » .

والثاني : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني شبيهًا ، أو مثيلاً يشابهه ويساميه

. . . .

ويستحق كاسمه أو يستحق كما يستحق من العبادة .

• قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الكفؤ بمعنى المكافئ ، والمكافئ للشيء هو المماثل له ، تقول : فلانٌ كفؤٌ لفلان ، يعني شبيه ، وقيل : مكافئ له ، تكافأ فلان وفلان يعني تقاربا أو تماثلا إما في الخلقة؛ وإما في القوة ، وإما في القدرة ، أو في المنزلة ، فهما متكافئان . أما الله تعالى فليس له كفؤ .

• قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: جمع ندّ ، والندُّ هو الشبيه والمثيل والشريك، والمشركون يجعلون مع الله الأنداد فيحبونها كمحبة الله ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

ومعنى كحب الله ، أي مثل حبه ، أي يجعلون نصف محبتهم لله ونصفها لأندادهم .

وقيل: يحبونهم كحب الله ، أي كالحب الواجب لله ، والواجب على الإنسان أن يحب الله ويقدم محبته على محبة النفس والأهل والمال ، ولكن هؤلاء يحبون أندادهم وشركاءهم مثل الحب الذي يحبون به الله على حد سواء ، أو يحبونهم كالحب الذي يحبُّ به الله .

وكان عليهم أن يصرفوا الحب كله لله تبارك وتعالى ، وأن تستغرق قلوبهم في محبته ولا يمنع هذا من محبة دينه وشرعه ورسله وأوليائه ؛ لأن هذا من

. . . .

دلائل وعلامات حبّ الله عز وجل ، فالمراد هنا هو محبة السر لا محبة العاطفة والرحمة ، فكل إنسان يحب قريبه وولده وأهله ونحو ذلك .

أما محبة السر فهي محبة خاصة وهي عبادة لا تصلح إلا لله تعالى .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ . قيل : أشد حبًا لله من هؤلاء المشركين لله ؛ لأن المشركين يحبون الله ويحبون آلهتهم وأندادهم على حد سواء .

فإذا كانوا يحبون أندادهم مثل محبة الله ، فأهل الإيمان أشد حبًا لله ؛ لأن أصحاب الأوثان قد ضعفت محبتهم ؛ حيث إنهم قد صرفوا بعضها إلى تلك الأنداد وتلك الآلهة ، والمحبة الخالصة أقوى من المشوبة .

والشاهد أن الأنداد التي أنكرها الله بقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ هي الأشباه والأمثال والشركاء والنظراء ، فالآية ردٌّ على المشبهة الذين يجعلون لله مشبهًا ونظيرًا وندًا سواءً تنديدًا عامًا أو تنديدًا خاصًا .

والتنديد العام : هو أنه يجعل لله مثلاً في صفاته وأفعاله ، وهذا أكبر كفر .

والتنديد الخاص : أن يجعل لله ندًا في صفة من صفاته ، مثل أن يجعل لله ندًا في المحبة كما في هذه الآية : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أو يجعل لله ندًا في

. . . .

الخوف؛ يخافونهم كمخافة الله ، أو يجعل له ندًا في استحقاق العظمة؛ يقول: هذا عظيم وعظمته كعظمة الله ، فيكون هذا تنديدًا في العظمة ، وهكذا في باقي الصفات الفعلية .

❁ ❁ ❁



١٩ ـ نَفْي الشَّرِيكِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى:

[وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] ، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢] ، وقولُهُ : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] ، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ...﴾):

ساق المؤلف رحمه الله هذه الآيات في نفي الشريك عن الله تعالى.



. . . .

• **الآية الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾** وتسمى آية العز ، وفيها تنزيه الله تعالى عن صفات النقص: لم يتخذ ولدًا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له وليٌّ من الذل ، هذه صفات نقص ، اتخاذ الولد صفة نقص ؛ لأن الولد يشبه أباه ، والله تعالى ليس له شبيه .

واتخاذ الشريك مع الله أيضًا لا يجوز ، وذلك لأن الله ليس له شريك في أي نوع من الشركة ، يعني ما شاركه أحد في خلق المخلوقات ، في خلق السماوات أو الخلق أو العباد ولا شاركه في رزقهم وإنعامه عليهم ، ولا شاركه مخلوق في حفظهم ومراقبتهم إلا بإذنه ، ولا شاركه أحد في التصرف فيهم كما يشاء. وإذا كان كذلك ، فلا يجوز أن يشاركه أحد في العبادة ، أو في استحقاق العبادة .

وهكذا ليس له ولي من الذل فهو سبحانه العزيز ذو القوة المتين وذو العزة المتعالي عن الذل وعن الحاجة إلى ولي ومعين. ثم أمره بالتكبير أي عظمه تعظيمًا كبيرًا وداوم على تكبيره وإجلاله، وذلك مما يعظم به قدر الرب تعالى في قلوب الذاكرين والمكبرين ويحملهم على دوام الطاعة والتعظيم وامتلاء قلوبهم بالهيبة والإجلال واستحضار عظمة الله تعالى في جميع الأحوال.

• وأما الآية الثانية: وهي أول سورة التغابن فقد أخبر تعالى بأن كل ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات تسبحه وتعظمه بما في ذلك



. . . .

الناطق والبهيم والحيوان والجماد كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس والإجلال مما يدل على أن جميع المخلوقات مقرة بربوبية الله تعالى وعظمته واستحقاقه للعبادة، ثم أخبر بأن الملك لله وحده وهو الملك الحقيقي الذي لا يزول ولا يحول، و به يتصرف في الكون كما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. فهو مالك الملك وملك الناس والذي تخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، فيتصرف فيهم تصرف المالك في عبيده كما يشاء، كما أن له الحمد، فهو المحمود على كل حال فيحمد على إنعامه وإفضاله كما يحمد على ابتلائه وامتحانه، ويستحق الحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله فله الحمد كله وإليه يرجع الأمر كله، وهو على كل شيء قدير، فأثبت في هذه الآية الملك والحمد وكمال القدرة، وأثبت تسبيح المخلوقات بحمده.

• **أما الآية الثالثة**: وهي فاتحة سورة الفرقان فقد ابتدأها بالبركة، وهي كثرة خيره وعطائه لعباده، فكل ما في الكون فهو من فضله وهو الذي يضع البركة في ما يشاء من المخلوقات، وقد وصف نفسه بأنه الذي نزل الفرقان على عبده ورسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم الذي أنزله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام، والتنزيل من الله تعالى دليل إثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى على خلقه كما يشاء.

❋ ❋ ❋

• ٢٠ ـ إِثْبَاتُ صِفَةِ الاستِوَاء :

[وَقولُهُ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْش اسْتَوَى ﴾ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ في سبعة مواضع :

فِي سُورَةِ الأعرَافِ ، قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] . وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس: ٣] . وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد: ٢]. وقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥] . وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان: ٥٩] . وقال في سورة الم السَّجْدَة : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [السجدة: ٤] . وقال في سورة الحديد: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الحديد: ٥]].

. . . .

. . . .

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ...):

من عقيدة أهل السنة إثبات صفة العلو، وأن الله عليٌّ بجميع أنواع العلو.

وأنواع العلو ثلاثة: علو الذات، وعلو القَدْر، وعلو القهر.

* **فعلو القهر**: في مثل قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، فنقول مثلاً: الملكُ عالٍ على أهل البلد، بمعنى قاهر لهم، فالعلو لله بمعنى القهر، فهو عليٌّ بمعنى قاهر.

* **وعلو القدر**: أي المنزلة بين الشيئين، إذا كان أحدهما أرفع قدرًا وأعلى في النفوس، فإنه يسمى أيضًا عاليًا. تقول مثلاً: الرجال أعلى من النساء يعني قدرًا. وتقول: الذهب أعلى من الفضة يعني قدرًا، فكل شيء أرفع قدرًا من غيره، فإنه يصلح أن يوصف بالعُلو، فإذا قلت مثلاً: اللحم أعلى من التمر يعني أعلى قدرًا.

فالله تعالى له العلو، بمعنى علو القدر، وله العلو بمعنى علو القهر، وعلو الذات.

والأدلة على إثبات صفة العلو كثيرة، قد تصل أفرادها إلى المئات أو تزيد على الألف، ولكن تنحصر في أنواع، حصرها ابن القيم في نونيته في واحد

. . . .

وعشرين نوعًا ، يعني أنواع الأدلة التي تدل على إثبات صفة العلو ، وتحت كل نوع أفراد أدلة كثيرة .

فمن الأنواع مثلاً : التصريح بالاستواء ، كما في هذه الآيات .

ومن الأنواع : التصريح بالعلو ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

ومن الأنواع : التصريح بالفوقية ، كقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] .

ومن الأنواع : التصريح بالعروج ؛ عروج الأشياء إليه ، كقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] .

ومن الأنواع : التصريح بالصعود ، كقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

ومن الأنواع : التصريح بإنزال الأشياء منه ، كقوله تعالى : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

ومن الأنواع : التصريح بذكر السماء ، كقوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦] .

ومن الأنواع : التصريح بالرفع ، كقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] .

. . . .

ومن الأنواع : تصريح كل الخلق بعلو الله ، كقول فرعون : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾[غافر: ٣٦، ٣٧] كما سيأتي .

ومن الأنواع : ذكر اتفاق الرسل .

ومن الأنواع : الفطرة .

ومن الأنواع : الإجماع ؛ إجماع أهل العلم .

والحاصل أنها تصل إلى واحد وعشرين نوعًا ، لما ذكرها ابن القيم بدأها بآيات الاستواء، وذكر أنها سبع في نونيته [١] :

مِنْهَا اسْتِوَاء الرب فَوق الْعَرْش فِي   سَبْعٌ أَتَت فِي مُحْكَمِ الْقُرْآن
وَكَذَلِكَ اطردت بِلَا لَامٍ وَلَو   كَانَت بِمَعْنَىٰ اللَّام فِي الاذهان
لآتت بهَا فِي مَوضِع كي يحمل الْ   بَاقِي عَلَيْهَا بِالْبَيَانِ الثَّانِي

يقول رحمه الله : ذكر الله الاستواء في سبع تقيدت بالحصر ، واطردت وتتابعت كلها بلا لام ، كلها استوى ، ولو كانت بمعنى اللام في الأذهان لأتت بها في موضع كي يحمل الباقي عليها .

لو أتت في موضع واحد « استولى» بزيادة لام ، لقالوا : يحمل هذا على هذا .

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١٠٣ .

. . . .

يحمل قوله استوى على قوله استولى ، فيجعل الكلَّ من باب الواحد ، لكن لما ذكرت بلفظ استوى في جميع المواضع دل على أنها ليست بمعنى استولى ، وأفاد أن هذه هي أقوى الأدلة على مسألة العلو ، ولما كانت أصرح الأدلة كانت أكبر شيء على الجهمية ، حتى ذكروا أن جهمًا كان يتمنى أن يحكها من مصاحف المسلمين، يقول : لو أقدر لحككت هذه الآية : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فأهل السنة تقبلوها كما جاءت.

وذكر ابن جرير في تفسير سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] .

ذكر أن كلمة استوى عند العرب لها عدة معان أحدها : التمام . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤] يعني تم وكمل . ويستعمل بمعنى انتهاء شباب الرجل وقوته، فيقال: قد استوى الرجل، وبمعنى استقامة ما كان به أو من إلا مورد الأسباب. . و بمعنى العلو، الارتفاع. واختار هذا القول عند هذه الآية لا سيما إذا قيد بكلمة على فإنه لا يفهم منه إلا العلو، وكذلك إذا قيد أيضًا بإلى ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني ارتفع إليها وعلى .

هكذا هو معنى الكلمة ، استوى ، يعني علا وارتفع .

وذكر ابن القيم من أدلة إثبات العلو الواحد والعشرين ، إجماع أهل العلم ، وأهل السنة ، وهو الدليل السادس عشر من تلك الأدلة ؛ حيث

. . . .

يقول [١] :

هذا وسادس عشرها إجماع أهـــ ـــل العلـــم أعني حجة الأزمان

من كل صــاحب سنة شهدت له أهـــلُ الحـــديث وعســكر القرآنِ

لا عبـــرة بمخـــالـف لهم ولــو كانوا عـــديد الشـــاء والبعـــران

ثم ذكر قولهم في الاستواء ، أنهم فسروا الاستواء بعبارات ، فقال [٢] :

فلهم عبـــاراتٌ عليـــها أربـــعٌ قـد حصلت للفـــارس الطعـــان

وهي استقر وقد علا وكذلك ارْ تَفَعَ الذي ما فيـــه من نُكْـــرَانِ

وكذاك قد صعـد الذي هو رابعٌ وأبو عبيـــدة[٣] صاحب الشيباني

يختار هذا القـــول في تفسيـــره أدرى مـن الجهمـــيِّ بالقـــرآن

والأشعريُّ يقول تفسير استوى بحقيقـــة اســـتولى من البهتان

هذه هي تفاسير أهل السنة الأربعة ، أكثرهم يقول : استوى على العرش ، أي استقر عليه ، ويقولون : هذه لغة القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [هـــود: ٤٤] . يعني سفينة نوح استوت على الجودي ؛ يعني

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣) هو معمر بن المثنى التميمي - أبو عبيدة - النحوي ولد سنة ١١٠هـ بالبصرة وتوفي فيها سنة ٢٠٩ هـ . انظر وفيات الأعيان (٥/ ٢٣٥-٢٤٣) .

. . . .

استقرت على الجودي .

وقال تعالى في تشبيه المؤمنين : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] استوى يعني ارتفع على سوقه أي الزرع .

فجاء الاستواء بمعنى الاستعلاء ، وجاء بمعنى الاستقرار .

ومما ورد أيضًا بمعنى الاستقرار قوله تعالى لنوح : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون: ٢٨] استويت أي ارتفعت واستقررت على الفلك ، فجاء الاستواء إذا كان مقرونًا بحرف على بمعنى العلو وبمعنى الاستقرار . وأبو عبيدة صاحب الشيباني وهو معمر بن المثنى صاحب الإمام أحمد من علماء اللغة ، يقول بتفسير استوى بمعنى صعد ، وهو أدرى من الجهمي بالقرآن .

وذكروا أن العرب تستعمل استوى بمعنى ارتفع ، وأن أحد المشهورين بالمعرفة كان في سطح بيته ، فطرقه أناس فأطل عليهم ، وقال : استووا إليّ ، بمعنى ارتفعوا ، واصعدوا إليّ ، هكذا معنى كلمة استوى عند العرب ، ولا تعرف العرب استوى إلا بهذه المعاني .

أما الجهمية والمنكرون للاستواء من معتزلة وأشاعرة ونحوهم ممن ينكر العلو ، فإن بعضهم توقف ، وقال : نقول استوى استواء يليق بجلاله مع اعتقادنا أنها لا تفيد العلو ، وأنها لا تدل على علو الذات . وقلنا : لا يفيدكم إذا قرأتم آية كأنها كلامٌ أعجمي لا فائدة من قراءتها ، فإن الله ما أنزل القرآن إلا

. . . .

ليُهتدى به، ولتعرف دلالته وليتدبر .

وآخرون قالوا: لابد أن نتأولها ، ولهم فيها تأويلان :

التأويل الأول: تأويل كلمة استوى بمعنى استولى .

والتأويل الثاني : تأويل العرش بمعنى المُلك .

الأولون قالوا: استولى على العرش ، والآخرون قالوا: استوى على الملك ، أي ارتفع على الملك ، ويكون الارتفاع ارتفاعًا معنويًا .

والجواب عن الأول: قولهم: استوى أي استولى: إنه قول بعيد لا دليل عليه، وقد سئل علماء اللغة ، هل العرب تستعمل استوى بمعنى استولى ؟ فقالوا: لا ، هذا مما لا تعرفه العرب ، هذا خارج عن لسان العرب ، لم تأت كلمة استوى بمعنى استولى أبدًا في لسان العرب .

والجهمية ونحوهم استدلوا ببيت منسوب إلى الأخطل ، وهو قوله:

قد استوى بشرٌ على العراقِ   من غير سيفٍ أو دمٍ مهراقِ

ونقول: **الجواب** : أولاً : أن هذا البيت مكذوب ، ولم يُعرف في شيء من دواوين المسلمين ،ولم يعرف الأخطل هذا البيت ، ولم ينقله الذين نقلوا شعره .

وأنتم تردون الأحاديث الصريحة الصحيحة ، وتقولون إنها آحاد ، وتقبلون هذا البيت المنقول المكذوب ، أفلا يكون آحادًا ؟ ، هذا جواب .

. . . .

وجـواب ثـان : وهو أن الكلمة مولَّدةٌ ، استوى بمعنى استولى ، كلمة مولدة إذا قُدر أن الأخطل استعملها ، فإنه من المولدين ، أي ليس من العرب البلغاء فلا يكون حجة .

وجواب ثالث : وهو أن الأخطل لا عبرة به ، رغم كونه مولدًا ، فعقيدته سيئة ، لكونه لم يسلم ، بل بقي على نصرانيته ، فلا يغتر بكلامه ، وهو ممن أصر وبقي على النصرانية ، ويدل على ذلك شعره ، ومن شعره قوله :

ولستُ بقائمٍ كالعير يدعو قُبيل الصبح حيَّ على الفلاحِ

ولستُ بصائمٍ رمضان طوعًا ولست بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولستُ بسائقٍ عيسًا بكورًا إلى بطحاء مكةَ للنجاح

ولكني سأشربها شمولاً وأسجدُ عند منبلجِ الصباح

أي يسجد للشمس ، فإن كان باقيًا على كفره ، فكيف يتخذ عمدة ، ويعتمد على شعره ، ولهذا يقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية :

قبحًا لمن نبذ الكتاب وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطلُ

يعني كيف تتركون هذه الآيات والأحاديث الصريحة ، وتعتمدون على بيت منحول ، تقولون : قال الأخطل .

وكذلك ابن القيم يقول في نونيته [١] :

ودليلهم في ذاك بيتٌ قاله فيما يقال الأخطلُ النصراني

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ٦٨ .

. . . .

وقوله : « فيما يقال» أي أنه ليس بمحقق النسبة إليه .

وهناك جواب رابع -عن البيت- : وهو أن الاستواء هنا على ظاهره ، فاستوى بشر على العراق بمعنى ارتفع عليه ، فلا يكون بمعنى استولى ، والمعنى استوى على عرش العراق ، يعني جلس عليه وارتفع عليه ، فيكون استوى هنا بمعنى ارتفع ، فلا يكون فيه دليل على الاستيلاء .

ونرد عليهم أيضًا بجوابين من حيث العموم :

الأول : أن الاستيلاء عام والاستواء خاص ، فالله تعالى ما ذكر أنه استوى إلا على العرش أما استيلاؤه فهو عام على كل شيء : مستول على السماوات ، ومستول على المخلوقات ، ومستول على الإنسان والحيوان ومستول على الأرض ، ومستول على الجبال . فكيف تخصون الاستيلاء بالعرش ، تقولون : إن استولى على العرش؟! ، هل يجوز عندكم أن نقول : استوى على الجبال ، الرحمن على الجبال استوى ؟ لم يقل الله ذلك .

هل يجوز أن نقول : الرحمن على الإنسان استوى؟ ، الرحمن على الأرض استوى؟ ، فهذا لا يجوز بالإجماع مع كونه مستوليًا على كل شيء ، فلو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء ما خُصَّ العرش أي لم يكن للعرش خصوصية ، فإن استيلاء الله على كل شيء عام ، أما الاستواء فإنه مخصوص بالعرش ، فلماذا خص العرش؟ ، أليس الله مستوليًا على المخلوقات كلها ، لماذا خص العرش في السبع المواضع ، لو كان استوى بمعنى استولى ، لما

. . . .

خص العرش ، ولقال مرة : ثم استوى على السماوات، ومرة ثم استوى على الأرض، ثم استوى على الإنسان ، وهكذا، لكن لم يخص العرش إلا لأن الاستواء ليس هو الاستيلاء بل هو أمر زائد على الاستيلاء .

والجواب الثاني: أن الاستيلاء لا يكون إلا بعد ممانعة ، والله تعالى ليس هناك من ينازعه ويمانعه ، فلا يقال: فلان استولى على البلاد الفلانية ، إلا إذا كان هناك من نازعه فتغلب عليه .

إذا كان هناك اثنان متنازعان على هذه الأرض ، تغلب عليها أحدهما ، فيقال: فلان استولى على البلاد الفلانية .يعني بعد منازعة ، فالاستيلاء إنما يكون بعد منازعة ، والله لم يكن هناك من ينازعه، فدل هذا على فساد هذا التفسير من جهة العقل ومن جهة النقل .

فالحاصل أن لهم تأويلات في رد الآية:

التأويل الأول: استوى بمعنى استولى ، وعرفنا الجواب عنه .

بقي **التأويل الثاني** : أن العرش بمعنى الملك : استوى على العرش يعني استوى على الملك ، وأنكروا أن يكون هناك عرش خاص لله ، فقالوا : المراد بالعرش الملكُ.

والجــواب : أن هذا خطأ ، بل العرش في اللغة هو سرير المَلك ، والله تعالى وصف العرش بصفات خاصة ، فدل على أنه ليس هو مجرد المُلك فمن ذلك:

. . . .

أولاً: وصفه بالعظمة في قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩]، فهذا وصفه بالعظمة.

ثانياً: وصفه بالكرم، وإن كان بعضهم يقول: الوصف للرحمن في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثالثًا: وصفه بالمجد في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

رابعًا: وصفه بأنه محمول كما في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

دل على أنه شيء محمول، وكما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

خامسًا: وصفه بأنه محفوف لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾[الزمر: ٧٥]، فدل على أنه شيء محسوس ليس هو المُلك.

سادسًا: وصفه بإضافته إلى الله لقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. يعني ربُّ العرش، ووصفه بالرفع هنا على ظاهره، ففي هذه الآيات وأمثالها كثير بيان أن العرش زائد على المُلك.

. . . .

وقد ذكر الله العرش بمعنى السرير ، فالسرير يسمى عرشًا ، كعرش بلقيس في قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣]، ثم قال: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨] ثم قال : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل: ٤١] ، ثم قال : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل: ٤٢] ، فدل على أن العرش هو السرير ، وإذا قلنا : إن العرش على حقيقته هو سرير الملك ، فنقول : الله تعالى ذكر أن له العرش، ولكن لا نحيط بهذا العرش ، فالذين أنكروا أن يكون هناك عرش حقيقي أبطلوا معنى هذه الآيات ، ومنهم من اعترف بأن لله عرشًا محمولاً ، ولكنهم لم يعترفوا بأن الله فوق العرش .

وبكل حال ، فالعرش هو أعظم المخلوقات كما ورد ، وقد ذكر الله أنه قبل المخلوقات ، في قوله تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود: ٧] . فدل على أن عرشه موجود قبل خلق السماوات ، وأنه على الماء ، وسئل ابن عباس على أي شيء الماء ، فقال: على متن الريح ، والله تعالى قادر على أن يمسك المخلوقات كما يشاء بقدرته سبحانه وتعالى .

ولذلك اعترف الجمهور بأن هناك عرشًا وأنه مخلوق، ووقع الاختلاف: هل العرش مخلوق قبل القلم أو القلم قبل العرش؟ .

أشار إلى ذلك ابن القيم في نونيته بقوله[1] :

والناسُ مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاءُ به من الدَّيَّانِ

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ٩٦ .

. . . .

هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمذاني[1]
والحق أن العرش قبل لأنه وقت الكتابة كان ذا أركان

ثم نقول : العرش لا يقدر قدره إلا الله . وقد ذكرنا أن الكرسي كالمرقاة بين يدي العرش ، والله قد ذكر عظمة الكرسي، قال تعالى : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥] إذا كان الكرسي وسع السموات مع كبرها وضخامتها ؛ والأرض مع عظمها ، وكما ورد في بعض الآثار أو الأحاديث : « **ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في أرض فلاة** »[2]، والترس هو المجنُّ الذي يكون على الرأس ، فهذه الدراهم السبعة ماذا تشغل من الترس ؟

كما ورد أيضًا أن الكرسي حقير صغير بالنسبة إلى العرش ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، الحلقة هي القطعة من الحديد ، نسبة الكرسي إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، فإذا كانت هذه عظمة السماوات لا نحيط بها ، وعظمة الأرض التي نحن عليها ، وهناك أراضٍ أخرى؛ سبع أراضين لا ندري ما سعتها وما فيها ، ومع ذلك هذه السماوات ، وهذه الأراضون صغيرة بالنسبة إلى العرش ، وهذا الكرسي الذي هذه عظمته

---

(١) هو محمد بن سهل العطار ، شيخ همدان ، له تصانيف منها : زاد المسير ، خمسون مجلدًا ، توفي سنة ٥٦٩ هـ . انظر تذكرة الحفاظ (٤/ ١١٤ ـ ١١٧) طبعة حيدر أباد سنة ١٣٣٤ هـ . نقلاً من حاشيته .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٦١) .

. . . .

صغير بالنسبة إلى العرش .

فكيف مع ذلك يحاط بالخالق سبحانه وتعالى ؟

الحاصل : أن الذين قالوا : إن العرش بمعنى الملك قولهم خاطئ ، قد أبطلوا هذه النصوص الكثيرة من القرآن ، ومن الأحاديث ، وردوا ما هو شبه التواتر عن السلف ، عندئذ بطل التأويلان : تأويلهم : استوى بمعنى استولى ، وتأويلهم للعرش بمعنى الملك، فما بقي إلا قول أهل السنة .

وإذا قلنا : إن استوى بمعنى ارتفع أو بمعنى علا أو بمعنى استقر ، فإننا نتوقف عن الكيفية ، نقول : الله أعلم بكيفية ذلك ،كما في عقيدة الكلوذاني ، في قوله :

قالوا : فتزعمُ أن على العرش استوى
قلت : الصواب كذاك أخبر سيدي

قالوا فما معنى استوائه قل لنا ؟
فأجبتهم هذا سؤال المعتدي !!

يعني أننا لا نعلم كيفية الاستواء ولا ماهيته بل نفوض ذلك إلى الله ، وليس معناه أننا لا ندري ما معنى الكلمة ، بل الكلمة واضحة الدلالة ، وهو معنى ما نقل عن مالك بن أنس رحمه الله أنه دخل عليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء - أي العرق - ثم رفع رأسه ، وقال : الاستواء



. . . .

غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ، ولا أراك إلا مبتدعًا، ثم أمر به فأخرج .

وهذا الجواب قد نقل أيضًا عن شيخه : ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البيان، وعلينا التسليم . ونُقل نحو هذا أيضًا عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها موقوفًا عليها ؛ أنها قالت : الاستواء معلوم والكيف مجهول. . . إلى آخره. ورفعه بعضهم إلى الرسول ﷺ ولا يصح رفعه .

ومعنى قوله : الاستواء معلوم: أنه مفهوم تعرفه العرب، والمعلوم يفسَّر ويترجم من لغة إلى لغة ، ولكن له كيفية ، وتلك الكيفية هي الشيء المجهول الذي لا ندري ما كيفيته ، فنتوقف فيها. فالاستواء كيفيته مجهولة لنا ، ولذلك كان السلف رحمهم الله يفوضون الكيفية مع علمهم بالمعنى، ويفوضون أيضًا الكُنْه ،وكنه الشيء يعني حقيقته وماهيته ، هذا الذي كانوا يفوضونه .

فالاستواء له كيفية ولكنها مجهولة لنا ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ والإيمان بما تضمنته هذه الآيات واجب ؛ لأنها صريحة ، ففي سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] كلمة «ثم» تقتضي التعقيب، فدل ذلك على أن الاستواء كان بعد خلق السماوات والأرض ، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ

. . . .

النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] فصرح بأن الاستواء كان بعد الخلق .

ومثله أيضًا في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣] .

فصرح بالاستواء بعد خلق السموات والأرض .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢] فأخبر بأنه استوى بعد رفع السماوات والأرض .

أما آية طه ، فقد تأولها بعضهم تأويلات بعيدة ، حتى حملها بعضهم على ما بعدها ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ [طه: ٥، ٦] ، فقالوا: ﴿ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ يعني استقر له ما في السماوات أو استتب له ما في السماوات ، حملوها على ما بعدها.

والجواب : أولاً: هذا الحمل ضعيف وذلك لأنها رأس آية ، ومعلوم أنه يوقف على رؤوس الآي .

وجواب ثانٍ : أن أول الآية رد عليهم ، فإن قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وهم ينكرون أن يكون على العرش .

. . . .

وجواب ثالث: وهو أن الاستواء ليس بمعنى ما يقولون: استوى له ما في السماوات، يعني استتب. وأما آية سورة الفرقان، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥-٥٩].

قوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ صريح في أن الاستواء عقب خلق السماوات والاستيلاء متقدم، وكذلك آية سورة السجدة، وهي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤] فهذا أيضًا صريح في أن الاستواء معطوف بثم التي تقتضي التعقيب.

كذلك آية الحديد ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [الحديد: ٤] الآية. صريح في أن الاستواء معطوف بثم.

من هذه الآيات نأخذ أن الاستواء صريح في هذه الآيات بمعنى العلو والارتفاع، ولكن لا يفهم أن الله تعالى محتاج إلى العرش، وأن العرش قد حمل الربّ تعالى، بل الله ذكر أنه استوى على العرش، لكن لا نقول: إنه حمله العرش واستقل به، أو أن السماوات حملته واستقلت به، تعالى الله عن ذلك، بل نقول: هو كما يشاء فوق عباده مستوٍ على عرشه، وهو أيضًا

. . . .

قريب مجيب مطلعٌ، عالم بما تخفيه النفوس وما تكنه الضمائر ، فما ذكر من علوه وفوقيته لا ينافي ما ذكر من قربه ومعيته ، كما سيأتي في هذه العقيدة من الجمع بينهما .

ومن ذلك نعلم أنه لا عبرة بتأويلات المتكلمين لآيات الصفات ، بل هي واضحة ، ولما كانت واضحة أخذوا يذكرون تقديرات ، ومن أوسع من ذكر تلك التقديرات العقلية الباطلة التي هي نحاتة أفكار وزبالة أذهان : صاحب التفسير الكبير المسمى بـ « أنوار التنزيل» لابن الخطيب الرازي ، فإنه لما أتى على هذه الآية من سورة الأعراف ، أخذ يذكر فيها تقديرات عقلية بعيدة عن الصواب كأن يقول مثلاً : إذا كان الله فوق العرش لزم أن يكون كذا وكذا ، وأكثر من هذه التقديرات الباطلة .

نقول لهم : توقفوا عن الخوض ، ونقول : الله أعلم بمراده ، والله أعلم بكيفية ذلك ، ولا نخوض فوق ما أعلمنا الله ، كما نقول : إن آيات الاستواء على ما أراد الله ؛ آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ .

❁ ❁ ❁

٢١ - إثْبَاتُ صِفة العُلُو لله :

[وَقَولُهُ : ﴿ يا عيسىٰ إنِي مُتَوفِيك ورافعُك إليَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] . ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إلَيْه ﴾ [النساء : ١٥٨] ، ﴿ إلَيْه يصْعَدُ الْكَلمُ الطَّيِّبُ والعمل الصَّالحُ يرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، ﴿ يا هامانُ ابْن لِي صرحا لَعلِّي أبْلُغُ الأسباب (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوات فَأَطَّلعَ إلَىٰ إله مُوسىٰ وإنِّي لأظُنُّهُ كاذبا ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧]، وقَوْلُهُ : ﴿ أَأَمنتُم مَّن في السَّمَاء أن يخْسف بكُمُ الأرْض فإذا هي تَمُورُ (١٦) أمْ أمنتُم مَّن في السَّماء أن يُرْسل عليْكُم حاصبا فستعلمُون كيف نذير ﴾ [الملك : ١٦ ، ١٧]] .



■ قوله : (وقوله : ﴿ يا عيسىٰ إنِّي مُتَوفِّيك ورافعُك إليَّ ﴾ ...) :

هذه بعض الأدلة على مسألة العلو ، وهو أن الله تعالى موصوف بصفة العلو ؛ علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، وكذلك الفوقية ؛ فوقية الذات، وفوقية القدر ، وفوقية القهر . وقد وردت فوقية الله في موضعين : موضع فيه احتمال ، وموضع ليس فيه احتمال .

الموضع الذي فيه احتمال ورودها مجردة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده ﴾ [الأنعام : ٦١]، والموضع الذي ليس فيه احتمال هو المقيد

....

بـ ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] فإن هذا لا يقدرون على تأويله ، ولا مجال لتأويله ، وليس هناك أي احتمال أن المراد هنا فوقية القهر .

فعلو القهر بمعنى : السيطرة والغلبة ، فالله تعالى عال على الخلق بمعنى قاهر لهم ، ومسيطر ومتغلب عليهم . يقال : فلان قد تعلى على فلان يعني : استولى عليه و قهره ، فهو عال عليه ، هذا علو القهر .

أما علو القدر ، فهو العلو الذي بمعنى : العظمة ، أي : أن الله أعلى قدرًا من غيره ، والأعلى قدرًا هو الأشرف والأفضل ، تقول مثلًا : الأمير أعلى قدرًا من الخادم ، وتقول : السيف أعلى قدرًا من العصا ، وما أشبه ذلك ، هذا علو القدر ، فالله تعالى أعلى قدرًا من الخلق ، يعني : أعظم وأشرف وأجل وأفضل ، هذا في العلو .

ومثله الفوقية : الله تعالى فوق عباده فوقية غلبة وسيطرة ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ٦١] ، أي: الغالب والمسيطر ، والمستولي عليهم بدون معقِّب ، هذه فوقية القهر .

كذلك فوقية القدر ، وهي بمعنى : علو القدر ، يعني : أنه فوقهم ، أي : أعظم وأجل وأشرف وأعلى قدرًا منهم . وهذان الأمران يثبتان في حق المخلوق ، فيكون بعض الخلق أعلى قدرًا وفوق غيره فوقية قدر ، وكذلك أعلى قهرًا ، فيكون فوق غيره فوقية قهر ، كما حكاه الله عن فرعون .

....

أما علو القهر فذكره في قول فرعون : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، بمعنى : الغالب والمتسلط والمسيطر والمستولي ، وليس معناه : المرتفع ، فإنه مساو لهم على الأرض ، كذلك قوله : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، هذه الفوقية بمعنى : فوقية الغلبة ، يعني: إننا غالبون وقاهرون ، ومسيطرون ومستولون عليهم ، هذه هي فوقية القهر وعلو القهر في حق المخلوق .

كذلك علو القدر وفوقية القدر . ذكرنا أيضًا أمثلتها ، فإنه يقال مثلًا : الأمير أعلى من المملوك ، أو فوق المملوك ، أي : فوقه قدرًا ، كما يقال : الذهب أعلى من الفضة ، الذهب فوق الفضة ، يعني: فوقه قيمة ، وفوقه مقدارًا .

فالله تعالى له علو القدر ، وفوقية القدر ، وله علو القهر ، وفوقية القهر . وله أيضًا علو الذات ، يعني: إنه عال على خلقه علوًّا حقيقيًا ، فهو فوقهم فوقية حقيقية .

وقد ذكرنا أن الله أثبت هذا العلو والفوقية بالذات في عدة مواضع لا مجال للرأي فيها ، ولا يتمكن من تأويلها كلها . فمن ذلك آيات الاستواء السبع ، ومن ذلك آيات الرفع ، ومن ذلك آيات الصعود ، ومن ذلك آيات العروج كقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] ، وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٢] ، ومن ذلك

. . . .

الآيات التي فيها إثبات السماء ، كهاتين الآيتين . ومن ذلك آيات همّ فرعون أن يصعد إلى السماء ليطّلعَ إلى إله موسى ، لما ذكر له موسى أن ربه في السماء ، ونحو ذلك من الأدلة الكثيرة .

هذه آيات دالة دلالة صريحة على أن الله موصوف بالعلو ؛ علو الذات ، والفوقية ؛ فوقية الذات ، وإذا أثبتنا لله تعالى هذه الفوقية فإننا لا نقول بأن مخلوقًا يحيط بالخالق أو يحصره تعالى ، بل مخلوقاته التي هي حقيرة قد ذكر شيئًا من عظمتها ، وذكر عظمة الكرسي : ﴿وسع كُرْسِيُّهُ السَّموات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي أن الكرسي قد اتسع للسموات والأرض . وكذلك عظمة العرش ذكر أن الكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض. فإذا كانت هذه عظمة الكرسي ، وهذه حقارته بالنسبة إلى العرش عرفت عظمة العرش ، فكيف بعظمة رب العرش وخالق الكون ، فإنه تعالى لا يحيط به خلقه .

وبعد أن عرفت هذه المقدمة نذكر الآيات التي عندنا :

• **الآية الأولى** : من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : ﴿ **يا عيسىٰ إني مُتَوَفِّيك ورافعُك إليَّ**﴾ [آل عمران: ٥٥] ، ذكروا أن عيسى لما همَّ اليهود بقتله أُلقي عليه نوم شبه وفاة ؛ وفاة نوم ، فرفع إلى السماء في تلك الغشية حتى صُعد به إلى السماء . الله تعالى ذكر أنه رفعه إليه : ﴿**ورافعُك إليَّ**﴾ فدل على أن الله فوق، والرفع لا مجال للتأويل فيه ، وهو أوضح العبارات التي

. . . .

تدل على الفوقية ، كما في قول ابن القيم لما ذكر معاني الاستواء ، قال :

ولهم عبارات عليها أربع قد حررت للعالم الرباني

وهي استقر وقد علا وكذلك ار تفع الذي ما فيه من نكران

يعني ما يَسْتنكر دلالة الارتفاع أحد ، ولا يقدرون على أن يؤولوه بتأويل بعيد . ومع ذلك فقد تأولوا قوله تعالى : ﴿ رَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي رافعك إلى محلّ الكرامة أو رافعك إلى محل لا يكون فيه مُلك لغيري ، تأويلات بعيدة، والله ذكر أنه رفعه إليه ، فدل على أن الله في العلو ، وأن عيسى رفع إلى الله .

• ومثلها الآية الثانية في سورة النساء ، لما حكى الله عن اليهود ذكرهم أنهم قتلوه في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] أي رفعه من الأرض إلى الله في السماء ، فدل على أن الله تعالى في السماء ، وأنه فوق عباده ، وأن عيسى رفع إلى الله ، وتأويلهم لهذه الآية كتأويلهم للآية السابقة ، وهي تحريفات بعيدة ولا يستطيعون أن يؤولوها تأويلاً مقبولاً .

• الآية الثالثة : وهي آية الصعود في سورة فاطر ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] جمع الله فيها بين الصعود والرفع ، والصعود : هو الرقي إلى فوق ، ومنه سمي المصعد ؛ لأنه

. . . .

يرقى ، فيقولون : صعد فلان إلى الجبل ، وصعد فلان إلى السطح ، بمعنى رقى ، فكذلك قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] يعني يرقى ، والكلم الطيب هي الحسنات والأعمال الصالحة والأقوال الصالحة تصعد إلى الله ، أي ترقى إليه وتخترق الحجب وتدخل وتفتّح لها أبواب السماء ، وتصل إلى الله ؛ لأنها تمجيد لله وتحميد له ، وتعظيمٌ له ، فلا تحجب دونه . هذا معنى كونها تصعد إلى الله ، فُسِّر الكلم الطيب بأنه التسبيح والتحميد والتكبير والباقيات الصالحات ، وفسر بأنه تعظيم الله وإجلاله ، وذكره بجميع أنواع الذكر ، وفسِّر بأنه كلامه إذا تلي وقرئ ، فإنه يصعد إليه ، وفسر بأنه دعاؤه إذا دعي بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وفسر بأنه الدعوة إليه ، ولعل الجميع من الكلم الطيب .

ثم إن تأويل المعتزلة والأشاعرة لهذه الآية كغيرها وهو أنهم قالوا : إليه يصعد يعني إلى ملكه ، أو إلى حيث لا متصرف غيره أو إلى سمائه ، ولم يعترفوا بأنها تصعد إلى الله ، بل إلى سماء الله أو ما يختص بالله وهو تأويل بعيد . كذلك فسروا قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] والرفع ظاهر أنه رفعه من الأرض إلى السماء ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني أنه إذا قبله لكونه صالحاً رفعه إلى السماء ، تأولوا الرفع هنا بأنه القبول ، فقالوا : يرفعه أي يقبله ، وهو أيضًا تأويل خاطئ . فالرفع ليس هو القبول وحده ، ولا شك أن القبول معناه اعتبار ذلك العمل وعدم ردِّه ، وقد وردت أدلة

. . . .

تدل على أن الأعمال الصالحة تصعد إلى السماء ، كالحديث الذي فيه : « إذا **صلى الرجل فأحسن الصلاة ، صعدت إلى السماء ولها نور ، فتفتح لها أبواب السماء ، وتدعو لصاحبها ، وتقول : حفظك الله كما حفظتني ، وإذا صلى وأساء صلاته صعدت ولها ظلمة ، فتغلق دونها أبواب السماء ، وتلعن صاحبها ، وتقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، فتهبط إلى الأرض ، وتُلفُّ كما يلف الثوب الخلقُ ويضرب بها وجه صاحبها** » ذكره الإمام أحمد في الرسالة السنية[١] ، فدل على أن العمل الصالح يصعد إلى الله وتفتح له أبواب السماء ، وهذا دليل على أن قوله : ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾ أي أنه يرفع إلى الله .

ومما يدل على ذلك أيضًا الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي ﷺ : «**إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل**»[٢] . فدل على أن العمل يرفع إلى الله ؛ عمل النهار يرفع قبل أن تغيب شمس الليل ، وعمل الليل يرفع قبل أن تطلع شمس النهار .

إذن ، فكل التأويلات التي تأولت الرفع وصرفته عن معناه الحقيقي هي تأويلات باطلة ، فالرفع لا تأويل له صحيح .

---

(١) ذكره معلقًا بقوله : جاء الحديث إلخ ، وذكره المنذري في الترغيب برقم (٥٥٩) وعزاه للطبراني في الأوسط .

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٩) في الإيمان ، باب : «في قوله عليه السلام : «إن الله لا ينام . . . » عن أبي موسى رضي الله عنه .

....

هناك آية ثانية في العروج لم تذكر هنا ، وهي قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] ، والعروج: هو الرقي ، عرج بي ، أي : رقي بي ، ومنه سمي : المعراج لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء، فقوله : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ، أي : ثم يرقى هذا الأمر إلى الله ، فآيات العروج والصعود كلها دالة على الرفع ، وكأن الصعود هو الرقي في سمت ارتفاع مستمر ، مثل المصعد ، فالصعود هو صعود إلى فوق .

وأما العروج فكأنه في درج ، تقول : عرجت بفلان ، أي : رقيت به في درج أو نحوه ، ولهذا ذكر النبي عليه السلام في قصة الإسراء والمعراج أنه كان هناك معراج صعد به . وعلى كل حال فالجميع يدل على الفوقية والرفع .

ومن آيات العروج أيضًا قوله تعالى في سورة المعارج : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنْ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ١-٤] . إذن المعارج هي المراقي ، تعرج معها الملائكة وتعرج معها الأرواح إلى الله ، فدل أن الله فوق ، وأنها تعرج إليه ، يعني : ترقى إليه ، فهذه أدلة واضحة.

● الآية الرابعة : وهي في قصة فرعون ، حكى الله عنه أنه قال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ [غافر : ٣٦] ، الصرح : هو البناء الرفيع . والأسباب ، يعني الحبال ، ﴿ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر: ٣٧] ، أي: حبال السماء فأصعد فيها حتى أصل إلى السماء

. . . .

فأطلع إلى إله موسى الذي يقول إنه في السماء لأنظر هل هو صادق أم لا ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ [غافر: ٣٧] . هكذا ذكره الله في سورة المؤمن« غافر » وكذلك في سورة « القصص» في قوله : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ [القصص: ٣٨] لعلي أتخذ بناءً رفيعًا أصعد إليه حتى أصل إلى السماء لأنظر هل في السماء إله كما يقول موسى أم لا ، فأنا أظن أنه من الكاذبين ، ليس في السماء إله . هذا دليل على أن موسى بلغ فرعون أن إلهه في السماء.

ثم إن المعتزلة والأشعرية ونحوهم قالوا: إن هذا ظنٌّ من فرعون ، وإن من اعتقد أن الله في السماء فقد تشبه بفرعون فهم عكسوا القضية، وقالوا: أنتم أيها المشبهة يا من تقولون : إن ربكم في السماء قدوتكم فرعون الذي قال : إن إله موسى في السماء .

فكيف نجيب، وكيف نرد عليهم هذا القول ؟

نقول لهم : فرعون جاحد منكر أن يكون هناك إله ، بل يدعي أنه هو فقط فيقول: ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات: ٢٤]، و﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص: ٣٨] فهو جاحد لا يقر بأن له إلهًا ولا ربًا لا في السماء ولا في الأرض، فلما جاءه موسى وأخبره بأن هنالك إله ، فلابد أنه قد سأله أين هذا الإله الذي تزعم يا موسى ، ولا بد أن موسى أخبره بأن إلهه في السماء ، ولو كان الله تعالى ليس في السماء بل في كل مكان كما تقوله المعتزلة، أو ليس في جهة ؛ لما تكلف فرعون، ولما بنى ذلك الصرح، ولقال له

. . . .

موسى: إن إلهي الذي أدعوك إليه ليس في السماء بل اطلبه في الأرض، واطلبه تحتك وعن يمينك وعن يسارك إلى آخره.

فهذا ونحوه دليل واضح على أنه تلقى هذا القول من موسى ، وإلا لم يتكلف بناء الصرح .

فالرفع هو الذي لا يستطيعون أن يؤولوه ، أما الفوقية والعلو فقد قالوا: إن معنى العلو: الغلبة والقهر والسيطرة والملك والقدر والشرف وما أشبه ذلك ، فأما الرفع فليس بإمكانهم تأويله ، لكنهم مع ذلك تأولوه بأن المراد الرفع إلى المكان الذي لا ملك فيه لغير الله وهو السماء، وهو تأويل بعيد.

• **الآية الخامسة**: في سورة الملك ،وهي قوله تعالى : ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ** (١٦) **أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا**﴾ [الملك: ١٦، ١٧] . يعني: هل تأمنون الله الذي في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسف بقارون ؟ هل تأمنون الإله الذي في السماء أن يرسل عليكم حاصبًا كما أرسله على من قبلكم ، كعاد وثمود، لقوله تعالى : ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ**﴾ [العنكبوت: ٤٠] الذي في السماء وهو الذي يرسل عليهم الحاصب، وهو الذي يخسف بهم الأرض.

قالت المعتزلة والأشعرية : المراد: أأمنتم من في السماء أمره ، أومن في

. . . .

السماء ملكه . قالوا : إنه على حذف مضاف مقدر أي من في السماء ملكه .

قلنا : ليس كذلك ، فملكه ليس خاصاً بالسماء؛ بل ملك الله في السماء ، وفي الأرض، فلماذا خصص السماء، وكيف تقولون : من في السماء أمره؟ أليس أمره في السماء والأرض . كيف تقولون من في السماء ملكه ؟ أليس ملكه في السماء والأرض ، وبعضهم قال : المراد جبريل . والمعنى : أأمنتم جبريل الذي في السماء أن يخسف بكم الأرض أو يرسل عليكم حاصبًا .

فنقول : جبريل مملوك لله، جبريل مخلوق لا يفعل شيئًا إلا بأمر الله كما حكى الله عنه أنه قال : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] فهذا اعتراف جبريل بهذه الأمر ، فإنه ليس له تسلط ولا تصرف إلا بأمر الله ، فكيف يرسل الحاصب ؟ بل الله تعالى هو الذي يرسله ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩] في هذه الآية جمع بين الخسف وبين إرسال الحاصب، والله تعالى هو الذي يرسل ذلك .

فهذا في المشركين الذين يخلصون لله في الضراء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧] ذهبت عنكم آلهتكم إلا إياه فأخلصتم له ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ

. . . .

كفورا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ثم قال تعالى: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ من الذي يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى؟، ثم قال: ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا﴾ وكذلك في الآية التي معنا: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور (١٦) أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا﴾ أي ريحاً أو صيحة أو حجارة تضربكم كما أرسلت على قوم لوط.

فالحاصل أن كلمة ﴿في السماء﴾ واضحة لا تأويل لها. ثم قول أهل السنة: إن الله في السماء، ليس معناه أن السماء تحيط به أو تحمله أو تقلُّه أو تظلُّه أو تحصره، فإن الله تعالى لا يحيط به مخلوق. فقوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ له معنيان:

الأول: أن تفسر «في» بمعنى «على».

الثاني: أن تكون السماء بمعنى العلو. فإن السماء اسم لكل ما علا وارتفع، فكل ما علا فوقك فهو سماء، ومنه تسمية السقف سماء لقوله تعالى: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ [الحج: ١٥] يعني سقف البيت ونحوه.

فإذن قوله: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦] يعني أأمنتم من في العلو، السمو: العلو يعني أأمنتم الذي في العلو والذي هو عالٍ على كل



. . . .

شيء ومحيط بكل شيء . هذا تفسير السماء بمعنى العلو .

أو أن « في» بمعنى « على » ، والتقدير : أأمنتم من على السماء ، « على» بمعنى فوق ، وتأتي «في» بمعنى « على»، قال تعالى عن فرعون : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] وليس معناه أنه ينحت لهم الجذع ويدخلهم في جوفه ، وإنما المراد: عليه ، وقال تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٢] ليس معناه ادخلوا في جوف الأرض ، بل معناه : سيحوا على الأرض .

والأشعرية أقرب إلى أهل السنة ؛ حيث إنهم يعترفون ببعض الصفات ، ولكن مسألة العلو مسألة شائكة لم يعترفوا بها ، فلأجل ذلك خالفوا فيها أهل السنة ، وأصبحوا مذبذين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هولاء ، فالمعتزلة ترد عليهم وتسميهم الصفاتية ، وتقذفهم بالعظائم ، وتقول : مثلتم وجسمتم وشبهتم ؛ حيث قلتم : لله حياة ، والله يسمع ، والله يبصر ، والله يتكلم .

وأهل السنة يلومونهم ويردون عليهم فيما نفوه ؛ حيث يقولون لهم : نفيتم مسألة العلو ومسألة الفوقية والاستواء وارتفاع الله على خلقه ، ونفيتم سائر صفاته كرحمته ومحبته ونزوله إذا شاء ومجيئه لفصل القضاء وغضبه ورضاه وما أشبه ذلك ، فأنتم لم تتمسكوا بالسنة ولم تسلكوا الطريق السوي الذي لا اضطراب فيه ، فلأجل ذلك أصبحوا مذبذبين ، وعلى كلٍّ فإنه لما كان مذهبهم منتشرًا ومتمكنًا في القرون الوسطى ، كالقرن الرابع قلَّ من أهله من ليس بأشعري ، فالذين ليسوا بأشعريين متسترون . أي أن غير

. . . .

الأشاعرة كانوا يسترون مذهبهم غالبًا ، وكذلك طوال القرن الخامس والسادس والسابع . أما في آخر القرن السابع وبداية الثامن فقد ظهر فيه وانتصر قول أهل السنة بسبب صراحة وقوة شيخ الإسلام ابن تيمية الذي صدع بذلك وجادل وهدى الله بواسطته خلقًا كثيراً ناصروا مذهبه وساروا على طريقته من مذهبه ومن غير مذهبه ، فلأجل كثرة من يتسمون بأنهم أشعرية ، وفيهم علماء أجلة لهم مقامات رفيعة ، ولهم خدمة للإسلام ، نقول : إنهم متأولون ومقلدون في هذا المذهب ، ولكنهم ملومون ، أي اقتصروا على التقليد ، وتركوا اتباع النصوص حيث حكموا العقول وتركوا الرجوع إلى الأدلة النقلية ، فهم مقصرون وإن كانوا معذورين بسبب أن هذا هو ما وصل إليه اجتهادهم والله يتولى أمرهم .

ومن هؤلاء العلماء : النووي صاحب رياض الصالحين ، تجده يتأول في رياض الصالحين بعض الكلمات ، فيتأول الاستماع في قوله ﷺ : «**ما أذن الله لأحد**»[1] قال : أي ما رضي ففسَّر الأذَن يعني الاستماع بالرضى والقبول ، وهناك أحاديث كثيرة تأولها النووي رحمه الله في رياض الصالحين وفي غيره من كتبه كحديث النزول[2] فقد تأوله في شرح مسلم وحديث الجارية[3]

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٨٢) كتاب التوحيد . ومسلم رقم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٤٩٤) كتاب التوحيد . ومسلم رقم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين .

(٣) أخرجه مسلم رقم (٥٣٧) كتاب المساجد .

....

ونحوه.

ومنهم ابن حجر صاحب فتح الباري ، فإنه يتأول أيضًا كثيرًا من الصفات التي ترد في كتاب البخاري . والبخاري رحمه الله من أهل السنة قد صرح بذلك في كتابه في أوله وفي آخره ، ولكن ابن حجر يتأول الصفات تأويلات بعيدة ، فيقول : هذا محال في حق الله ، وهذا لا يليق بحق الله . وقد ناقشه شيخنا العلامة عبد العزيز بن باز في بعضها في أول الفتح .

ومنهم أيضًا ابن عساكر الذي له التاريخ الكبير ، وله تاريخ دمشق وغيره .

ومنهم من يقرب من مذهبهم من الحنابلة كأبي الوفاء ابن عقيل ، وأبي الفرج ابن الجوزي ، فإنهم توغلوا في كتب أهل الكلام . فعلق بهم شيء من علم الكلام ، رغم جهودهم التي بذلوها للإسلام ، ومؤلفاتهم التي ردوا بها على كثير من طوائف أهل الأهواء والبدع .

ومن الشافعية أيضًا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير ونحوه .

وبالجملة : فيمكن أن نقول : جل علماء ذلك الزمان كانوا أشاعرة إلا من شاء الله.

* * *

٢٢ - إثباتُ صفةِ معيةِ الله لخلقِهِ:

[﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧]، ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦]، ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل :١٢٨]، ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦]، ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة :٢٤٩]].



- قوله : (﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ... ﴾) :

هذه الآيات مناسبة للآيات التي قبلها ، والتي هي في مسألة العلو بجميع أنواعه ، وقد يقول قائل : كيف الجمع بين آيات العلو وآيات المعية ؟ ، فلأجل ذلك أتى المؤلف رحمه الله بآيات المعية ، حتى لا يأتي بها منكر جاحد ،

. . . .

فيطعن في آيات العلو ؛ لأن أكثر الذين ينكرون صفة العلو يحتجون بآيات المعية.

والمعية تنقسم إلى قسمين: معية عامة، ومعية خاصة.

فالمعية العامة: دلت عليها الآيتان الأوليان، وهما قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ . وقوله: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨] ونحوها.

وأما المعية الخاصة: فدلت عليها بقية الآيات كقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ونحو ذلك كثير.

المعية العامة: مقتضاها العلم والقرب والاطلاع والمراقبة.

والمعية الخاصة: مقتضاها النصر والتأييد، والحفظ، والرعاية والكلاءة والفضل، فيكون لكل منهما معنى.

وسيأتينا في العقيدة إن شاء الله أن المؤلف ضرب المثل بالقمر وكون القمر في السماء، والعرب يقولون: مازلنا نسير والقمر معنا، فمعلوم أنه في فلكه سائر وهم على الأرض، فالمعنى أننا نشاهده ونستضيء بضوئه، فكأنه معنا.

وقد يبكي صبي فيطلُّ عليه أبوه من فوق السطح مثلاً، ولو من بعيد، ويقول له: يا بني لا تبكِ إنني معك، أي مطلع عليك وقريب منك.

. . . .

• **الآية الأولى:** في سورة الحديد وهي قوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٤]، فالمعية العامة هي ما جاءت في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ فدل على أن المراد بقوله: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ** ﴾ أنه عالم بكم.

كذلك قوله: ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ بدأها بالعلم؛ وحيث إنه تعالى يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، فإنه عالم بكم، مطلع عليكم أينما كنتم، لا تخفى عليه منكم خافية، فيكون مقتضى هذه المعية: القرب والاطلاع والسيطرة والهيمنة وكمال التصرف.

والنتيجة: إذا عرف العبد أن الله معه؛ فلا شك أنه يراقب الله، يعرف أن الله مطلع عليه، وأنه لا يخفى عليه منه خافية، كما في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] فإذا آمن بأن الله معه أي عالم به ومطلع عليه ورقيب على أعماله؛ فإن ذلك يحمله على مراقبة الله، وعلى خوفه، وعدم الخروج عن طاعته، وعدم ارتكاب شيء من معاصيه. تقول له نفسه وقلبه: كيف تتجرأ عليه وهو معك؟ كيف تعصيه وتنتهك حرماته وهو مطلع عليك؟ كيف تتجرأ على مخالفته وهو مراقب لك ولأعمالك؟ ويحمله هذا على إصلاح الأعمال وعدم إفسادها، وعلى الإكثار من الحسنات والبعد عن السيئات، هذه فائدة

. . . .

الإيمان بالمعية .

ويأتينا إن شاء الله في الأحاديث التي بعد هذه الآيات الحديث الذي يقول فيه ﷺ : « **أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت** »[1] أي أن تؤمن بمعية الله لك ، فإنك إذا آمنت بذلك راقبته ، ومراقبته تحملك على أن تخافه أشد الخوف ، وأن تطيعه أتم الطاعة ، وأن لا تعصيه طرفة عين ، لأنك قد آمنت أنه معك ومطلع عليك ، يعلم ما توسوس به نفسك ، كما في قوله : ﴿ **وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق : ١٦] حبل الوريد : هو العصبة التي في الرقبة من الجانبين والمعنى : أن الله قريب من العبد بحيث إنه كامل التصرف فيه .

فالحاصل أن هذه المعية يكون من مقتضاها كمال التصرف ؛ التصرف في عبده كما يشاء بدون معقب ، والقرب منه والاطلاع والعلم بأحواله خفيها وجليها .

هذا معنى المعية العامة ، التي دلت عليها هذه الآية من سورة الحديد ، وهي قوله : ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ [الحديد : ٤] يلج في الأرض أي يدخل فيها مثل المياة الجوفية أو ما يدفن فيها من كنوز ، أو من معادن أو من بذور ، أو من أموات ﴿ **وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ من نبات ومعادن

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين رقم (٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٥) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال : تفرد به عثمان بن كثير . ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح . والحديث ضعفه الألباني وهو في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢) .

. . . .

ومياه ونحوها : ﴿ وما ينزلُ من السَّماءِ ﴾ من عذاب، أو من رحمة ، أو من مطر ، أو من رياح، ﴿ وما يعْرُجُ فيها ﴾ من الأعمال والملائكة والأرواح ونحو ذلك ﴿ وهُو معكُمْ ﴾ يعني وهو عالم بكم، ومطلع عليكم، ورقيب عليكم ، فكأنه معكم بقربه وكمال تصرفه ﴿ أيْنَ ما كُنتُمْ ﴾ فوجب عليكم أن تخافوه وتراقبوه .

• الآية الثانية: من سورة « قد سمع الله » بدأها بالعلم ، وختمها بالعلم، روي أن ابن عباس لما أنكر إنسان العلو ، واحتج على ابن عباس بهذه الآية ﴿ ما يكُونُ من نَّجْوىٰ ثلاثةٍ إلاَّ هُو رابعُهُمْ ولا خمْسةٍ إلاَّ هُو سادسُهُمْ ولا أدْنىٰ من ذلك ولا أكْثر إلاَّ هُو معهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] قال له ابن عباس : اقرأ ما قبلها، أي اقرأ أولها : ﴿ ألمْ تر أنَّ اللَّه يعْلمُ ما في السَّمَوات وما في الأرْضِ ﴾ بدأها بالعلم ﴿ يعْلمُ ما في السَّموات وما في الأرْضِ ﴾ كل ما في السماوات وما في الأرض : ﴿ ما يكُونُ من نَّجْوىٰ ثلاثةٍ إلاَّ هُو رابعُهُمْ ﴾ النجوى: هي المناجاة بين اثنين أو بين ثلاثة ، فالكلام الخفي الذي يتناجى به ثلاثة ، الله تعالى يسمعه ويكون رابعهم ، فهو عالم بما يقول كلٌّ منهم ، ولا خمسة يتناجون سراً بكلام خفيٍّ إلا ويسمعهم الله تعالى ، ويكون سادسهم، فهو عالم بهم، وكأنه بينهم ، وهو سبحانه وتعالى على عرشه وفوق سماواته، ومع ذلك مطلع على أعمال عباده ،ورقيب عليهم ، ولا يخفى عليه منهم خافية، كذلك قوله في آخر الآية : ﴿ إنَّ اللَّه بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ أي أن الله محيط بكل شيء علماً. فقد بدأها بقوله: ﴿ ألمْ تر أنَّ اللَّه يعْلمُ ﴾ وختمها بقوله: ﴿ إنَّ اللَّه بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ فدل على أن المراد كمال العلم .



. . . .

فهاتان الآيتان تدلان على المعية العامة .

• **الآية الثالثة** في سورة التوبة، قول الله تعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ [التوبة: ٤٠] لما كان هو وأبو بكر في الغار، وخافا من المشركين؛ طمأن النبي ﷺ صاحبه وهو أبو بكر وقال: ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ وليس في ذلك دليل على أنه حزن، إنما فيه تثبيته وطمأنته، وبيان أنهما في محل أمن، وأن الله يحفظهما ﴿ **إن الله معنا** ﴾، وفي بعض الأحاديث « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** » يعني يحفظهما ويكلؤهما؛ معنا بنصره، معنا بحفظه، معنا بتأييده وتقويته، معنا بكلاءته ورعايته، فليس علينا حزن ولا خوف ولا تلف .

فهم آمنون، وإن كان المشركون قريباً منهم، قال أبو بكر : يا رسول الله : « لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا». فقال ﷺ : « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** »[1] .

• **أما الآية الرابعة**: فإنها في المعية الخاصة، فقوله تعالى لموسى وهارون كما في سورة طه : ﴿ **لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ [طه: ٤٦] عندما قال موسى وهارون: ﴿ **إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ [طه: ٤٥] يعني فرعون، قال: ﴿ **لا تخافا إنني معكما** ﴾ ثم فسر المعية بقوله: ﴿ **أسمع وأرى** ﴾ أسمع ما يقال لكما وأراكما لا يخفى عليّ منكما خافية، ومعنى هذا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٦٣) في التفسير [سورة التوبة]، باب: «قوله: ﴿ **ثاني اثنين إذ هما في الغار** ﴾ . . .». عن أبي بكر رضي الله عنه .

. . . .

أنني ناصركما ومؤيدكما ، فهذه معية النصرة والتأييد ، إنني معكما أنصركما ، وأقويكما، وأثبتكما، وأحفظكما حتى لا يصل إليكما مكروه .

كذلك بقية الآيات فيها بيان فضل بعض الأعمال ، وأن الله يحفظ أهلها .

• فقوله : ﴿ إنَّ اللَّه مع الَّذين اتَّقوا والَّذين هم محسنون ﴾ [النحل : ١٢٨] يدل على فضل التقوى والإحسان ، وأن أهلها يحظون بمعية الله ، والتقوى : اسم جامع للأعمال الصالحة التي فيها اتقاء الله واتقاء عذابه .

والإحسان يراد به إتقان الأعمال وإخلاصها وإتمامها ، حتى تكون حسنة مقبولة .

• كذلك قوله : ﴿ واصبروا إنَّ اللَّه مع الصَّابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، كذلك قوله : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة إنَّ اللَّه مع الصَّابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، فالصابرون هم الذين يثبتون عندما يلم بهم أمر ، أو يقعون في مصيبة ، فالله تعالى معهم بنصره وتأييده، وتقويته لهم وتثبيته .

• كذلك قوله تعالى : ﴿ كم مِّن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللَّه واللَّه مع الصَّابرين ﴾ [البقرة : ٢٤٩] الفئة : الجماعة ، والمعنى يوجد كثيراً فئة قليلة وتغلب فئة كثيرة في القتال ، ويكون ذلك بنصر الله وتوفيقه وتثبيته لهم حتى ينتصروا، ويكون الله معهم؛ لأن الله تعالى مع الصابرين ، هذا ونحوه دليل على المعية الخاصة التي هي معية النصر والتأييد، والآيات فيها كثيرة ، تدل على فضيلة هذه المعية ، وبيان فضل هذه الأعمال ؛ لأن الإنسان إذا عرف أن هذا العمل يحظى أهله بمعية الله حرص على أن يكون من أهله ، فيحرص على أن يكون من أهل الإحسان ، وأن يكون من أهل التقوى لقوله تعالى : ﴿ إنَّ

. . . .

اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وأن يكون من أهل الصبر، وهكذا بقية الأعمال التي ذكر الله أن أهلها حظوا بمعية الله.

بقي الجمع بين آيات العلو وآيات المعية، نقول: لا منافاة بين آيات العلو وآيات المعية، فإن الله تعالى عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، فما ذكر عن علوه وفوقيته لا ينافي ما ذكر من قربه ومعيته، فإنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فليست معيته كمعية المخلوق، وليس علوه كعلوهم.

فهو مع كونه عليّاً بكل أنواع العلو لا يخفى عليه من أمور عباده شيء، فهو مطّلع عليهم ومهيمن عليهم، ورقيب على أعمالهم، وذلك لأنهم خلقه وملكه، وهو المالك لهم، فهو لا يغفل ولا يغيب عن عباده، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، فليس بينهما تناف، فقربه يكون بعلمه وباطلاعه، وبكون كل شيء تحت تصرفه وأمره وتقديره: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وعلوه وارتفاعه فوق عباده بجميع أنواع العلو، وليس بينهما والحمد لله منافاة.

❁ ❁ ❁

٢٣ ـ إثْباتُ صِفة الكَلامِ للّه تَعَالَى :

[وَقَـوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الـلَّهِ حديـثًا ﴾ [النسـاء: ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢] ، ﴿ وإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٦] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعـام: ١١٥] ، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ، ﴿ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيـــقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه ﴾ [الأعــراف: ١٤٣] ، ﴿ وَنَادَيْنَـاهُ مِن جَانِبِ الطُّـورِ الأَيْمَـنِ وَقَرَّبْنَـاهُ نَجِيًّا ﴾ [مـريم: ٥٢]، ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الـــظَّالِمِينَ ﴾ [الشـعراء: ١٠]، ﴿ وَنَادَاهُـمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الـشَّجَـرَةِ ﴾ [الأعـراف: ٢٢]، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيـهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]] .



▪ قوله: (وقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ...):

عقيدة أهل السنة أن الله تعالى متكلم ويتكلم إذا شاء ، وأن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد ، واستدلوا بالعقل والنقل ، فأما العقل فإن كل ذي عقل مفطور على أن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، وأن فقد الكلام نقص وعيب ، ويدل على ذلك أن الله عاب معبودات المشركين بأنها ناقصة لأجل ذلك ،

. . . .

فذكر في عجل بني إسرائيل الذي عبدوه بعد موسى نقصه بنفي الكلام عنه ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يروا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سبيلاً ﴾ [الأعراف : ١٤٨] ، فدل على أنه ناقص لكونه لا يكلمهم ، فيدل أن المعبود الحق ، وهو الله ليس كذلك ، بل موصوف بأنه يتكلم .

ولما حطم إبراهيم الخليل آلهة قومه عابها بأنها لا تتكلم ، فقال : ﴿ بل فعله كبيرُهُمْ هذا فاسألوهُمْ إن كانوا ينطقون ﴾ [الأنبياء : ٦٣] فاعترفوا بقولهم : ﴿ لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون ﴾ [الأنبياء ٦٥] ولما خاطب الآلهة قال لها مستهزئًا : ﴿ ما لكُمْ لا تنطقون ﴾ [الصافات : ٩٢] ، كما قال تعالى : ﴿ فراغ إلىٰ آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ [الصافات : ٩١] فلما لم يستجيبوا له ، قال : ﴿ ما لكُمْ لا تنطقون (٩٢) فراغ عليهمْ ضربًا باليمين ﴾ [الصافات : ٩٢ ، ٩٣] .

فالحاصل أن من نقص ما يعبد من دون الله أنه لا يتكلم ؛ أنه مسلوب هذا الوصف ، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال . ولهذا كلف الله من يتكلم ، فالجن والإنس والملائكة والشياطين مكلَّفون ، وعليهم الأوامر والنواهي والحساب والعقاب والعذاب والثواب ؛ لأنهم يتكلمون وينطقون ويعقلون ، ولم يكن هذا التكليف على الدواب ولا على بهيمة الأنعام ، وكذلك الحشرات والصيود البرية وما أشبهها ، لما كانت بهيمية لا تتكلم ، لم يكن عليها تكليف لكونها ناقصة ، فدل على أن صفة الكلام صفة كمال ، هذا من حيث العقل .



. . . .

أما من حيث النقل ، فعندنا الآيات ، وعندنا الأحاديث كما سيأتينا بعض منها بعد هذا الفصل ، وهي قد دلت على صفة الكلام بعدة دلالات :

الدلالة الأولى : بصفة الحديث :

فمعلوم أن الكلام يسمى حديثًا ، تقول: حدثت فلانًا يعني كلمته، وتحدثت مع فلان، وفلان وفلان يتحدثان، والقوم يتحدثون يعني يتكلمون ، فالكلام حديث، وسمي حديثًا لأنه يحدث شيئًا فشيئًا ، يعني يتجدد ، تحدث الكلمات حرفًا بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، فهذا سبب تسميته حديثًا ، والله تعالى قال : ﴿ فَذَرْنِي ومن يُكذِّبُ بهَذَا الْحديث ﴾ [القلم: ٤٤] يعني بهذا القرآن ؛ لأنه كلام . وقال تعالى في الآية التي في سورة النساء : ﴿ومنْ أصْدقُ من اللَّه حَديثا ﴾ [النساء: ٨٧] ، والحديث هو الكلام، أي من أصدق من الله كلامًا ، فهذا دليل واضح وهو إثبات الحديث، وهو من أسماء الكلام .

الدلالة الثانية : إثبات القول والقيل :

والقول: صريح في النطق ، قال بمعنى نطق . فالقول لا تعرفه العرب إلا للكلام ، وإن كانوا قد يطلقونه على الأفعال ، ولكنهم يريدون بذلك الحكاية ؛ كأن يقولوا : قال بيده هكذا ، ولابد في ذلك من الإشارة ، فالقول هو النطق ، وهو الكلام .

....

وقد دل عليه القرآن في عشرات المواضع أو مئات المواضع ، كثيرًا ما يقول : (**قال الله**) أو (**والله يقول**) ، وما أشبه ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾) [المائدة : ١١٠] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة :١١٩] ، ﴿ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة :١١٥]، ﴿ قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة :١١٩] ، ﴿ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] ، وأشباه ذلك كثير .

وكذلك جاء بالمصدر في هذه الآية التي سبقت، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٣] ، يعني : قولًا ، يعني : لا أحد أصدق من الله مقالًا ، فالقيل والقول بمعنى الكلام الصريح ، فدل على أن الله موصوف بأنه يتكلم ويقول كما أثبت ذلك لنفسه.

والدلالة الثالثة: دلالة التسمية:

تسميته كلامًا ، أو تسمية ما جاء عنه كلامًا ، والأدلة عليه كثيرة ، والعرب لا تعرف الكلام إلا للنطق ، يقولون : هذا كلام فلان، يعني: ما تكلم به وما تلفظ به ، وقد استعمل ذلك في نظمهم ونثرهم ، وكذلك استعمله النبي ﷺ في أحاديثه ، ومنه قوله عليه السلام : « **أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد** »[1] ، فسماها كلمة مع أنها نطق .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦١٤٧)، كتاب الأدب، ومسلم رقم (٢٢٥٦)، كتاب الشعر.

. . . .

فكذلك قوله في كثير من الآيات ، كما في سورة الأنعام : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥] قرأها بعضهم : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ومعنى تمت: أي ثبتت وحقَّت ، فلا تبدَّل ولا تغير ، فلا مغير لأمر الله وقضائه وقدره. كما وردت مثل هذه الآية في آخر سورة هود ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، وفي سورة السجدة : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، فدلَّ على أن « كلمة » اسم للكلام يعني وجب وحق وثبت كلام الله الذي تكلم به ، وهو إخباره بأنه سيحق الحق ويبطل الباطل ، وأنه سيعذب هؤلاء ، وينعم هؤلاء ، فلا مغير لما قاله ولا مبدل لكلمات الله .

ومن الأدلة أيضًا على إثبات الكلام : تكليمه تعالى لبعض عباده ، وقد أثبت ذلك لموسى في عدة آيات منها: قوله في سورة النساء : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] أكَّده بالمصدر ، وهي قوله : ﴿ تَكْلِيمًا ﴾ .

روي أن بعض المعتزلة جاء لأبي عمرو القاري ، وقال : أحب أن تقرأها بنصب « الله » أن تقرأها ﴿ وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ . أراد هذا المعتزلي أن يكون موسى هو المكلم لا الله . فقال له أبو عمرو : هب أني قرأتها كذلك ،

. . . .

فكيف تصنع بقول الله تعالى ، يعني في سورة الأعراف : ﴿ ولَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فسُقط في يدي ذلك المعتزلي ، حيث إن الآية التي قالها لا تحتمل التأويل : ﴿ كَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ فقدم الضمير الذي يعود إلى موسى، وأكد أن الذي كلمه هو ربه ، فالكلام هو النطق، يعني سمع كلام الله كما يسمع كلام غيره إلا أن كلامه لا يشبه كلام غيره من المخلوقات .

كذلك أيضًا أثبت الله لموسى أنه كلمه في قوله : ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وكذلك قوله : ﴿ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ لكن المعتزلة الذين أنكروا صفة الكلام لم يجدوا بُدآ من التأويلات البعيدة ، فجعلوا التكليم هنا بمعنى التجريح لأن الكلم : الجرح ، فيردُّ عليهم بأن الله أثبته وسماه كلامًا ، في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبِكَلامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] هذا لا يستطيعون تأويله ، حيث أثبته لنفسه ، فقال : « كلامي » كذلك قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى : ٥١]، وقد كلم الله موسى من وراء حجاب ، وأثبت أنه يكلم من وراء حجاب .

الدلالة الرابعة : النداء :

فالنداء لا تعرفه العرب إلا بكلام ، وقد أثبته الله في آيات كثيرة ، كقوله

....

تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ [القصص: ٧٤]، وتأتينا آيات في النداء غير هذه الآية؛ كقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم :٥٢] ، فآيات المناداة صريحة في إثبات صفة الكلام ، وأنه ناداه بكلام سمعه لما ناداه ، وهو على الطور ، سمع كلام الله كما يشاء الله تعالى .

الدلالة الخامسة: المناجاة:

والمناجاة: هي الكلام الذي يكون بين اثنين لا يسمعه غيرهما ، ففي هذه الآية إثباتها في قوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ ، يعني: مناجيًا . فالنجوى : الكلام بين اثنين لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المجادلة :٩] ، فالتناجي : يعني : الكلام الخفي بين اثنين، فالله تعالى أثبت أن موسى نجيٌّ ، يعني : مناجيًا الله تعالى مكلمًا له، فدل على إثبات صفة الكلام.

فلهذه الأدلة وما يأتي بعدها ، كل ذلك في إثبات أن الله متكلم ، وأنه يتكلم إذا شاء ، أثبت ذلك أهل السنة ، وأثبتته أيضًا الأشعرية ، وأثبتوا أن الله متكلم ، ولكن الأشعرية لما جادلوا المعتزلة اضطروا إلى أن ينكروا الكلام الحقيقي ، فقالوا : هو الكلام النفسي ، وهو أنه كلام في النفس لا كلام حقيقي ، فعيب عليهم بأن هذا نقص ولا يتم به المراد . والصحيح أن الله يتكلم كما يشاء ، ولا نقول: إنه يتكلم كما يتكلم المخلوقات ويحتاج إلى

. . . .

لسان ولهوات إلخ ؛ بل منزه عن صفات النقص ، وعن صفات المخلوقين ، وهكذا يعتقد المسلمون .

❊ ❊ ❊

٢٤ ـ إثْبَاتُ أنَّ القُرْآن كلامُ اللَّه :

[﴿ وإنْ أحدٌ مّن الْمُشْرِكين اسْتجارك فأجرْهُ حتّىٰ يسْمع كلام اللّه ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿ وقدْ كان فريقٌ مّنْهُمْ يسْمعُون كلام اللّه ثُمّ يُحرِّفُونهُ منْ بعْد ما عقلُوهُ وهُمْ يعْلمُون ﴾ [البقرة: ٧٥] ، ﴿ يُريدُون أن يُبدِّلُوا كلام اللّه قُل لّن تتّبعُونا كذلكُمْ قال اللّهُ من قبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥] ، ﴿ واتْلُ ما أُوحي إليْك من كتاب ربّك لا مُبدّل لكلماته ﴾ [الكهف: ٢٧]] .



ذكرنا أن عقيدة أهل السنة أن الله متصف بالكلام ، وبأنه يتكلم إذا شاء ، وأن من جملة أدلتهم : أن الله وصف نفسه بأنه نادى وينادي وناجى كما تقدم في قوله : ﴿ وناديْناهُ من جانب الطُّور الأيْمن وقرّبْناهُ نجيًّا ﴾ [مريم: ٥٢] . والنداء لا يكون إلا بكلام . وكذلك النجاء والمناجاة لا تكون إلا بكلام مسموع . فإن المنادي ينادي ويرفع صوته .

ومن الأدلة أيضًا: ما روي أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه(١) ؟ . فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٥٢) وعزاه لابن جرير الطبري، والبغوي في معجمه، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، من طريق الصلت بن حكيم، عن رجل من الأنصار، عن أبيه عن جده، قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: . . . . » فذكر الحديث. والإسناد كما ترى فيه مجاهيل.

. . . .

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فمعنى قولهم: أقريب فنناجيه؟، يعني إذا كان قريبًا فإننا نناجيه، يعني نسأله سرًا بيننا وبينه، كالذي يكون بين المتناجيين، وإذا كان بعيدًا رفعنا الصوت وناديناه بالدعاء، فأخبر تعالى بأنه قريب، ففرقوا بين النداء والمناجاة، فآيات النداء التي في القرآن بلغت سبعة مواضع أو ثمانية أغلبها في موسى، أن الله ناداه، كقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] كما في سورة الشعراء، وقوله في سورة مريم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وقوله في سورة النازعات: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، كذلك في آدم قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] يعني أن الله ناداهما أي آدم وزوجه؛ ناداهما فسمعا نداءه، وكلمهما فسمعا كلامه، فالنداء كلام.

كذلك آيات النداء في الآخرة ثلاث آيات في سورة الصافات: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] هذا في يوم القيامة أخبر بأنه يناديهم، والنداء لابد أن يكون بكلام مسموع، ويأتينا في الحديث أنه ينادي آدم بصوت يسمعه آدم. فالنداء من أدلة إثبات صفة الكلام لله تعالى.

وبعد أن عرفنا الأدلة على إثبات صفة الكلام، وأن الله متكلم، فعندنا

. . . .

آيات تتعلق بالقرآن ، وأن القرآن من جملة كلام الله ، وأن الله تكلم به حقيقة بخلاف من زعم أنه خلقه كما خلق غيره ، فإن المعتزلة والجهمية ونحوهم لما اعتقدوا في الله عقيدة سيئة ، ودفعوا عن الله تعالى صفات الكمال، ومن جملة ذلك أنهم نفوا عنه صفة الكلام، وجعلوا الكلام خاصًا بالمخلوق ، وادعوا أنه يحتاج إلى كذا وإلى كذا ، وقاسوه على أنفسهم ، قاسوه على ما يتكلمون به أو ما يعرفونه، وذلك دليل قصر الأفهام، فعند ذلك جاءهم القرآن ، فلم يجدوا بدآ من القول بأنه مخلوق ، وأنكروا أن يكون القرآن كلام الله ، فعند ذلك جادلهم أهل السنة ، وتحدوهم بأن يأتوا بدليل يدل على أن القرآن مخلوق ، أو يجيبوا على الأدلة التي تدل على أن القرآن كلام الله ، فلم يجدوا إلا التأويلات البعيدة .

■ **قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾) :**

فمن الأدلة على أن القرآن كلام الله هذه الآيات الأربع التي عندنا .

● **فالآية الأولى:** في سورة التوبة ، قول الله تعالى : **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾** [التوبة : ٦] ومن المعلوم أن الذي يُسمع هو هذا القرآن الذي يقرؤه القارئ ويسمعه المستمع ، فهو كلام الله ، والآية نزلت في تأمين الداخل للاستماع ، يعني إذا أتى أحد من المشركين يريد أن يدخل في البلاد الإسلامية ، فأعطه أمنًا وأجره وأمِّنه من

. . . .

الناس أن يعتدوا عليه أو يقتلوه ، حتى يدخل ، لعله يسمع كلام الله ، فمتى سمع كلام الله ربما يلين قلبه ، ويهديه الله للإسلام ، فهذا ونحوه دليل على أن القرآن كلام الله ؛ لأنه هو الذي يسمع وسماه كلامه. وليس كلامه ككلام البشر ، نحن نتكلم به ونقرؤه ، ولكن تكلّم الله به كما شاء ، لا أنه مثل تكلّمنا به .

• الآية الثانية : قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥] .

يعني قد كانوا فيما مضى يسمعون كلام الله المنزل على أنبيائه في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب النبوية السماوية ، يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، يحرفونه تحريفًا معنويًا ، أو تحريفًا لفظيًا .

وهذا دليل على أن الكتب المنزلة على الأنبياء كلها كلام الله ، فإن الله تعالى تكلم بالقرآن وتكلم بالتوراة ، وتكلم بالإنجيل وبالزبور ، وبصحف إبراهيم وبصحف موسى ونحوهم .

• أما الآية الثالثة: فهي في قصة المنافقين من الأعراب ؛ حيث قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥].

يعني أن الله قد نهى المتخلفين عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل

. . . .

لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فهذا فيه كلام من الله وإخبار بأنهم لا يخرجون ، فهم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، فإذا رأوا الرسول انطلق إلى مغانم ليأخذها ويظفر بها ، استأذنوا ، وقالوا: دعونا نقاتل معكم ، يريدون أن يبدلوا ذلك الكلام الذي أخبر الله به أنهم لا يخرجون ، فأخبرهم يا محمد وقل لهم : لن تتبعونا ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ، فقوله : ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ﴾ هو تفسير لقوله : ﴿كَلامَ اللَّهِ﴾ .

فدل ذلك على أن الكلام هو القول ، وأن معناه : كذلكم تكلم الله ، وأن قوله : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ﴾ يعني يريدون أن يبدلوا ما قاله الله في حقهم وعدم خروجهم . هذا ونحوه دليل على أن الله تعالى تكلم بهذا، وأنه عين كلام الله تعالى .

● أما الآية الرابعة : فهي قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧] ففيها الأمر بتلاوة كتاب الله ، والمراد به هذا القرآن؛ أمر الله بتلاوته ، والتلاوة : القراءة ، يتلوه : يعني يقرؤه في تدبر ، يقرؤه على الناس ، يقرؤه تعبدًا ؛ لأنه أوحاه الله إليك وأنزله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ سماه كتابًا ؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، ولأنه كُتب بعد ذلك بالمصاحف. والكتاب: اسم لما يكتب، وأضافه إلى الله ثم قال : لا مبدل لكلماته ، يعني أن ما فيه هو كلام

. . . .

الله ، ولا مبدل لكلام الله ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿وتمَتْ كَلمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] ، فكذلك قوله هنا : ﴿لا مبدل لكلماته﴾ يعني لا مغير له ، فصرح بأنه كلمات، وبأنه كلام الله.

وقد ذكر العلماء أن هذا القرآن الذي في مصاحفنا ، هو كلام الله ؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف ، كما يأتينا في هذه العقيدة إن شاء الله .

وكذلك ذكروا أن هذا القرآن حروفٌ وكلماتٌ وجملٌ ومعاني ، وكله من كلام الله ، وأن من جحد منه شيئًا ، وأنكر أن يكون كلام الله ، أو أنكر أن يكون من وحيه الذي أنزله على أنبيائه ، فإنه يكفر بذلك ؛ لأنه أنكر شيئًا اجتمعت عليه الأمة وتلقته بالقبول ، وأنكر شيئًا من الذي تكفل الله تعالى بحفظه عن التغيير والتبديل .

عـرفت بذلك أن كلام الله من جملته هذا القرآن .

واعلم بعد ذلك أن كلام الله ليس له نهاية ، ولا يحيط به محيط ، قال الله تعالى : ﴿ولَوْ أنَما في الأَرْضِ مِن شَجرَةٍ أَقْلامٌ والْبحْرُ يمُدُّهُ من بعْده سبْعةُ أبْحُرٍ مَا نفِـدتْ كلماتُ اللَّه إنَ اللَّه عزِيزٌ حكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يعني لو أن جميع الأشجار؛ ما في الأرض من شجرة ، من أول الدنيا إلى آخرها ، كانت أقلامًا ، وأن البحار السبعة كانت حبرًا مدادًا ، فكتب بتلك الأقلام ، وكُتب بذلك المداد الذي هو سبعة البحار لتكسرت الأقلام قبل أن ينفد كلام



. . . .

الله ، ولنفدت البحار قبل أن ينفد كلام الله . وذلك لأن كلام الله لا نهاية له ، والمخلوق له بداية ونهاية .

وهذا دليل صريح على أن القرآن كله من كلام الله ، وواجب المسلم إذا عرف أنه كلام الله أن يحترمه ، وأن يفرق بينه وبين كلام الناس ، وأن يعمل بما أمر فيه ، فيتلوه حق تلاوته ، ويتدبره حق تدبره ، ويقف عند عجائبه ، ويؤمن بمتشابهه ، ويعمل بمحكمه ، ويصدق بما فيه ، ولا يرد شيئًا منه ، ويعتقد أنه آية الله ، ومعجزة نبيه التي أقام بها الحجة على قومه ، وأنه محفوظ عن التغيير والتبديل ، فإذا صدق بذلك ، صدق عليه أنه آمن بالله وكتبه .

❁ ❁ ❁

٢٥ - إثْبَاتَ تنزيلِ القُرآنِ من اللَّه :

[وقَولُهُ : ﴿ إنَّ هذا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يخْتَلفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦] ، ﴿ وَهَذَا كتَابٌ أَنـزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] ، ﴿ لَوْ أَنـزَلْنا هَذا القُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشعًا مُّتَصَدّعًا مّنْ خَشْيَة اللَّه ﴾ [الحشر: ٢١] ، ﴿ وإذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّما أَنتَ مُفْترٍ بلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٣]].

الشرح

■ قوله: (وقوله: ﴿ إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾):

ففي هذه الآيات دليل على عظم منزلة القرآن الكريم بين كتب الله ، ومنزلته في شرع الله ، وفي قلوب عباده ، فإنك تعرف من هذه الآيات أنه كلام الله ؛ لأن فضله على كلام الناس كفضل الله على خلقه .

وتعرف من هذه الآيات أنه منزَّل من الله ، لا أنه مفترى ولامكذوب ، كما يقوله المشركون .

. . . .

وتعرف أنه منزل من الله لا من غيره كما في هذه الآيات .

وبعد معرفتك لهذا ، فإنك :

أولاً : تعتقد عقيدة صادقة أنه آية من الله ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام .

ثانياً : تتدبره وتتعقله كما أمرك الله .

ثالثًا : تعتقد كل ما ورد فيه من الأمور الغيبية وتصدق بها .

رابعًا : تعمل به وتطبقه حسب ما تستطيع . يحملك على هذه الأمور التصديق بمضمون هذه الآيات ونحوها :

● **الآية الأولى** : في سورة النمل : ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ [النمل : ٧٦] بنو إسرائيل كانوا قد اختلفوا في أشياء أثبتها بعضهم ونفاها بعضهم ، وحرفوا كثيرًا من كتبهم ، فجاء القرآن بالقول الفصل والحق والصدق ، وبين لهم القول الصحيح في كلٍّ ما اختلفوا فيه ، فتجد قصة موسى ، وقد اختلفوا فيها وقصها الله كما هي ، وتجد قصة بني إسرائيل وكثيرًا من سيرهم محققة ، ليس فيها اختلاف ، وإن كانوا قد اختلفوا هم بأنفسهم في كثير من الأشياء ، وجاء القرآن بالفصل بينهم ، وذكر تلك القصص على ما هي عليه ، هذا معنى قوله : ﴿يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ .

. . . .

فيجب أن يكون مرجعًا لهم ، وإذا كان مرجعًا لهم فهو مرجع للأمة ، مرجع لها في قصص الأنبياء وما وقع عليهم ، مرجع لها في الآخرة ، وما يكون فيها وما يحدث فيها ، مرجع لهم في الأحكام والحلال والحرام ، ومايحل من ذلك وما يحرم ، مرجعًا لهم في الاعتبار والأمثال ونحوها ، يجب أن يكون مرجعًا للجميع ؛ لأنه من الله .

• **أما الآية الثانية** : في سورة ص : ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص : ٢٩] .

ذكر الله أنه أنزله ، فالإنزال من الله ، وهو من أقوى الشواهد ، فإنه منزل من الله ، والإنزال لا يكون إلا من أعلى ، فدل على أنه منزل من الله ، وأنه كلامه ؛ لأنه الذي أنزله ، ولم يقل : خلقناه ، فلم يذكره بالخلق كما تزعم المعتزلة ، بل ذكره بلفظ الإنـزال والتعليم ونحو ذلك ، فإذا عرفنا أنه منزل من الله تلوناه حق تلاوته ، إذا أمرنا الله بتدبره امتثلنا ﴿ **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ ، وإذا أمرنا بالتذكر تذكرنا ﴿ **وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ ، وأولو الألباب : هم أصحاب العقول النافعة لا العقول المعيشية الدنيوية ، فإنهم لا يتعقلونه بل يعرضون عنه ، فيستبدلون به ما سواه ، وما هو ضده ، من اللهو واللغو والباطل ونحو ذلك .

• **الآية الثالثة** : في سورة الحشر : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ**

. . . .

خاشعًا مُتصدعًا من خشية الله ﴾ [الحشر : ٢١] ففيها أنه منزل ؛ لأن الله ذكر أنه منزل بقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] ، يقول : لو أنه أنزل على جبال لخشعت الجبال ، فلماذا لا تخشع هذه القلوب ؟ لماذا لا تخشع قلوبكم ، وقد خوطبت بهذا القرآن العظيم؟ فالجبال لو أنها مكلفة ونزل عليها هذا القرآن العظيم ، لرأيت الجبل منه خاشعًا : يعني مخبتًا وخاضعاً ومستكيناً ومتواضعًا ﴿ مِنْ خَشْيةِ اللَّهِ ﴾ يعني من شدة خوفه ، إذا كان هذا شأن الجبل مع كونه جماداً أصم شامخًا ، ومع ذلك هذا فعله ، فإنك بطريق الأولى أن تكون خاشعًا منصدع القلب من خشية الله ، فإن من تأمله وقرأه بحضور قلب ، حمله ذلك على أن يخشع ، وعلى أن يخشى الله . ومن آثار خشيته : أن يخشع قلبه ويخشع بدنه .

● **أما الآية الرابعة والخامسة والسادسة : فهي من سورة النحل** ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بدَّلْنا آيةً مَكَان آيةٍ وَاللَّهُ أعلمُ بِمَا يُنزِلُ ﴾ فذكر أنه هو الذي نزله ، وأنه أعلم به ، وأنه قد ينسخ منه بعض الآيات ، ويأتي ببعض بدلاً منها ، وهذا معنى : ﴿ بَدَّلْنَا آيةً ﴾ أي نسخناها وأتينا ببدلها ، كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

فإذا بدل الله آية مكان آية ، فإن المشركين يشكون ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر أنه منزل ، والله أعلم بما

. . . .

ينزل ، ولكنهم عندما تنسخ آية يتهمون الرسول بأنه افترى الأول والآخر ، ويقولون : إنما أنت مفتر فيردُّ الله عليهم : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ صرح بأنه منزل﴿ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]، روح القدس يعني جبريل، نزل به ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني نزله من الله الذي هو ربك وربه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ يعني مشتملاً على الحق. وفائدته: ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ تثبيتٌ وهدى وبشرى خاصة بالمسلمين .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ يعني علم الله وسمع أنهم يتكلمون في الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتهمونه بأنه تلقاه من إنسان ، فقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ، وكان عندهم رجل يهودي أو نصراني بمكة ، وكانوا يقولون : إنه الذي لقن محمداً هذا القرآن مع أن ذلك النصراني لم يكن عربيًا ، فقال الله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ يلحدون: أي يميلون إليه ، ويدّعون أنه الذي تلقى عنه محمد ﷺ هذا القرآن ، لسانه أعجمي ، وأما محمد ﷺ فلسانه عربي ، فلهذا قال : ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، فكيف يزعمون أنه تلقاه من ذلك الأعجمي ، فهذا دليل على أنه منزل من الله على قلب النبي ﷺ .

فالحاصل أن هذه الآيات دالة على فضل القرآن ، وفضل تدبره وتعقله ، ودالة على أنه منزل من الله ، ودالة على أنه مستمر على الهدى وعلى التثبيت

. . . .

وعلى البشرى للمسلمين ، ودالة على أنه مرجع وحكم لكل من اختلف في شيء من الأمور ، فإنه يجد فصل النزاع في هذا القـرآن ، ودالـة على أنه كلام الله؛ لأنه لم يذكره بالخلق ، بل ذكره بالتنزيل .



٢٦ - إثْبَاتُ رُؤيَةِ المُؤْمنينَ لِرَبِّهِم يَوْمَ القِيَامَة :

[وَقَولُهُ : ﴿ وُجُوهٌ يومَئذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣] ، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، وقولُهُ: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥]، وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ القُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدى مِنْه؛ تبيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ] .



هذه الآيات استدل بها المؤلف رحمه الله على مسألة النظر إلى الله ، أي النظر إلى وجه الله ، ورؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وقد دل على هذه المسألة الكتاب والسنة ، واتفق عليها سلف الأمة وأئمتها ، وأنكرتها المعتزلة والجهمية ونحوهم ، وبالغوا في إنكارها .

والأدلة من القرآن ، منها ما هو صريح ، ومنها ماهو مستنبط .

• الآية الأولى: من سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يومَئذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ناضرة بالضاد من النضارة وهي البهاء يعني بهيَّة مشرقة، والثانية ناظرة بالظاء: من النظر وهو المعاينة . وأضاف أن النظر إلى الله ، فقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ظاهرها أنها تنظر إلى الله تعالى معاينة ، عبر بالوجوه ؛ لأنها محل النظر ، فالنظر مركب في الوجه ، كذلك قال : ﴿ وُجُوهٌ يومَئذٍ

. . . .

ناضرة﴾ . ولم يقل: عيون ؛ لأن بالنظر تشرق تلك الوجوه ، كما فسرت ذلك السنة .

وهذه الآية من أوضح الأدلة ولكن المعتزلة لم يجدوا بدًا من تسليط التأويلات عليها ، فقال بعضهم : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يعني إلى ثواب ربها . وإلى عطاء ربها فجعلوا مقدرًا ، وهو خلاف الأصل . فالأصل أنها لا تحتاج إلى تقدير ، لا تحتاج إلى شيء خفي ، وهذا كما فعلوا في قوله: ﴿وجاء ربُّك﴾ قالوا: المعنى وجاء أمر ربك ، وكما فعلوا في قوله: ﴿أأمنتُم مَن في السَّماء﴾ [الملك: ١٦] قالوا: من في السماء أمره، وهكذا فعلوا هنا في قوله ﴿إلىٰ ربِّها ناظرةٌ﴾، قالوا: ثواب ربها ناظرة ، أو إلى نعيمه وجنته، وهذا الإضمار خلاف الأصل.

وتأول آخرون حرف الجر بأنه اسم لا حرف ، وأنه مفرد الآلاء ، فقالو . ﴿إلى ربِّها﴾ يعني آلاء ربها ، ناظرة ، وهذا أيضًا بعيدٌ كل البعد عن مفهوم القرآن، فالقرآن صريح في أن المراد النظر إلى ربها ، ولأن الإلى لم يرد بالمفرد لما فيه من الإيهام، وإنما ذكره الله بالجمع في قوله : ﴿فبأيِّ آلاء ربك تَتمارى﴾ [النجم: ٥٥]، وفي قوله: ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكُما تُكذِّبان﴾ [الرحمن: ١٣] ولم يقل: بإلى ربك أو بإلى ربكم ، عرفنا من ذلك أن تأويلاتهم باطلة، وأن الأولى إجراؤها على ظاهرها.

• الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿على الأرائك ينظُرُون﴾ [المطففين: ٢٣] كما في سورة المطففين ، الأرائك : جمع أريكة ، وهي ما يتكأ عليه ، يعني

. . . .

أنهم متكئون فيها على الأرائك ، ينظرون .

فُسِّر هذا النظر بأنه النظر إلى الله تعالى . فظاهر النظر في الآية أنه النظر إلى الله. وإن كانت محتملة أن المراد النظر إلى ما أعطوا من النعيم والثواب .

• **الآية الثالثة** : قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ** ﴾ [يونس: ٢٦] ورد تفسير الزيادة مرفوعًا عن النبي ﷺ بأنه النظر إلى وجه الله ، كذلك فسره الصحابة كأبي بكر وغيره من الصحابة الأجلاء قالوا: للذين أحسنوا الحسنى: الجنة ، وزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى[١] ، وإذا نظروا إلى وجه الله فلا يرهق وجوههم قتر ولاذلة ، يعني: لا يصيبهم من النظر قتر وهو الغبرة والتغير ، (**ولا ذلة**) أي مهانة.

بل الأمر بعكس ذلك ، تشرق وجوههم وتستنير بالنظر إلى الله.

• **أما الآية الرابعة** : وهو قوله تعالى : ﴿ **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٥] كما في سورة ق ، قد فُسِّر المزيد بالنظر إلى وجه الله ، وفسرها بذلك جمع من السلف ، ﴿ **وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** ﴾ أي نزيدهم بشيء لم يخطر على بالهم وهو النظر إلى وجه الله تعالى .

---

(١) الحديث المرفوع رواه مسلم رقم (١٨١) كتاب الإيمان، باب: «إثبات الرؤية». والترمذي رقم (٢٥٥٢) كتاب صفة الجنة، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٣) عن صهيب رضي الله عنه. وآثار الصحابة ذكرها ابن كثير وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم [من تخريجات الشيخ ابن جبرين].

. . . .

هذه آيات أربع استدل المؤلف بها هنا .

وهناك أيضًا آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] هذه من أوضح الأدلة ؛ لأن الله ذكر أن الكفار محجوبون عن ربهم ، فدل على أن المؤمنين لا يحجبون ، فلو لم ينظروا إليه لكانوا أيضًا محجوبين عن ربهم مثل الكفار ، فلا يكون هناك فرق، استنبط الدلالة من هذه الآية الإمام الشافعي وبعده الأئمة ، قالوا: كيف يكون الكفار محجوبين عن الله ، وكذلك المؤمنون ؟ إذن لم يكن هناك فرق.

قالوا: لما حجب هؤلاء في الغضب ، دل على أن المؤمنين لا يحجبون عنه في الرضا .

ومن الأدلة أيضًا أن بعضهم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠] قرأها ﴿ وَمَلِكًا كَبِيرًا ﴾ ، وقال: الملك: هو الله أي أن المؤمنين ينظرون إلى الله تعالى ؛ حيث ذكر نفسه بالمُلك وبالكِبَر .

أما المعتزلة فاستدلوا على نفي الرؤية بالآية الكريمة التي في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: الأبصار هي الأعين ، قد أخبر الله بأنها لا تدركه ، فجعلوا ذلك دليلاً على أنها لا تراه ، ولكن أهل السنة فسروا الإدراك بأنه الإحاطة ، واستدلوا بهذه الآية على إثبات الرؤية لا على نفيها ، فقالوا : يراه المؤمنون في الجنة بأبصارهم ، ولكن الأبصار عندما تراه فإنها لا تحيط به ، لا تدركه الأبصار إذا رأته ، فدلّ على أنه يُرى رؤية بلا إحاطة: أي لا تحيط به إذا رأته ،

. . . .

ففيها إثبات الرؤية ، ونفي الإدراك الذي هو الإحاطة ، فأصبحت الآية دليلاً عليهم ، لا دليلاً لهم ، فأصبحت مثبتة للرؤية ؛ لأن فيها نفي الإدراك ، فدلَّ على أن هناك رؤية بلا إدراك .

واستدل المعتزلة على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى في سورة الأعراف : ﴿ **لَنْ تَرَانِي** ﴾ ، فقالوا : إن موسى طلب الرؤية بقوله : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فقال : ﴿ **لَنْ تَرَانِي** ﴾ ، فاستدلوا بقوله : ﴿ **لَنْ تَرَانِي** ﴾ على أن الله لا يُرى ، وقالوا : إن « **لن** » للنفي المؤبد ، فدل على أنه لا يُرى . ولكن الآية دليل عليهم لا لهم ، فإن موسى عليه السلام أعلم بربه من المعتزلة ، فلا يمكن أن يسأل شيئًا مستحيلاً ، وأيضًا فإن الله ما أنكر على موسى لما طلب الرؤية ، كما أنكر على نوح ، لما طلب نجاة ابنه ، وقال له : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود : ٤٦] ولم ينكر على موسى ، بل قال : ﴿ **لن تراني** ﴾ ولم يقل إني لا أُرى ، إني لست بمرئي ، إني لا تجوز رؤيتي ، إني لا تمكن رؤيتي ، فدل على أن الرؤية ممكنة ، وقوله : ﴿ **لَنْ تَرَانِي** ﴾ يعني لا تقدر على رؤيتي ، ثم إن « **لن** » لا تفيد النفي المؤبد .

يقول ابن مالك في الألفية :

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا   فقوله اردُدْ وسواه فاعضدا

. . . .

إذن استعمال «لن» يكون للنفي غير المؤبد . فقوله : ﴿ لن تراني ﴾ يعني في هذه الحياة ، وذلك بموجب بنية البشر ، فالبشر في هذه الحياة ضعيف لا يقدر على المثول أمام جلال الله وكبريائه . ثم يدل على ذلك أن الله تعالى قال : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ فعلق رؤيته على استقرار الجبل ، واستقرار الجبل ممكن . وقد عُلِّقت عليها الرؤية ، وهي عند المعتزلة مستحيل ، والله قد علَّقَها على ممكن ، والمعلَّق على ممكن ممكن .

ويدل على ذلك أن الله تجلى للجبل ، وإذا جاز أن يتجلى للجبل ، فبطريق الأولى يتجلى لعباده يوم القيامة ، والمعتزلة تنكر تجلِّيه للجبل ؛ لأنهم لا يعترفون بأن الله يُرى ، ولا أنه يتمثل أمام شيء من مخلوقاته .

عرفنا بذلك أن هذه الآيات التي استدلوا بها دليل عليهم لا لهم ، إذن هذه الآيات فيها إثبات الرؤية ، وسيأتينا في الأحاديث أيضًا حديث جرير الذي فيه : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر »[1] .

هذه هي الآيات التي أوردها المؤلف مشتملة على جملة من الصفات ، ولكنه رحمه الله لم يستوف جميع الآيات ؛ لأن ذلك سيخرج به عما أراده

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة ، باب : «فضل صلاة العصر» . ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد ، باب : «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

....

من تأليف هذه العقيدة المختصرة.

▪ **وكذلك قال بعد ما أورد هذه الآيات**: (وهذا الباب في كتاب الله كثير).

يعني: إنما ذكرنا أنموذجًا، ولم نستقص.

▪ **ثم قال**: (ومن تدبر القرآن طالبًا للهدى تبين له طريق الحق):

▪ فعليك أن تتدبر القرآن، وإذا تدبرته وأنت تريد طلب الهدى وطلب الدليل الصحيح، فإنه يتبين لك طريق الصواب، خصوصًا إذا حسنت نيتك وأردت بذلك إظهار الحق لا المجادلة بالباطل.

* * *

القسم الثاني

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة

[فصلٌ: في سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ:

فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، ومَا وَصَفَ الرَّسُولُ بهِ رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الأحادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمانُ بِها كَذلك] .



منزلة السنة من القرآن

▪ **قوله: (فصل: في سنة رسول الله ﷺ: فالسنة تفسير القرآن...):**

نعرف أن العقيدة مأخوذة عن الوحيين: الكتاب والسنة، هذا هو الأصل في معتقد المسلمين، كما أن الأحكام متلقاة عن الوحيين: الكتاب والسنة.

والسنة هي: الوحي الثاني، وقيل: إنها وحي باللفظ. وقيل: وحي بالمعنى.

وقد وصفها المؤلف هنا بأنها تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه.



. . . .

والمراد بالسنة: أحاديث الرسول ﷺ القولية والفعلية، وكونها تفسر القرآن ظاهراً، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي أنزل عليه القرآن، فإذا جاء تفسير القرآن عنه وجب الرجوع إليه، وقُدم ذلك على كل تفسير، سواء كان تفسيراً لغويًا، أو تفسيراً بالرأي أو بغير ذلك؛ وذلك لأنه صدر من منبعه، فمادام أن القرآن متلقّى عن الرسول، فكذلك تفسيره يتلقى عنه.

وأيضًا فإن الله تكفل ببيانه له، فلابد أنه ما ذكر من التفسير إلا ما ألهمه أو ما عُلِّمه. فالله تعالى أخبر بأنه سيبينه له في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤] يعني لا تستعجل به.

وفي قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩] المراد أن الله تكفل بأنه سيبينه، وبيانه إما من حيث وضعه ولفظه، فالرسول عليه السلام يعرف معانيه لكونه بالكلام الفصيح الذي يفهمه، وإما بالتعليم بأن يبين له جبريل الذي نَزَل بالقرآن معانيه، فإذا جاء البيان عن النبي ﷺ، فإنه يُقدَّم على كل بيان، وقد أمره الله بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ يعني تبين لهم أحكام القرآن الذي نزل إليهم، وهذا تكليف، فدل على أن الله كلفه أن يبين ما نزل إليهم، فإذا جاء البيان عنه قدم على كل بيان.



. . . .

فمثلاً أمرنا بالصلاة ومع ذلك لم يذكر في القرآن أوصافها كاملة، فلم يذكر في القرآن عدد الصلوات صريحًا، ولا عدد ركعات كل صلاة، ولا عدد سجدات كل ركعة، وإنما ذكر الله الركوع والسجود والقيام مجرد ذكر كما في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦]، فذكر القيام والركوع والسجود، ولكن لم يبين أكثر من ذلك.

فمن أين عرفنا أن في كل ركعة سجدتين؟ ومن أين عرفنا أن القيام هو محل القراءة؟ ومن أين عرفنا أن كل ركعة لابد أن تقرأ فيها الفاتحة؟ ومن أين عرفنا أن الركوع هو الإنحناء المعروف، وأنه يسبّح فيه بقوله «سبحان ربي العظيم»؟ وأن السجود المعروف يكون على الأعضاء السبعة، وأنه يقول فيه: «سبحان ربي الأعلى»؟ ومن أين عرفنا أن الصلاة تحتاج إلى تكبيرة الإحرام، وإلى تكبيرات تنقل، وإلى تشهد وسلام في آخرها؟ كل ذلك عُرف من السنة، فكلٌّ ذلك هو البيان الذي قال الله فيه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولهذا لما علم النبي ﷺ أمته كيفية الصلاة قال لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(١).

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣١) في الأذان، باب: «الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة». عن مالك رضي الله عنه.

. . . .

وكـذلك الحج؛ فـإن الله تبارك وتعالى ذكر أعمال الحج مجملة؛ فذكر الطواف ولم يبين عدد الأشواط، ولم يبين الإحرام ولا محظورات الإحرام، ولم يبين في القرآن زمن الوقوف بعرفات، وأنه في اليوم التاسع، وأنه إلى الليل، وأنه يبدأ من أول النهار أو بعد الظهر، وأنه يجمع بعرفة بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم، وفي مزدلفة بين المغرب والعشاء جمع تأخير، لم يذكر الله ذلك بالتفصيل وعرف من السنة.

ذكر الله عرفة بقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨] يعني مزدلفة، ولم يذكر الوقت الذي يستمر فيه وبيّن ذلك في السنة، بينه النبي ﷺ بفعله وقال: «خذوا عني مناسككم»[1] فعرف بذلك أن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه، وتدل عليه، وتوضح مجمله، وتمثله وهكذا.

ثم قد يكون في السنة زيادات، أي أحكام زائدة جاءت في السنة الصحيحة فعُمِل بها، وليس العمل بها زيادة على الوحي، بل إنها من جملة الوحي، فمثلاً: حرم الله في النكاح الجمع بين الأختين، وجاء في السنة النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها، أو بينها وبين خالتها، وعلل ذلك بقوله:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢٩٧) في الحج، باب: «استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر...» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

«إنكنَّ إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»[1] فتُلقي ذلك بالقبول.

وهكذا الأحكام الكثيرة التي جاءت في السنة، تتلقى بالقبول ويعمل بها، ويُعتقد أنها من الشرع ومن الدين، ومن ذلك الأحاديث الصحيحة الثابتة القوية التي وردت في صفات الله عز وجل، فإن أهل السنة والجماعة يقبلونها ويثبتون بها صفات الله عز وجل وإن كانت أحاديث آحاد، مخالفين بذلك المتكلمين من المعتزلة وغيرهم الذين قالوا: أحاديث الآحاد إذا وردت بها صفات الله عز وجل فإنها لا تقبل في العقيدة.

وعللوا ذلك بقولهم: إن هذه الأحاديث الآحاد ظنية، والظن لا يدخل في العقيدة. نقول: ليس كذلك وإن كانت آحاداً فليست ظنية بل هي يقينية، فالصحيح أن الأخبار الآحادية تفيد اليقين، ولا تفيد الظن كما تقوله المعتزلة. فالمعتزلة الذين ردوا أحاديث الصفات، ردوها بهذه الشبهة، وأنها ما تفيد إلا الظن، وأما أهل السنة والأئمة والسلف الصالح فهم يقبلونها ويقولون: كما تقبلون يا معتزلة أحاديث الأحكام، فكذلك يلزمكم أن تقبلوا أحاديث العقيدة، سيما وقد ثبتت ثبوتًا لا شك فيه ولا توقف ولا تردد وقد صدقها أهل السنة وتلقوها بالقبول.



---

(١) أخرجه ابن حبان بهذه الزيادة (٩/ ٤٢٦) رقم (٤١١٦ - إحسان) وفي إسناده أبو حريز مولى الزهري ضعيف الحديث إلا أنه توبع فحسن حديثه.

١ - إثبات صفة النزول الإلهي إلى سماء الدنيا :

[فَمِنْ ذلك : مثلُ قَوْلِهِ ﷺ : «يَنْزِلُ ربُنا إِلى السَماءِ الدُنيا كُلَّ ليلةٍ حينَ يبقى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، فيقولُ: مَن يَدْعوني فأَسْتَجيبَ لهُ؟ مَن يسألُني فأُعْطِيَهُ، مَن يستَغْفِرُني فأَغْفِرَ لهُ؟ ». متَّفَقٌ عليه[1]] .



▪ **قوله: (فمن ذلك: مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا...) :**

هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة وهو مخرج في الصحيحين، وهو من جملة الأحاديث التي ردها المعتزلة ولم يقبلوها، وقد ثبت ثبوتًا لا مفر منه، وقد نقله الذين نقلوا الشريعة، ولهذا يقول أبو الخطاب في منظومته في العقيدة:

قالوا النزول فقلت ناقله لنا ... قوم هم نقلوا شريعة أحمد

الذين نقلوه هم الذين نقلوا الشريعة.

فنقول للمعتزلة وغيرهم: فإما أن تقبلوا الشريعة كلها، وإما أن تردوها كلها، أما كونكم تقبلون ما يوافق معتقداتكم وتردون الباقي، فهذا تفريق بين ما جمع الله بينه؛ تفريق بين متماثلين، فمن قَبِلَ البعض دون البعض أشبه

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥) في التهجد، باب: «الدعاء والصلاة من آخر الليل» ورقم (٧٤٩٤) في التوحيد. ومسلم برقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين، باب: «الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

اليهود فيما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٥٠] .

لاشك أن هذا تفريق بين متماثلين، لكونهم يقبلون أحاديث هذا الصحابي في حالة ويردونها في حالة، أما أهل السنة والجماعة فإنهم يؤمنون بهذا الحديث، وأن الله تعالى ينزل نزولاً يليق به، كما يؤمنون بالمجيء الذي ذكره الله، في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وفي قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ويقولون: إن نزوله ومجيئه وإتيانه كما يليق به، ولا يتكلفون وراء ذلك، ولا يتقعرون؛ لأن المعتزلة والجهمية ونحوهم أخذوا يتساءلون ويقولون: إذا نزل، فهل يخلو منه العرش أم لا، هل تكون السموات فوقه أم لا؟، نقول: لا حاجة لنا في التكلف ولا نسأل شيئًا وراء ذلك، بل نؤمن بما أخبر، والله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته، وكذلك في أفعاله، والنزول من الأفعال، فنؤمن بذلك.

والرسول عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الحديث ليرغب الأمة في الصلاة آخر الليل، وكان عليه الصلاة والسلام يداوم على الصلاة في الثلث الأخير من الليل؛ لأنه كان ينام مبكرًا بعد العشاء مباشرة، ثم يقوم الثلث الأخير كله أو النصف الأخير كله للتهجد بالليل، وكذلك جملة مستكثرة من صحابته.

. . . .

وهكذا المسلمون في أغلب الأوقات يقومون آخر الليل، يتحرون ذلك الوقت الشريف الذي فيه هذا التودد من ربهم، فيتعرضون لنفحاته، فالله تعالى يتودد إليهم يقول: «**من يدعوني فأستجيب له**» فيتقربون إليه بكثرة الدعاء في ذلك الوقت، «**من يستغفرني فأغفر له**» فيبادرون بكثرة الاستغفار وكذلك بكثرة التوبة، وكذلك بالإنابة إليه.

فإنهم فهموا من الحديث أنه تعالى يحثهم على هذه الأعمال فصاروا يتحينون ذلك الوقت الذي هو آخر الليل، لأجل الصلاة والاستغفار والدعاء والتوبة وصدقها وما أشبه ذلك، هذا هو الذي فهموه، ولم يكونوا يوجهون أنظارهم ولايتقعرون في البحث عن كيفية نزوله، كما تبحث في ذلك المعتزلة ونحوهم.

ويستدلون بذلك أيضًا على أن ربهم هو العلي الأعلى بقوله: «**ينزل**»، والنزول لا يكون إلا من أعلى، ولكن لا يكيفون العُلو بكيفية إلا أنه تعالى هو العلي بجميع أنواع العُلو.

فالحاصل أن في هذا الحديث دليل على إثبات صفة العلو، ودليل على إثبات صفة النزول الذي يعتقده المسلمون، وأنه تعالى ليس كمثله شيء لا في علوه ولا ارتفاعه، حيث إن ذلك لا ينافي قربه واطلاعه ومعيته لخلقه، وكذلك نزوله، لا ينافي علوه على عرشه واستواءه عليه وما أشبه ذلك من صفاته.

. . . .

هكذا يعتقد المسلمون، وكلما اعتقد المسلم الواعي هذه الصفات دله ذلك وحمله على أن يعظم ربه، فتقع آثارها في قلبه، فيكون من تأثيرها أن يعبده حق عبادته، وألا يعبده في وقت من الأوقات دون وقت، بل تكون عبادته دائمة في كل وقت فإن عمل المؤمن دائمٌ ليس فيه انقطاع.

* * *

٢ ـ إثباتُ صفةِ الفرحِ:

[وقـولُه ﷺ : «للهُ أَشَدُّ فَرحاً بِتَوْبَةِ عَبـدِهِ المؤمِنِ التـائبِ مِنْ أحـدِكُمْ بَراحِلَتِهِ». متفق عليه][١] .

الشرح

■ قوله: (وقوله ﷺ : «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن...») :

هذا الحديث فيه أمران: الأول: إثبات صفة الفرح لله.

والثاني: فضل التوبة وأن الله تعالى يقبلها.

قـال ﷺ : «**لله أشد فرحًا بتـوبة عبده من أحدكم، كـان على راحلته في أرض فـلاة، فـانفلتت منـه، وعليـهـا طعامـه وشـرابه، فطلبـهـا حـتى إذا أيس منهـا، نام تحت شـجرة، فلمـا رفع رأسـه فـإذا ناقتـه عند رأسـه، فقال من شـدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شـدة الفرح**»[٢] .

مـثَّل الرسـول ﷺ في هذا شـدة الفرح. فلا شك أن هذا الرجل سيفـرح

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٨) في الدعوات، باب: «التوبة». ومسلم برقم (٢٧٤٤) في التوبة، باب: «في الحض على التوبة والفرح بها». عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وله ألفاظ متقاربة رواها جمع من الصحابة كأبي هريرة وأنس والبـراء والنعمان بن بشير وعبد الله بن مسعود.

(٢) هذا أحد ألفاظ مسلم في الصحيح برقم (٢٧٤٧) في التوبة، باب: «في الحض على التوبة والفرح بها» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

فرحًا شديدًا؛ وذلك لأنه قد أيس من الحياة، قد انقطع رجاؤه، حيث انفلتت راحلته التي يبلغ عليها في سفره، ويقطع عليها المسافات الطويلة، والتي تحمل متاعه؛ طعامه وشرابه، وتحمله هو بنفسه إلى أن يصل إلى البلد التي ليس بالغًا له إلا بشقِّ الأنفس.

انفلتت منه هذه الراحلة، فطلبها حتى أعياه البحث وجهدت نفسه، فلما يئس من وجودها اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت، فإنه في صحراء قاحلة، في فلاة قفر لا زرع فيها ولا ماء، وليس هو على طريق ولا يمر به أحد، فحالته حالة ضعف، فلا شك أنه والحالة هذه قد أيس من حياته، فبعدما أغمض عينيه قليلاً، فتح عينيه ورفع رأسه، وإذا ناقته عند رأسه على تلك الشجرة، ففرح فرحًا شديدًا، فرح من عاش بعد الموت، فرح من حيٍّ بعدما يئس من الحياة، فهذا فرح شديد.

والله تعالى يفرح بتوبة عبده كذلك، مع أنه تعالى غني عن العباد، لكن متى تاب العبد توبة صادقة، فإنه سبحانه وتعالى يفرح لأنه يحب الخير للعبد، يحب لعباده أن يكونوا من أهل السعادة، يحب لهم أن يكونوا من أهل جنته وأهل قربه، فيحب أن يكونوا مؤمنين، وأن يكونوا تائبين، وأن يقبلوا إليه وينيبوا، ويتركوا المخالفات والمعاصي ونحوها.

ولاشك أن هذا أمر عظيم، مع أن المصلحة تعود للعبد نفسه وإلا فالله تعالى لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، فهو الذي خلق الخلق

. . . .

وهو الذي تعبدهم، وأمرهم ونهاهم وكلفهم، فمنهم من أطاع ومنه من عصى، ومنهم من قبل ومنهم من ردَّ، ومنهم من يعيش مدة طويلة على شر ثم يتوب ويقبل إلى ربه، فيبدل الله له الأعمال السيئة بالأعمال الحسنة، فهذا هو الذي يتوب، فهذا هو الذي يمنُّ الله عليه ويقبل توبته، ويفرح بتوبته.

فقد أخبر الله تعالى بأنه يقبلها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وأخبر بأنه يقبل التوبة من كلِّ الذنوب؛ يقبلها من القتل ومن الشرك ومن الزنا كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا هو الشرك، ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] هذا هو قتل المسلم بغير الحق، ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾[الفرقان: ٦٨] والزنا من أكبر الذنوب، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

أخبر تعالى أن من تاب فإن الله يبدل سيئاتهم حسنات كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ فالحاصل أن هذا الحديث دليل على فضل التوبة، هذا من حيث العموم.

أما المؤلف رحمه الله فاستدل به على إثبات صفة الفرح، فصفة الفرح ثابتة لله

. . . .

تعالى وهي من الصفات الفعلية.

والفرح في الإنسان هو سرور بمحبوب يظهر أثره في القلب بسبب شيء مناسب للإنسان ملائم لما تميل إليه نفسه، يفرح إذا حصل عليه، فيفرح إذا كسب مالاً حلالاً، ويفرح إذا شفي من مرض، ويفرح إذا رُزِق بولد صالح، ويفرح إذا عوفي من بلية، ويفرح إذا سلم من أَذًى أو نحو ذلك.

وهكذا أيضًا يفرح إذا تخلص من عقوبة أو نحوها، فيفرح إذا تخلص من سجن أو من ظلم ظالم، يكون هذا الفرح سرورًا يغمر قلبه، ويستبشر بذلك وجهُه، ويسر ويبتهج. ولكن فرح الله تعالى ليس مثل هذا الفرح، بل هو صفة تليق به، نؤمن بها ولا نكيفها، نقول: إن الله تعالى يفرح، وإن الإنسان يفرح، وليس هذا كهذا، ليس فرح الله كفرح المخلوق، بل صفات الله تليق به، وصفات المخلوق تليق به.

فهذا الحديث دليل على إثبات صفة الفرح لله تعالى، وأنكرت ذلك المبتدعة؛ فالخوارج، والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، أنكروا مثل هذه الصفات الفعلية، وجعلوها صفات يلزم منها التشبيه ونحوه.

نقول لهم: أنتم قد أثبتم بعض الصفات أو أثبتم بعض الأسماء، فهل تقولون: إن تلك الصفات التي أثبتموها كصفاتنا؟ فإذا قالوا: لا، بل نثبتها على ما يليق بالله، قلنا: كذلك أثبتوا هذه الصفات على ما يليق بالله، فإذا قالوا: هذه الصفات نتأولها، فنتأول الفرح بمعنى إرادة الخير. قلنا: إذا

. . . .

تأولتموه بالإرادة، فأنتم تثبتون لله الإرادة. فنقول لكم: هذه الإرادة التي تثبتون كإرادتنا؟. فإن قلتم: لا، بل إرادة تليق به. قلنا: الأولى أن تقولوا: فرح يليق به ولا تؤولوه بالإرادة.

* * *

٣ ـ إثباتُ صفةِ الضحك :

[وقولُه ﷺ : «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ؛ كلاهما يدخل الجنةِ». متفق عليه][(١)] .



▪ **قوله : (وقوله ﷺ : «يضحك الله إلى رجلين أحدهما الآخر ...») :**

هذا الحديث فيه إثبات صفة الضحك ، يقول ﷺ : «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة**» ، ولا شك أن الضحك غالبًا يكون له سببٌ يثير العجب ونحوه ، ففي هذا الحديث إثبات الضحك لله سبحانه كما يليق بجلاله .

وفي الحديث أيضًا أمر يثير العجب ، اثنان أحدهما قتل الآخر ومع ذلك كلاهما دخل الجنة ، أولهما كان مسلمًا ، والآخر كان كافرًا ، فتقابلا في الجهاد ، فقتل الكافر المسلم ؛ استُشهد المسلم فدخل الجنة ؛ لأنه من الشهداء ، ثم تاب الله على ذلك الكافر الذي قتل ذلك المسلم ، ولما تاب الله عليه دخل الإسلام وقاتل في سبيل الله حتى استشهد فدخل الجنة ، واجتمع مع الأول الذي قد قتله ، فقال : أنا الذي قتلتك ، أسلمتُ فقُتلت في سبيل الله ، فكلاهما

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٢٦) في الجهاد والسير ، باب : «الكافر يقتل المسلم» . ومسلم برقم (١٨٩٠) في الإمارة ، باب : «بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة» عن أبي هريرة رضي الله عنه .



. . . .

يدخل الجنة.

فهذا مشهد عجيب، كيف كان أحدهما قاتلاً والآخر مقتولاً، ومع ذلك دخلا جميعًا الجنة؟ هذا لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فهذا القاتل لما تاب من كفره واستباحته قتال المسلمين تاب الله عليه وقبل منه، ومَنَّ عليه فقاتل حتى قتل شهيداً في سبيل الله، وكان ذلك سببًا في دخوله الجنة مع المقتول الأول.

ففي هذا الحديث إثبات الضحك. والضحك منه ما يسمى بالقهقهة، ومنه ما يسمى بالتبسم، وسببه شيء يعجب منه السامع، إذا سمع شيئًا أعجبه أدى إلى أن يضحك، وكثرته في الإنسان قد تميتُ القلب، وقد تورث قسوته.

ولهذا ورد في بعض الأحاديث: «**إياكم وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[1] وقد عاب الله من يكثرون الضحك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ**﴾ [النجم: ٦٠]. وذكر الضحك عن الكفرة في ردّهم للآيات كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾[المؤمنون: ١٠٩ - ١١٠].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١٠) برقم (٨٠٧٦)، والترمذي في أول الزهد، وابن ماجه (٤٢١٧) وغيرهم بسند حسن عن أبي هريرة [قاله الشيخ ابن جبرين].

. . . .

فهذا ونحوه دليل على أن الضحك والاستغراق فيه من صفات الكفار، وأن المؤمن عليه ألا يكثر من الضحك، بل يكون قلبه خائفًا وجلاً، ويمنعه خوفه من الاستغراق في الضحك وذُكر أن كثيرًا من السلف ما كانوا يضحكون مخافة أن يكون ضحكهم حسابًا عليهم، وذكر أن ملكًا نزل فرآه النبي ﷺ حزينًا، فسأل جبريل، فقال له: **«مالي لم أر ميكائيل ضاحكًا؟»** فقال جبريل: **«ما ضحك منذ خلق الله النار»**[1].

فالحاصل أن الضحك خلقة في الإنسان وجبلة سببها رؤية شيء يعجبه. ومن الناس من يضحك بلا سبب، أو يتكلف الضحك، يريد بذلك سرور نفسه، فإن كنت عند ذلك تريد أن تسرَّ صاحبك وتربط على قلبه وتقربه إليك، فقد يكون هذا مباحًا أو مفيدًا، فأما أن تضحك دائمًا وتكثر من الضحك، أو تأتي بالأسباب التي تضحك فإن ذلك مما يميت القلب.

هذا من حيث العموم، أما من حيث الخصوص، فالحديث دال على إثبات الضحك لله عز وجل، والله تعالى قد ورد وصفه بذلك في هذا الحديث، وفي الحديث الذي بعده حيث يقول: **«فيظلُّ يضحك يعلم أن فرجكم قريب»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٢٤) وفي الزهد برقم (٣٥٩). عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وضعفه الألباني، وهو في ضعيف الجامع الصغير رقم (٥٠٩١).

(٢) يأتي تخريجه ص ٢٣.

. . . .

وكذلك أيضًا في حديث أبي رزين العقيلي، الحديث الطويل الذي رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة وغيره، فإن فيه أن النبي ﷺ ذكر أن ربنا يضحك فقال أبو رزين: «ولا نعدم من رب يضحك خيرًا»[1] فأقره النبي ﷺ.

فنقول: إن فيه إثبات الضحك على ما يليق بالله كسائر صفاته نؤمن بها ولا نكيفها، وننزهه تعالى عن سمات المخلوقين، وعن مشابهتهم بشيء من خصائصهم أو نقول: ضحكًا يليق بجلاله، كما أن أسماءه وصفاته تليق بجلاله، هذه عقيدة المسلمين في مثل هذه الصفة وغيرها من الصفات.

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨١) في المقدمة، وأحمد وابنه في المسند (٤/ ١١، ١٢) وفي السنة رقم (٤٥٢)، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٥٤)، وحسنه الألباني والآجري في الشريعة (٢٧٩، ٢٨٠) والدارقطني في الصفات (٣٠). والديلمي (٣٨٩٠) والطيالسي (١٠٩٢). عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه. سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٨١٠)، وله طريق أخرى أخرجها عبد الله بن أحمد في السنة رقم (١١٢٠) وفي زوائد المسند (٤/ ١٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢١١، ٢١٤).

٤ ـ إثبات صفة العَجَب :

[وقـــولُه : «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيظلُّ يَضحكُ يَعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(١) .



قوله : (وقوله : «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره....») :

في هذا الحديث إثبات صفة العجب، وهو من الصفات الفعلية التي وردت بها الأدلة، كهذا الحديث، وحديث عجب ربك من الشاب ليست له صبوة(٢) . واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] الآية، وبقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وفيها قراءتان سبعيتان بفتح التاء وضمها، ولاشك أن قراءة الضم ثابتة مقروء بها، وفيها الدلالة على إثبات صفة العجب لله تعالى، كما يشاء وكما يليق به، وليس كعجب المخلوق .

---

(١) أورده بهذا اللفظ ابن كثير في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة : ٢١٤] . وقد سبق تخريج الجملة الأولى من الحديث، وهي قوله : « عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره » . وقد ذكرها جميعهم بلفظ : « ضحك ربنا... » . أخرجه أحمد في المسند برقم (١٦١٨٧)، وابن ماجه في السنن برقم (١٨١)، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٥٥٤)، والآجري في الشريعة برقم (٦٣٨، ٦٣٩)، والطبراني في الكبير برقم (٤٦٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٩٨٧)، عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه . وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٨١٠) .

. . . .

ولا يجوز إنكار الصفات التي وردت في الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة، اعتماداً على قواعد أهل الكلام، من أن ذلك يستلزم حلول الحوادث بـــالله تعالى، أو أنه يلزم منه تجدد شيء لم يكن متصفًا به، ونحو ذلك من التقديرات التي يفترضونها، وتكون عندهم أدلة عقلية مسلمة، يردون لأجلها النصوص الصحيحة، أو يحملونها على محامل بعيدة، ويتأولونها بصفات أخرى لا تناسبها.

فصفة العجب في المخلوق هي حدوث أمر عجيب غريب، يدهش الناظر إليه، ويعجب له، والله تعالى يعجب كما يشاء، ومنه عجبه من قنوط العباد من رحمته مع قرب غيره، أي تغييره أحوالهم من حسن إلى أحسن، أو من سيء إلى حسن، فعليهم أن يحسنوا ظنهم بربهم حتى يرحمهم فهو أرحم الراحمين.





٥ - إثباتُ صفةِ الرِّجْل والقدم:

[وقولُه ﷺ : «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ؟ حتَّى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ [وفي روايةٍ: عليها قَدَمَهُ] فَيَنْزَوِي بَعْضُها إِلى بَعْضٍ، فَتَقولُ: قَطْ قَطْ». متفق عليه][(١)].



■ قوله: **(وقوله ﷺ : «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟...»)**:

هذا الحديث ذكره المؤلف لاشتماله على صفة القدم، وقد ورد في القرآن ذكر الساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]. وورد ذلك أيضًا في حديث الجمع يوم القيامة والله يجيء عباده كما يشاء ويقول: «أنا ربكم، فيقولون: لست ربنا فيكشف عن ساقه أو عن ساق، فإذا رآه المؤمنون خروا سجدًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣٨٤) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ [الصافات: ١٨٠]. ومسلم برقم (٢٨٤٨) في الجنة، باب: «النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء». عن أنس رضي الله عنه.

(٢) ضمن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل الذي أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾. ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية».

. . . .

(والقدم) - في رواية - (والرجل) صفة ذات، نؤمن بها كما يشاء الله ونثبتها، وقد أنكرها المبتدعة، وأهل الكلام، واستعظموا إثباتها على أهل السنة. وقالوا: إن في إثباتها إثبات حدوث، وإثبات تجسيم، وإثبات تحديد، وتركيب، وتشبيه، وما أشبه ذلك من مقالاتهم المبتدعة.

ويجاب عن ذلك كله: بأنا متبعون لا مبتدعون، وبأنا نقف حيث وقفت الأدلة، ولا نتكلف التأويل، أما المبتدعة من معتزلة وأشعرية ونحوهم فسلكوا في ذلك مسالك عجيبة، في تأويل هذا الحديث.

فقال بعضهم: «يضع فيها قدمه»، يعني ما قدمه لها من الخلق، معناه: حتى يضع فيها من حَكم في القدم بأنه من أهلها، ونفوا أن يكون القدم صفة من صفات الله، وقالوا: إضافته إلى الله إضافة خلق، يضع فيها قدمه يعني خلقه القديمين، أو خلقه الذين قدم وقرر وقدر أنهم من أهلها.

وهذا تأويل بعيد، وتحريف للكلم عن ظاهره، ثم جاءتهم رواية «رِجْلَه»، فسلكوا فيها أيضًا ذلك المسلك العجيب وقالوا: الرجْلُ: الجماعة من الناس، واستدلوا بقول العرب: جاءتنا رِجْل من جراد، يعني جماعة. فيقولون: الرجل الخَلقْ، رِجْلَه: يعني خلقه أو الجماعة التي خلقهم من الناس، وجعلوا الإضافة أيضًا إضافة خلق.

وقال بعضهم: إن المراد برجله هنا: كوكب يقال له: رجل وبعضهم قال: إنه ملك من حملة العرش.



. . . .

وكل هذه تأويلات وتمحُّلات، ونحن نقول: إن الله أثبت على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام صفة الرجل وصفة القدم كما يشاء، وأثبت في هذا الحديث أنه يضعه في جهنم لتنزوي وفي هذا أيضًا دليل على سعة النار، وأنها بعيدة القعر، واسعة.

فإننا نشاهد كثرة الخلق الموجودين الآن، وكذلك من كانوا موجودين من قبل، والذين يتحقق أنهم من أهل النار، لكونهم بلغهم الإسلام فامتنعوا من اعتناقه، وأصروا على الكفر والطغيان، وماتوا أو يموتون على ذلك، فيتحقق أنهم من أهل النار وهم مئات الألوف وألوف الألوف، وورد أيضًا أن أهل النار يعظمون في النار، فإن أحدهم يعظم خلقه حتى تأخذ النار منه نصيبها، حتى قالوا: إن ضرسه مثل الجبل، وإن بدنه مثل كذا وكذا، ومع ذلك فإن جهنم لا تمتلئ بل تقول دائمًا: هل من مزيد؟، فدل على سعتها وعظمها.

فالله تعالى ذكر أنه يلقي فيها المستحقين للعذاب كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠]، وأخبر أنه يملؤها بحديث احتجاج الجنة والنار وهو حديث صحيح: «احتجت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. وقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل منكما عليَّ

. . . .

ملؤها»[١] .

يقول في تمام الحديث: **«فأما الجنة فلا يزال فيها فضل** - يعني أماكن فارغة - **فينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم إياها بلا عمل، وأما النار فيبقى فيها فضل** - فتأبى حكمته أن يدخل فيها قومًا بلا ذنب - **فيضع فيها رجله أو قدمه فينزوي بعضها إلى بعض»**[٢] .

فقد أفاد هذا الحديث أن الله تعالى عندما يضع فيها قدمه، أو يضع عليها رجله، أنه ينزوي بعضها إلى بعض، فما كان فيها من فضل، ينزوي ولا يبقى فيها متسع، وأنها يظهر لها قطقطة، والقطقطة هي آثار الامتلاء. ففي بعض ألفاظ الحديث: قَطْ قَطْ. بالإسكان، ورواها بعضهم بالتحريك قَط قَط. ونون بعضهم قط قط، وضم بعضهم: قطُ قطُ. والمعنى تصويتها عندما تَمتلئ، فعادة الشيء إذا امتلأ يظهر له قطقطة، وأصوات قوية تسمع من آثار الامتلاء.

الحاصل أنه ذكر أن الله يضع فيها رجله أو قدمه كما يشاء فدل على إثبات الصفة وأنها صفة ثابتة كما يشاء الله .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٩) في التوحيد، باب: «ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾». ومسلم برقم (٢٨٤٦) في الجنة ونعيمها، باب: «النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذه الزيادة في صحيح مسلم بهذا المعنى برقم (٢٨٤٦) و(٢٨٤٧) و(٢٨٤٨).



٦ ـ إثباتُ صفةِ النداء والصَّوت :

[وقولُه : «يَقُولُ تَعَالى يَا آدَمُ ! فَيَقولُ : لَبَّيْك وسَعْدَيْكَ . فَيُنادي بصَوْتٍ : إنَّ اللهَ يأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إِلى النَّارِ» . متفق عليه[١] . وقوله : «ما منكُمْ مِن أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ولَيْس بينَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»[٢]] .



▪ قوله : (**وقوله : «يقول الله تعالى : يا آدم! فيقول : لبَّيك وسعديك . فينادي بصوت : . . . »**) :

في هذا الحديث إثبات صفة النداء والصوت وفيه بيان كثرة من يدخل النار ، ففي يوم القيامة ينادي الله تعالى آدم فيسمعه فيلبي دعوته ، فيناديه الله تعالى بصوت مسموع ، ويأمره بأن يخرج بعثًا من ذريته إلى النار ، فيقول : من كم يارب؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فهذا نصيب النار وواحد للجنة .

والشاهد من الحديث أن فيه إثبات صفة الكلام .

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٤١) في التفسير ، باب : «﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾» . ومسلم برقم (٢٢٢) في الإيمان ، باب : «قوله : «يقول الله لآدم أخرج بعث النار . . . » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩) في الرقاق ، باب : «من نوقش الحساب عذّب» . ومسلم برقم (١٠١٦) [٦٧] في الزكاة ، باب : «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .



. . . .

أولاً: قوله: «**يقول الله**»، والقول هو الكلام.

ثانيًا: قوله: «**يا آدم**» «يا» حرف نداء، يا آدم: كلام فصيح مفهوم، يسمعه آدم، فيدل ذلك على أن كلام الله تعالى مسموع يلبيه آدم بقوله: لبيك وسعديك ومعنى لبيك: الإجابة ولزوم الطاعة، أي أنا ملازم لإجابتك وطاعتك مرة بعد مرة، وملازم لما يسبب الإسعاد منك.

ثالثًا: قوله: «**فينادي بصوت**» هذا هو الشاهد.

رابعًا: ذكر الكلام الذي تكلم الله تعالى به وأسمعه آدم وهو قوله: «**ياآدم، إن الله يأمرك بأن تخرج من أمتك بعثا إلى النار، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**»، كل هذا يتكلم به الرب سبحانه وتعالى ويسمعه آدم، أفلا يدل ذلك على أن الله تعالى متكلم، ويتكلم إذا شاء، وأن كلام الله مسموع، أفلا يدل على أن كلام الله تعالى بصوت كما يشاء؟.

أفلا يدل على إثبات النداء؟ والنداء لابد أن يكون بصوت، أفلا يدل على إثبات صفة الكلام؟ حيث ذكره بهذه الكلمات، أفلا يدل على إثبات القول؟ والقول لابد أنه كلام.

والمبتدعة من المعتزلة ونحوهم أنكروا صفة الكلام، وقالوا: إن الله لا يتكلم ولن يتكلم؛ لأن الكلام من صفات المحدثات والمركبات، ولما جاء دور القرآن وقفوا حيارى، فلم يجدوا إلا أن يقولوا: القرآن مخلوق كسائر المخلوقات، فأنكروا هذه الدلالات، وأنكروا الآيات التي فيها التصريح بأن الله

. . . .

يقول، وأنه يتكلم، وأنه ينادي، أو تمحّلوا في تأويلها بما لا يقبله العقل.

جاءت الأشاعرة وهم أيضًا من أهل الكلام، وقد قاربوهم في نفي كثير من الصفات، كصفة العلو ونحوها فأثبتوا صفة الكلام ولكن ظلوا حيارى، لا إلى أهل السُنة ولا إلى المعتزلة؛ فقالوا: إن كلام الله نفسي لا بحرف ولا صوت، فزعموا أن الكلام هو ما يقوم بذات الله لا أنه هذا المعنى البارز والحروف والأصوات.

قوله: «**يا آدم**»: يعني خص آدم لأنه أبو البشر، والإنس كلهم من ذريته هم بنو آدم، كأنه أخبر بأن من ذريته من هو من أهل الجنة ومن هو من أهل النار، وأن الأكثرية من أهل النار، وليس معناه أنه هو الذي يدخل هؤلاء الجنة باختياره وهؤلاء النار باختياره، بل المراد إخباره بقدر من يدخل الجنة ومن يدخل النار، لهذا قال: «**من كم يارب؟**»، يعني من كم يدخل الجنة؟، فأخبره بقدر من يدخلها من الألف، وأن الذي يدخلها من الألف واحد فقط، وهذا يدل على أن هذه الجنة لا ينالها إلا القلة القليلة، وأن الأكثرية للنار، والعياذ بالله، لذلك يقول ابن القيم في نونيته:

يا سلعة الرحمن ليس ينالها   من ألف إلا واحد لا اثنان

وقد حزن الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا هذا الحديث وقالوا: أينا ذلك الواحد؟ فأخبرهم النبي ﷺ بكثرة الأمم والشعوب غيرهم وقال: «**ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو بالعكس، كالشعرة**



. . . .

السوداء في جلد الثور الأبيض»[١] .

فأمة الإجابة ـ وهذا حقيقة ومشاهد ـ وهم الذين حققوا الإسلام في أنفسهم قد لا يمثلون واحدًا بالألف، ويمكن أن يكونوا واحدًا بالألف بالنظر إلى زماننا هذا، وهناك أزمنة يطغى فيها الكفر على الإيمان، وهناك أمم انقرضت كلها على العصيان، كأمم الأنبياء السابقين، حيث أخبر النبي عليه السلام بأنه لما كشف له رأى النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد[٢] .

وقص الله علينا بعض أخبار الأنبياء، وأن الذين آمنوا بهم قليل ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] فهذا يدل على أن الأكثرية هم أهل العذاب والعياذ بالله. ولعل السبب في ذلك أن الإيمان في نظرهم يحرمهم من شهواتهم المألوفة، هذا في نظرهم وتصورهم، وإلا فلو حققوا لعلموا أن تلك الشهوات ولو كانت مستلذة طبعًا، فإنها ضارة في النهاية طبعًا وشرعًا.

وبكل حال فإن الدلالة واضحة من الحديث وهي إثبات صفة النداء والصوت هذا هو القصد من إيراده.

---

(١) جزء من الحديث السابق أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٠) في الرقاق، باب: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. ومسلم برقم (٢٢٢) في الإيمان، باب: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار . . .».

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٧٠٥) كتاب الطب، باب من اكتوى أوكوى. ومسلم برقم (٢٢٠) كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

. . . .

▪ **قوله: (وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان») :**

وتمامه: **«فينظر أيمن فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»** . الشاهد منه ذكر التكليم، وأن الرب تعالى يكلم عباده كفاحًا منه إلى الواحد بلا واسطة مترجم، والترجمان هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة، يترجمه: يعني يعبر به؛ يحفظ لغتين أو أكثر، فيكلم هذا بلغته ويأخذ كلامه، ثم يعبر به إلى الآخر باللغة التي يفهمها كما هو معروف.

الحاصل أن الحديث فيه إثبات صفة الكلام، يعني ليس منكم أي شخص إلا ولابد أن يكلمه ربه، والربُّ تعالى قادر على أن يكلم عباده في لحظة واحدة، كما يسمع دعاءهم في لحظة واحدة ويميز هذا عن هذا، فإنه تعالى يسمع كلام خلقه، ولا تشتبه عليه اللغات، ولا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات وتفنن المسئولات، فهو قادر على أن يكلم ألوف الألوف في لحظة واحدة يكلم كلاً منهم بما يفهمه ويحاضره ويسأله ويناقشه كما يشاء، ولا يشغله شأن عن شأن.

فقوله: **«سيكلمه»** فيه إثبات صفة الكلام، والكلام هو ما يعبر به ويفهمه السامع أو المخاطب الذي يفهم تلك اللغة وقوله: **«ليس بينه وبينه ترجمان»** يفيد أنه كلام واضح يفهمه، وأن الترجمان والمترجم هو الذي ينقل الكلام من

. . . .

لغة إلى لغة، فيدل على أنه لا يحتاج إلى مترجم، بل يفهم خلقه كلامه.

فاتضح لنا من هذا الحديث والذي قبله إثبات صفة الكلام لله تعالى، والرد على الطائفتين؛ على المعتزلة الذين قالوا: كلام الله مخلوق أو قالوا: لا يوصف الله بالكلام، وعلى الأشاعرة الذين قالوا: إن كلام الله معنى واحد، وأنه ما يقوم بنفسه، وأن الأصوات وكذلك الحروف والعبارات إنما هي معان لكلامه وتعبيرات، وأن كلام الله معنى واحد، إن عُبر بالعربية فهو قرآن، وإنْ عُبر بالعبرية فهو توراة، وإن عبر بالسريانية فهو إنجيل هكذا يقولون.

وهذا كله تخبط، وذلك لأنه يوجد التفاوت بين معاني القرآن وبين معاني الكتب الأخرى، كالتوراة والإنجيل والزبور ونحوها، ولكون الجميع يطلق عليه أنه كلام الله، ولكون الله تعالى صرح بأنه متكلم، وبأن كلامه ليس محصوراً - على حد تعبيرهم - في لغة أو جهة معينة، فعلى كلٍ فالأدلة أكثر من أن تحصى في إثبات صفة الكلام كما يعتقده المسلمون.

فيثبت المسلم على هذه العقيدة وينصح بعدم قراءة شبهاتهم مخافة أن تتمكن شبهة من قلبه لا يستطيع ردَّها؛ بل يقتصر على الكتب التي تثبت أو تستدل بالأدلة ولا تتكلف في صرف ولا رد شيء من تلك الأدلة.

❋ ❋ ❋

٧ - إثباتُ صفةِ العلو والفوقية:

[وقولُه في رُقْيَةِ المريضِ: «رَبَّنا اللّٰهَ الَّذي في السَّماءِ، تَقدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ في السَّماءِ والأرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ في السَّماءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرْضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنَا وخَطَايَانا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلى هذا الوَجعِ؛ [فَيَبْرأَ](١) [حديث حسن]، رواه أبو داود [وغيره]. وقَوْلُهُ: «أَلا تَأْمَنُوني وأَنَا أَمِيْنُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٢). [حديثٌ صحيحٌ]. وقَوْلُهُ: «والعَرْشُ فَوْقَ الماءُ، والله فَوْقَ العَرْشِ، وهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْه»(٣). [حديث حسنْ، رواهُ أبو دَاودَ وغَيْرُهُ]. وقَوْلُهُ لِلجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللّٰهُ؟». قالَتْ: في السَّمَاءِ. قال: «مَنْ أنا؟». قالَتْ: أَنْتَ رَسولُ اللهِ. قالَ: أَعْتِقْهَا فإِنَّها مُؤمِنَةٌ»(٤). رواه مسلم].

. . . .

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٩٢) في الطب. وأحمد في المسند (٦/ ٢٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٣٥١) في المغازي، باب: «بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، ومسلم برقم (١٠٦٤) في الزكاة، باب: «باب ذكر الخوارج وصفاتهم» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد برقم (١٤٩) و(١٥٠) و (٥٩٤) واللفظ له.، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٥١)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢٧٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٦). والدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٦، ٢٧. وفي الرد على المريسي ص ٧٣، ٩٠، ١٠٥. والطبراني في الكبير (٨٩٨٧). عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل الأسدي عن عبد الله بن مسعود. وصححه الذهبي في العلو كما في مختصره ص ١٠٣، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» ص ١٠٠.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٥٣٧) في المساجد، باب: «تحريم الكلام في الصلاة» عن معاوية ابن الحكم رضي الله عنه.

. . . .



يعتقد المسلمون ويصدقون بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، ومن جملة ذلك إخباره أنه تعالى في السماء قال تعالى: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا** ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] فذكر تعالى أنه في السماء، والسماء اسم لكل ما علا وارتفع، فيعتقد المسلمون أن الله هو العلي الأعلى، وأنه عالٍ على خلقه، وأن له جميع أنواع العلو؛ علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر.

ويحملون قوله: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ** ﴾ على أحمد محملين؛ الأول: أن تكون في بمعنى على: «في السماء» يعني «علي السماء».

الثاني: أن تكون السماء بمعنى الارتفاع والسمو، فقوله: في السماء أي في العلو وفي الفوقية، فهو العالي فوق خلقه تعالى.

فدليل هذا من القرآن هاتان الآيتان. ودليله من السنة هذه الأحاديث:

■ الحديث الأول: قوله ﷺ في رقية المريض: «**ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع**». حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

. . . .

وفي أول الحديث يقول عليه السلام: **«إذا مرض أحدكم أو قريب أحدكم أو أخوه فليقل: ربنا الله الذي في السماء...إلى آخره»**.

وفي هذا الحديث أمور:

أولاً: وصف النبي ﷺ ربه بالربوبية «ربنا» يعني خالقنا ومالكنا.

ثانيًا: وصفه بأنه في السماء يعني في العُلو.

ثالثًا: وصفه بالتقديس **«تقدس اسمك»** أي تنزه وتقدس عن كل نقص وعيب.

رابعًا: قوله: **«أمرك في السماء والأرض»** يعني أمرك نافذ في السماء على من في السموات وعلى من في الأرض.

خامسًا: قوله: **«كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض»** لأن الله خلق رحمته وجعلها في السماء مائة جزء، وأنزل منها جزءًا يتراحم به العباد والبهائم فطلب أن يجعل من رحمته في الأرض ما يخفف به على عباده ولذلك قال: **«فاجعل رحمتك في الأرض»**.

سادسًا: قوله: **«اغفر لنا حوبنا وخطايانا»** يعني ما أصابنا من مرض أو نحوه، فإنه بذنوبنا، و **«حوبنا»** أي ذنوبنا وخطايانا.

سابعًا: قوله: **«أنت رب الطيبين»** الربوبية من الله عامة لكل أحد، ولكن هاهنا ربوبية خاصة للطيبين وهم الأتقياء.

. . . .

ثامنًا: قوله: **«أنزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع»** يعني على هذا المرض أو هذا الوباء ونحوه.

والشاهد قوله: **«ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك»**. ففيه دليل واضح على أن الله تعالى في السماء.

▪ **الحديث الثاني**: قوله: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»** لما قسم عليه الصلاة والسلام مرة مالاً، وأعطاه بعض الأكابر ليقسموه على قومهم، جاءه إنسان وقال له: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فاعترض عليه وانتقده، فقال: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»** فالله تعالى الذي في السماء ائتمنني وجعلني أمينًا، أفلا تأمنوني أنتم وقد أمنني الله تعالى، فالشاهد أنه أخبر بأنه أمين من في السماء، وأنه يأتيه خبر السماء يعني الخبر من الله تعالى، يأتيه في الصباح والمساء بواسطة الرسول الملكي.

▪ **أما الحديث الثالث**: فهو قول النبي ﷺ: **«والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش»** وفي رواية: **«والعرش فوق الماء، والله فوق العرش»**.

لما ذكر ارتفاع السموات، وغلظ كل سماء، وأن بيننا وبين السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وأن غلظ السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وأن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة سنة، وأن ارتفاع السماء الثانية عن الدنيا وكثف كل سماء هكذا ـ قال بعد ذلك: وفوق السماء السابعة بحر، ما بين أعلاه إلى

. . . .

أسفله كما بين السماء والأرض، ثم ذكر أن فوق ذلك حملة العرش، وأن العرش فوق ظهورهم قد حملوه، والله تعالى كما يشاء، وكما يليق به فوق العرش، فوق ذلك كله.

ومع ذلك يعلم ما أنتم عليه، لا يخفى عليه شيء في الأرض، فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، فيجب أن نستحضر أنه تعالى هو العلي بجميع أنواع العلو، ومع ذلك له الإطلاع على خلقه، وله المراقبة عليهم، بحيث إنه لا تخفى عليه منهم خافية، ولهذا قال: «**وهو يعلم ما أنتم عليه**»، يعني لا تحسبوا أن بينكم وبين الله هذه المسافات، وأنه يخفى عليه شيء من أموركم، بل إنه قريب مجيب مطلع علي أعمال العباد وعلى أحوالهم، وهو تعالى فوقهم بجميع أنواع الفوقية.

ونأخذ من مجمل هذه الأدلة: أن وصف الله تعالى بصفات العلو من باب التعظيم، فهو تعالى يُعظَّم بوصفه بالعلو، وبوصفه بأنه في السماء، أي في العلو، وبوصفه بالفوقية بجيمع أنواعها، وبوصفه بالارتفاع ونحو ذلك؛ فكل هذا تعظيم، وإذا كان الله هو المستحق للتعظيم، فإن هذا من أعظم أنواع التعظيم.

ثم نأخذ أيضًا أنه تعالى إذا كان هو المستحق لأنواع التعظيم، فإن علينا أن نعظمه، ومن تعظيمه تعالى عبادته حق العبادة، وتخصيصه بذلك دون أن يُشرك معه غيره، ودون أن يصرف شيءٌ من حقه لغيره، فإن ذلك تنديد وشرك ونقص في التعظيم.

. . . .

ونأخذ من ذلك أنه إذا كانت هذه عظمته، وجب أن يُخاف عذابه، فإنه هو العظيم القدير، الذي هذه عظمته فيما أخبر به عن نفسه أو أخبر به نبيه، فمن عصاه أو عتا عن أمره، انتقم منه وعاقبه بما يشاء من أليم العقاب، فيوجب ذلك الخوف من عقابه، والرجاء لثوابه، فإن كل من عرف كمال صفات ربه وعرف عظمته وجلاله وكبرياءه، أوجب له:

أولاً: العبادة؛ بأن يعبده ويخصه بجميع أنواع العبادة.

ثانيًا: الرجاء؛ فيعلق آماله بربه ويرجو منه الثواب وحسن الجزاء.

ثالثًا: الخوف؛ وهو أن يخاف بطشه وعقوبته.

ومن جمع هذه الثلاثة حصلت له الاستقامة؛ من جمع العبادة التي تحمله عليها محبة المعبود وتعظيمه، وكذلك أضاف إليها الخوف من عقابه الذي عرف أسبابه، وعرف أنه المخوفُ وحده، وكذلك الرجاء والذي هو الأمل في ثواب الله ومعرفته أنه أهل لأن يرجى وتعلق عليه الآمال، وأهل لأن يرحم وأن يمنح ويعطي. فإذا كان كذلك فإنه يعبده. فمن أحبه تعالى عَبَدَه، ومن رجاه أطاعه ودعاه. وكذلك من خافه توقى عقوبته بالابتعاد عن أسباب سخطه وعقابه، فهذا ونحوه من الأدلة على أنه سبحانه وتعالى يرضى عن عبده، وأنه طلب من عباده أنه يعبدوه، حيث وصف نفسه بصفات العظمة.

ومن صفات العظمة إخباره بأنه فوقهم. وبأنه العلي الأعلى عليهم بجميع أنواع العلو.

. . . .

▪ الحـديث الرابع: في قصة الجارية، وهو أن رجلاً كان عليه عتق رقبة مؤمنة، فجاء بجارية لم يتحقق من إيمانها فسألها واختبرها النبي ﷺ فقال لها: «أين الله» فأشارت بيدها وقالت: في السماء، يعني فوقنا وفوق العباد، فقال: «من أنا» قالت: أنت رسول الله، فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة». فدل على أن من تمام الإيمان الشهادة لله تعالى بأنه في السماء وفوق العباد وبأن له الفوقية التامة، والشهادة لمحمد ﷺ بأنه مرسل من ربه، وبأنه رسول الله، فإذا كان العبد كذلك فإنه مؤمن يجوز عتقه للكفارة.

ويدل ذلك على أن عقيدة أهل الإيمان تنص على الفوقية، وعلى وصف الله تعالى بأنه فوق عباده، فمن خالف في ذلك نقص إيمانه، من أنكر فوقية الله على عباده نقص إيمانه، أو اختل إيمانه، حيث خالف مقتضى هذا الحديث.

فبالجملة: المسلمون والمؤمنون يعتقدون بمدلول هذه النصوص، ولا يتكلفون ما يخالف ذلك، وأما من زاغ وانتكست فطرته، فإنه يذهب في تأويلها مذاهب بعيدة لا يدل عليها عقل ولا نقل.

* * *

٨ ـ إثباتُ صفةِ المعية :

[وقولُه : «أَفضلُ الإيمان أَنْ تَعلَم أنَ اللّهَ معكَ حَيثما كُنْتَ»[١] . حديثٌ حسنٌ. وقَوْلُهُ : «إذا قَامَ أَحَدُكُم إلى الصَّلاةِ، فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولا عَنْ يَمِيْنِهِ، فإِنَّ اللّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمِهِ»[٢] متَّفقٌ عليهِ.

وقَوْلُهُ ﷺ : «اللهُمَّ رَبَّ السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ ورَبَّ العَرْشِ العَظيمِ، رَبَّنا ورَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوى، مُنْزِلَ التَّوْراةِ والإِنْجيلِ والقُرآنَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ومِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ»[٣] [رواه مسلم].

. . . .

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع البحرين برقم (٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٥): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال: تفرد به عثمان بن كثير ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح. وهو في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٥) في الصلاة، باب: «حك البزاق باليد من المسجد». ومسلم برقم (٥٥١) في المساجد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٦). ومسلم برقم (٥٤٧). عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٨). ومسلم برقم (٥٤٨) و (٥٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٠٩) ومسلم برقم (٥٤٨) - ٥٢. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧١٣) في الذكر والدعاء، باب: «ما يقول عند النوم وأخذ المضجع» عن أبي هريرة رضي الله عنه.



وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحابَةُ أَصْواتَهُمْ بالذِّكْرِ: «أَيُّها النَّاسُ! ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُمْ؛ فإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائِبًا، إِنَّما تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصيرًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ»[1]. مُتَّفقٌ عليهِ].

الشرح

▪ الحديث الأول: قوله ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» المعنى: أن تستحضر أن الله يراك، وأنه مراقب لك، ومطلع على أعمالك، ويسمع كلامك، ويرى مكانك؛ لأن الله تعالى مع عباده بعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فإذا استحضر العبد أن الله معه حيثما كان، فإنه يراقب الله بحيث إنه لا يتجرأ على معصيته، ولا يتجرأ على ترك طاعته، وتحاسبه نفسه: كيف أعصيه وكيف أخالفه وهو يراني ويرى مكاني، ولا يخفى عليه شيء من شأني؟

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦١٠) في القدر، باب: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ومسلم برقم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء، باب: «استحباب خفض الصوت بالذكر». عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

وكيف أخالف أمره، وكيف أرتكب نهيه، وأنا في قبضته وتحت تصرفه وتقديره؟ كيف أخالف أمره وكيف أرتكب نهيه، وهو المطلع على الضمائر، ويعلم السرائر، ولا يخفى عليه من عباده خافية؟ وهذا معنى كونه أفضل الإيمان؛ يعني أفضل خصال الإيمان؛ لأن العبد إذا آمن بمعية الله وآمن بقرب ربه، وآمن باطلاعه على عباده استفاد من هذا الإيمان استفادة كبيرة، وهي انزجاره عن المحرمات، وابتعاده عن المكروهات، ومحافظته على الطاعات.

إذا آمن بذلك وانضاف إلى إيمانه بذلك أيضًا: إيمانه بقدرة الله عليه، وأنه تحت سيطرته، وأنه لا يقدر على التخلص من عذابه، وانضاف إلى ذلك أيضًا إيمانه بأنه مملوك، إذا آمنت بأنك مملوك لله الذي هو ربك ومليكك، وأنك من جملة مخلوقاته الذين هو المتصرف فيهم، وانضاف إلى ذلك أيضًا: إيمانك بأنه الذي يعاقب من عصاه، وينتقم ممن خالف أمره، وأنه شديد البطش ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فإذا آمن بذلك كله، فإنه يستفيد بالمحافظة على العبادات وأدائها، والبعد عن المحرمات، فلا جرم صار هذا هو أفضل خصال الإيمان.

▪ الحديث الثاني: قوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصقن قبل وجهه، ولا عن يمينه...الحديث». يعني أن تؤمن بأن الله أمامك ومعك، لا يخفى عليه منك خافية، هذا معنى نهيه أن يبصق أمامه أو أن يبصق عن يمينه؛ لأن عليه أن يمثل ربه أمامه، وأن يستحضر أن ربه معه، فلا يبصق قبل

. . . .

وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه اليسرى، وذلك تنزيه لما أمامه وتنزيه لما عن يمينه الذي هو ملك الحسنات.

وعلى كل، فإن العبد متى استحضر أن الله معه استفاد فائدة عظيمة.

▪ الحديث الثالث: قوله ﷺ: «**اللهم رب السموات السبع والأرض ورب العرش العظيم**... الحديث». على العبد أن يكثر الذكر بهذا الدعاء الذي تضمنه هذا الحديث، فإنه اشتمل على تعظيم وتقديس لله تعالى.

إذا قلت: اللهم ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم، ربُّنا ورب كل شيء ـ كما في رواية ـ فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر.

تكثر أولاً الدعاء بما في هذا الحديث، وتتأمل ثانيًا مدلولاته وتتعرف معانيه.

فإن الربوبية معناها كمال الملك، فإذا كان الله هو رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وربنا ورب كل شيء ومعنى الرب: المالك المتصرف الذي بيده وتحت تصرفه أزمّة كل شيء ـ فالرب يذل له الخلق، فنكون أذلاء لطاعته، لا نخرج عن قبضته ولا نعصيه، هذا موجب كونه ربّاً ورب العرش العظيم ورب جميع المخلوقات، موجب إيماننا واعترفنا بربوبيته.

كذلك أيضًا إيماننا بأنه فالق الحب والنوى، الحب والنوى معروف، يعني هو الذي فلق الحبة كحبة البر ونحوه وجعل فيها هذا الفَلْق الذي في وسطها،

. . . .

فلو اجتمع الخلق كلهم ما خلقوا حبة برّ تزرع وتنبت إذا سقيت، ويكون فيها هذا الفلق الذي في وسطها، وكذلك النوى الذي هو نوى التمر، فالحبة التي تكون في وسط التمرة، الخلق كلهم أيضًا لا يقدرون على أن يخلقوا مثل هذه النواة التي فيها هذا الفلق التي إذا جعلت في التراب وسقيت، نبتت نخلة، كما هو معروف، فلا يقدرون أن يفلقوا ما فيها، ولا أن يخلقوها على هذه الهيئة، فالله هو فالق الحب والنوى.

ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كتبه التي أنزلها على أنبيائه وضمنها شرائعه، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، وهو الظاهر العالي فوق كل شيء، وهو الباطن القريب دون كل شيء، الذي لا يحول ولا يخفى عليه شيء، إذا آمن العبد بذلك كله، فإن الله تعالى يستجيب دعوته، ولأجل ذلك ختم هذا الدعاء بقوله: «**اقض عنا الدين وأغننا من الفقر**» فعلى كلٍ هذا من جملة الأحاديث التي تضمنت أشياء من صفات الله يؤمن العبد بها على ماهيتها ولا يكيفها.

▪ الحديث الرابع: قوله ﷺ: «**أيها الناس! أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا**... الحديث». وهذا من الأحاديث التي فيها شيء من الصفات، وهي صفة القرب لله تعالى، وصفة القرب قد دل عليها القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله تعالى:

. . . .

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ [البقرة: ١٨٦] ومن أسمائه تعالى: القريب في قوله تعالى: ﴿ إنه سميع قريب ﴾ [سبأ: ٥٠].

فالقريب: من أسمائه، وكونه قريبًا: من صفاته، فهو قريبٌ من عباده، وإذا استحضر العبد أن الله تعالى قريبٌ فإنه يراقبه، فإنه يخافه ويطيعه، إذا علم أن الله يراه وأن الله يقدر عليه، وأنه لا يستطيع الخروج عن ملكه، ولا يستطيع التخلص من عذابه، حملته هذه المعرفة على أن يطيعه في كل ما أمره به، وأن يبتعد عن كل ما حرمه عليه، هذه نتيجة هذه المعرفة.

فمن أجل ذلك وردت الأدلة في الإخبار بأن الله تعالى قريب، والإخبار بأنه ليس بغائب، وبأنه مُطّلع على العباد، يراهم ويسمع سرهم ونجواهم، فإذا استحضر العبد ذلك كله أطاعه حق الطاعة.

فإذا استحضر أن الله قريب من عباده وهو أقرب إلى أحدهم من حبل الوريد، واستحضر أن الله يراه، كما في قوله: ﴿ الذي يراك حين تقوم (٢١٨) وتقلبك في الساجدين ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] ولو في الظُلَم، ولو في الأماكن البعيدة الخفية، واستحضر أن الله يسمع السر وأخفى من السر، واستحضر أن الله ليس بغائب كما في قوله: ﴿ وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف: ٧] فإن هذا الاستحضار يفيده في عدم الإقدام على المعصية، يفيده في المراقبة، يفيده في الطواعية، وهذا هو السر في كونه تعالي أخبر العباد بهذا.

. . . .

يجب أن نؤمن بأن هذا القرب حقيقي ولكن لا نكيفه، فنقول: الله تعالى قريب كما يشاء، بحيث إنه ليس ببعيد، وبحيث إنه لا يستعصي عليه شيء، وبأنه يرى ويطلع على العباد، وبأنه ينتقم ويعاقب العصاة، وبأنه يثيب المطيعين ويجازيهم.

وذلك كله من معرفتنا بقربه وبعدم غيبته وبعده عن عباده، ولا نمثل هذا القرب بأنه كقرب أحدنا من صاحبه أو نحو ذلك، بل نقول: هو قرب كما يشاء الله، لا ندري ما حقيقته، إلا أنه أخبر بما يدل على هذا القرب حتى من حبل الوريد، أي من العروق التي في العنق ونحوها.

في هذا الحديث أن الصحابة كانوا مرة سائرين وكانوا إذا عَلَوا مكانًا مرتفعًا رفعوا أصواتهم بالتكبير، وإذا هبطوا واديًا أو منخفضًا رفعوا أصواتهم بالتسبيح، فأمرهم النبي ﷺ ألا يرفعوا أصواتهم؛ أن يكبروا بدون رفع الصوت وأن يسبحوا بدون رفع الصوت، وقال لهم: **«اربعوا على أنفسكم»** ارفقوا بأنفسكم، لا تكلفوا أنفسكم رفع الصوت ولا تشقوا على أنفسكم، **«فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا»** لا تدعون من هو موصوف بالصمم الذي هو عدم السمع، ولا بالغيبة التي هي البعد وعدم الحضور، بل الذي تدعونه سميع قريب، سميع ليس بأصم، قريب ليس بغائب.

إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، لا شيء في نظر أحدهم أقرب من عنق راحلته، يعني رقبتها، فإذا استحضر العبد أن ربه قريبٌ

. . . .

منه أقرب من هذا، بل أقرب من عنقه هو كما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فإنه لا حاجة إلى أن يرفع الصوت ويشق على نفسه، لعلمه بأن ربه يسمعه إن جهر وإن أسر، هذا هو المراد بهذا الحديث.

* * *

٩ ـ إثباتُ رؤيةِ المؤمنين ربَّهم يومَ القيامَةِ :

[قولُهُ : «إنّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ ، لا تُضامُونَ في رُؤيَتِهِ ، فإنِ استَطَعْتُمْ ألا تُغْلَبُوا عَلى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِها ؛ فافْعَلُوا»[١] . مُتَّفَقٌ عليهِ] .



▪ قـوله : (قوله : «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . . .» الحديث) :

هذا الحديث يتعلق بإثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة يقول ﷺ : **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»** وفي بعض الروايات أنه أقسم على هذه الرؤية ، وفي هذا دليل على إثبات هذه الرؤية وأحقيتها .

ومعنى **«كما ترون القمر ليلة البدر»** : يعني رؤية حقيقية كرؤيتكم لهذا القمر ، وليس معناه أن الله مشبَّه بالقمر أو بشيء من مخلوقاته ، شبَّه هنا الرؤية بالرؤية ، ولم يشبه المرئي بالمرئي بل المراد تحقيق الرؤية وثبوتها ، الله تعالى

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة ، باب : «فضل صلاة العصر» . ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد ، باب : «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها» . عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

. . . .

أخبر بأن العباد يرونه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وأخبر بأن الكفار لا يرونه، في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وفُسر النظر برؤية الله لقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] أي إلى ربهم، فإذن الحديث أثبت الرؤية ثبوتًا صحيحًا، وهذا الحديث في الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وروي نحوه عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد وغيرهم من الصحابة، ففيه إثبات الرؤية.

ومن ذلك أيضًا: حديث عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: **«جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**[(١)].

فدل على أنه ليس بينهم وبين أن يروا ربهم إلا أن يرفع رداء الكبرياء عن وجهه فينظروا إليه.

وقد ورد ذلك أيضًا في الدعاء النبوي المأثور الذي قال فيه النبي ﷺ: **«وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٤٤) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾». ومسلم برقم (١٨٠) في الإيمان، باب: «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى». عن عبد الله بن قيس عن أبيه رضي الله عنهما.



. . . .

ولا فتنة مضلة»[1]. وذلك كله يدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة كما يشاءون.

وأما قوله: «**فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» هاتان الصلاتان هما صلاة العصر وصلاة الفجر، يقول: حافظوا على هاتين الصلاتين، فإن لهما أهمية، وقد روي أن من حافظ عليهما رأى ربه بكرة وعشية وأن أعلى أهل الجنة من ينظر إلى ربه بكرة وعشية، أي بكرة في وقت الفجر وعشيًا في وقت العصر.

فمن حافظ على هاتين الصلاتين هذه المحافظة اطردت محافظته على بقيتهما، وذلك لأنهما يقعان في وقت النوم، صلاة الفجر تقع غالبًا في وقت الراحة والنوم، وصلاة العصر أيضًا قد تقع في وقت الراحة بعد الأعمال والإرهاق.

فإذا حافظ عليهما فبطريق الأولى أن يحافظ على غيرهما، فدل على أن المحافظة على الصلوات من أسباب رؤية الله؛ وذلك لأن المحافظة على الصلاة، تحمل على بقية الشرائع؛ لأن الصلاة تستجلب غيرها من أنواع العبادة، وتحمل أيضًا على البعد عن المحرمات؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩١)، والنسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥) في السهو، وصححه الألباني في صحيح النسائي رقم (١٢٣٧).

. . . .

فمن حافظ على بعض الصلوات حافظ على بقيتها، فإن الصلوات متماسكة، لا يمكن أن يأتي بالبعض دون البعض لاعتقاده بأن الجميع فريضة من الله، وإذا أتى بهذه الصلوات استدعى ذلك أن يأتي ببقية الأركان؛ كالصوم، والزكاة، والحج، وما أشبهه. وإذا حافظ على هذه الأركان عرف أن ربه قد حرم عليه المحرمات فيتركها أيضًا لله تعالى.

فإذا أتى العبد بالواجبات وانزجر عن المحرمات كان من ثوابه دخوله الجنة، وكان من ثوابه أيضًا أن الله تعالى يتجلى له كما يتجلى لعباده في دار كرامته.

❁ ❁ ❁



موقف أهل السنة والجماعة من الأحاديث التي فيها إثبات الصفات لله تعالى

[... إلى أَمْثال هذه الأحاديثِ الَّتي يُخْبِرُ فيها رَسولُ اللهِ ﷺ عنْ رَبِّهِ بِما يُخْبِرُ بهِ؛ فإنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أهْلَ السنَّةِ والجَماعةِ يُؤمِنونَ بذلك؛ كما يُؤمِنونَ بما أخْبَرَ اللهُ بِهِ في كِتابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْريفٍ ولا تَعْطيلٍ، ومِنْ غيرِ تَكْييفٍ ولا تَمْثيلٍ].



▪ قوله: (إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يُخبر به...):

عرفنا أن مذهب أهل السنة والجماعة في باب العقيدة يتوقف على النقل، فالنقل مقدّم عل العقل، والنقل هو النصوص المنقولة التي نقلت نقلاً صحيحًا يقينيًا، وردت في كتاب الله تعالى أو في أحاديث رسول الله ﷺ ، فيقف أهل السنة والجماعة عندها ويقولون بموجبها، ويعتقدون مدلولها، ويقدمون القول بها على ما تقتضيه العقول لأن العقل مظنة للتغير والانقلاب.

فلا تأتي النصوص الصحيحة بشيء يخالف العقل الصريح السليم أصلاً، فأما الذين قدموا مقتضيات العقول على الأحاديث الصحيحة والنقول السليمة، فإنهم وقعوا في التناقض؛ وذلك لأن فرقة تثبت أمرًا وتقول: دل عليه

. . . .

العقل، ثم تأتي طائفة ثانية تنفيه وتقول: أنكره العقل، بل إن الواحد منهم يثبت الصفة زمانًا ـ عشرين عامًا مثلاً وهو يثبتها ـ ويقول: دل عليها العقل، ثم يتغير بعد ذلك وينكرها ويقول: العقل ينكرها، فهذا عقل شخص واحد أثبت أمرًا واحدًا ثم نفاه، فالعبرة إذن بالنقل لأنه هو الأصل والأساس ولا يأتي بما تحيله العقول السليمة.

بعد ذلك نقول: إن أهل السنة نُقلت لهم الأحاديث فقالوا بموجبها، وصانوها عن التحريف والتعطيل، والتكييف، والتأويل، صانوها عن كل ما يخالفها، فلم يحرفوا الكلم عن مواضعه ويغيروه، أو يغيروا معانيه، فإن أهل الكتاب ذمهم الله بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ومن تبعهم في تحريف الكلم عن مواضعه تغيير المعاني أو تغيير الألفاظ فإن فيه شبهًا منهم.

وكذلك لم يعطلوا معاني الصفات ولم يعطلوا الرب تعالى عن صفات الكمال، والتعطيل هو النفي؛ يعني مانفوها وعطلوا الله عن هذا الصفات التي هي صفات الكمال. ولم يكيفوا؛ أي لم يسألوا عن الكيفية، ولم يثبتوا لله تعالى كيفية ذات ولا كيفية صفات لقصور الأفهام عن الكيفيات، ولم يتأولوا شيئًا ويفسروا بتفاسير بعيدة لا تحتملها اللغة، ولم يمثلوا، ولم يشبهوا شيئًا من صفات الله بصفات المخلوقين كما يزعمه أعداؤهم الذين يرمونهم بالتشبيه.

❋ ❋ ❋

وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة

[بل هُمُ الوسطُ فِي فِرقِ الأُمَّةِ، كَما أنَ الأمَّةَ هِي الوسَطُ فِي الأُمَم].



▪ **قوله: (بل هم الوسط في فرق الأمَة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم):**

الوسط هو: الخيار؛ يعني هم الخيار في فرق هذه الأمة، والأمة هي الخيار في الأمم كلها ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني خياراً، أي جعل الله هذه الأمة خيار الأمم وأفضلها.

لكن المراد بالأمة هنا أمة الإجابة، فأمة النبي ﷺ قسمان: **أمة دعوة وأمة إجابة:**

فالذين لم يتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولا أطاعوه هؤلاء من أمته؛ **أمة الدعوة.**

والذين صدقوه واتبعوه وأطاعوه واتبعوا أثره وامتثلوا ما جاء به هؤلاء **أمة الإجابة**، وهم المرادون في الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ يعني خياراً.

فإذا كانت هذه الأمة وسطًا في الأمم السابقة، فإن أمة الإجابة الذين

. . . .

يشهدون أن محمدًا رسول الله ويقرؤون القران، ويصدقون بأنه من الله، هؤلاء أيضًا فرق، وكل منهم يدعي بأنه من أمة محمد ﷺ ؛ فالجهمية يدعون أنهم من أمة محمد ويقولون: هو رسول الله، ويقولون: نحن نقبل شريعته ونحكم بها، ونصلي ونصوم ونعمل للآخرة ونصدق بالبعث، وكذلك المشبهة الذين يشبهون صفات الله بصفات خلقه، وكذلك المعتزلة، وكذلك الحرورية الذين هم الخوارج ، وكذلك الجبرية، وكذلك الوعيدية، وكذلك الرافضة، الكلُّ يدعون أنهم من أتباع محمد ﷺ .

ولكن أتباعه حقًا هم أهل السنة والجماعة، هم الذين عملوا بالعقيدة السليمة، فهم وسط في فرق هذه الأمة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن أمته ستفترق إلى ثنتين أو ثلاث وسبعين فرقة[1] ، كلها في النار إلا واحدة وهي أهل السنة والجماعة، وهم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، هؤلاء هم الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة فهم الوسط في فرق الأمة.

* * *

---

(١) حديث افتراق الأمة أخرجه أبو داود برقم (٤٥٩٦) في السنة. والترمذي برقم (٢٦٤٠) في الإيمان. وابن ماجه برقم (٣٩٩١) في الفتن. وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢). عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

وهو في صحيح الجامع رقم (١٠٨٣).

وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٨٣٧٧): إسناده صحيح.

١ ـ وسطيةُ أهلِ السُّنَّةِ فِي بابِ الصفاتِ بين الجَهْميةِ والمشبهَةِ:

[فهُم وسَطٌ في بَابِ صِفاتِ اللهِ سُبحانَهُ وتَعَالَى بَينَ أَهْلِ التَعْطيلِ الجَهْمِيَّةِ وأَهلِ التَّمثِيلِ المشَبِّهَةِ].



قوله: (فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة):

أهل السنة وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل وهم الجهمية وبين أهل التمثيل وهم المشبهة؛ فأهل التمثيل غلوا وجعلوا صفات الله كصفات المخلوق. وأهل التعطيل غلوا أيضًا في النفي، فهؤلاء غلوا في الإثبات وهؤلاء غلوا في النفي، فأنكروا أن يكون لله تعالى صفات كمال أيًا كانت، وقالوا: كل صفة موجودة في أي مخلوق لا نثبتها لله خوفًا من التشبه، فوقعوا في التعطيل، ولذلك يقول فيهم ابن القيم:

لسنا نشبه ربنا بصفاتنا ... إن المشبِّهَ عابد الأوثان

كلا ولا نُخْليه من أوصافه ... إن المعطِّل عابدُ البهتان

ويقول بعض العلماء: الممثل يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، فتوسَّطَ أهل السنة وأثبتوا الصفات ونفوا عنها التمثيل، فلا تمثيل كالممثلة ولا تعطيل كالنفاة، فهم يقولون: لله صفات حقيقية ليست كصفات المخلوق، هذا هو

. . . .

توسطهم بين أهل التمثيل المشبهة، وأهل التعطيل النفاة كالجهمية ونحوهم، فإن الجهمية والمعتزلة وغيرهم بالغوا في النفي خوفًا وحذرًا من التشبيه، ويرددون قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ويرمون كل من أثبت صفة لله يوجد مثلها في المخلوق بأنه مشبه ممثل، ويقول قائلهم وهو الزمخشري:

قد سبهوه بخلقه فتخوفوا　　　شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وجعل قول أهل السنة أن له سمعًا بلا كيف وبصرًا بلا كيف وأنه يرى بلا كيف، فهو ينكر عليهم ويرميهم بالتشبيه.

أما الممثلة فهم قليلون في فرق الأمة، وهم الذين يغلون في إثبات الصفات، كقولهم: يد كأيدينا وبصر وسمع كأبصارنا وأسماعنا، وقد اتفق أهل السنة أن ذلك كفر؛ لأنه تنقص؛ لأن المخلوق ضعيف، ويأتي عليه الفناء وهو حادث بعد عدم، فأهل السنة توسطوا بين المعطلة والمشبهة، فأثبتوا الصفات كما يليق بالرب تعالى، ونزهوه عن مشابهة المخلوقات.

* * *



٢ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ أَفعالِ اللهِ بَينَ الجَبْريةِ والقَدريَةِ:

[وهُمْ وسَطٌ في بابِ أَفْعَالِ اللهِ بَينَ الجَبْريَّةِ وَالقَدَريَّةِ وَغَيْرِهِمْ].

الشرح

قوله: (**وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم**):

وأهل السنة كذلك وسط في باب أفعال الله أي قدرته، فلقد انقسم الناس في ذلك أقسامًا:

● **فطائفة قالوا**: إن الله تعالى لا يقدر على أفعال العباد، فلا يقدر أن يهدي من يشاء ولا يضل من يشاء، بل العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضل نفسه، فهؤلاء نفوا قدرة الله، وهؤلاء هم القدرية من المعتزلة ونحوهم.

● **وطائفة أخرى قابلتهم**، فسلبوا العبد قدرته وقالوا: العبد مجبور، وهم طوائف من الجهمية ونحوهم يقال لهم المجبرة، يقولون: العبد مجبور على أفعاله، ليس له أفعال، بل هو بمنزلة الشجرة المتحركة بالريح ليس له اختيار.

● **وتوسط أهل السنة وقالوا**: إن الله هو الذي يخلق كل شيء، ولكنه أعطى العباد قدرة واختيارًا، فللعبد قدرة ومشيئة، والله خالقه وخالق قدرته ومشيئته. فبقدرته التي منحت يصلي ويصوم، ويؤمن ويكفر. فتوسَّطَ أهل السنة في باب أفعال الله بين الجبرية وبين القدرية.

* * *

٣ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ وعيد اللهِ بَينَ المرجئة والوعيدية:

[وفي بابِ وعيدِ اللهِ بينَ المُرْجئةِ والوَعِيديَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ].



قوله: (وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم):

وكذلك في باب وعيد الله انقسم الناس إلى أقسام:

● **قسم قالوا:** العصاة الذين يموتون على المعصية في النار ولا يخرجون منها، ولا تغفر ذنوبهم إذا ماتوا وهم مصرون عليها، ولو كانت ذنوبهم دون الشرك، فلن يغفر لهم بل هم مخلدون في النار، وهذا قول الخوارج الحرورية، وقول المعتزلة الذين يخلدون بالكبائر.

● **القسم الثاني:** المرجئة، الذين يقولون: لا يضر مع التوحيد ذنب، إذا كنت موحداً فأكثر من الذنوب، ولا تضرك كبائرها وصغائرها، ما دام أنك موحد فكثر من الذنوب وليس عليك منها ضرر، وفي ذلك يقول شاعرهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريمِ

هؤلاء في طرفي نقيض، هؤلاء يقولون: الذنب يخلد به في النار، وهؤلاء يقولون: الذنوب ولو كثرت لا تضر.

● **وتوسط أهل السنة وقالوا:** الذنوب التي هي دون الشرك متوعد

. . . .

عليها، فتارة يغفرها الله إذا شاء، وتارة يُدخل أصحابها في النار ويعذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم منها إذا شاء، وهذا هو القول الوسط؛ وهو أنهم لا يُخلدون في النار كقول المعتزلة والحرورية، ولا يحكم لهم بالنجاة، فيقال: أكثروا منها ولا تضركم كقول المرجئة، بل يُخاف عليهم ويرجى لهم.

* * *

٤ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ أَسماءِ الإيمانِ والدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ والمعْتَزلَةِ، وبيَنَ المرْجئةِ والجهمية:

[وَفي بابِ أسماء الإيمانِ والدِّين بَينَ الحَرُورِيَّةِ والمعْتَزلَةِ، وبيَنَ المرْجئةِ والجَهْمِيَّةِ].



▪ قوله: (وفي باب أسماء الإيمان والدِّين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية):

كذلك في باب أسماء الإيمان والدين في أحكام الدنيا، متى نسمي الإنسان كافرًا؟ ومتى نسميه مؤمنًا؟ فانقسم الناس أيضًا إلى أقسام:

فالخوارج قالوا: كل من عمل ذنبًا ولو دون الشرك فهو كافر.

والمعتزلة قالوا: الذي عمل ذنبًا دون الشرك نخرجه من الإيمان ولكن لا يصل إلى درجة الكفر.

والمرجئة قالوا: هو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان الملائكة وكإيمان الصحابة.

فهؤلاء في طرف وهؤلاء في طرف؛ فالمعتزلة والخوارج أخرجوه من الإيمان، وهؤلاء جعلوه كامل الإيمان، وعاملوه معاملة أكمل المؤمنين وأحبوه كما يحبون أكمل المؤمنين، ووالوه وقربوه، فصاروا في طرفي نقيض؛ هؤلاء

. . . .

يقاتلونه ويكفرونه ويستحلون سلب ماله ودمه، وهؤلاء يغالون فيه.

وتوسط أهل السنة وقالوا: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، لا نخرجه من الإيمان، ولا نعطيه كمال الإيمان، ولا نحبه كمحبة المؤمنين الخلص، وهذا هو القول الوسط.

* * *

٥ ـ وسطيةُ أهلِ السنَّةِ فِي بابِ الصحابَةِ بينَ الرَّافِضَةِ والخَوارِجِ:

[وفي بابِ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ والخَوارِجِ].



■ **قوله: (وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج):**

كذلك صحابة النبي ﷺ ، انقسم الناس فيهم إلى ثلاثة أقسام؛ قسم غلوا، وقسم جفوا، وقسم توسطوا.

● فالخوارج كفروا كثيرًا من الصحابة ؛ كأهل البيت ـ عليّ وأهله ـ كفروهم وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم.

● والروافض والشيعة غلوا، فجعلوهم آلهة، وعبدوهم من دون الله وأعطوهم حقوق الألوهية.

● **وتوسط أهل السنة في أهل البيت فقالوا:** لا نكفرهم كقولكم يا خوارج، ولا نعبدهم ونعظمهم ونعطيهم شيئًا من حق الله كقولكم يا شيعة، بل نحبهم ولا نغلو فيهم، وهذا هو القول الوسط .

هذه هي فرق الأمم وهذا هو معنى توسط الأمة.

* * *

إثبات صفة الاستواء على العرش
وصفة علو الله على خلقه ومعيته لخلقه
ووجوب الإيمان بذلك وأنه لا تنافي بينها

[فصْلٌ: وقَدْ دَخَلَ فيما ذَكَرْنَاهُ مِن الإيمان باللهِ الإيْمانُ بما أخْبَرَ اللهُ بهِ في كِتابِهِ، وتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وأجْمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ فَوْقَ سَمواتِهِ؛ عَلَى عَرْشِه، عَليٌّ على خَلْقِهِ، وهُو سُبحانَهُ معهُمْ أيْنما كَانُوا، يَعْلَمُ ما هُم عَامِلُون؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذلكَ في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي ستةِ أيَامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزلُ من السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ولَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَهُ مُخْتَلِطٌ بالخَلْقِ؛ فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وهُو خِلافُ مَا أَجْمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمَّةِ، وخِلافُ مَا فَطَرَ اللهُ عليهِ الخَلْقَ، بلِ القَمَرُ آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ مِن أصْغَرِ مَخْلوقاتِهِ، وهُو مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وهُوَ مَعَ المُسافِرِ وغَيْرِ المُسافِرِ أَيْنما كَانَ.

وهُو سُبْحانَهُ فوقَ عَرْشِهِ، رَقيبٌ على خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عليهِمْ، مُطَّلِعٌ عليهِمْ... إلى غَيْرِ ذلك مِنْ مَعاني رُبُوبِيَّتِه.



وكُلُّ هذا الكَلامِ الَّذي ذَكَرَهُ اللهُ ـ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وأَنَّهُ مَعَنا ـ حَقٌّ على حَقيقَتِهِ، لا يَحْتاجُ إِلى تَحْريفٍ، ولكنْ يُصانُ عنِ الظُّنُونِ الكاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظاهِرَ قولِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾؛ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَو تُقِلُّهُ، وهذا باطلٌ بإِجْماعِ أَهْلِ العِلْمِ والإِيمان؛ فإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وهُوَ يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأرض أنْ تَزُولا، ويُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ على الأَرْضِ؛ إلاَّ بإِذْنِهِ، ومِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ والأَرْضُ بأَمْرِهِ].



▪ قوله: (فصل: وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله في كتابه وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه فوق سمواته، على عرشه...) :

ومما يتعلق بصفات الله وبالإيمان بالله، الإيمان بأنه تعالى هو العلي الأعلى بجميع أنواع العلو، وأنه سبحانه على عرشه فوق سمواته، وفوق عباده، وكما أخبر بذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ووصف نفسه بالعلو في قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[الأعلى: ١]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيؤمن أهل السنة بعلو الله تعالى، أنه عليٌّ قهرًا أي عال عليهم قاهرٌ لهم، وعليٌّ قدرًا: أي قدره أعلى من قدر المخلوقات، وعليٌّ بالذات: أي هو فوقهم بذاته.

. . . .

ثم يؤمنون - أيضًا مع إيمانهم بأنه فوقهم فوقية حقيقية - بقربه وأنه لا ينافي عُلوه وفوقيته قربه ومعيته، بل هو قريب من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ وإذا سألكَ عبادي عنّي فإنّي قريبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فنؤمن بفوقيته، وعلوه، ونؤمن بمعيته وقربه، ونؤمن بأن هذا لا ينافي هذا.

وجمع الله بينهما في هذه الآية في سورة الحديد حيث يقول تعالى: ﴿ الّذي خلق السّموات والأرْض في ستّة أيّامٍ ثُمّ استْوى على الْعرْشِ ﴾ [الحديد: ٤] هذا هو العلو، فالاستواء هو العلو.

﴿ يعْلمُ ما يلجُ في الأرْضِ وما يخْرُجُ منْها وما ينزلُ من السّماءِ وما يعْرُجُ فيها وهُو معكُمْ أيْن ما كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤] هذا القرب، يعني هو معكم، مُطلع عليكم، عالم بكم، مراقب لكم، يراكم ويسمعكم، ولا تخفى عليه منكم خافية، فهذا هو القرب والمعية، جمع الله بينهما في هذه الآية.

■ وقوله: **(وليس معنى قوله: ﴿هُو معكم﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق)**:

أي أن قوله: ﴿ وهُو معكُمْ ﴾ ليس معناه أن الله مختلط بالخلق تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والمعية كما تقدم قسمان:

الأولى: معية علم واطلاع وهيمنة ومراقبة، فهذه معية عامة.



. . . .

الثانية: معية حماية وحفظ وكلاءة، فهذه معية خاصة.

وقد ذكر الله الأولى في هذه الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وفي قوله: ﴿وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، هذه المعية العامة التي مقتضاها العلم والاطلاع.

وذكر الخاصة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ونحو ذلك.

فنؤمن بأن الله مع كونه عليًا فوق عباده، فإنه يراهم ويطلع عليهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، ولا نقول إنه مختلط بهم، وإنه في كل مكان بذاته، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ونحو ذلك، فإن هذا خلاف ما تقتضيه اللغة.

فالمعية لا تستلزم هذا وهو أيضًا خلاف ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، فالخلق فطروا على أن ربهم من فوقهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فكل مسلم إذا دعا الله فإن قلبه يتوجه إلى فوق، لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا، وذلك دليل على أن هذه فطرة لا يستطيعون مخالفتها.

. . . .

■ وقوله: **(بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن مطلع عليهم...)**:

ضرب المصنف رحمه الله مثلاً بالقمر، لبيان علو الله على خلقه ومعيته لهم؛ فالقمر آية من آيات الله، وهو من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، تقول العرب: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، معلوم أن القمر مركب في فلكه، ولكن كونه معهم أي أنهم يرونه ويسيرون في ضوئه وفي نوره، فكأنه معهم، فالله تعالى مطلع على عباده، فهو معهم بعلمه وباطلاعه وبهيمنته وبرؤيته وإن كان فوقهم بذاته.

فهذه الآيات تجرى على ظواهرها، وتصان عن الظنون الكاذبة مثل ظن الظان أن قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُم**﴾ [الحديد: ٤] أنه مختلط بالخلق، أو ظن قوله تعالى: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك: ١٦] أن السماء تظله أو تقله فتكون كالظل عليه، أو تقله يعني تحمله فيكون معتمداً على شيء من مخلوقاته أو محتاجًا إليه، والله تعالى غني عن ذلك، هذا ظن خاطئ بل معنى قوله: ﴿**فِي السَّمَاءِ**﴾ أي فوق السماء، أو أنه في جهة العلو كما يشاء، فهو غني عن العرش وعما دون العرش وعن السموات كلها، وهو الذي يمسكها، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر: ٤١] لولا إمساك الله تعالى لهذه السموات ولهذه



. . . .

الأرض ولهذه الأفلاك، لاضطربت وزالت، قال الله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥] فيمسكها أن تقع على الأرض إلا إذا شاء.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥] يعني من آياته كونها مستمسكة قائمة، كلٌّ في فلك يسبحون، ليس فيها اضطراب ولا اختلاف؛ ذلك من آيات الله الكونية، فكيف مع ذلك يكون محتاجًا إلى شيء من مخلوقاته، أو أن شيئًا منها يحمله أو يقله أويظله أو ما أشبه ذلك.

فإذن نحن نعلم أنه تعالى فوق سمواته، وأنه مع ذلك مطلع على خلقه، مهيمن عليهم، مراقب لهم، قريب منهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وذلك لأنهم خلقه، وجميع المخلوقات كلها حقيرة وصغيرة بالنسبة إلى عظمته، وهو يقبض السموات كما يشاء، ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] يقول ابن عباس: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم[١].

فإذا كان هذا مقدار هذه المخلوقات، دل ذلك على عظمة الخالق فكيف

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[سورة الزمر، الآية: ٦٧]. رقم (٣٠٢١٢).

. . . .

يكون محتاجًا إلى هذه الأفلاك، أو أنها تحمله أو تقله أو تظله؟!.

فالحاصل أننا نؤمن بعلو الله، وبفوقيته، وبعظمته أينما كان، وباستغنائه عن العرش وعما دون العرش، والعبد إذا آمن بعظمة الله وقدرته وعلوه وفوقيته أورثه ذلك فائدة عظيمة وهي تعظيمه والخوف منه، فإنه متى عظم قدر ربه في قلبه خافه أشد الخوف، وراقبه واستحضر أنه يراه في كل وقت، فحمى نفسه عن أن يقدم على معصيته لأنه يراه، فيقول: كيف أقدم على معصيته وهو يراني؟ كيف أفعل ما نهاني عنه؟ كيف أترك ما أمرني به؟ هذا من ثمرات الإيمان بهذه الصفات.





إثبات قرب الله ومعيته

[فصلٌ: وقَدْ دَخَلَ في ذلكَ الإيمانُ بأَنَّهُ قَريبٌ من خلقه مُجيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بينَ ذلكَ في قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية، وقوله ﷺ: «إِنَّ الَّذي تَدْعونَهُ أقرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِه»(١).

وَمَا ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِه ومعيَّتِه لا يُنافي ما ذُكِرَ من عُلُوِّهِ وفوقيَّتِه؛ فإنَّهُ سبحانَهُ ليسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ في جَميعِ نُعوتِه، وهُو عَليٌّ في دُنُوِّهِ، قريبٌ في عُلُوِّه].



▪ قوله: (فصل: وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه؛ كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ... ﴾):

يؤمن أهل السنة بأن ربهم سبحانه وتعالى فوق عباده، قال تعالى: ﴿ وهُو

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦١٠) في القدر، باب: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ومسلم برقم (٢٧٠٤)-٤٦ في الذكر والدعاء، باب: «استحباب خفض الصوت بالذكر». عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

القاهرُ فوقَ عبادهُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وأنه هو العلي الأعلى، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، وقال: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤]، فيؤمنون بأنه عليٌّ بكل أنواع العلو: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات كما يشاء.

ويؤمنون أيضًا بأنه تعالى قريب مجيب، قريب من عباده مجيب لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فالرب تعالى قريب من عباده يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال بعضهم: المراد أنه قريب برحمته وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإذا آمن العبد بأن الله تعالى قريب من عباده، حمله هذا الإيمان على ألا يعصي، لأنه يستحضر أن ربه قريب منه، ويستحضر أن ربه يطلع عليه ويراه، ولا يخفى عليه منه خافية، فيرجع إلى نفسه قائلاً: كيف أعصي ربي ومالكي وهو يراني؟ كيف أعصيه وهو سميع قريب؟ وكيف أقدم على معصيته وهو القادر عليّ والمتصرف فيّ؟ كيف أخرج عن طاعته وأنا بمرأىً منه ومسمع، كلُّ ذلك عليه أن يستحضره.



. . . .

فالله تعالى قد ذكر معيته؛ المعية العامة والمعية الخاصة، فقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة: ٧] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

فهذه المعية العامة تقتضي العلم والاطلاع، وإذا أيقن العبد بهذه المعية العامة حمله ذلك على أن يطيع الله تعالى، وألا يخرج عن طواعيته وألا يعصيه طرفة عين، فهذه فائدة معرفة العبد بذلك.

ثم يعلم أيضًا أن هناك معية خاصة بالمؤمنين، وهي المفهومة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ونحو ذلك.

هذه المعية تقتضي النصر والتأييد، أي معكم أنصركم وأقويكم وأشد أعضادكم وأثبتكم، فهذه المعية مقتضاها غير مقتضى المعية العامة، فيؤمل أن تحصل له هذه المعية: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي يكون الله معه، ومن كان الله معه بنصره وتأييده فلن يغلب ولن يهزم.

ثم على العبد بعد ذلك ألا يعتقد اعتقادًا سيئًا، فلا يضيق ذرعًا بمثل هذه الآيات، ولا يقول: كيف يكون الرب تعالى عليًا فوق عباده وفوق عرشه في

. . . .

السماء السابعة التي بيننا وبينها هذه المسافات الطويلة، ومع ذلك يكون معهم؟

إذا عرف أن الله تعالى ليس كمثله شيء فليعرف أنه عليٌّ في دنوه، قريب في علوه، وأنه مهيمن على العباد، مطلع عليهم، قريب منهم، يسمعهم وهو على عرشه لا يخفى عليه منهم خافية، يعلم السر وأخفى.

▪ وقوله: (**وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**):

لما رفع الصحابة أصواتهم مرة بالذكر، أمرهم النبي ﷺ ألا يرفعوا أصواتهم رفعًا شديداً. وكان الصحابة في السفر إذا هبطوا واديًا سبحوا جميعًا بقولهم: «سبحان الله» وإذا علوا مكانًا مرتفعًا كنشزٍ من الأرض كبروا بقولهم: «الله أكبر»، فقال لهم ﷺ: **«أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**[1].

فالرب تعالى قريب من عباده، مطلع عليهم، أي أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وأنه يسمع أقوالهم، ولا يشتبه عليه شيء من حوائجهم ولا من مطالبهم، فما دام كذلك، فإن العبد الذي يؤمن بذلك عليه:

أولاً: أن يطيع الله بكل أنواع الطاعة.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٣.

. . . .

ثانـيًا : إذا عرف أن ربه يعلم ما في ضـميره وما ينويه بقلبه فعليه أن يصلح نيته ، وأن يطهر سريرته ، وألا يخالف شيئًا مما يعتقده .

كذلك أيضًا ألا يقدم على ذنب بل يرتدع ، فإذا حدثته نفسه بشيء رجع إليها وقال : الرب تعالى الذي نهاني قريب يراني ويطَّلع عليّ ، ولا يخفى عليه من أمري خافية ، فكيف أتقدم إلى معصية .

بذلك نعرف أن العبد يستفيد فائدة عظيمة من هذه العقيدة ، ومن اعتقاده أن الله تعالى هو العلي الأعلى بكل أنواع العلو ، وهو القريب الذي لا تخفى عليه خافية ، وأنه ليس بغائب كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف : ٧] فيستفيد العبد هذه الفائدة التي هي إيمانه بقرب الله تعالى ومعيته ، مما يحمله على مراقبته وتحري ما هو طاعة له ، والبعد عن معصيته ومخالفته .

▪ **قوله : (وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته ؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته ، وهو عليٌّ في دنوِّه ، قريب في علوه) :**

يجب على العبد أن يؤمن بنصوص كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ واعتقاد أنها لا تتناقض ولا يخالف بعضها بعضًا ، بل يتسع قلبه بالإيمان بأن الله تعالى مع الخلق ، وأنه فوق العرش ، وأن هذا لا ينافي هذا .

. . . .

هناك مثلاً من أنكر القرب والمعية، وفاته الإيمان بهذه النصوص الصريحة، وهناك من أنكر الفوقية والعلو بجميع أنواعه والاستواء على العرش فأنكر هذه الأدلة الواضحة، وجعلها ليست حقيقية فأصبح بذلك مخالفًا لمعتقد أهل الحق ورادًا لبعض الأدلة فدخل في زمرة من يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

أما المؤمنون حقاً فاتسعت قلوبهم لذلك، وآمنوا بالكتاب كله واعتقدوا أن بعضه يصدق بعضًا وأن معناه كله صحيح.

* * *

وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

[ومن الإيمانِ باللهِ وكتُبه: الإيمانُ بأنَّ القرآنَ: كلامُ اللهِ منزَّلٌ، غيرُ مخلوقٍ، منه بدأَ، وإليه يعودُ، وأن الله تكلَّم به حقيقةً، وأنَّ هذا القرآنَ الذي أنزله على محمدٍ ﷺ هو كلامُ اللهِ حقيقةً، لا كلامُ غيرِهِ.

ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنّه حكايةٌ عن كلامِ اللهِ، أو عبارةٌ، بل إذا قرأه الناسُ أو كتبوه في المصاحفِ؛ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللهِ تعالى حقيقةً، فإن الكلامَ إنما يضافُ حقيقةً إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلّغًا مؤدِّيًا.

وهو كلامُ اللهِ؛ حروفُه، ومعانيه، ليس كلامُ اللهِ الحروفَ دونَ المعاني، ولا المعاني دونَ الحروفِ].



■ قوله: (ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق...):

يؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله تعالى متكلم ويتكلم إذا شاء، وأن

. . . .

كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، وأن من كلام الله تعالى هذا القرآن الذي أنزله على قلب محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ -١٩٥] فهذا القرآن هو كلام الله حقيقة، تكلم الله به كما يشاء وسماه كلامه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ومن المعلوم أنه إنما يسمع هذا القرآن، فهو كلام الله حقيقة، منه بدأ وإليه يعود، فالله هو الذي تكلم به ابتداءً، وهو كلامه الذي أنزله على قلب نبيه ﷺ، وإليه يعود، أي يرجع إليه، وذلك في آخر الدنيا عندما يتعطل ويترك العمل به، ويُنسخ من صدور الرجال ومن مصاحف الناس، ويرفع ولا يبقى منه شيء، وذلك قرب قيام الساعة وانقضاء الدنيا، فإنه منه بدأ وإليه يعود، وهو كلام الله حقيقة.

ولا يجوز إطلاق القول بأنه عبارة، أو حكاية عن كلام الله، كما يقول بعض المبتدعة، الذين يقولون: إن كلام الله معنىً قائم بنفسه، وإن هذا الذي نقرؤه ليس هو عين كلام الله، إنما هو عبارة عنه أو حكاية بمعنى المتَرْجَم، أي أنه ترجم ونُقل إلى هذه اللغة أو إلى هذه الأحرف وهذه الكلمات، فليس هو كلام الله، ونقول ردًا على ذلك: إذا اعترفنا أن الله تعالى يتكلم كيف يشاء، فلامانع أن يكون تكلم به كما هو، وأنزله بهذا اللسان كما يشاء.

فالله تعالى لا يعجزه شيء، فمن قال: إنه عبارة أو حكاية، لم يكن مقرًا

....

بأنه كلام الله ، بل جعله عبارةً عنه ، وجعل هذا الكلام كلام ذلك المعبر أو المفسر أو المترجم ، فلا يسمع السامع كلام الله ، ويصح على هذا القول الباطل أن يقال : ليس هذا عين كلام الله ؛ بل هو بمعناه أو نحو ذلك ، أو أن كلام الله هو المعنى دون الحرف ، وكل هذا خطأ .

ومن ذلك أيضًا القول بأنه مخلوق ، كقول المعتزلة والجهمية ، فإنهم يعتقدون أن الله لا يتكلم ، وأن هذا مخلوق كسائر المخلوقات ، خلقه إما في اللوح المحفوظ ، أو خلقه في القلم وجرى به أو نحو ذلك ، ولا يعترفون بأن الله تكلم به ، وينفون أن يكون الله تعالى متكلمًا ، فيبطلون صفة الكلام التي هي من أعظم صفات الله تعالى .

كذلك نحن نقول : هذا الكلام هو كلام الله حيثما قرئ ، وحيثما كتب ، وحيثما نُقل ، لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله ، إذا قرأه القارئ فهو كلام الله ، وإذا سمعناه من قارئ نقول : هذا القارئ يقرأ كلام الله نسمع صوته وهو يتلو كلام الله ، ونقول كما يقول بعض العلماء : الصوت صوت القارئ ، والقول قول البارئ ، فالصوت الذي نسمعه صوت هذا الإنسان الذي قرأ ، ولكن القول الذي قاله والذي نطق به هو أصلاً كلام الله ، وهذا معنى قوله : إنه متى قرأه قارئ أو كتبه أو نسخه لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله .

ثم يقال : إن الكلام يضاف إلى من قاله مبتدئًا ، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ، فالذي ابتدأ هذا الكلام هو أحق بأن ينسب إليه . يقال : هذه الكلمة لفلان ولو تكلم بها الناس بعده وبلغوها ، ويقال : هذه القصيدة لفلان ، ولو قرأتها أنت

. . . .

وقرأها آخر يرويها عنه؛ وذلك لأنه هو الذي ابتدأ إنشاءها.

ويُقال مثلاً: هذا الكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً، لأنه هو الذي تكلم بهذه الكلمات وصفَّها هكذا، ولو قرأته أنت فقراءتك له لا يخرجه عن كونه كلام شيخ الإسلام وقراءتك لمتن الرحبية مثلاً لا يخرجه عن كونه من نظم الرحبيّ، فالكلام يضاف إلى من ابتدأه أول مرة لا إلى من قاله مبلغًا أو ناقلاً له.

فعرفنا بذلك أن القرآن هو عين كلام الله تعالى، حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، بل هذا اللفظ هو عين كلام الله كما يشاء الله تعالى.

إذا اعتقد المسلمون أن الله تعالى متكلم وأن الكلام صفة كمال واعتقدوا أن من كلامه هذا القرآن وكذلك سائر الكتب التي أنزلها، اعتقد أيضًا أن كلام الله كله هدىً، وكله شفاء، وكله نور، وكله حكمة وبيان، وأن كلام الله تعالى ليس له نهاية كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ومعنى ذلك: أن كلام الله تعالى لا يقوم له مداد، ولا يعدّه عادٌّ، ولا يحصيه أحد، وذلك لأن المخلوقات حادثة وفانية، وكلام الله تعالى ليس له نهاية، وكل ذلك يعطي المسلم عقيدة راسخة في قلبه بأن الله تعالى متصف بصفات الكمال، وأن ربه نزل على عباده الكتب التي هي كلامه، وضمنها

. . . .

أحكامه ، وأنه أقام عليهم الحجة وقطع عنهم المعذرة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فإذا آمن العبد بذلك وأيقن به ، واعتقد هذه العقيدة الراسخة ، حمله ذلك على أن يعبد هذا الرب حق عبادته ، وأن يخافه حق خوفه ، وأن يراقبه في سره وعلانيته ، وأن يعظمه حق التعظيم ، وكل ذلك من آثار هذه العقيدة السلفية .

* * *



وجوب الإيمان برؤية أهل الموقف ربهم ورؤيته بعد دخول الجنة

[وقد دخَلَ فيما ذكرناه من الإيمانِ به وبكتبهِ وبملائكتهِ وبرسُلهِ: الإيمانُ بأنَّ المؤمنين يروْنَه يوم القيامةِ عَيَانًا بأبصارِهم كما يروْنَ الشمسَ صَحْوًا ليس دونها سحابٌ، وكما يروْنَ القمَرَ ليلةَ البدرِ لا يُضامّون في رؤيتهِ.

يرونه سبحانَه وهم في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثم يروْنَه بعد دخولِ الجنةِ، كما يشاءُ اللهُ تعالى].



▪ قوله: (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عيانًا بأبصارهم...):

يجب على المسلم أن يعتقد ما أخبر الله به، وما أخبر به رسوله ﷺ من أمور الغيب، ومن أمور الدار الآخرة، ومما يكون بعد الموت وبعد البعث، وفي يوم القيامة سواءً أدرك ذلك بعقله أو لم يدركه.

ومن ذلك الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ويرونه في الجنة،



. . . .

يدخل هذا في الإيمان بالله ؛ لأنه من الإيمان بصفاته، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه يتعلق بما يحدث في يوم القيامة وما بعد يوم القيامة، ويدخل في الإيمان بكتب الله؛ لأنه مذكور في القرآن وفي الكتب السابقة، ويدخل في الإيمان بالرسل؛ لأنه مما بلغته رسل الله، وحقٌّ علينا أن نصدقهم فيما بلغوه.

نؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في عرصات القيامة كما يشاء، عندما ينزل الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، وأنه يخلو بعبده؛ يقول ﷺ : «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان**»[1] ويخبر ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته[2]؛ يعني لا يلحقهم ضيم في رؤيته.

أما في الدنيا فلا يقدر البشر على أن يرى ربه، ولا يتمكن من ذلك لعظمة الله تعالى، ولضعف خلقة الإنسان، فإن موسى عليه السلام طلب الرؤية من الله، فأخبره بأنه لا يقدر على ذلك، حكى الله عنه أنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩) في الرقاق، باب: «من نوقش الحساب عذب». ومسلم برقم (١٠١٦) [٦٧] في الزكاة، باب: «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٥٤) في مواقيت الصلاة، باب: «فضل صلاة العصر». ومسلم برقم (٦٣٣) في المساجد، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

. . . .

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ يعني لا تقدر على رؤيتي ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبره بأن الجبل ما صمد لرؤيته وهو جبل شامخ أصم عظيم، بل اندك لهيبة الله تعالى لما تجلى فكيف بالإنسان الضعيف؟

أما في يوم القيامة وفي الدار الآخرة فيقوي الله بنية هذا الإنسان، ويثبته فيزيده قوةً، فيثبت لرؤية الله تعالى ويتمكن من رؤيته كما يشاء.

فحينما يتجلى الله تعالى لعباده لفصل القضاء عندما ينزل يحاسبهم، فقيل: إنه يراه أهل الموقف كلهم مؤمنهم وكافرهم، وقيل: لا يراه إلا المؤمنون.

ولعل الصواب إنه في القيامة يراه كل الخلق وفي الجنة يحتجب عن الكفار ويراه المؤمنون لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني الكفار، وهذا دليل على أن المؤمنين غير محجوبين.

أما رؤيته في الموقف، فقد ثبت في الحديث[١] عن النبي ﷺ أنه يقال: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة، فيأتيهم ربهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها فيقول: أنا ربكم،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾». ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فيكشف عن ساق، فإذا رأوه عرفوه فخروا سجدًا إلا من كان منافقًا فلا يقدر على السجود.

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]، فأخبر بأنه عندما يتجلى الله لهم ويكشف عن ساق يسجد كل المؤمنون ويخرون لله سجدًا.

أما المنافقون وكذلك العصاة الذين لا يصلّون في الدنيا، فإنهم لا يقدرون على السجود، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه، وصارت ظهورهم كصياصي البقر، لا يتمكنون من السجود؛ لأنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود وهم سالمون فلا يجيبون؛ يدعون إلى السجود يعني إلى الصلاة، ويسمعون المنادي وهو يقول: «حي على الصلاة» التي فيها السجود ومع ذلك فلا يأتون وهم سالمون، فهنالك لا يستطيعون أن يسجدوا.

وهذا دليل على أن المؤمنين يسجدون إذا رأوا ربهم، وأن المنافقين والعصاة ونحوهم من الذين يتركون الصلاة في الدنيا لا يستطيعون السجود.

أما إذا دخل أهل الجنة الجنة، فإنهم يرون ربهم، فمنهم من يرى ربه بكرةً وعشيًا، ومنهم من يراه كلَّ أسبوع، فأعلاهم من ينظر إلى ربه بكرة وعشيًا، ولهذا ورد في الحديث: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها



. . . .

فافعلوا»[(١)] يعني على صلاة الفجر وصلاة العصر، إذا استطعتم ألا تغلبكم النفس على هاتين الصلاتين، فحافظوا عليهما، فإن فيهما وقت النظر إلى الله تعالى في الآخرة.

كذلك أيضًا وردت أحاديث في فضل يوم الجمعة وتسميته يوم المزيد[(٢)]، فيوم الجمعة كما له فضل عظيم في الدنيا فكذلك فضله في الآخرة عظيم، وهذا مع أنه ليس في الآخرة نهار ولا ليل، فيزور فيه المؤمنون ربهم، ويتجلى لهم، وإذا تجلى لهم نسوا ما كانوا فيه من النعيم فلا يلتفتون إلى شيء من نعيمهم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، وذلك غاية سرورهم وغاية بهجتهم، وكمال نعيمهم.

يرونه كمايشاء، فيؤمن المؤمنون بذلك لكثرة ماورد فيه من الأحاديث التي ليس لها مدفع، ويصدقون بأنهم يرونه كما يشاء، ولكن لا يخوضون في كيفية الرؤية، فتكون الرؤية إلى وجه ربهم كما يشاء لقوله في الحديث عن أبي موسى: **«جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا ص ٨٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢٧) من حديث أنس مرفوعًا. وعزاه للشافعي في الأم، وابن أبي شيبة والبزار وأبي يعلى، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وابن مردويه والآجري في الشريعة والبيهقي في الرؤية، وأبي نصر السجزي في الإبانة من طرق جيدة.

. . . .

عدن»[١] .

فأخبر بأنه متى كشف رداء الكبرياء عن وجهه نظروا إليه كما يشاء، فيقويهم ويزيدهم قوة يثبتون بها لرؤية الله تعالى .

فهذا ونحوه دليل على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة كما يشاء، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] يعني معاينة إلي ربها، فتلك الوجوه صارت بالنظر إلى الله مبتهجة مسرورة نضرة فرحة مستبشرة، وذلك تمام نعيمها .

ولهذا النعيم أسباب يحصل عليها المؤمن ما دام في الدنيا فمن ذلك :

محافظته على العبادات ومن أهمها الصلاة .

وكذلك المحافظة على هيئة العبادة، كهيئة الصلاة وجماعتها، والحفاظ عليها في المساجد ونحو ذلك .

وهكذا الحفاظ على تكميل الإيمان والبعد عن المعاصي التي تخل بالإيمان أو تنقص ثواب التوحيد، فإذا كان الإنسان كذلك، وآمن بالله وبما جاء عن الله، رجي بذلك أن يحصل له هذا الثواب .

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٠ .

الإيمان باليوم الآخر

١ ـ الإيمانُ بفتنةِ وعذابِ القبرِ:

[فصلٌ: ومن الإيمانِ باليومِ الآخرِ: الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعد الموتِ، فيؤمنون بفتنةِ القبرِ، وبعذابِ القبرِ ونعيمهِ.

فأمَّا الفتنةُ، فإن الناسَ يُفتنون في قبورِهم، فيقالُ للرجلِ: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟.

فيُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، فيقولُ المؤمنُ: اللهُ ربي، والإسلامُ ديني ومحمدٌ ﷺ نبيّي.

وأما المرتابُ؛ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه، فيُضْربُ بمرزبةٍ من حديدٍ، فيصيحُ صَيْحَةً يسمعُها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانُ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لصعِقَ.

ثم بعد هذه الفتنةِ إما نعيمٌ وإما عذابٌ، إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ].

. . . .

الشرح

▪ **قـوله: (فصل: ومن الإيمان باليـوم الآخر الإيمان بكل ما أخبـر به النبي ﷺ مما يكون بعـد الموت، فـيـؤمنون بفـتـنة القـبـر وعـذاب القـبـر ونعيمه...):**

من عقيدة المسلمين الإيمان باليوم الآخر، وهو ركن من أركان الإيمان. ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما بعد الموت، فيدخل في ذلك:

أولاً: كيفية قبض الأرواح، من نزول الملائكة، إما ملائكة العذاب أو ملائكة النعيم، ومن استخراجهم للروح، وكيفية قبضها كما هو مذكور في الأحاديث.

ثانيًا: عذاب القبر ونعيمه، وهو أن الميت يعذب في البرزخ أو ينعم، سواء قُبر أم لم يُقْبر، فإن كان من أهل الخير ناله النعيم والفرح والسرور، وإن كان من أهل الشر ناله العذاب والألم والحزن الشديد، ويبقى كذلك كل منهما في هذا البرزخ الذي هو بين الدنيا والآخرة.

ويؤمن المؤمنون بأن هذا البرزخ حاجز بين الدنيا والآخرة، وأن الإنسان بعد مفارقته للدنيا لا تنعدم روحه، أما بدنه فإنه ينعدم ويفنى؛ قد تأكله الأرض ويصير ترابًا ورفاتًا، وقد يحرق ويذرى ولا يبقى له بقية، ولكن روحه تبقى، وهي التي يكون عليها العذاب والنعيم، ويقدر الله أن يوصل إلى

. . . .

بدنه - ولو كان ترابًا - ما يتألم به أو ما يتنعم به .

ويقسم العلماء اتصال الروح بالبدن إلى خمسة أقسام :

الاتصال الأول : اتصال في الرحم ، فإذا كان الإنسان في الرحم فللروح به اتصال ولكنه ضعيف ، ولهذا يتحرك الجنين في بطن أمه .

والاتصال الثاني : في الدنيا ، وهو اتصال كامل مشاهد .

والاتصال الثالث : في النوم ، فإن النائم قد تفارقه روحه ، ولكن ليست مفارقة كلية .

والاتصال الرابع : في البرزخ أي بعد الموت ، وهو نوع اتصال وإن كان غير مشاهد .

والاتصال الخامس : بعد البعث يعني في الآخرة ، وهو أكملها وأقواها ، وهو الذي لا يحصل بعده انفصال .

والأحكام في الدنيا تكون على الأبدان ، ولكن الأرواح تابعة لها ، والأحكام في البرزخ على الأرواح أصلاً ، ولكن الأبدان تابعة لها ، وأما الأحكام في الآخرة فإنها على الروح والبدن كليهما لكونهما قد اجتمعا اجتماعًا كليًا . فإذا مات الإنسان وخرجت روحه ، بقيت إما معذبة وإما منعمة كما يشاء الله ، إما في روضة من رياض الجنة ، وإما في حفرة من حفر النار إلى أن يأذن الله بالبعث ؛ والنشور - أي القيامة الكبرى - .

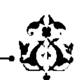
. . . .

أما عذاب القبر ونعيمه فقد ورد مفصلاً في حديث البراء بن عازب الطويل الذي يقول فيه النبي ﷺ : «**إن العبد إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، معهم أكفان من الجنة، وحنوط من الجنة، ويجلسون منه مدَّ البصر، ويأتيه ملك الموت، فيقف عند رأسه ويقول: أيتها الروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي إلى روح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتُسَلُّ روحه من جسده كما تُسل الشعرة من العجين، فإذا أخذها لم تدعها الملائكة في يده طرفه عين، حتى يجعلوها في ذلك الحنوط وتلك الأكفان، ثم يصعدون بها إلى السماء، كلما مروا بملأ من الملائكة قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فيخرج منها كأطيب ريح وجدت على وجه الأرض، فإذا وصلوا بها إلى السماء واستفتحوا**». فذكر أنه تفتح لها أبواب السماء وأن الله تعالى يقول: «**ردوا روح عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى**». ثم ذكر سؤال الملكين له في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ فيقولان له: صدقت، فيفرشان له من الجنة، ويوسع له في قبره مد البصر، ويفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وريحانها، فيقول: ربِّ أقم الساعة، رب أقم الساعة». فهو يتمنى أن تقام الساعة ليفوز بالمنازل المعدة له ويتمتع بذلك النعيم المقيم. هذه حال أهل السعادة

. . . .

عند الاحتضار.

ثم ذكر ضد ذلك فقال: «وإن العبد الكافر أو الفاجر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت عليه ملائكة سود الوجوه، معهم أكفان من النار، وحنوط من النار، فيجلسون منه مدَّ البصر، فيأتيه ملك الموت ويقول: اخرجي أيتها الروح الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، فتتفرق روحه في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفّود من الصوف المبلول، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتي يجعلوها في تلك الأكفان وذلك الحنوط من النار، ويخرج منها كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض.. فيصعدون بها إلى السماء، كلما مروا على ملائكة قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان؛ بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فإذا وصلوا إلى السماء لم تفتح لها، يقول الله تعالى: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فتطرح روحه طرحًا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ ومادينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقال: لا دريت ولا تليت، فيُضرب بمرزبة من حديد، وذكروا ثقلها وعظمها، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف



. . . .

أضلاعه، ويفتح له بابٌ إلى النار، ويأتيه من حرها وسمومها ويقول: رب لا تقم الساعة»[1]. فهذا هو أول منازل الآخرة.

فيؤمن المؤمنون بعذاب القبر ونعيمه، وأن القبر: إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وبأن عذاب القبر أو نعيمه حاصل ولابد لكل إنسان، وبأنه سيناله ذلك، ولو لم يقبر، ولو حرق، ولو أكلته السباع أو الطيور، فإنه لابد أن يناله ذلك الألم أو ذلك النعيم؛ لأن حكم الآخرة غير حكم الدنيا، فالإنسان مركب من جسد وروح، وهذه الروح بعد الموت عندما تخرج من الجسد، تبقى إما معذبة وإما منعمة، فأما الجسد فإنه كما هو مشاهد يفنى ويصير ترابًا، ولكن لا يعجز الله شيء.

فالله تعالى قادر على أن يوصل إليه العذاب، حتى ولو كان ترابًا، أو كان رفاتًا، فليس هناك شيء يصعب على الرب: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٩] فهو عالم بأجزاء الإنسان وبتراكيبه، وقد أخبر بأنه لابد سيجمع العباد بعد تفرق أشلائهم وأجزائهم، وسيعيدهم ويحييهم مرة أخرى للجزاء على أعمالهم التي عملوها وقدموها في الدنيا، وأخبر بأن هذه الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الناس يعملون ويزرعون ويكتسبون لآخرتهم، ويتقربون إلى الله، فمنهم من هو في كل يوم يتقرب بالحسنات،

---

(١) حديث البراء بن عازب الطويل أخرجه أبو داود رقم (٤٧٥٣) كتاب السنة، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦)، والطيالسي في المسند رقم (٧٥٣)، وهو حديث صحيح: صححه غير واحد من الأئمة كالذهبي وأبي نعيم وابن القيم وغيرهم.

....

ومنهم من يتقرب بالسيئات وبالأعمال الخبيثة التي تبعده عن الله ويكتب له بها شقاوته ، فإذا انتقلوا من هذه الحياة لقوا جزاءهم ، إما جزاء حسنًا جزاء ما عملوا من الحسنات ، وإما عقوبات وعذابًا جزاء ما عملوا من السيئات ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، فليس الله تعالى يظلمهم ، إنما هذا جزاء أعمالهم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨].

كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم ومن السلف إذا كانوا عند القبور بكوا وقالوا : إن القبر أول منازل الآخرة[1] ؛ أي : به يعرف الميت حالته ، إن كان من أهل الخير وإن كان من أهل الشر ، إن كان من الذين يفتنون فيثبتون أو لا يثبتون، وقد قال العلماء : إن هذه الآية التي في سورة إبراهيم نزلت في عذاب القبر ، وهي قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

فإن المراد : يثبتهم في حال البرزخ ، والبرزخ هو : هذه المدة التي بين الدنيا والآخرة ، التي هي كفاصل وحاجز بين الدارين ، فيكون فيها العباد وقتًا

(١) ومن هؤلاء عثمان ذو النورين رضي الله عنه ، فقد روى هانئ مولاه قال : كان عثمان إذا وقف على قبر بكي حتى يبلّ لحيته . فقيل له : تُذكر الجنةُ والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منها » .
أخرجه الترمذي رقم (٢٣٠٨) في الزهد ، وابن ماجه رقم (٤٢٦٧) في الزهد. وحسنه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (١٦٨٤).

. . . .

محدودًا، ثم بعدما يتكامل الأمر الذي قدره الله، وتنتقل الحياة، وينتهي خلق ما قدر الله أنه سيخلق، بعد ذلك ينفخ بأمر الله تعالى في الصور ثلاث نفخات.

النفخة الأولى التي هي للفزع، وهي المذكورة في قوله: ﴿ويوم يُنفخُ في الصُّور ففزِع من في السموات ومن في الأرض﴾ [النمل: ٨٧] والفزع هو الوجل والخوف، وذلك أنهم إذا سمعوا تلك النفخة؛ فزعوا وماج بعضهم في بعض خوفًا وفزعًا من تلك النفخة.

ثم تعقبها نفخة أخرى وهي نفخة الصعق أو الموت المذكورة في قوله: ﴿ونُفخ في الصُّور فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ [الزمر: ٦٨] أي ماتوا.

ثم بعد ما يصعقون وتمضي عليهم مدة، قيل: أربعون سنة أو نحوها، تكون النفخة الأخيرة، فيأمر الله تعالى الملك أن ينفخ في الصور نفخة البعث والقيام المذكورة في قوله: ﴿ثُمَّ نُفخ فيه أُخرى فإذا هُم قيامٌ ينظُرُون﴾ يعني فإذا الخلق كلهم أولهم وآخرهم قد بُعثوا وجمعوا ﴿قُل إنَّ الأوَّلين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلىٰ ميقات يوم معلُوم﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] فالمؤمن يصدق بذلك كله على تفصيله.

وقد فصلت الشريعة أمور الآخرة، وكذلك وردت في القرآن كثير من تفاصيل أمور الآخرة التي لم تكن موجودة في الكتب الأخرى، وذلك دليل

. . . .

على أهمية الإيمان باليوم الآخر وعظيم شأنه .

والعبد متى آمن بهذا استعد له ، فمتى صدقت بأن هذا القبر إما نعيم وإما جحيم ، حملك ذلك على أن تتأهب بالأعمال الصالحة وبالعقيدة السليمة ، حتى تنجو من العذاب ، وحتى تسلم منه ، وحتى تظفر بالنعيم الذي هو مقدمة بين يدي نعيم الآخرة .

* * *

٢ ـ الإيمانُ بالقيامةِ الكبرى وما يجري فيها :

[وتَقومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ اللهُ بها في كِتابِهِ، وعلى لِسانِ رسولِهِ، وأَجْمَعَ عليها المُسْلِمُونَ.

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمينَ حُفَاةً عراةً غُرْلاً، وتَدْنو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ.

فتُنْصَبُ المَوَازِيْنُ، فتُوزَنُ بها أَعْمالُ العِبادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]].

وتُنْشَرُ الدَّوَاوِيْنُ، وهِيَ صَحائِفُ الأعْمَالِ، فآخِذٌ كِتَابَهُ بيَمينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بشِمالِهِ أَوْ مِنْ وَراءِ ظهْرِهِ؛ كَما قالَ سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].



■ قوله: (وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون...)

ذكرنا أن من أمور الآخرة أن الله يأمر أن ينفخ في الصور ثلاث نفخات: وقد ذكر الله النفخ في الصور في القرآن في عدة مواضع.



. . . .

والصـــور: قيل إنه قرن كبير ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعـالى ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث أو القيام.

ومن العلماء من يقول: إن نفخة الفزع تطول حتى يكون في آخرها الموت، فهي نفخة واحدة أولها فزع وآخرها صعق. ثم نفخة البعث وهي التي تحيا بها الأبدان.

وورد في بعض الآثار أن الله تعالى ينزل من السماء مطرًا كمني الرجال، وأنه مطر غليظ تنبت به الأجسام، فإذا نبتت الأجسام وجمعها الله وتكاملت؛ أذن الله في النفخ في الصور، فتأتي كل روح إلى بدنها ويحيا بإذن الله، وليس في ذلك عجب، فالله تعالى على كل شيء قدير.

وقد حكى الله قصة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ حتى تفرقت أشلاؤه وبليت عظامه، وكان معه حماره وقد مات وبلي وتفرق، ثم بعثه الله وقال له: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فنظر إلى العظام وهي متفرقة متباعدة، ثم بعد ذلك أمرها الله فتجمعت، ثم أمرها فنبت عليها اللحم ثم نفخ فيها الروح، فقام الحمار ينهق بإذن الله، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فإذا أذن الله بجمع الأجساد، وبالنفخ في الصور، وبدخول الأرواح في أجسادها، حينئذ قام الناس من قبورهم، وخرجوا ينفضون التراب والغبار

....

عن رؤوسهم ، وساروا إلى الموقف ، وقامت القيامة التي سماها الله بعدة أسماء : سماها بالطامة الكبرى ، وسماها بالصاخة ، وسماها القارعة والحاقة وما أشبهها ، وذلك لأهميتها وثبوتها ولابد ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ؛ فيحشر الناس إلى الموقف حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا ، يحشرون كما خلقوا ، أي : على الخلقة التي خرجوا إلى الدنيا بها ، « حفاة » : غير منتعلين ، « عراة » من الثياب غير مكتسين . « غرلًا »[1] : أي : غير مختونين . وفي رواية: « بهمًا »[2] ، بمعنى : أنهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن .

فكأنهم بمنزلة من لا يستطيع أن يتكلم ، ولهذا قال : ﴿ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨] ، والهمس : هو صوت وطء الأقدام . وقيل : الكلام الخفي ، فيحشرون على خلقتهم الأولى لم ينقص منهم شيء ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ

---

(١) لحديث ابن عباس رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة ، عراة ، غرلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ، وإن أول من يكسي إبراهيم » . أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٩) ، في الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ، ومسلم برقم (٢٨٦٠) ، في الجنة ، باب : فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة .

(٢) لحديث عبد الله بن أنس عن النبي ﷺ قال : « يحشر الله الخلائق يوم القيامة حفاة عراة بهمًا... » الحديث . أخرجه البخاري في الأدب برقم (٩٧٠) ، وفي التاريخ الكبير (٧/ ١٦٩) ، وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٥) ، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (١٣١، ٦٠٠) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٧، ٤٣٨) و (٤/ ٥٧٤، ٥٧٥) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٥) ، وصححه الألباني في تخريج السنة ، وهو في صحيح الأدب المفرد برقم (٧٥٥) ، وقال : حسن .

. . . .

تَعُودُونَ﴾.

ثم يتوجهون إلى المحشر، وبعد ذلك يأذن الله تعالى في جمعهم، ويطول الموقف، وتدنو الشمس منهم، ويُزاد في حرها، ويلجمهم العرق لشدة الموقف، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ إلى حقويه، ومنهم من يبلغ إلى ثدييه، ومنهم من يبلغ إلى منكبيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، أي يصل إلى فمه، ذلك كله بقدر أعمالهم، وبقدر ذنوبهم.

وذكر الله تعالى أنه يوم طويل فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] في هذه الآية ذكر أنه كألف سنة؛ أي طوله، وفي آية أخرى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ولعل طوله أو قصره بالنسبة إلى تفاوت الناس، فمنهم من يطول عليه كثيرًا، ومنهم من يطول عليه وسطًا، ومنهم من يخف عليه، حتى قيل: إنه على المسلم كصلاة مكتوبة، أي لا يشعر بطوله.

▪ قوله: (**فتنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾ وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال...**):

وفي ذلك اليوم عندما ينزل الله تعالى لفصل القضاء يحكم بين عباده.

فأولاً: تنصب الموازين القسط التي ذكرها الله تعالى في عدة آيات. قال الله

. . . .

تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأي شيء مثل الخردل!، فلا يظلم الله تعالى أحدًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]، وهذا دليل على أنه توزن الأعمال وزنًا حقيقيًا، خلافًا لكثير من المبتدعة الذين قالوا: الميزان هو العدل، ولكن الجمهور على أن هناك ميزانًا حقيقيًا له كفتان ذكره النبي ﷺ في عدة أحاديث.

قيل: إن الذي يوزن هو الإنسان نفسه، فيوضع في الميزان، فتارة يخف وتارة يثقل. قال تعالى: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وورد في الحديث: «**إنه ليؤتى بالرجل السمين الأكول الشروب، لا يزن عند الله جناح بعوضة**» ثم قرأ هذه الآية[١]. ويقول ﷺ في ابن مسعود، لما تعجبوا من دقة ساقيه: «**إنهما في الميزان أثقل من جبل أحد**»[٢] فدل على أن الإنسان يرجح إذا كان رجلاً صالحًا، ويخف إذا كان فاسقًا كافرًا.

وقيل: توزن صحف الأعمال التي كتبت فيها فتخف إذا كانت أعمالاً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٩) في التفسير [سورة الكهف]، باب: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ..﴾ ومسلم برقم (٢٧٨٥) في صفات المنافقين عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١). قال أحمد شاكر (٣٩٩١): إسناده صحيح.

. . . .

سيئة، وتثقل إذا كانت أعمالاً صالحة، ودليل ذلك حديث البطاقة، ذكر النبي ﷺ : أن رجلاً ينشر له تسعة وتسعون سجلاً فيها سيئاته، وأنه يخرج له بطاقة فيها الشهادتان، ولكنها شهادة صادقة صادرة من القلب ختم بها حياته، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[1] . فهذا دليل على أن الصحف توزن، وأن ثقلها وخفتها بحسب صلاح قلب العامل وصدقه فيها أو عدم ذلك.

وهناك من يقول: إن الأعمال تجسد فتكون أجسادًا والله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجسادًا، فيجعل الصلاة شيئًا محسوسًا، ولو كانت عرضًا، وكذلك الكلام ولو كان عرضًا وليس له جرم، ولكن يجسده الله ويجعل له جُرمًا يخف ويثقل.

يقول النبي ﷺ في الحديث: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض»[2]. فدلَّ على أن هذه الكلمة يكون لها جرم توزن، وكذلك قوله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله

---

(١) حديث البطاقة أخرجه الترمذي برقم (٢٦٣٩) في الإيمان. وابن ماجه برقم (٤٣٠٠) في الزهد. وأحمد في المسند (٢/ ٢١٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٩). وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (١٧٧٦) وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٣٥). وقال أحمد شاكر (١٩٩٤): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣) في الطهارة.



. . . .

العظيم»[1]. فجعلها تثقل في الميزان، فتوزن ويكون لها جرم، فيقلبها الله أجسامًا وإن كانت أعراضًا.

ولا شك أن معرفة هذه الأشياء والإيمان بها له تأثير على العبد، فإذا صدقت بأن هناك وزن، حملك على أن تستعد لذلك؛ لأن الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (١٠٢) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وفي آية أخرى: ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٩]، وفي آية أخرى: ﴿فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية﴾ [القارعة: ٦-٩].

وهذا كله دليل على أن هناك وزنًا حقيقيًا؛ فالمسلم الذي يؤمن بذلك يستكثر من الأعمال الصالحة التي يثقل بها ميزانه، وإذا استكثر منها حرص على أن تكون أعماله صالحة صادقة، صادرة من صميم قلبه، فإن ثقل الأعمال وخفتها يختلف بحسب إخلاص العامل وإخلاص نيته.

ثانيًا: تنشر الدواوين؛ وهي صحائف الأعمال التي كتبت فيها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وكل ذلك مما فصّله الله

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٨٢) في الأيمان والنذور، باب: «إذا قال: والله لا أتكلم اليوم...». ومسلم برقم (٢٦٩٤) في الذكر والدعاء، باب: «فضل التهليل والتسبيح والدعاء». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

تعالى في القرآن. قيل: إن هذا الكتاب بطاقة فيها بشارة للإنسان بأنه سعيد؛ بطاقة مكتوب فيها: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية. وأنه يستبشر ويفرح، وكل من لقيه يقول: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩]، فإن فيه ما يسُر وفيه ما يفرح.

وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره فإنه ـ كما ذكر الله ـ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١١، ١٢]، ويقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ㉕ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، إلى آخر ما ذكر الله تعالى في كتابه، فهذه أدلة واضحة من القرآن.

وقيل: إن المراد بالكتاب هنا هو الكتاب الذي سجلت فيه الأعمال كلها، وصحائف الأعمال كلها. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⑬ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فدل على أنه يُؤتى الكتاب الذي احتوى على أعماله كلها، دقيقها وجليلها، فيقرأه ويتفقده ولا يفقد منه شيئًا.

كما أخبر الله عن المجرمين إنهم يقولون: ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩] هذا ونحوه يرجِّحُ أن الكتاب الذي يُؤتاه هو كتاب صحف الأعمال، وأنه يجد فيها دقيقها وجليلها، قولها وفعلها.

فإذا آمن الإنسان أن أعماله مكتوبة ومحصاة عليه، وأنه سيعرض عليه

. . . .

كتابه وأنه لا يقدر على أن ينكر شيئًا، وأنه إن أنكر؛ شهدت عليه الملائكة الكرام الكاتبون الحافظون، وكذلك أيضًا شهدت عليه جوارحه. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]، فتشهد عليهم هذه الجوارح بما كانوا يعملون: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. فإذا آمن الإنسان بذلك كله، فإنه يستعد لذلك اليوم، فيعمل الأعمال التي تكون زادًا منجيًا من هول هذا اليوم.

* * *

٣ ـ الإيمان بالحساب :

[ويُحاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيخْلُو بعَبْدِهِ المُؤمنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذلكَ في الكِتَابِ والسُّنَةِ.

وأمَّا الكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ منْ تُوزَنُ حَسنَاتُهُ وسَيِّئـاتُهُ؛ فإنَّهُ لا حَسَنات لهُمْ، ولكِنْ تُعَدُّ أَعمالُهُم، فَتُحْصى، فَيُوقَفُونَ عليها، ويُقرَّرُونَ بِها ويُخْزَوْن بها].



▪ قوله: (ويحاسب الله الخلائق، يخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه؛ كما وصف ذلك في الكتاب والسنة) :

من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر به، ومما أخبر به: الإيمان باليوم الآخر. يوم القيامة، وهو يوم الجزاء والحساب، فنؤمن بالحساب والجزاء.

وقد ذكر الله أنه سريع الحساب، أي يحاسب خلقه في أقل القليل، ويقدر أن يحاسبهم جميعًا في موقف واحد ولا يشغله شأن عن شأن.

الحساب هو إما أن يوقف الإنسان على أعماله، ويقال له: حاسب نفسك كما في قول الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ كتَابَكَ كَفَىٰ بنَفْسكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]، وهو أنه يعطى كتابه وفيه حسناته وسيئاته، ومقدار كل منهما وجزاؤها ويقال: ﴿ كفىٰ بنفسك الْيَوْمَ عَلَيْكَ حسيبًا ﴾ هذا نوع من الحساب.

. . . .

ولكن الحساب أيضًا يكون بأن يوقف عليها، ويُسأل عن عذره فيها، ونحو ذلك. وقد ورد في الحديث قول النبي ﷺ : **«من نوقش الحساب عذب»** قالت عائشة: أليس الله يقول: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾؟ قال: **«إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عذب»**[1] .

ومعنى مناقشة الحساب: يُسأل عن كل تقصير، ويسأل عن كل سيئة، ويقال: له: ما عذرك في هذا التقصير؟، قد قصرت في هذا العمل، قد تركت هذا العمل، قد اقترفت الذنب الفلاني فما عذرك فيه؟ وما عذرك في ترك شكر النعمة؟ وما عذرك في كفر نعم الله التي منها كذا وكذا؟ وماذا أديت من الحقوق الواجبة عليك؟

فإن العبد لو حوسب حسابًا دقيقًا، لفنيت حسناته مقابل نعم الله عليه، وبقي عليه ذنوب وسيئات لا يجد لها مقابلاً، فيكون مستحقًا للعذاب. هذا معنى قوله: **«من نوقش الحساب عُذب»** فهذا حساب المناقشة، أما حساب العرض الذي في قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] فهو: أن تعرض عليه أعماله مجرد عرض ويقال: هذه حسناتك قد ضوعفت إلى كذا وكذا، وهذه سيئاتك، وهذه نعم الله عليك، وهذا ما قمت به من حقوقه، وهذا ما أديته من شكر الله على نعمه وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٣٩) في التفسير و باب: «﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾». ومسلم برقم (٢٨٧٦) في الجنة، باب: «إثبات الحساب» عن عائشة رضي الله عنها.

. . . .

ففي هذه الحال إذا عرضت عليه ولم يسأل لماذا فعلت؟ ولماذا زدت؟ ولماذا نقصت؟ كان هذا هو حساب العرض؛ أن تعرض عليه أعماله ثم يعفا عنه، فهذا هو الحساب اليسير.

حساب الله تعالى على الأعمال هو: أن تقابل السيئات بالحسنات، وتقابل الحسنات بالنعم، فإن الإنسان عليه حقوق لله تعالي في مقابل النعم. وبعض الناس يستكثر أعماله فيقول: عملت أعمالاً كثيرة من صلوات وصدقات وأذكار وقراءة قرآن وجهاد وحج وعمرة وصوم وطواف، ولم أقترف سيئات أبدًا.

فيُقال: من نوقش الحساب عذب؛ وذلك لأن عليك حقوقًا لله تعالي مقابل نعمه عليك، فلو لم يحاسبك إلا على ما أعطاك ويسَّر لك، لكان حقه عليك أكبر، وورد في بعض الأحاديث أن الله يقول لعبده: **«ألم نصحَ جسمك، ونُرْويك من الماء البارد»**[1] فهذه نعمة عامة، صحة الجسم للخلق كلهم.

وكذلك إتمام الخَلْق، بحيث إن الإنسان كاملة أعضاؤه وحواسه ومنافعه، فلم يفقد حاسة يحس بفقدها، ولم يفقد عضوًا يختل به توازنه، بل أعضاؤه متكاملة ،وذلك من أكبر نعم الله عليه؛ أعني الأغلب من الناس، فيحاسبه الله على هذه الأعمال، ولو أخذ حق هذه النعم لفنيت حسناته، كما ورد أنه يؤتى

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٨) في التفسير. وقال: حديث غريب.

. . . .

برجل وله أعمال صالحة كأمثال الجبال، فيقول الله لملائكته: أدخلوه الجنة برحمتي، فيقول: لا ياربي، بل بأعمالي، هذه الأعمال الكثيرة، فيقول الله لنعمة السمع مثلاً: خذي حقك ـ يعني من أعماله ـ، وكذا نعمة البصر، وكذا نعمة الصحة وما أشبه ذلك.

نعمة واحدة إذا أخذت حقها منه؛ فإنها لا تترك له شيئًا. فيقول تعالى: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فيقول: لا يا ربي، أدخلني الجنة برحمتك.

وورد ذلك أيضًا في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1].

أعمالنا مهما كثرت لا تبلغ أن نستحق بها الجنة وإن كانت سببًا، ولكن الله تعالى يتفضل على عباده، فيدخلهم الجنة بواسع رحمته، فإن الله جعل الرحمة مائة جزء، منها جزء واحد يتراحم العباد به في الدنيا فيما بينهم، وكذلك الدواب، وبقية الأجزاء يجمعها يوم القيامة ويرحم بها عباده ويتفضل عليهم، بحيث إنه يتفضل عليهم ويعطيهم واسع الرحمة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٦٣) في الرقاق، باب: «القصد والمداومة على العمل». ومسلم برقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين، باب: «لن يدخل أحد الجنة بعمله». عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٦٤٦٤) في الرقاق، ومسلم برقم (٢٨١٨). عن عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه مسلم برقم (٢٨١٧) عن جابر رضي الله عنه.

. . . .

ولكن للرحمة أسبابًا أي للحصول على الرحمة منها: تقوى الله، فإن الله إنما جعلها لأهلها المستحقين. قال تعالى: ﴿ورحْمَتِي وسِعَتْ كُلَّ شيْءٍ فَسأَكْتُبُها للَّذين يَتَّقُونَ ويُؤْتُون الزَّكَاةَ...﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلخ الآية، فجعل الرحمة لمن يستحقها مع أنه كتبها على نفسه.

فالحاصل أن الحساب على الأعمال بأن يقرر بأعماله من سيئات وحسنات، ويُقابل بينها ولا يشدد عليه في المناقشة عن كل تقصير، ولا عن كل سيئة ،ونحو ذلك. هذا بالنسبة لمن لهم حسنات وسيئات.

▪ **قوله: (وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم...):**

الكفار أعمالهم كلها سيئة، فلا حسنات لهم، ولو وجد منهم حسنات في الدنيا؛ فإنهم قد جوزوا بها في الدنيا.

فإذا كان لهم صدقات أو تبرعات أو أعمال خيرية عملوها، أو أعمال حث عليها الإسلام ورغَّب فيها؛ مثل كونهم يستعملون الصدق والوفاء، ويعملون بالأمانة فيؤدونها ويراعون الحقوق، فمثل هذه الأعمال يجازون بها في الدنيا، أو قد يكونون قاصدين باستعمال هذه الصفات الحسنة مصلحة دنيوية؛ فيجازون بها في الدنيا لقوله تعالى: ﴿ويوْمَ يُعْرَضُ الَّذين كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا واسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فطيباتهم: يعني أعمالهم الصالحة قد استوفوها في الدنيا إذا كانوا قد

. . . .

تصدقوا بصدقات لوجه الله، أو ذكروا الله أو عملوا خيرًا، فكل ذلك لن يفيدهم، بل يجازون به في الدنيا، أو تذهب منفعتهم به ولا يبقى لهم عمل، بل يُبطله الكفر؛ وذلك لأن الكفر يحبط الأعمال ويبطل ثوابها.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. ماذا تبقي الريح العاصف الشديدة من ذلك الرماد؟ لاشك أنها تحمله كله.

وآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصفوان هو: الصفاة الملساء ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤] يعني مطر شديد، فماذا يبقي المطر الشديد من ذلك التراب الذي على هذه الصفاة؟ لا يبقي شيئًا، فكذلك أعمال الكفار لا يبقى منها شيء، تبطل أعمالهم ويذهب أجرها.

فالحاصل أن الكفار لا حسنات لهم، فإنهم يوقفون على أعمالهم يقال: هذه أعمالكم، هذا شرككم، وهذا كفركم، وهذا جحودكم، وهذه معاصيكم التي عملتموها قد كتبت عليكم وقررت، هل تنكرون شيئًا منها؟ قد ينكرون، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤]، ولكن لا يقدرون على الكذب بعد ذلك؛ لأنه تشهد عليهم جوارحهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] تنطق وتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فلا يقدرون على الجحود.

. . . .

وأيضًا فإن أعمالهم قد كتبتها الملائكة، فلابد أنهم يوقفون عليها فيقال لهم: هل تنكرون منها شيئًا؟ فإن أنكروه شهدت عليهم جوارحهم وكذلك شهدت عليهم الملائكة. عند ذلك يعترفون ويقرون، ولا يدخلون النار إلا بعد الاعتراف بأنهم مستحقون للعذاب، وبأنهم مستحقون للنار، فيقال بعد أن يعترفوا: هذا جزاؤكم وهذا مصيركم النار وبئس المصير.

الحاصل أن الحساب في الآخرة الذي يؤمن به أهل السنة هو: حساب الله لعباده المؤمنين، بأن يحاسبهم ويعرض عليهم أعمالهم، ويقررهم بها ويجازيهم عليها، وينقص من الحسنات بقدر السيئات، إذا كان للعبد حسنات كثيرة وسيئات كثيرة، أخذ من الحسنات مقابل السيئات، وما بقي له من الحسنات جوزي عليها.

ومن المعلوم أن الله سبقت رحمته غضبه، ومن ذلك المضاعفة، فقد ذكر الله أن الحسنات تُضاعف ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠] فويلٌ لمن غلبت آحاده عشراته، فإذا كانت سيئاته التي هي واحدة وواحدة وواحدة قد غلبت حسناته التي هي عشر وعشر وزادت عليها فهو من أهل الشقاء.

وفائدة العلم بذلك؛ أن يتأهب الإنسان ليوم الحساب ويستعد له ويعمل الأعمال التي تكثر بها حسناته وتقل بها سيئاته، ويعرف حقوق الله عليه، ويحرص على أداء حقوقه لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين.

. . . .

ويؤمن المؤمنون أيضًا بما يكون في القيامة، فقد ذكر في الأحاديث طول القيام في يوم القيامة، وذكر الحساب، وذكر الميزان والصراط والحوض، وذكر مع طول القيام دنو الشمس وشدة حرارتها، وكثرة الحر، وإلجام العرق لبعض الناس، وذكر الشفاعة وغير ذلك.

فهذا مما يكون في يوم القيامة في الموقف قبل دخول الجنة والنار.

* * *



٤ ـ الإيمان بالحوض وبيان صفته:

[وفي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرُودُ للنَّبيِّ ﷺ، ماؤهُ أَشَدُّ بَياضاً مِنَ اللَّبَنِ، وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نجومِ السَّماءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لا يَظْمَأُ بَعْدَها أَبَداً][1].



▪ قوله: (وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ...):

الحوض: هو حوض يرده المؤمنون من أمة محمد ﷺ، وورد أيضًا: أن لكل نبي حوضًا[2]، ولكن حوض نبينا أكثر واردًا؛ لأن أمته الذين اتبعوه أكثر من غيرهم، فيرده من أمته المتمسكون والمتبعون له حق الاتباع، ويُطرد ويذاد عنه الذين لم يتبعوه غاية الاتباع، ولم يتمسكوا بسنته من مبتدعة ومشركة ونحوهم، ممن لم يحقق اتباع سنته، وممن أشرك بالله ونحوهم.

ويعرفهم ﷺ بعلامة الوضوء، لكونهم يأتون غرًا محجلين، بيض

(١) ورد ما ذكره المؤلف رحمه الله في وصف الحوض في عدة أحاديث. انظر: البخاري رقم (٦٥٧٩، ٦٥٨٠، ٦٥٨٣) في الرقاق، باب: «في الحوض». ومسلم برقم (٢٢٩٢، ٢٣٠٠) في الفضائل، باب: «إثبات الحوض».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٤٣) في صفة القيامة. وابن أبي عاصم في السنة رقم (٧٣٤) وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث «السنة» وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١٥٨٩).

. . . .

الوجوه وبيض الأيدي والأرجل من آثار الوضوء[١].

فهذا الحوض ورد فيه أحاديث كثيرة في صفته. وقيل: إنه الكوثر المذكور في القرآن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وإن كان الصحيح أن الكوثر نهر في الجنة أعطاه الله إياه. قيل: إن هذا الحوض يصبُّ فيه ميزابان من الكوثر[٢].

ووصف ماؤه بأنه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأن كيزانه وآنيته عدد نجوم السماء، وأن من شرب منه شربة لم يظمأ حتى يدخل الجنة، وأنه إنما يرده المتبعون للنبي ﷺ، وأنه يذاد عنه الذين ارتدوا أو خالفوا ويقال له: إنهم قد ارتدوا، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين

---

(١) كما في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» أخرجه البخاري برقم (١٣٦) في الوضوء، باب: «فضل الوضوء». ومسلم برقم (٢٤٦) [٣٥] في الطهارة، باب: «استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء».

(٢) لحديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها. ألا في الليلة المظلمة المُصْحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه. يَشْخُبُ فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمَّان إلى أيْلة، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل». أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٠) في الفضائل، باب: «إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته».

وفي حديث آخر عن ثوبان «يغتُّ فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق». أخرجه مسلم برقم (٢٣٠١). وقوله: يشخب: أي: يسيل. وقوله: يَغُتُّ: أي: يصبُّ.

. . . .

على أدبارهم منذ فارقتهم[١] . ويقول ﷺ في الحديث: «**إنه تأتي فرقة من أمتي، فإذا قربوا من الحوض أُحيل بيني وبينهم، ثم تأتي فرقة ثانية فإذا قربوا صُرفوا، فلا أراه يخلص إليَّ إلا كهمل النعم**»[٢] يعني من كثرة المنحرفين وكثرة المبتدعين.

فالذي يؤمن باليوم الآخر يؤمن بهذا، وذلك لأن الناس يشتد ظمؤهم في يوم القيامة لطول الموقف، ولكن جعل الله للمؤمنين هذا الحوض ليخفف عنهم ذلك الظمأ فيؤمن المسلمون والمؤمنون باليوم الآخر وبما فيه من التفاصيل، ويعتقدون أنها ثابتة حقيقية، وأنها على ما تواترت بها الأحاديث وثبتت به السنة، وهي من الأمور الغيبية التي يؤمنون بها، فتدخل في قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة: ٣] يعني بما أخبروا عنه مما غاب عن أعينهم.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٨٤، ٦٥٨٥، ٦٥٨٦، ٦٥٨٧، ٦٥٧٩، ٦٥٨٠، ٦٥٩٣) في الرقاق. ومسلم برقم (٢٢٩٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٥) في الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٨٧) في الرقاق، باب: في الحوض». عن أبي هريرة رضي الله عنه.



٥ ـ الإيمان بالصراط وصفته ومكانه:

[والصِّراطُ مَنْصُوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وهُو الجِسْرُ الَّذي بينَ الجَنَّةِ والنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أَعْمالِهِمْ، فمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، ومنهُم مَنْ يَمُرُّ كالبَرْقِ، ومنهُم مَنْ يَمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهُم مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوادِ، ومِنْهُم مَنْ يمرُّ كركَابِ الإِبِلِ، ومنهُم مَنْ يَعْدو عَدْواً، ومنهُم مَنْ يَمْشي مَشْيًا، ومنهُم مَنْ يزْحَفُ زَحْفًا، ومنهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا ويُلْقى في جَهَنَّمَ؛ فإِنَّ الجِسْرَ عليه كَلاليبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بأَعْمالِهِم][1] .



▪ قوله: (والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم...):

من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما بعد البعث، ومن جملة ما بعد البعث: الصراط ، وقد ورد ذكره في السنة وإن لم يصرح به في القرآن، قال بعضهم: إنه مذكور في القرآن بلفظ غير صريح وهو الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] قيل: إن ورود الناس كلهم يتمثل في

---

(١) أخرج الحديث في ذلك: البخاري برقم (٧٤٣٩) في التوحيد، باب: «قوله الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾». ومسلم برقم (١٨٣) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

مرورهم على هذا الصراط .

ولكنه ورد صراحة في السنة في أحاديث متفق عليها أو محققة الصحة ، وإن لم تكن متفقًا عليها ، فلما كان كذلك صدقها أهل السنة ، واعتقدوا ثبوت ما جاء فيها ، وأدخلوها في جملة عقائدهم .

وذلك لأن الأحاديث الصحيحة الثابتة تفيد اليقين ، فتدخل في جملة الاعتقاد ، وإن خالف في ذلك من خالف من طائفة أهل الكلام الذين قالوا : إن الأحاديث الآحادية لا تفيد اليقين ، عللوا هذا بقولهم : إن أحاديث الصراط لم تبلغ حد التواتر فلا يعتقد مدلولها ، وذلك لأنهم ردوا أحاديث أصح منها وأكثر ، مثل أحاديث نزول الرب كما يشاء في كل ليلة كما ورد في الأحاديث الصحيحة الثابتة ، ومع ذلك ردوها ؛ لأنها أخبار آحادية ولأنها في العقيدة ، والعقيدة لابد فيها من اليقين والأخبار المتواترة ونحوها .

فيقال لهم : كذلك أحاديث أحوال الآخرة ، أنتم تعتقدونها وتصدقون بمدلولها ، فتؤمنون مثلاً وتصدقون بأحاديث تطاير الصحف والحوض ، وبأحاديث الصراط وبأحاديث القنطرة وما أشبه ذلك ، وإن لم يبلغ بعضها حد التواتر فتصدقون بذلك ، فقد فرقتم بين متماثلين .

والحاصل أن من جملة الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بالصراط . والصراط كما ذكر منصوب على متن جهنم ، وهو جسر بين الجنة والنار ، أو أنه على متن النار يمر الناس عليه في طريقهم وعبورهم ، فيمرون على النار .

....

فالمؤمن قوي الإيمان لا يحس بحرارة النار، ولا كأنه مر عليها، حتىٰ ورد في بعض الآثار أن النار تقول: (جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي)[1]، وذلك في أثناء هذا العبور، فيمر الناس علىٰ هذا الصراط علىٰ قدر أعمالهم في الدنيا، وعلىٰ قدر تمسكهم بالصراط المستقيم في الدنيا، فإن هنا صراطًا مستقيمًا في الدنيا وصراطًا مستقيمًا في الآخرة، إلا أن صراط الدنيا معنوي، وصراط الآخرة حسي، فالذي يتمسك بالصراط المعنوي، يوفق للسير والسلوك علىٰ الصراط الحسي.

والصراط المعنوي هو الذي نسأل الله في صلاتنا أن يهدينا تقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وهو الذي ذكره الله تعالىٰ في قوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، تقدم في الآيات إرشادات وأوامر ، ذكر الله تعالىٰ أن هذه الإرشادات من الصراط الذي أمر الله الناس بأن يسلكوه فقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا ﴾ ، يعني : هذه الإرشادات وهذه الأوامر التي أولها قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام : ١٥١] إلخ الآيات.

ذكر في هذه الآيات إرشادات: **أولها**: النهي عن الشرك. **وثانيها**: الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين. **وثالثها**: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر. **ورابعها**: النهي عن قربان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، **وخامسها**: النهي

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) ، وقال : رواه الطبراني ، وفيه سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف ، ولذلك لم يجزم الشارح رحمه الله بثبوته .

. . . .

عن قتل النفس بغير حق. وسادسها: النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن. وسابعها: الأمر بإيفاء المكاييل والموازين بالقسط. وثامنها: الأمر بالعدل في الأقوال والأفعال ونحوها، إلى أن تمت هذه الإرشادات وأتمها الله تعالى بقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وهذا هو الأمر التاسع. ثم الأمر العاشر قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهذه الأشياء هي الصراط المعنوي الذي في الدنيا، فالذي يكون عاملاً بهذه الأوامر وتاركًا لهذه المحرمات، هو الذي يكون مهتديًا على الصراط المستقيم.

وقد ذكر الله تعالى أنه صراط المنْعَم عليهم. وفسر الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

هؤلاء هم أهل النعمة الذين نقول عنهم في صلاتنا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالذي يسلك طريق هؤلاء، ويعمل بأعمالهم، ويتبع إرشاداتهم، ويسير على نهجهم، ويقتفي سنة الأنبياء والخلفاء الراشدين والصحابة المهديين والشهداء الصالحين، وسلف الأمة وأئمتها المهديين، ويسلك طريقهم سواء في الأعمال أو في الاعتقادات، فهذا من الذين اهتدوا وساروا على هذا الصراط المعنوي، فإذا وفق العبد لهذا الصراط وتجنب طريق أهل الغضب وأهل الضلال؛ فإنه يسير في الآخرة على الصراط الحسي سيرًا

. . . .

مستقيمًا، لكن على قدر تمسك الناس.

وذلك أن تمسك الناس في هذه الدنيا بالصراط وسيرهم عليه مختلف، فمنهم من يكون سيره بطيئًا، بحيث إنهم في الدنيا يخلون بكثير من الواجبات، ويرتكبون كثيرًا من المحرمات ويقصرون ويخالفون في شيء من الاعتقادات، فيكون سيرهم في الدنيا سيرًا ضعيفًا.

ومنهم من يكون متوسطًا فيكون محافظًا على الواجبات، وتاركًا للمحرمات، وإن لم يحافظ على السنن والمندوبات وإن لم يترك المكروهات والمباحات ونحوها، فهذا سيره على الصراط الأخروي أقوى من الأول.

وهكذا، من كان أتم تمسكًا بالصراط الدنيوي المعنوي بأن يكون مثلاً محافظًا على الواجبات، وآتيًا للمستحبات، وتاركًا لجميع المحرمات، وتاركًا للمكروهات ولبعض المباحات، فهذا هو الذي يكون سيره سريعًا غاية السرعة على ذلك الصراط المستقيم الذي ينصب على متن جهنم.

وقد ورد في أوصاف الصراط الأخروي أوصاف كثيرة، ولكن بعضها لم يثبت، وقد ورد في أحاديث صححها بعضهم ما يدل على دقته وحرارته؛ فورد أن الصراط الذي يسير الناس عليه: أحر من الجمر، وأنه أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف لكن بعض ذلك لم يثبت، وغالبه يكون من القصاص، لكن بعض الروايات التي ورد فيها أنه أدق من الشعرة وأحد من

. . . .

السيف[1] صححها بعض العلماء، وكذلك وصفه بأنه أحرُّ من الجمر قد رواه بعض العلماء .

فعلى كلٍ هذا يدل على أن هذا الصراط في غاية من الدقة والحرارة، ولكن يثبت الله عليه أهل الإيمان حيث ثبتوا على أعمالهم وعقائدهم في الدنيا، فثبتهم على هذا الصراط في الآخرة. وهكذا أيضًا لما كانوا متمسكين بالأعمال الصالحة في الدنيا، كان تمسكهم سببًا في سرعة قطعهم لهذا الصراط بسرعة .

فقد روي في بعض الآثار في وصفه أن طوله مسيرة ألف عام صعودًا واستواءه مسيرة ألف عام، وأن الهبوط منه أيضًا مسيرة ألف عام .

وإذا كان كذلك فمتى يقطعه الذي يسير سيرًا معتادًا؟ . ولكن لما كان الذين رزقهم الله الأعمال الصالحة والاستعداد للقاء الله تعالى قد كملوا ما طلب منهم؛ رزقهم الله سرعة السير عليه، فلذلك ذكر في هذه الأحاديث أنهم يسيرون عليه سيرًا سريعًا، فمنهم من يمر كالبرق .

قيل للنبي ﷺ : وأي شيء كالبرق. قال : **«ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين»**[2] . فلا تراه قد ظهر إلا ويختفي في لحظة وفي طرفة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١١٠) وفي سنده ابن لهيعة .
وذكره مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري برقم (١٨٣) في الإيمان . قلت : وهو مما لا يقال بالرأي فله حكم الرفع والله أعلم .

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٥) في الإيمان، باب : «أدنى أهل الجنة منزلة» . عن حذيفة رضي الله عنه .

. . . .

عين.

ومنهم من يمر كالريح، والريح معلوم سرعة سيرها فإنها تقطع مسافات كبيرة في لحظات فإنها تأتي من الشمال مثلاً ثم لا تلبث أن تمر على بلاد كثيرة في تلك الجهة، حيث إن الله تعالى يسيرها كيف يشاء.

فمن الناس من يمر كهذه الريح في سرعتها وانطلاقها، ومنهم - كما في بعض الروايات - من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، والفرس أيضًا سريع السير، لشدة جريه؛ يقطع المسافات الطويلة في زمن قصير.

ومنهم من يمر كركاب الإبل، كالذين يركبون الدوابَّ على الإبل، ومنهم من يمشي مشيًا على الأقدام، ومنهم من يزحف زحفًا على يديه، أو على رجليه، أوعلى مقعدته.

ويسير الناس أيضًا على هذا الصراط على قدر أنوارهم، وقد ورد في بعض الآثار أنهم يعطون أنوارًا يسيرون بها. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وذلك أنها تُقسم عليه الأنوار، فإذا ساروا قليلاً؛ انطفأت أنوار المنافقين وقالوا للمؤمنين: أعطونا قبسًا من نوركم، فإذا قالوا ذلك قالوا لهم: ارجعوا حيث قسّمت الأنوار اطلبوا نورًا لكم، فيسير المؤمنون على هذا الصراط على قدر أنوارهم التي أعطوها.

. . . .

يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ فمنهم من يكون نوره كالجبل يضيء له مدّ بصره بحيث لا يخفى عليه شيء مما أمامه، ومنهم من يكون دون ذلك، حتى ورد في بعض الأحاديث أن منهم من نوره على رأس إبهامه؛ ينطفئ ساعة ويتقد أخرى، فإذا اتَّقد قدَّم رجله، وإذا انطفأ وقف. فسرعة سيرهم وبطؤه وقوة أنوارهم وضعفها، يرجع إلى أعمالهم في الدنيا.

ثم ذكر أيضًا أن منهم المخطوف والملقى في النار، حيث ورد في الحديث قول النبي ﷺ: «ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلِّم سلِّم» فلا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعواهم اللهم سلم سلم، ويقول: «وعلى جنبتي الصراط كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف من أُمرت بخطفه، فناجٍ مُسَلَّم، ومخدوش ومكردس في النار»[1].

فمنهم من ينجو ويسلم بفضل الله تعالى عليه، ومنه من يخدش بأن يناله ما يناله من تلك العقبات ومن تلك الضربات ونحوها. ومنهم من تخطفه تلك الكلاليب.

والكلاليب هي حديد معكوف رأسه محدّد يجتذب به اللحم إذا ألقى في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٧) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

النار، فتلك الكلاليب كثيرة الرؤوس ومثلها النبي ﷺ بشوك السعدان لكثرة رؤوسه المحددة إلا أنه قال: «**غير أنه لا يعلم قدرها إلا الله**».

فتخطف من أمرت بخطفه، فإذا اختطف الذي أمرت بخطفه فلا شك أنه يسقط، وليس تحته إلا النار والعياذ بالله، فالذي ينجو من هذا الصراط هو الذي ينجو من العذاب ولا يدخل النار أصلا، والذي يقع فيها هو الذي يقع في العذاب.

❁ ❁ ❁

٦ ـ القنطرة بين الجنة والنار:

[فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الجَنَّةَ. فإذا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ][1].



▪ قوله: (فمن مرّ على الصراط دخل الجنة. فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار...):

بعد ما ينجو الناس ويقطعون هذا الصراط على قدر طوله أو قصره وعلى قدر بطء أو سرعة سيرهم، يقفون على قنطرة بين الجنة والنار.

والقنطرة في الأصل: هي المكان الذي يكون بين حاجزين أو بين بحرين كساحل بين البحرين ونحو ذلك.

وقد تكون القنطرة أيضًا جسرًا واسعًا يتسع لهم، فهذا الجسر أو هذه القنطرة التي هي معبر لهم واسعة تتسع لهم، فيقفون ويحاسبون، يحاسبهم الله تعالى فيما بينهم، ويقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى لا يدخل الجنة أحد وهو يحقد على إخوته، لا يدخلونها إلا وقد طابت نفوسهم، وقد زالت الضغائن والبغضاء والشحناء التي بينهم.

---

(١) أخرج الحديث في ذلك البخاري رقم (٦٥٣٥) في الرقاق، باب: «القصاص يوم القيامة». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

وهذا من حكمة الله تعالى وهو أنه لا يدخلهم الجنة إلا بعد أن يهذبوا وينقوا، ويزول ما بينهم كما في قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ فالضغائن والغل الذي في قلوبهم يزول ويبقون إخوة متحابين.

فيعتقد المسلم هذه الأمور الغيبية ويعلم أن أدلتها واضحة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ويعلم أنها لابد واقعة، وأن الذي يصدق بها لاشك تظهر عليه آثار التصديق، وذلك بالاستعداد له والتأهب لوروده.

فإن الذي يؤمن بهذا الصراط، ويعرف أنه إنما يسلكه ويوفق في السير عليه إذا كان مستويًا سيره على هذا الصراط، يستعد لذلك ويفكر هل أنا مستقيم على الصراط الدنيوي أو لا؟. فإذا رأى في نفسه خللاً أو نقصًا تفقد ذلك وتلافاه.

* * *

٧ ـ أول من يدخل الجنة:

[وأَوَّلُ مَنْ يسْتَفْتِحُ بابَ الجنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ مِن الأممِ أُمَّتُهِ].



▪ **قـوله: (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته):**

في هذا فضيلة وميزة لنبينا ﷺ ، وهو أنه أول من يستفتح باب الجنة، فقد ورد في حديث أن خازن الجنة يقول: «**أمرت ألا أفتح لأحد قبلك**» عندما يستفتح الباب فيقول: من أنت؟ فيقول: «**محمد**»[1] .

وقد ذكر الله أن أهل الجنة يساقون إليها زمرًا، ثم قال: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ [الزمر: ٧٣] وهذا يدل على أنهم إذا وصلوا إليها فتحت أبوابها.

ثم ذكر أيضًا أن من فضيلته كون أمته تابعة له، وأنها أول من يدخل الجنة من الأمم، حيث إن نبيها أول الأنبياء دخولاً، ودليل ذلك الحديث الذي يقول فيه ﷺ : «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[2] يعني نحن متأخرون في

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧) في الإيمان، باب: «في قول النبي ﷺ : «أنا أول الناس يشفع في الجنة...». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٢٤) في الأيمان والنذور، باب: «١». ومسلم برقم (٨٥٥) في الجمعة، باب: «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الوجود، فإن هذه الأمة هي آخر الأمم وجودًا ونبيها هو خاتم الأنبياء، ولكنهم هم السابقون يوم القيامة، فمن فضلهم أنهم يسبقون يوم القيامة إلى الجنة وإلى الثواب.

فقد تقدم لنا أنهم إذا عبروا الصراط وُقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هذبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، فإذا أذن لهم كان محمد ﷺ هو الذي يطرق الأبواب، فأول من يطرق الأبواب هو، ثم بعد ذلك تفتح أبواب الجنة على مصاريعها، فتدخل أمته، ويدخل بعدها سائر الأمم الذين من أهل الجنة.

* * *



٨ ـ أنواع شفاعات النبي ﷺ :

[ولهُ ﷺ في القيامَة ثلاثُ شَفاعَاتٍ :

أَمَّا الشَّفاعَةُ الأُولى ؛ فيشفَعُ في أَهْلِ المَوْقِفِ حَتى يُقْضَى بينَهُمْ بعدَ أنْ يتراجَعَ الأنْبياءُ : آدَمُ، ونوحٌ، وإبراهيمُ، ومُوسى، وعيسى ابنُ مَرْيَمَ عن الشَّفاعَة حتى تَنْتَهِيَ إليه .

وأَمَّا الشَّفاعَةُ الثَّانيةُ ؛ فيشْفَعُ في أهْلِ الجَنَّة أنْ يَدْخُلوا الجَنَّةَ .

وهاتان الشَّفاعَتانِ خاصَّتان لَهُ .

وأَمَّا الشَّفاعَةُ الثَّالثَةُ ؛ فيشفَعُ فيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ، وهذه الشَّفاعَةُ لهُ ولسائرِ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقين وغيرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَها، ويَشْفَعُ فيمَنْ دَخلَها أنْ يخْرُجَ منْها .

ويُخْرِجُ اللهُ منَ النَّارِ أَقْوامًا بغَيْرِ شَفاعَةٍ، بَلْ بفَضْلِه ورَحْمَتِه، ويَبْقى في الجَنَّة فضلٌ عَمَّنْ دَخَلَها منْ أَهْلِ الدُّنْيا، فيُنْشِئُ اللهُ لَها أَقوامًا، فيُدْخِلُهُمُ الجنة] .



■ قوله : (وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات...):

ذكر المؤلف الشفاعات فقال : « وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات » ، وهذه

. . . .

هي الشفاعات المشهورة، وإلا فقد أوصلها بعضهم إلى أنها خمس شفاعات:

الشفاعة الأولى: شفاعته إلى الله تعالى لفصل القضاء.

الشفاعة الثانية: شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها.

الشفاعة الثالثة: شفاعته لقوم دخلوها أن يُزاد في ثوابهم.

الشفاعة الرابعة: شفاعته لبعض أهل النار أن يخرجوا منها.

والشفاعة الخامسة: شفاعته لبعض أهل النار أن يخفف عنهم من عذابها.

فالمشهور أن له خمس شفاعات ومنهم من أوصلها إلى ست أو سبع أو ثمانٍ، ولكن الصحيح أنها متداخلة.

فالنبي ﷺ هو الذي يشفع حتى تفتح أبواب الجنة ويدخلها أهلها، فتكون الشفاعة في دخول الجنة خاصة به، ولهذا جعل هنا هاتين الشفاعتين من خصائصه وهما: الشفاعة لفصل القضاء، والشفاعة في دخول الجنة أي في فتح أبواب الجنة ليدخلها أهلها من هذه الأمة ومن غيرهم.

والشفاعة معناها: الوساطة، وهي في حق الرسل ونحوهم من الذين يشفعون عند الله، وهي بمعنى السؤال والطلب، أي أنهم يطلبون من الله كذا وكذا، فسؤالهم وطلبهم من الله يعتبر شفاعة لأممهم، وفيه نفع وخير لأتباعهم.

هذا معنى كونها شفاعة، وقد ذكر الله تعالى أن هذه الشفاعة لا تنفع عنده إلا إذا أذن للشافع أن يشفع، وللمشفوع فيه أن يُشفع فيه.

. . . .

أما الشفاعة الأولى التي هي الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة التي يترادّها ويتراجع عنها أولو العزم فهذه شفاعة لأجل فصل القضاء بين العباد عندما يطول الموقف، ويتضرر الناس بطول الموقف في يوم القيامة؛ يجول بعضهم في بعض ويقولون: ألا ترون إلى ما نحن فيه، ألا تطلبون من يشفع لكم؟

فيأتون آدم ويقولون: هو أحق من غيره فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، فاشفع لنا إلى ربنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه!! ألا ترى ما قد أصابنا!! فيعتذر آدم ويقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا ذنب أبيكم. فيقول لهم: اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

وهكذا إذا جاءوا نوحًا ردهم إلى غيره وقال: اذهبوا إلى إبراهيم، ثم بعد إبراهيم موسى، ثم بعد موسى عيسى، ثم بعده يأتون إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها»[1]، حتى يراحوا من طول العناء ومن هول المطلع، ومن الغم الذي هم فيه في الموقف.

وهذه الشفاعة قيل: إنها هي المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عَسَىٰ أَن

---

(١) أخرج الحديث في ذلك: البخاري برقم (٧٤١٠) في التوحيد، باب: «قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾». ومسلم برقم (١٩٣) في الإيمان. باب: «أدنى أهل الجنة منزلة». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يعني يحمدك فيه الأولون والآخرون، وذلك عندما يكون سببًا في أن ينزل الله تعالى لفصل القضاء بين عباده، ويريحهم من ذلك الموقف الطويل، وهذه الشفاعة خاصة به.

أما الشفاعة الثانية: فتكون عندما يوقفون عند أبواب الجنان، ويتوقف دخولهم على أن يطلب من الله فتح أبواب الجنان فيفتح لهم، وهذه الشفاعة خاصة به أيضًا، في أنه يشفع حتى تفتح أبواب الجنة، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة، وهم أهل الجنة الذين يستحقونها بفضل الله ثم بأعمالهم، لا يدخلونها إلا بعدما يشفع لهم.

وهذه الشفاعة تعتبر من الله تكريمًا لنبيه وإظهارًا لشرفه عند الناس في ذلك الموطن، فيكرمه بها لينال في هذا الموقف المقام المحمود، فهو سبحانه وتعالى أذن له بهذه الشفاعة مع أنها ملكه، فالشفاعة ملك لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣].

فلما كانت الشفاعة ملكًا لله صارت لا تُطلب إلا منه، ولكنه تعالى يقبل شفاعة نبيه ليكرمه، ويظهر فضله، ويرفع شأنه ويعطيه المقام المحمود الذي وعده به في هذه الآية﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وإلا فهو سبحانه قادر على أن يدخلهم الجنة بدون سؤال، وبدون شافع، وكذلك أن يفصل بينهم، ولكنه تعالى أذن لنبيه بهذه الشفاعة ليظهر بذلك فضله.

. . . .

بينهم، ولكنه تعالى أذن لنبيه بهذه الشفاعة ليظهر بذلك فضله.

أما الشفاعة الثالثة: فذكر أنها ليست خاصة به، بل يشاركه فيها الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة والأطفال وغيرهم، فإنهم يشفعون في يوم القيامة فيمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرج منها.

وذلك أنه يدخل النار قوم من أهل الإسلام ومن أهل التوحيد بسبب كبائر وذنوب اقترفوها، وقد ماتوا مصرين على ترك شيء من العبادات، أو ماتوا مصرين على اقتراف شيء من السيئات أو كبائر الذنوب، فلم تنلهم رحمة الله، ولم يحصلوا على مغفرته فدخلوا النار.

ودخولهم النار يكون تمحيصًا لسيئاتهم، ومحوًا لذنوبهم، وتطهيرًا لهم مما اقترفوه في الدنيا، ويبقى أصل العقيدة وأصل التوحيد والإسلام معهم، ولكنهم لم يعطوه حقه، ولم يطبقوه حق التطبيق، فاستحقوا أن يعذبوا بقدر ذنوبهم وسيئاتهم.

ثم بعد ذلك يأذن الله في أن يُشفع في إخراجهم، فيشفع فيهم الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة وغيرهم، فيقول الله تعالى: أخرجوا من عرفتم من أهل التوحيد والإسلام، فيعرفونهم بأثر السجود في الصلاة، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**حرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود**»[1] يعني أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها في الصلاة، وهذا يدل على أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٣) في الرقاق، باب: «الصراط جسر جهنم». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

لبعض الذنوب، حتى ولو دخل النار، ثم يقول الله: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان**»، إلى أن قال: «**مثقال أدنى ذرة من إيمان**»(١).

يعني أخرجوا كل من يشمله اسم الإيمان وكل من كان في قلبه إيمان وإن كان ضعيفًا، وبسبب ضعف إيمانه تجرأ على الذنوب واستخف ببعض العبادات، فكان سببًا في دخوله النار، فإذا هُذب ونُقي وصُفي وطُهِّر ومُحِّص؛ محصته النار وأكلت ما اقترفه، عند ذلك يأمر الله تعالى بالشفاعة فيشفع فيهم، فيخرجون من النار، وقد احترق كثير منهم، يقول في الحديث: «**فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل**»(٢) وفي بعض الروايات أن أهل الجنة يسمونهم: الجهنميين(٣) يعني أنهم قد دخلوا النار ثم أخرجوا منها.

هذه الشفاعة التي هي شفاعة عامة هي في حق العصاة الذين دخلوا النار بسبب بعض المعاصي، وهي كما عرفنا عامة، ولا تنفع إلا أهل التوحيد الذين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠) في التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم». ومسلم برقم (١٩٣) [٣٢٦] في الإيمان، باب: «أدنى أهل الجنة منزلة فيها». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٣) في الرقاق، باب: «الصراط جسر جهنم». ومسلم برقم (١٨٢) في الإيمان، باب: «معرفة طريق الرؤية». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٥٦٦) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». من حديث عمران ابن حصين ورقم (٦٥٥٩) من حديث أنس بن مالك.

. . . .

رضي الله عنهم لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وكذلك أيضًا لا تكون هذه الشفاعة إلا بعد إذن الله، فلهذه الشفاعة شرطان:

الشرط الأول: إذن الله للشافع.

والشرط الثاني: رضاه عن المشفوع.

جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: ٢٦] يأذن الله لمن يشاء من الشافعين ويرضى أن يُشفع في ذلك للمذنب ونحوه.

وأنت تعرف أن الله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد وأهل الإسلام، فالذي يموت وهو كافر، أو يموت وهو مشرك، هذا لا يرضى الله عنه لقوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾ [الزمر: ٧] فإذًا لا حظّ في هذه الشفاعة لكافر ولا لمشرك، إنما هي خاصة بأهل التوحيد المذنبين.

وقد ثبت أن أبا هريرة قال للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[1]؛ يعني من كان محقًا ومخلصًا في توحيده وعقيدته، وكذلك ثبت أنه عليه السلام قال: «**إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي**»[2]، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٧٠) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار».

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٤) في الدعوات، باب: «ولكل نبي دعوة مستجابة». ورقم (٧٤٧٤) في التوحيد. ومسلم برقم (١٩٨، ١٩٩) في الإيمان، باب: «اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته». عن أبي هريرة رضي الله عنه.



. . . .

وهذه الشفاعة التي تكون في إخراج من يُخرج من النار ممن دخلها، تنفع أهل الإسلام والعقيدة وكذلك فإنها إنما تطلب من الله، ولا تُطلب من الأنبياء ولا من الأولياء ولا من غيرهم، فإذا طلبتها فاطلبها من مالكها وهو الله فتقول: اللهم شفع فيّ نبيك أو أنبياءك، أو تقول: اللهم اجعلني ممن تنفعه شفاعة الشافعين، أو اللهم ارزقني عملاً أنال به شفاعتهم، أو نحو ذلك.

وقد أنكر هذه الشفاعة بعض المبتدعة: كالخوارج والمعتزلة بناءً منهم على تكفير وتخليد أهل الكبائر في النار، وأن من دخل النار من أهل الكبائر لا يُخرج منها، وذلك أصل أصّلوه: أن الوعيد الذي رتب على من قتل مثلاً؛ أو من أكل مال اليتيم أو أكل ربا أو نحو ذلك مما ورد فيه وعيد شديد، فيقولون: إنه لابد من إنفاذ ذلك الوعيد، فأنكروا لأجل ذلك الشفاعة.

ومن جملة ما استدلوا به قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ وقوله: ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ وقوله: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ ولكن المراد بهذه الآيات الشفاعة الشركية وهي التي تُطلب من غير الله.

فهذا ما يتعلق بهذه الشفاعة، وهي جزء مما يكون في يوم القيامة. وما تضمنته الآخرة من أمور، وما يكون في يوم القيامة من خطوب وأهوال شيء كثير.

[وأصنافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ والثَّوابِ والعِقَابِ والجَنَّةِ والنَّارِ وتَفاصِيلُ ذلك مَذْكورةٌ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِن السَّماءِ، والآثارِ مِنَ العِلْمِ المَأْثورِ عَنِ الأنْبياءِ، وفي العِلمِ المَوْروثِ عنْ محمَّدٍ ﷺ مِن ذلكَ مَا يَشْفي ويَكْفي، فَمَنِ ابْتَغاهُ وَجَدَهُ].



▪ قوله: (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء...):

ومن أراد التفصيل في أمور الآخرة من موت وبعث ونشر وحساب وعقاب وجنة ونار، فعليه بالكتاب والسنة، فكل ذلك موجود فيه مفصلاً، وكذلك هو مذكور في كتب الأنبياء السابقين، ولكن كتابنا الذي أنزل على نبينا ﷺ اعتنى بالتفصيل والتوضيح ليوم القيامة، ولما يكون بعد الموت، أشد اعتناءً وأكثر اهتمامًا من الكتب السابقة؛ وذلك لأن الإيمان بهذا اليوم يترتب عليه الاستعداد والتأهب للقاء الله تعالى. وهو كما عرفنا ركن من أركان الإيمان، فالذي يؤمن به يُتْبِعه العمل الصالح الذي تحصل به النجاة من العذاب والفوز بالجنان.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يحقق إيمانه، ويصدق في أعماله.

❋ ❋ ❋

الإيمان بالقدر خيره وشره

[وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه] .



▪ **قوله: (وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره):**

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، والقدر يراد به التقدير؛ ومعناه: تحديد الشيء بمقدار، وقد ذكر الله القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] والمعنى: أن حوادث الدنيا مقدرة وما يكون وما يحدث، فليس للإنسان عنه مفر ولا مهرب؛ لأنه قد كتب عليه قبل أن يخلق، وسيأتي دليل ذلك من أن الله تعالى إذا خلق الجنين أمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، أي تقدير الأشياء وتحديدها في أماكنها وفي أوقاتها.

فعلم الله تعالى عدد الخلق قبل أن يخلقهم، وعلم أعمال الخلق وما سوف يعملون، ومن يكون منهم من أهل الخير، ومن يكون من أهل الشر، ومن هو سعيد أو شقي، علم ذلك قبل أن يخلقهم. وهذا سبب تسميته قدرًا، وقد



. . . .

تكاثرت الأحاديث في الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومُرِّه، وبيان أصل القدر.

❁ ❁ ❁

مراتب الإيمان بالقدر:

[والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتَيْن كلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ].

الدَّرَجَةُ الأولى: العِلمُ وَالكِتَابةُ:

[فالدَّرَجَةُ الأولى: الإيمانُ بأَنَّ اللّهَ تَعَالى علمَ ما الخلقُ عَامِلُونَ بعِلْمِهِ القَديمِ الذي هُوَ مَوْصوفٌ بهِ أَزَلاً وأَبدًا، وَعَلِمَ جَميعَ أحوالِهِمْ مِن الطَّاعاتِ والمَعاصي والأرْزاقِ والآجالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مَقاديرَ الخَلْقِ.

فأَوَّل مَا خَلَقَ اللّهُ القَلَم قالَ لهُ: اكْتُبْ. قالَ: ما أَكْتُبُ؟ قالَ: اكْتُبْ مَا هُو كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ.

فمَا أَصَابَ الإنْسانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، ومَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ، جَفَّتِ الأقْلامُ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَما قالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

. . . .

الشرح

■ **قوله: (والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين...)**:

يقول المؤلف: الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

الدرجة الأولى: تتضمن العلم والكتابة.

والدرجة الثانية: تتضمن الإرادة والخلق، بمعنى أن الله أراد الكائنات وخلقها.

فابتدأ بالدرجة الأولى لأنها أقدم حدوثًا، وأول ما وجد الخلاف هو مع الذين ينكرون القدر السابق، أي تقدير الأشياء قبل أن توجد، وحدث ذلك في آخر عهد الصحابة، كما نقل ذلك يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني.

قال: فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء، فوفِّق لنا عبد الله بن عمر داخلاً الحرم فابتدرناه، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد خرج قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم، وإنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف فقال: إذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني منهم بريء وهم مني براء، والذي نفسي بيده، لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا، ما قبله الله منه حتى يؤمن



. . . .

بالقدر خيره وشره[١] .

هؤلاء الذين حدثوا ينكرون تقدير الخلائق قبل أن توجد، وينكرون علم الله بالخلائق قبل أن توجد، وينكرون كتابة المخلوقات وآجالها في اللوح المحفوظ قبل أن توجد، ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا.

المعنى: اسألوهم وقولوا لهم: أليس الله بكل شيء عليم؟ أليس الله عليم بذات الصدور؟ إذا اعترفوا بأن الله بكل شيء عليم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] وقال: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] قلنا لهم: ما الفرق بين علم الماضي وعلم اللاحق، إذا كان الله علم ما مضى، علم عدد ما خلق فيما مضى، وآجالهم، وأعمارهم، فما الفرق بين علمه بالسابقين وباللاحقين؟ .

إذًا هو بكل شيء عليم، يعلم عدد الموجودين الذين لم يوجدوا، ويعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ فالذي لم يوجد يعلم بأنه سيوجد في وقت كذا وكذا، وأنه سيحصل له كذا وكذا، ويعلم من سيولد، وأعمار من سيولد، والوقت الذي سيولد فيه هذا المولود، وما أشبه ذلك.

وهذا النوع من علم الله تعالى قديم، موصوف به أزلاً وأبدًا، لم يحدث له

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨) في الإيمان، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان».

. . . .

وَصْفٌ، لأن الرب تعالى قديم لم يسبق بعدم، وصفاته قديمة موصوف بها أزلاً، وموصوف بها أبدًا.

أزلاً: أي قدمًا. وأبدًا: أي مستمرًا.

فهو سبحانه موصوف بالعلم أزلاً وأبدًا، فهو يعلم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، علم ما سيعمل هذا وهذا، وهؤلاء الذين لم يوجدوا، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا، وعلم مقادير الخلق، وعددهم، وأرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وأعمارهم، وأوقاتهم، وعددهم، وذكورهم، وإناثهم، ونحو ذلك، كل ذلك في علم الله.

وقد ثبت في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن **«أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: ما أكتب؟ فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**[1].

وذلك لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢] فجرى القلم بما هو كائن، كما قال النبي ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥٥) في القدر. وأبو داود برقم (٤٧٠٠) في السنة. وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت. وأخرجه الترمذي أيضًا برقم (٣٣١٩) في التفسير. وقال: حسن غريب.



. . . .

بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام وجَفّت الصحف»[1] .

طويت الصحف على ما هو مكتوب فيها، فلا يزاد فيها ولا ينقص، وجفت الأقلام: أي يبست فلا حاجة إلى كتابة، ورفعت، فكل شيء قد فُرغ منه، قد فرغ الله من الخلق، وقد علم مقاديرهم، وعددهم ونحو ذلك.

ثم من الأدلة على ذلك هذه الآية من سورة الحج وهي قول الله تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** [الحج: ٧٠] يعلم كل شيء في السموات وفي الأرض، وكل شيء سيكون ولم يكن **﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** .

ويقول تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** [الأنعام: ٥٩]؛ فمثاقيل الذرّ والحبات ونحوها، كل ذلك مكتوب في كتاب، وعدد أوراق هذه الشجرات مكتوب، وإذا سقطت ورقة فسقوطها معلوم، ولا حبة تحدث في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، كل ذلك مدون ومكتوب قبل أن توجد الخلائق بأسرها.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) في صفة القيامة. وقال: حسن صحيح. وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) قال أحمد شاكر (٢٦٦٩): إسناده صحيح.

. . . .

والحكمة في إخبار الناس بذلك مذكورة في هذه الآية التي في سورة الحديد: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

هذه هي الحكمة؛ ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ كل مصيبة حدثت ﴿في الأرض ولا في أنفسكم﴾ ما أصاب في الأرض من جدب أو من قحط، أو من مرض، كل ذلك مكتوب في كتاب من قبل أن نبرأها، وكذلك ما أصابكم في أنفسكم من مرض، من موت، من فقر، من فتن، من قتل، كل ذلك مكتوب في كتاب: ﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ أي من قبل أن تحدث هذه المصيبة، بل من قبل خلق السموات والأرض بما شاء الله بخمسين ألف سنة أو بأكثر من ذلك.

كما في بعض الأحاديث: **«كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»**[1] لماذا؟ ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾حتى لا تحزنوا وتأسفوا وتأسوا على ما فاتكم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٣) في القدر، باب: «حجاج آدم وموسى عليهما السلام». عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.



. . . .

إذا فاتك شيء فلا تقل: ليتني فعلت كذا وكذا، وليتني ما ذهبت إلى هذا الموضع، وليتني ما ركبت هذه السيارة. وقد أرشد النبي ﷺ إلى شيء من ذلك بقوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل**»[(١)].

فأنت مأمور قبل أن يحدث الشيء بأن تعمل وتفعل وتبذل السبب، ولكن متى حدث الأمر وفاتك الشيء فلا تلم نفسك، ولا تكثر التأسف والندم، ولا تقل: ليتني تقدمت ساعة حتى أفوز، ليتني تأخرت ساعة حتى أسلم من كذا وكذا، ليتني ساهمت مع فلان حتى أربح، ما أشبه ذلك. لا تقل هذا بل قل: قدر الله وما شاء فعل.

إذا أصابك شيء فارض بذلك، واعلم أن ذلك مكتوب عليك، يقول الله تعالى للمنافقين: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لو كنتم متحصنين في غاية التحصن، فإن الذين قد كتب الله عليهم في اللوح المحفوظ أنهم مقتولون لابد وأن يبرزوا إلى الأماكن التي فيها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

مضاجعهم، فلا يغني حذر عن قدر.

فعرفنا بذلك أن الإنسان عليه أولاً أن يبذل السبب ويتحصن عن الأخطار ونحوها، ولكن متى وقع عليك شيء، ومتى وقعت في مصيبة، ومتى فاتك شيء، فارض بما قدر الله تعالى، وتذكر هذه الآية: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣] لا تفرح بما آتاك، وتقول: هذا بسبب جهدي، وهذا بسبب كدي وقوتي، أنا الذي أسهر الليل وأتعب النهار، أنا الذي فعلت وفعلت حتى حصلت على هذا وهذا وما أشبه ذلك.

بل قل: هذا ما كتبه الله لي، هذا ما أعطاني الله من فضله، هذا مكتوب لي وهذا رزقي وما أشبه ذلك.

والذي فاتك لا تأسف عليه وقل: ليس من رزقي، وليس بمكتوب لي، ولو بذلت لتحصيله كل سبب لما حصل، لا تأس على فائت ولا تفرح بشيء آت، بل:

اقنعْ بما تُرزق يا ذا الفتى ... فليسَ ينسى ربنا نملَه
إن أقبل الدهرُ فقم قائمًا ... وإن تولّى مُدْبرًا نم له

فارض بما كتب الله، والله تعالى قد علم وقدر رزق كل إنسان، وكتب الأرزاق والآجال، فالذين يؤمنون بهذا المكتوب يرضون بذلك، وتطمئن

. . . .

قلوبهم، والذين يكذبون بذلك يحزنون ويتأسفون، ولا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم.

كما ورد في بعض الآثار «من كانت الدنيا أكبر همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» بمعنى أنه وإن اهتم لها فإن رزقه مكتوب، فلن يستطيع أن يزيد فيه أو ينقص منه .

لذلك ينبغي للمؤمن أن يؤمن بذلك كله، ليكون من الفائزين في يوم القيامة.

* * *

تقدير الأشياء قبل وجودها:

[وهذا التَّقْديرُ التَّابعُ لِعلْمه سُبْحانَهُ يَكُونُ في مواضعَ جُمْلَةً وتَفْصيلاً:

فقدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المحْفوظِ ما شَاء.

وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيه؛ بعثَ إليه مَلكًا، فيُؤمَرُ بأَرْبعِ كَلمات، فيُقالُ لهُ: اكْتُبْ: رزْقَهُ، وأجَلهُ، وعملهُ، وشقيٌّ أمْ سَعيدٌ. ونحوَ ذلك.

وهذا التَّقديرُ قَدْ كانَ يُنكِرُهُ غُلاةُ القدَريَّة قديمًا، ومُنْكِروهُ اليومَ قليلٌ].



▪ قوله: (وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلاً: فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء...):

هذا التقدير: تقدير الأشياء قبل وجودها عمدته علم الله تعالى الموصوف به أزلاً وأبدًا. يقول: إن هذا التقدير هو التابع لعلم الله تعالى، فمن آمن بعلم الله وآمن بأن الله بكل شيء عليم، آمن بهذا التقدير، فإنه يقال: ما الفرق بين علمه بما حصل وعلمه بما لم يحصل؟ إذا كان الله تعالى موصوفًا بأنه بكل شيء عليم، فيدخل في كل شيء (ما لم يوجد).

. . . .

فنقول: إن الله عليم بالأشياء قبل أن توجد، عليم بما الخلق عاملون، عَلِمَ عدد من يوجد من الخلق، وعلم عدد أهل الجنة، وعلم عدد أهل النار، وعلم أعمال هؤلاء قبل أن يعملوها، وأعمال أولئك قبل أن يعملوها، وعلم تفاصيل ذلك كله، علم أن هذا الشخص سيعمل بكذا، ويوجد له من العمل كذا وغير ذلك من تفاصيل علم الله.

فمن آمن بالعلم آمن بهذا التقدير، ومن أنكر هذا التقدير، ألزمناه بأن ينكر العلم. ولهذا ذكرنا أن الإمام الشافعي رحمه الله قال في منكري علم الله تعالى الأزلي بما كان وما يكون: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا». يعني احتجوا عليهم بمسألة العلم، قولوا لهم: أتقولون بأن الله بكل شيء عليم؟ فإن أقروا به خُصموا. قلنا لهم: ما الفرق بين علم ما مضى وعلم ما سيأتي؟

وإن جحدوا العلم كفروا، حيث إنه يلزم منه وصفهم لله تعالى بالجهل، ويلزم أيضًا إنكارهم للأدلة الصريحة التي صرحت ووصفت الله تعالى بالعلم العام كما في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾[الأعلى: ٧]، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦]، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٩]، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وما أشبه ذلك، فالأدلة الكثيرة التي في إثبات العلم من أنكرها كفر؛ لأنه أنكر هذه الأدلة الصحيحة الصريحة الواضحة، التي ليس

. . . .

فيها التباس، ولزمه تنقص الله عز وجل.

يقول: هذا التقدير التابع لعلم الله تعالى يكون في مواضع جملة وتفصيلاً، فذكروا أن هذا التقدير ينقسم إلى أربعة أقسام:

تقدير عام، وتقدير عمريٌّ، وتقدير سنوي، وتقدير يومي.

فأما التقدير العام: فهو علم الله بما كان وبما يكون، وكتابته ذلك ـ كما تقدم ـ في اللوح المحفوظ. «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1] . هذا هو التقدير العام، يعني تحديد الأعمار ومقاديرها، وتحديد الأعمال والمصائب وأماكنها وما أشبه ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

ذكرنا فيما سبق أن هذا التقدير الذي هو تحديد المصائب وأوقاتها وأماكنها وما أشبه ذلك، فائدته أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيؤمن بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، ويعتقد أنه كله من الله، وإذا أصابه شيء فلا يجزع، ولا يقول: ليتني تأخرت حتى أنجو، ليتني تقدمت حتى أنجو، لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يرضى ويسلم ويقول: قَدَرُ الله وما شاء فعل، أي هذا قدر الله وما شاء فعله بعباده ويقول: ﴿**قُل لَّن**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥٥) في القدر. وأبو داود برقم (٤٧٠٠) في السنة. وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧). وأخرجه الترمذي أيضًا برقم (٣٣١٩) في التفسير وقال: حسن غريب.

. . . .

يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

ولما ذكر الله آية المصائب: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أتبعها بقوله: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ يعني لا تفرحوا فرح أشر وبطر بما أعطاكم، وقولوا: هذا من الله مكتوب لنا.

ولا تكونوا كما حكى الله تعالى عن قارون؛ أنه فرح بما آتاه وبما حصل عليه، فنصحه قومه وقالوا: ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فقال لهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أي إنني ما حصلت على هذا المال إلا بقوتي وبجهدي وكدي وقوة تفكيري وكسبي واجتهادي، وما أشبه ذلك، ولم يردَّ الأمر إلى تصرف الله وعطائه.

وذكرنا أن هذا لا ينافي فعل الأسباب، ودليله قول النبي ﷺ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1] فأمرك بأن تحرص على ما ينفعك، تبذل جهدًا، وإن هذا البذل في مستطاعك وإن كان مكتوبًا مقدرًا، وبه تعمل، وبه تحصل على سعادة الدنيا والآخرة، وبضده تحصل الشقاوة، وأمرك بأن تستعين بالله يعني. لا تعتمد على تصرفك

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وحرصك، وأمرك بألا تعجز أي لا تتوانى وتتكاسل، وأمرك عندما تصاب بمصيبة أن تفوض الأمر لله وتقول: هذا قضاء الله، ولا تقل: «لو، لو» فإن «لو» تفتح عمل الشيطان.

فالحاصل أن هذا التقدير العام هو كتابة الأشياء قبل أن تخلق الموجودات في اللوح المحفوظ.

وأما التقدير العمري: فهو المذكور في حديث ابن مسعود. يقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك**»[1] فأخبر بأنه يُرسل إليه الملك بعد الأربعين الثالثة، أي بعد أربعة أشهر، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فهذا يسمى تقدير عمري.

يُنسخ له كتاب من اللوح المحفوظ فيه عمله كله لا يتجاوزه، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه - من حين يولد إلى أن يموت - يكتب فيه أنه سيعمل كذا وكذا، طال عمره أم قصر، فهذا تقدير عمري، يكتب رزقه: يحصل من الرزق على كذا ومن العمل على كذا، وأجله طول أيامه وقصرها وسنواته. وعمله يعني أعماله التي هي إما عمل صالح أم ضده، وشقي هو أو سعيد. كل ذلك ينسخ وهو في بطن أمه، ويبقى كتابًا له مستقلاً يعمل عليه ولا يغير، هذا هو التقدير

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٩٤) في القدر، باب: «١». ومسلم برقم (٢٦٤٣) في القدر، باب: «كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

العمري.

أما التقدير السنوي: فهو تقدير بكون في ليلة القدر، بأن يكتب فيها ما يحدث إلى مثلها من العام القادم، تقدير سنة كاملة بأن يقدر الله تقديرًا سنوياً في هذه الليلة؛ أنه سيحدث في هذه السنة كذا وكذا، فالتقدير العمري خاص بشخص، ولكنه طوال عمره لكل السنوات، وأما التقدير السنوي فهو عام لما يحدث على وجه الأرض في سنة واحدة، أنه يحصل فيها مرض كذا، ويحصل فيها جدب كذا وقحط كذا، وعذاب ورحمة، وكفر وإيمان، هذا هو التقدير السنوي.

أما التقدير اليومي: فهو وقوع تلك المقدَّرات في كل يوم، ودليله قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩] فتتجدد الأشياء في كل يوم وتكون تقديرًا يومياً. هذا هو التقدير اليومي، والأصل أن الجميع كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وأنه يُنسخ منه ما يشاء الله ويُمحي من تلك الصحف، ويُغيرُ فيها قال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٩].

أم الكتاب: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير كل شيء، فهذا لا يتغير، أما ما يكون في صحف الملائكة، فإنه قد يمحى منه ذنب بتوبة، وتبدل سيئة بحسنة، وما أشبه ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ أما ما في أم الكتاب فإنه لا يغير ولا يبدل.

. . . .

متى آمن العبد بمثل هذا كله اطمأن قلبه، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يُقدّر عليه ما قَدَروا على ذلك، هذا هو التقدير الذي هو العلم، ومنكره سابقًا هم غلاة القدرية، ومنهم غيلان القدري، الذي أنكر العلم السابق، ومنهم أيضًا معبد الجهني، الذي زعم أن الأمر أنفٌ، وأن الأمور تستقبل استقبالاً، وأن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، ولا يعلم شيئًا لم يوجد.

وآخرون قالوا: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، يعني أفراد الأعمال؛ يعلم الكليات بمعنى: أنه يعلم أن هذا سعيد وهذا شقي، ولكن لا يعلم تفاصيل أعمال هذا السعيد، ما هي حسناته وما عددها، ولا يعلم تفاصيل أعمال هذا الشقي، ما هي سيئاته وما عددها، هذا قول من الأقوال.

ولكن الله تعالى موصوف بعموم العلم، وليس هناك فرق بين دقيق العلوم وجليلها.

* * *



الدرجة الثانية : المشيئة والقدرة :

[وأما الدرجةُ الثانيةُ : فهي مشيئةُ اللهِ النافذةُ، وقدرَتُه الشامِلَةُ، وهُو : الإيمانُ بأنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وأَنَّهُ مَا في السَّمواتِ ومَا في الأرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ ولا سُكون؛ إلا بمشيئَةِ اللهِ سُبْحانَهُ، لا يَكونُ في مُلْكِهِ مَا لا يُريدُ، وأَنَّهُ سُبحَانَهُ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ مِنَ المَوْجودَاتِ والمَعْدوماتِ، فمَا مِنْ مَخْلوقٍ في الأرْضِ ولا في السَّماءِ إلا اللهُ خَالِقُهُ سبحانَهُ، لا خَالِقَ غيرُهُ، ولا رَبَّ سِواهُ] .

لا تعارض بين القدر والشرع :

[ومَعَ ذلك؛ فقدْ أَمرَ العِبَادَ بطاعَتِهِ وطاعَةِ رُسُلِهِ، ونَهاهُمْ عن مَعْصِيَتِهِ. وهُو سُبحانَهُ يُحِبُّ المُتَّقينَ والمُحْسِنينَ والمُقْسِطينَ، ويَرْضى عَنِ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، ولا يُحِبُّ الكَافِرينَ، ولا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقينَ، ولا يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ، ولا يَرْضى لِعِبادِهِ الكُفْرَ، ولا يُحِبُّ الفَسادَ] .



■ قوله: (وأما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو : ...) :

هذه الدرجة الثانية من درجات القدر، وهي أيضًا تتضمن شيئين : تتضمن مشيئة الله وقدرته، وتتضمن خلقه وإيجاده .

. . . .

الدرجة الأولى ذكرنا أنها تتضمن شيئين: العلم ثم الكتابة، والدرجة الثانية تتضمن شيئين كذلك: الإرادة والمشيئة، ثم تتضمن الخلق والإيجاد.

فنؤمن بأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ونؤمن بعموم إرادة الله وعموم مشيئته. بمعنى أنه شاء وأراد كل ما في الوجود من الموجودات ولذلك وجدت، ولو لم يردها ما وجدت وما خلقت وما حصلت.

وذلك داخل في عموم قدرته، فإن من تمام القدرة؛ أنه يكون هو الخالق، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه لا يقدر أحد على مخالفة ما قدره عليه، هذا من تمام الإيمان بالقدرة، فإذا آمن العبد بأن الله على كل شيء قدير دخل في قدرته كل الموجودات وكل المخلوقات، فلذلك يقول: آمنت بأن الله هو خالق كل شيء، هو الذي خلق ما فيه شر وما فيه ضرر وما فيه خير وغير ذلك.

خلق الكفار وعلم أنهم سيكفرون، وخلق السباع الضارية والعادية، وخلق الحشرات الضارة والسامة، وخلق الحيات ونحوها من ذوات السموم، وخلق المؤمنين والكفار، وخلق الأبرار والفجار، وخلق الصادقين والكاذبين، كل ذلك بخلقه وإيجاده، وهو داخل في عموم قدرته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] وداخل في عموم مشيئته: ﴿وما تشاءون إلاَّ أن يشاء اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا لا يكون في الوجود إلا ما يريد.

. . . .

ولابد أن نعرف قبل ذلك أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية وإرادة شرعية.

فالإرادة الكونية: هي التي يدخل فيها جميع الموجودات، من الكفر والطاعات، والمعاصي والإيمان. نقول: إنها كلها مرادة؛ كونًا وقدرًا.

بمعنى أنه تعالى أرادها وأوجدها وخلقها وكونها بقدرته العامة التي لا يخرج عنها شيء فهو الذي مكن العصاة من المعاصي وأعطاهم القوة التي يزاولون بها أعمالهم من طاعات ومعاص، وحسنات وسيئات، ولو شاء لأعجزهم وحال بينهم وبين الكفر والفسوق، فإن قدرته أقوى من قدرتهم وقوتهم خاضعة لقوة الله تعالى، وقد كثر تعليق الأمور الواقعة بمشيئة الله تعالى كما في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه إرادة كونية بمعنى المشيئة العامة كما في الدعاء المأثور: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فقد أثبت لهم مشيئة ثم ربطها بمشيئته سبحانه، وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]؛ أي لا يحصل لهم تذكر إلا بعد مشيئة الله تعالى وإرادته الكونية القدرية التي يدخل فيها جميع الكائنات والحوادث من الطاعات والمعاصي.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٧٥). في الأدب، والنسائي في اليوم والليلة برقم (١٢).

. . . .

وقد أخبر تعالى أنه يهدي من يشاء فضلاً منه وكرمًا، ويضل من يشاء عدلاً منه تعالى، كما في قوله: ﴿ومَن يُضْلل اللَّهُ فما لَهُ منْ هَادٍ (٣٦) ومَن يَهْد اللَّهُ فما لَهُ من مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]. ولكنه سبحانه علم من هو أهل للهداية فتفضل عليه، وأقبل بقلبه على الطاعة، ونور بصيرته، وقربه من الإيمان وأعانه عليه، كما علم الأشقياء وأهل الفساد فمكنهم من الكفر والفسوق بقدرته ولو شاء لهداهم أجمعين، ولا تكون قدرتهم أقوى من قدرته.

أما الإرادة الدينية الشرعية: فهي أنه سبحانه أراد لعباده الصالحين الخير ويسره لهم وأحب منهم الطاعة وحثهم عليها، والدليل على هذه الإرادة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي عندما رخص لكم في الإفطار لمرض أو سفر. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]، وهذه الإرادة يدخل فيها جميع الطاعات والحسنات، فالله تعالى أراد من جميع الخلق أن يعبدوه ويطيعوه وأحب منهم أن يسلموا ويعملوا عملاً صالحًا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فالإرادة الكونية القدرية يدخل فيها جميع الكائنات من الطاعات والمعاصي.

. . . .

فطاعة المطيع وإيمان المؤمن قد أراده الله كونًا وقدرًا فحصل، وأراده دينًا وشرعًا وأحبه.

وكفر الكافر ومعصيته قد أرادها الله كونًا وقدرًا فوجدت، ولم يردها دينًا وشرعًا ولم يحبها.

فالكونية تستلزم حصول مرادها دون محبته.

والشرعية لا يلزم حصول مرادها ولكن يلزم محبته.

فهو سبحانه أمر الناس كلهم بطاعته وطاعة رسوله وأحبها منهم وأرادها دينًا وشرعًا، ونهاهم عن معصيته وكرهها لهم ولم يردها دينًا وشرعًا.

وأخبر سبحانه بأنه يحب المتقين ويريد منهم فعل التقوى مع أنه الذي أعانهم وقواهم، ويحب المحسنين والصابرين والمقسطين، ويريد من الخلق كلهم أن يتقوه ويحسنوا العمل ويقسطوا ويعدلوا، مع أنه الذي يوفقهم لذلك، كما أخبر بأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويثيبهم على ذلك وهو الذي هداهم ووفقهم، كما أخبر بأنه لا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يحب الكافرين مع أنه لو شاء لهداهم أجمعين، وأخبر بأنه لا يأمر بالفحشاء شرعًا، ودينًا، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد بل قد نهى عنه وتوعد عليه بالعقاب.

❁ ❁ ❁

أفعال العباد:

[والعِبَادُ فاعِلُونَ حَقيقةً، واللّهُ خَلَقَ أَفْعالَهُمْ.

والعَبْدُ هُو: المُؤمِنُ، والكافِرُ، والبَرُّ، والفاجِرُ، والمُصلِّي، والصَّائِمُ.

ولِلْعِبادِ قُدْرَةٌ على أَعْمالِهِمْ، ولَهُم إرادَةٌ، واللّهُ خَالِقُهُم وخَالِقُ قُدْرَتِهِم وإرادَتِهِم؛ كَما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]].



▪ **قوله: (والعباد فاعلون حقيقة والله خلق أفعالهم...):**

إذا عرفنا أن ما في الكون من مخلوقات فهو مقدَّر ومخلوق لله، بما في ذلك: حركات العباد وأفعالهم، وقلنا: إن الله هو خالق العباد، وخالق أفعالهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الذي أقدر المؤمن على الإيمان، وقوى العاصي على العصيان، وذلك لأن الله تعالى كامل القدرة، فلا يقدر عبد أن يعصيه قسراً، ولا يقدر إنسان أن يفعل ما لا يشاؤه الله، بل مشيئة العبد وقدرته مسبوقة بمشيئة الرب وقدرته.

ومع ذلك فإن الله جعل في العباد قدرة واستطاعة يزاولون بها أعمالهم، وبهذه القدرة التي فيهم، نسبت إليهم الأعمال، فصار ينسب العمل إلى



. . . .

العبد، فيقال: هذه صلاتك، وهذه حسناتك، وهذه سيئاتك، فتنسب إليه أعمال الخير؛ لأنه مصدرها، وإن كانت مقدرة ومكتوبة عليه، وإن كانت مخلوقة لله قبل فعله، وتنسب إليه أيضًا أعمال السوء فيقال: هذه سيئات فلان، أساء فلان في كذا، فتنسب إليه الأعمال السيئة، لأنه مصدرها، فلأجل ذلك نعتقد أن العباد فاعلون حقيقة وأنهم مخلوقون هم وأفعالهم .

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فالعباد فاعلون حقيقة، ولكن الله خالقهم، وخالق أفعالهم، فللعبد قدرة وله إرادة، ولكن قدرة الله غالبة على قدرته، وإرادة الله غالبة على إرادته، فإذا شاء العبد أمرًا ولم يشأه الله لم يكن ولم يقع، فلا يقع إلا بعد مشيئة الله الكونية الأزلية القدرية.

فإذا عرفنا أن العبد تنسب إليه أفعاله، فإن هذا هو مناط التكليف، فالعبد له قدرة وله إرادة، ولذلك فإنه ينسب إليه الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] كل هذا دليل على أن العبد ينسب إليه الإيمان.

وكذلك ينسب إليه ضد الإيمان وهو الكفر فيقال: هذا قد كفر بالله كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١]،



. . . .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] وقال سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] والآيات في ذلك كثيرة جداً.

فالعبد ينسب إليه أنه مؤمن وبرّ؛ لأنه يفعل أنواع البر، وكذلك يقال: هو فاجر؛ لأنه فعل أنواع الفجور وأسندت إليه، فهو البَر والفاجر، وهو المصلي والصائم، هذه صلاته، وهذا صيامه: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢، ٢٣] ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

دلَّ على أن الأفعال من طاعات وعصيان تنسب إلى فاعليها، فالعبد هو المؤمن وهو الكافر، وهو البَر وهو الفاجر، وهو المصلي والصائم، وهو المطيع والعاصي.

وللعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولولا هذه القدرة ما كلفوا، ولأجل ذلك يذكر الله تعالى قدرتهم كما في قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

فأخبر بأنه له قدرة، وكما أن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] دل على أن للعبد استطاعة، وبهذه القدرة والاستطاعة أصبح

. . . .

مكلفًا ومأمورًا، ومنهيًا، ومحاسبًا، ومثابًا، ومعاقبًا.

❁ ❁ ❁

مَنْ ضل في القدر:

[وهذه الدَّرَجَةُ مِنَ القدَرِ يُكَذِّبُ بها عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذين سَمَّاهُم النَّبِيُّ ﷺ: مَجُوسَ هذه الأمة[1]، ويَغْلُو فيها قومٌ مِنْ أَهْلِ الإثْبات، حتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيارَهُ، ويُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وأَحْكامه حُكْمَهَا ومَصالِحَها].



▪ قوله: (وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية...):

هذه الدرجة من القدر هي التي أنكرها القدرية عمومًا، فهم الذين ينكرون قدرة العبد، وقد اشتهروا باسم المعتزلة، فهم ينكرون قدرة الله، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: القدر قدرة الله، يعني من آمن بأن الله تعالى على كل شيء قدير، لزمه الإيمان بالقدر، ومن آمن بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لزمه الإيمان بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون هذه الدرجة، يجعلون ذلك من باب العدل، ويسمون ذلك عدلاً، ويقولون: كيف يخلق الأفعال فيهم ثم يعاقبهم على ما خلق فيهم، هذا ظلم!! إذن فنحن مضطرون إلى أن نقول: إنهم هم الذين

(١) في قوله ﷺ: «إن لكلّ أمة مجوسًا، وإن مجوس هذه الأمة الذين يزعمون أن لا قدر». أخرجه أبو داود برقم (٤٦٩٢) في السنة، وأحمد في المسند (٥/ ٤٠٦، ٤٠٧)، وهو حديث حسن بشواهده. انظر: السنة لابن أبي عاصم بتحقيق الألباني (١/ ١٤٤-١٤٦).

. . . .

يخلقون أفعالهم، وأن الله لا يقدر منهم على شيء، وأن قدرتهم غالبة على قدرة الله، واختيارهم غالب على اختيار الله.

هذا قول المعتزلة، وهو قول فيه تنقص لله تعالى، واعتراض على تمام وكمال قدرته التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

فما دامت القدرة عامة؛ دخل فيها أفعال العباد وحركاتهم.

فهؤلاء القدرية يُسمون مجوس هذه الأمة، سماهم بذلك النبي ﷺ في حديث في السنن وإن كان فيه مقال عن حذيفة **«إن مجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تتبعوهم»**[1].

وجه التسمية: أن المجوس يزعمون أن الكون مخلوق من اثنين: أن خالق الخير هو النور، وخالق الشر الظلمة، أما هؤلاء القدرية فإنهم يجعلون الخالق متعددًا وليس متوحدًا، فعندهم أن كل واحد يخلق فعله؛ فالمجوس جعلوا مع الله خالقًا، وهؤلاء جعلوا خالقين كثيرًا، فبذلك أشبهوا المجوس.

وأما كونهم يقولون: إن هذا من باب العدل، فنقول: إن الله تعالى أعدل العادلين، وله الحجة البالغة، وما أرسل الرسل إلا لقطع حجة الخلق، وقد قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فلما أخبر بأن له الحجة البالغة، دلَّ على أن قولهم بأن العبد يخلق فعله، وأنه

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٨.

. . . .

ليس لله قدرة على ذلك؛ فيه تنقص لله تعالى، فنقول: لو شاء الله لهداهم، مع أنه له الحجة عليهم.

فقد عرفت أن قولهم هذا فيه تنقص لله تعالى، وأن قول أهل السنة هو أن للعباد قدرة واختيارًا، ولكن ذلك الاختيار مسبوق وملحق بقدرة الله تعالى وبإرادته الكونية القدرية.

وهناك نوع آخر من القدرية؛ وهم القدرية المجبرة، الذين يخرجون عن أفعال الله تعالى حكمها ومصالحها.

فهؤلاء غلوا في الإثبات، وأولئك غلوا في النفي، فالقدرية المجبرة هم الذين يزعمون أن العبد مجبور على أفعاله، وأن ليس له اختيار أبدًا، ويجعلونه معذورًا في هذه الأفعال، بحيث لا يكون له أي اختيار أصلاً، بل هو متصرفٌ فيه، ويجعلون حركته كحركة المرتعش، أو كحركة الشجرة عندما تهب الرياح حيث تتحرك الشجرة بغير اختيار لها.

هذا قول هؤلاء الجبرية؛ الذين يزعمون أن العبد مجبور ملزم بأفعاله، ليس له أي اختيار، ويحتجون بالقدر، ويقول فيهم ابن القيم في قصيدته الميمية:

وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ظهيرًا على الرحمن للجبر تزعمُ

ويقول فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

. . . .

وتدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طراً معشر القدرية
سواء نفوه أو سَعَوْا ليخاصموا به الله أو ماروا به في الخليقة

وذلك لأن من حججهم أنهم يقولون: كيف يخلق الله هذا العبد وأفعاله ثم يعاقبه عليها؟ إن هذا هو الظلم البين!!

يقول قائلهم:

دعاني وسدَّ الباب دوني فهل إلى دخولي سبيل بينوا لي حُجَّتي

فنقول: إنه تعالى أعطاك قدرة أنت مكلف بها وأنت قادر بها، فليس هو بظلام للعبيد، فإذا اخترت هذا العمل أصبحت ملومًا، وإن كان مخلوقًا فيك، وإن كان الله هو الذي خلق وقدر وهدى، وله المشيئة السابقة على مشيئة العباد، كما في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦] كذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

وغير ذلك من الآيات؛ حيث جعل مشيئة العبد مسبوقة بمشيئة الله، وأثبت للعبد مشيئة؛ وذلك لأنه تعالى بيَّن له الطرق، وأوضح السبل، وأظهر

. . . .

الحق والباطل، وأقام عليه الحجة، وأعطاه قدرة وإن كانت هذه القدرة داخلة في قدرته وقال: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وأخبر بأن الأبرار لفي نعيم، والفجار لفي جحيم.

وقال لهم: هذا طريق الخير فاسلكوه، وهذا طريق الشر فاجتنبوه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فتوفيق الله لمن شاء يعتبر منةً ونعمة وفضلاً، وخذلانه لمن شاء وعدم توفيقهم يعتبر حكمة وعدلاً، وله تعالى الحكمة البالغة والحجة الدامغة. فالذين أنكروا القدر كليًا أنكروا قدرة العباد، وسلبوا العبد قدرته واختياره.

هؤلاء هم الذين نفوا عن أفعال الله تعالى حكمها ومصالحها، وصاروا لا يعللون، إنما يستدلون بالآية الكريمة في سورة الأنبياء ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلا يجعلون لله حكمة في شيء من الأشياء، ولا في شرع من الشرائع أصلاً، فيقولون: إنه يعذب بدون اختبار وبدون ذنب، ويثيب بدون عمل، ولو عاقب لجاز له أن يعاقب، ولو عذب لجاز له أن يعذب. يجوز أن ينعّم أفسق الناس، وأن يعذب أتقى الناس.

ويستدلون بهذه الآية: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يجعلون ذلك حسب هذا القول.

ولاشك أن هذا مخالف للنصوص الصريحة التي نفى الله تعالى فيها الظلم عن نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَأَنَّ

. . . .

اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وما أشبه ذلك، فإنه لو فعل ذلك لأصبح ظلمًا، وقد قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[1].

ولاشك أن تعذيب المطيع يعتبر ظلمًا، والله تعالى منزه أن ينسب إليه شيء من ذلك، فهذا ونحوه مما يبطل قول هؤلاء الذين ينفون عن أفعال الله حكمها ومصالحها.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧) في البر والصلة، باب: «تحريم الظلم». عن أبي ذر رضي الله عنه.



تعريف الإيمان

[فصل: ومِنْ أُصولِ الفِرْقَةِ النَّاجيةِ: أنَّ الدِّينَ والإيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ: قَوْلُ القَلْبِ وَاللِّسانِ، وَعَمَل القلبِ واللِّسانِ والجَوارِح.

وأن الإيمانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمعْصِيَةِ].



▪ قوله: (فصل: ومن أصول الفرقة الناجية: أن الدين والإيمان قول وعمل:...):

من أصول أهل السنة: القول في الإيمان؛ لأن الإيمان والدين قول وعمل واعتقاد، وأنها كلها داخلة في الدين وفي الإيمان، فالإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، وأن الأعمال من مسمى الإيمان؛ الأعمال التي هي العبادات داخلة في الإيمان.

فليس الإيمان هو العقيدة فقط، بل الإيمان أصله التصديق، ولكن تدخل الأعمال في مسمى الإيمان، فالصلاة من الإيمان قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم. والصدقة من الإيمان، وصلة الأقارب والأرحام من الإيمان، وكذلك الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والنصيحة للمسلمين، وفعل الخير معهم، كل هذا

. . . .

من الإيمان.

وكذلك الأذكار القولية، والكلمات الطيبة كلها من الإيمان: كلمة الشهادتين من الإيمان، والتسبيح والتكبير من الإيمان، وقراءة القرآن من الإيمان؛ إذا كان بنية صادقة، وتعلم العلم وتعليمه من الإيمان؛ إذا كان لوجه الله، وهكذا سائر الأقوال المحمودة داخلة في اسم الإيمان.

فالأعمال من الإيمان يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا** ﴾ [السجدة: ١٥] فجعل الخرور من علامات الإيمان، وجعل التسبيح من الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢] فوجل القلب من الإيمان ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢] فالتأثر بالآيات من الإيمان ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢] والتوكل عمل قلبي وهو من الإيمان ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣].

إقام الصلاة والنفقة في سبيل الله وفي وجوه الخير وعلى المستحقين، كل ذلك من الإيمان ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: ٤] ويقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[الحجرات: ١٥] فجعل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله من الإيمان، فظهر بذلك أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

. . . .

وخالفت في ذلك طائفة المرجئة، حيث جعلوا الإيمان مجرد التصديق وقالوا: إن هذا أصله في اللغة.

والجواب: صحيح أن أصل الإيمان في اللغة هو التصديق، ولكن الشرع استعمله استعمالاً خاصًا، فله مسمى شرعي وله مسمى لغوي، كما أن الكفر استعمله الشرع استعمالاً خاصًا. الكفر لغةً: الستر والتغطية، ولكن استعمله الشرع في إنكار الدين وردٍّ الشرع.

النفاق في اللغة: معناه الاستخفاء، أما النفاق في الشرع فهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

فإذًا هذه مسميات شرعية؛ الكفر، والشرك، والنفاق، والإيمان، والإسلام ونحوها كلها مسميات نقلها الشارع من المسمى اللغوي إلى المسمى الشرعي، فأصبحت أعمالاً من شعائر الدين، كما أن الشرع أيضًا نقل العبادات من مسماها اللغوي إلى مسماها الشرعي.

فالعرب ما كانوا يعرفون أن الصلاة هي مجموع هذه الأعمال، إنما الصلاة عندهم الدعاء.

وما كانوا يعرفون الصيام بأنه هذا الإمساك في رمضان ونحوه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما الصيام عندهم مجرد الإمساك عن الحركة ونحوها.

ونقل الشارع اسم الزكاة من التطهير إلى هذا الجزء من المال الذي يخرج، ونقل الصلاة ونحوها من معناها اللغوي الذي تعرفه العرب إلى معنى آخر شرعي.

. . . .

فأصبح الإيمان شرعًا هو: **القول باللسان**، كالنطق بالشهادتين والأذكار.

والاعتقاد بالجنان؛ كاعتقاد وحدانية الله والتصديق بأسمائه وصفاته واعتقاد الجزاء على الأعمال، واعتقاد البعث والنشور وما أشبهه.

والعمل بالأركان: كالركوع، والسجود، والطواف بالبيت، والصلاة، والجهاد.

الكل داخل في اسم الإيمان.

ويتفاوت أهل الإيمان في الإيمان: فبعضهم إيمانه أكبر من الجبال، وبعضهم إيمانه أقل من الذرة أو مثل الذرة، كما في قول الله تعالى لنبيه ﷺ في حديث الشفاعة: «**انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها**». حتى قال: «**انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها**»[1].

فيدل على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان؛ إذا ذكرنا الله وصلينا وصمنا وتصدقنا وعملنا أعمالاً خيرية، كثر إيماننا وقوي. وإذا غفلنا ولهونا وعصينا، نقص إيماننا وضعف.

والله تعالى قد ذكر أن الإيمان يزيد، وكل شيء يقبل الزيادة فهو قابل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠) في التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم». ومسلم برقم (١٩٣) [٣٢٦] في الإيمان.

. . . .

للنقصان، قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فإذا كان الإيمان يقبل الزيادة، فإنه يقبل النقصان.

ولقد كان السلف يعترفون بذلك فيقول أحدهم: اجلس بنا نؤمن ساعة؛ أي نذكر الله تعالى أو نعمل بعض الأعمال الصالحة التي تكون في كفة الأعمال الصالحة، فيثقل بها ميزان حسناتنا يوم القيامة، ويقوى بها إيماننا ويزيد في الدنيا.

فالعبد في أحواله كلها إما في زيادة إيمان، وإما في نقصان إيمان، فإذا تكلم بكلمة خير زاد إيمانه، وإذا تكلم بكلمة شر نقص إيمانه، فإذا ذكر الله وسبحه كان هذا خيرًا، وإذا سبَّ الله وسبَّ دينه وشتم المسلمين ونحو ذلك نقص إيمانه بحسب ما فعل، وقد يذهب إيمانه بالكلية. وإذا أخرج درهمًا وتصدق به لوجه الله زاد إيمانه، وإذا أخرج مالاً كثيرًا أو قليلاً في سبيل الشيطان، اشترى به لهوًا أو لعبًا، أو عمل به عمل سوء، نقص بذلك إيمانه. إذا خطا خطوات إلى المساجد ليؤدي العبادات ونحوها زاد إيمانه، وإذا خطا خطوات إلى آلات الملاهي وأماكن الغناء والرقص ونحوها نقص بذلك إيمانه.

. . . .

فهو بين هاتين الحالتين، ولأيهما يكون أغلب، فمن يكون إلى الخير دائمًا يزيد إيمانه ويقوى، فإن قوته هذه تكون مسيطرة على الضعف، فإذا أراد الجانب الثاني أن يزاحم هذا الإيمان القوي لم يجد منفذًا، بل يجد قلبًا ممتلئًا بالإيمان، فإرادة الشر لا تجد لها محلاً، فلا يكون للشر سبيل إلى قلب هذا المؤمن ، الذي قوي إيمانه، وتضاعفت وكثرت أعمالُه الصالحة.

فعلى كل حال، الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، وهو قول أهل السنة، وخالفت في ذلك المرجئة الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق، وخالفت في ذلك أيضًا طوائف من فقهاء الحنفية وجعلوه عمل القلب، وقالت أيضًا طائفة: إن الإيمان مجرد المعرفة، ولهم أقوال في ذلك كلُّها منتقدة.

* * *

حكم مرتكب الكبيرة

[وهُمْ مَعَ ذلكَ لا يُكَفِّرونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ، بلِ الأخُوَّةُ الإِيْمَانِيَّةُ ثابتَةٌ مَعَ المَعَاصي؛ كَمَا قَالَ سُبْحانَهُ في آيةِ القِصاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقالَ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]].



▪ **قوله: (وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج...):**

في هذا الفصل: هل يُكفَّر المؤمن بمجرد المعصية؟ وهل المعصية تخرج العبد من الإيمان وتدخله في الكفر أم لا؟

ذهبت الخوارج إلى أن من أصرَّ على معصية خرج من الإيمان، وأصبح

. . . .

كافرًا حلال الدم والمال، فعندهم أن الإنسان إذا قتل مسلمًا فهو كافر وخارج من الإسلام، وهكذا من أكل الربا، أو أكل مال اليتيم، أو زنا أو سرق أو شرب خمرًا أو ما أشبه ذلك، عندهم أنه كافر بالله، حلال الدم والمال، حكمه كحكم اليهود والنصارى، والمشركين والشيوعيين وسائر الملحدين، حلالٌ دماؤهم وأموالهم، هكذا عند الخوارج.

أما أهل السنة فيقولون: إنه باقٍ معه اسم الإيمان لا نخرجه من الإسلام والإيمان بهذا الذنب، بل نسميه عاصيًا، والدليل عليه هذه الآيات، منها آية القصاص: فإن الله سمى القاتل مؤمنًا مع كونه قاتلاً في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالقاتل إذا قتل إنسانًا مسلمًا لم يخرج بذلك عن حد الأخوة الإسلامية، فإذا طلب الولي القصاص مُكِّن من ذلك وقتل القاتل؛ لأن النفس بالنفس، فإذا قال: عفوت عنك أيها القاتل، فأعطني الدية، فإنه قد عفا عنه، فذلك المعفو عنه وهو القاتل عليه أن يؤديها بإحسان، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فسماه أخًا مع كونه قاتلاً ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾.

وكذلك قوله في آية البغاة: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات: ٩] فسماهم مؤمنين مع كونهم يتقاتلون، هذه تقاتل هذه وهذه

. . . .

تقاتل هذه؛ لأمور دنيوية ونحوها، ومع ذلك سماهم مؤمنين، وأمرنا أن نتدخل ونصلح بينهم ونفصل هؤلاء عن هؤلاء. وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] وقولوا لهم: لِمَ تتقاتلون وأنتم كلكم مؤمنون؟، فلم يخرجهم تقاتلهم هذا من الإيمان.

فعلى كلٍ لاشك أن القتال ونحوه ذنب كبير، ولكن لا يصل إلى حد الكفر وإباحة المال والدم، والجزم بأنهم من أهل النار ومن أهل العذاب، وإنما نقول: إنهم مذنبون ومخطئون، وعلى المسلمين أن يتدخلوا في الصلح بينهم، حتى يعودوا إلى الأخوة الإسلامية.

* * *

حكم الفاسق المِلِّي:

[وَلا يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإسْلامَ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُخَلِّدونَهُ في النَّارِ، كَما تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ.

بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمانِ؛ كَما في قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وَقَدْ لا يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَق؛ كَمَا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقولِهِ ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حينَ يَزْنِي وهُو مؤمِنٌ، ولا يسرقُ السَّارِقُ حينَ يسرقُ وهُو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمر حينَ يشربُها وهُو مُؤمنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يرْفَعُ النَّاسُ إليه فِيها أَبْصارَهُمْ حِيْنَ يَنْتَهِبُها وهُو مُؤمِنٌ»[1].

ونقولُ: هو مؤمِنٌ ناقِصُ الإيمانِ، أَو مؤمِنٌ بإيمانِهِ فَاسِقٌ بِكَبيرَتِهِ، فَلا يُعْطى الاسْمَ المُطْلَقَ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسم].



▪ قوله: (ولا يسلبون الفاسق المِلِّي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقوله المعتزلة...):

هذا كلام في حكم العاصي: وهو المقترف لذنب أو كبيرة وفيه ثلاثة

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٧٥) في المظالم، باب: «النهي بغير إذن صاحبه». ومسلم برقم (٥٧) في الإيمان، باب: «بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



. . . .

مذاهب :

المذهب الأول : مذهب الخوارج :

وهم الذين يكفِّرون بالذنوب ، ويخرجون العاصي وصاحب الكبيرة من الإيمان ويدخلونه في الكفر ويخلِّدونه في النار ، وينكرون ـ لأجل عقيدتهم ـ خروجه من النار بشفاعة الشافعين أو بغير ذلك ، ويقولون : إن من دخل النار خُلِّد فيها فلا يخرج منها أبدًا . هذه عقيدة الخوارج .

ولما اعتقدوا هذا المعتقد ؛ من أن صاحب الكبيرة كافر ، نتج عن اعتقادهم استباحة دماء المسلمين وأموالهم ، فصار صاحب الكبيرة عندهم بمنزلة الكفار ؛ يُقتل ، ويُسلب ماله وأهله ، ويسترق أولاده ونساؤه ، وإذا قُتل فإنه لا يدفن في مقابر المسلمين مادام أنه صاحب كبيرة ، كالقتل والزنا وشرب الخمر وأكل الربا وما أشبه ذلك ، فهذه عندهم كبائر تخرج من الإيمان وتُدخل في الكفر ، وصاحبها في النار ولا يخرج من النار أبدًا . هذا هو مذهب الخوارج .

المذهب الثاني : مذهب المعتزلة :

فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمه في الآخرة ، وخالفوهم في حكمه في الدنيا ، اتفقوا مع الخوارج على أن من مات وهو على كبيرة غير تائب منها ، فإنه في النار مخلد فيها لا يخرج منها أبدًا ، وجعلوا ذلك أصلاً من أصولهم الخمسة ، ويسمونه : إنفاذ الوعيد فيقولون : إن الله إذا وعد وفّى بوعده ، وكذلك إذا توعد فإنه لا يخلف وعيده ، وقد يستدلون ببعض الآيات



. . . .

مثل قوله تعالى: ﴿ كُلَما أرادُوا أن يخْرُجُوا منْها منْ غمٍ أُعيدُوا فيها ﴾ [الحج: ٢٢] فقالوا: هذا دليل على أنهم لا يخرجون ومثل قوله تعالى: ﴿ وما هُم بخارجين من النَار ﴾ وأمثال هذه الآيات.

وجواب أهل السنة: إن هذه الآيات خاصة بمن مات على الكفر، وليست الآيات فيمن مات وهو موحد مسلم وإن كان مذنبًا.

فالمعتزلة والخوارج اتفقوا على أن صاحب الكبيرة في النار خالدًا مخلدًا لا يخرج منها أبدًا.

أما في الدنيا، فإن المعتزلة يخرجونه من الإيمان، ولا يدخلونه في الكفر، بل يجعلونه في منزلة بين المنزلتين، فيقولون: لا نواليه ولا نوادّه ولا نحبه، بل نقاطعه ونعاديه، ولو كان أقرب قريب، لكن لا نقاتله كقتالنا للكفار، ولا نقول حل ماله، ولا حلَّ دمه، ولا حل استرقاق نسائه، ولا نجعله مثل الكفار الذين يُقاتلون، ولا مثل المؤمنين الذين يُوالون، بل نخرجه من الإيمان ولا ندخله في الكفر.

هذه هي المنزلة بين المنزلتين، وهي من أصول المعتزلة الخمسة. والأصول الخمسة هي: التوحيد، والعدل، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالتوحيد عندهم: قصدوا به نفي الصفات وقالوا: إذا أثبتنا صفة سمعٍ وبصرٍ ويد ووجه وقدرة وعلم، أثبتنا عددًا، والصفات قديمة فلا نكون أثبتنا واحدًا، حيث أثبتنا القدم لعدد كثير، فلا يثبت توحيد الإنسان عندهم إلا إذا

. . . .

نفى الصفات، ولم يثبت إلا ذاتًا بدون صفات.

فالتوحيد عندهم هو نفي الصفات؛ لأنه يلزم عندهم لإثبات الصفات تعدد القدماء.

وأجاب أهل السنة بأن الصفة تتبع الموصوف، وأن الله واحد بصفاته، وأنه قديم بصفاته.

والعدل عندهم: أرادوا به عدم خلق أفعال العباد، فيقولون: كيف يقدِّرُ على الإنسان الذنب ويعاقبه عليه، فالعبد عندهم هو الذي يخلق فعل نفسه، فلا يمكن أن يكون الله هو الذي قدَّر عليه الكفر وكتب عليه أنه شقي ثم بعد ذلك يعاقبه، هذا ظلم عندهم، إذًا الله ليس بقادر على أن يهدي من يشاء ولا يضل من يشاء، بل العبد هو الذي يعمل ويخلق فعل نفسه، ولأجل هذا القول أصبحوا مشركين لأنهم جعلوا الله يعصى قسرًا، وجعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله. هذا هو العدل عندهم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم: فمعناه القيام على الولاة والخروج على السلاطين إذا أتوا منكرًا، ولو حصل ما حصل من فتن وإراقة دماء.

أما إنفاذ الوعيد فقد أشرنا إليه قبل قليل.

المذهب الثالث: **مذهب أهل السنة**:

وهو أنه لا يُخرج صاحب الكبيرة من الإسلام ولا يدخل في الكفر،

. . . .

ولكن لا يعامل كمعاملة المسلمين بالمحبة والمودة، ولا يستباح دمه وماله كالكفار، وإنما هو عاص وليس بخارج من الإيمان.

هذا حكمه في الدنيا، وأما حكمه في الآخرة فتحت مشيئة الله، فإن شاء عفا عنه وغفر له كبيرته وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه في النار بقدر ذنوبه ومآله إلى الإخراج؛ وذلك لتواتر الأحاديث عن النبي ﷺ؛ أنه لا يبقى في النار أحد من أهل التوحيد وأهل لا إله إلا الله، وأنه يُخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وكذلك الأحاديث التي في شفاعته ﷺ وأنها نائلة من مات لا يشرك بالله شيئًا وأشباه ذلك من الأحاديث.

وفي الحقيقة أنك قد تجد أحاديث تخالف هذه القاعدة، وتوافق أقوال المعتزلة أو الخوارج، وقد تجد أيضًا آيات في ذلك، فتجد بعض الآيات يترتب فيها الوعيد على ذنب دون الشرك، كالوعيد في آية القتل عمدًا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] فهذا وعيد شديد والذنب دون الشرك.

ومثل آكل الربا في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

ومثل آكل مال اليتيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وأشباه ذلك.

. . . .

ومثلها في الأحاديث فقد ورد وعيد شديد على بعض الذنوب كقوله ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**»[1] أي نمام. وقوله ﷺ : «**ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[2]. وقوله في الحديث: «**من عقد لحيته، أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة فإن محمدًا بريء منه**»[3]. وحديث: «**من غشنا فليس منا**»[4] وأشباه ذلك أحاديث كثيرة.

وربما تُوعِّد عليها بالنار وبالخلود في النار، فما موقفنا من هذه الأحاديث؟

موقف أهل السنة من هذه الأحاديث أنها تُجرى على ظاهرها؛ ليكون أبلغ في الزجر. ولكن بعض العلماء رحمهم الله حاولوا تأويلها، وقد تكلفوا فتجد أحاديث كثيرة في هذا الباب في صحيح مسلم في الجزء الثاني من المجلد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٦) في الأدب، باب: «ما يكره من النميمة». ومسلم برقم (١٠٥) في الإيمان، باب: «بيان غلظ تحريم النميمة». عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٧) في الجنائز، باب: «ليس منّا من ضرب الخدود». ومسلم برقم (١٠٣) في الإيمان، باب: «تحريم ضرب الخدود...». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٦) في الطهارة. والنسائي (٨/ ٣٥) كتاب الزينة برقم (٥٠٦٧) وأحمد في المسند (٤/ ١٠٨، ١٠٩) وصححه الألباني. انظر هامش حديث رقم (٣٥١) من مشكاة المصابيح.

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٠١) في الإيمان. باب: «قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الأول ففيه أحاديث كثيرة فيها الوعيد الشديد على بعض الذنوب والمعاصي وتجد الشارح وهو الإمام النووي رحمه الله قد تأول كثيرًا منها وحاول صرفها، وأكثر العلماء قالوا: إنها في مستحلٍّ ذلك، يعني محمولة على من فعل ذلك مستحلاً، بخلاف ما إذا فعله متأولاً أو متساهلاً في اعتقاده للتحريم، فإنه لا يخرج من الملة، ولا يدخل في الكفر، ولا يحكم بخلوده في النار، وذلك لأنه جاءت مع هذه الأحاديث التي في الوعيد أحاديث أخرى كثيرة في الوعد وفي إخراج الموحدين من النار. وتجدها ـ في أول المجلد الثاني في الجزء الثالث من صحيح مسلم وغيره.

ولصراحة هذه الأحاديث أخذ بها أهل السنة، كأحاديث الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، ولمّا لم يستطيعوا الجمع بين قبول هذه وقبول هذه، فعند ذلك قالوا: هذه الأحاديث التي في الوعيد نجريها على ظاهرها، ليكون أبلغ في الزجر. وأحاديث الوعد والبشارة بالخروج من النار ونحو ذلك؛ نقول بها لصراحتها.

وإذا تأول متأول أحاديث الوعيد فجعلها فيمن يستحل مثلاً، فمن استحل القتل يعتبر كافرًا، ومنازعًا لله تعالى، ومكذبًا بشرع الله؛ لأن تحريم القتل معلوم من الدين بالضرورة.

وكذلك تحريم الربا، وتحريم أكل مال اليتيم، وتحريم التولي يوم الزحف، وتحريم قذف المحصنات، وما أشبه ذلك، كله معلوم من الدين بالضرورة،

. . . .

فالذي يكذب به ويفعله مستحلاً له يكفر، وهكذا لو استحله ولم يفعله، فلو أفتى بإباحة أكل الربا صريحًا، وأجازه ولم يكن له تأويل سائغ كأن يحلّ الربا الصريح الذي هو كربا الجاهلية، فإنه يكفر ولو لم يستعمله ولو لم يأكله.

وكذلك لو أباح أكل مال اليتيم، أو أباح القذف مثلاً، مع علمه الصريح بأنه محرم في الشرع، فإنه يعتبر منازعًا لله، مكذبًا للنصوص، فيكفر بذلك سواء فعلها أو لم يفعلها.

فقاتل نفسه مثلاً ورد فيه وعيد شديد، ولذلك لا يصلي عليه الإمام ليكون أبلغ في الزجر، ولكن يصلي عليه غير الإمام لأنه لم يخرج من الإسلام؛ فقد ورد حديث في الصحيح فيه الوعيد الشديد لمن قتل نفسه عامدًا بأي صورة من الصور، وقد حمله العلماء على المستحل لذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من قتل نفسه بحديدة، فحديدته يجأ بها نفسه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه، فَسُمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردى من جبلٍ فقتل نفسه، فإنه يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»**[1].

فالذي يقتل نفسه فإنه يعذب في نار جهنم، وحمل ذلك على المستحل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٧٨) في الطب، باب: «شرب السمّ والدواء به». ومسلم برقم (١٠٩) في الإيمان، باب: «غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الذي يرى أن ذلك مباح، وذلك لأن الإنسان لا يملك نفسه ولو كانت نفسه التي بين جنبيه، فليس له أن ينتهك ما حرم الله ولو بقتل نفسه، كما أنه ليس له أن يتلف ماله ولو كان ماله الذي اكتسبه بيمينه.

فلو رأيناه يحرق ماله ويقول: هذا مالي وأنا حرٌّ فيه، منعناه وأخذنا على يده، بل حكمنا عليه بالجنون، وعدم المعرفة للمصلحة، وحجرنا عليه.

وهكذا أيضًا التصرف فيما هو ملك لله تعالى.

الحاصل أن أحاديث الوعيد، الصحيح فيها أنها تُجرى على ظاهرها، ليكون أبلغ في الزجر، مع اعتقاد أنه لا يبقى أحد من أهل التوحيد مخلدًا فيها، بل إن من مات وهو على الإيمان والتوحيد يعذب في النار بقدر ذنوبه وكبائره، ثم يخرج من النار بإيمانه وتوحيده.

هذا معنى قول شيخ الإسلام: إن أهل السنة يقولون في صاحب الكبيرة: إنه لا يعطى اسم الإيمان المطلق، ولا يُسلب مطلق الإيمان.

وهناك فرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؛ فالإيمان المطلق معناه: الكامل، فالعاصي لا يعطى الإيمان الكامل أو المطلق، والعاصي والمذنب لا يُسلب مطلق الإيمان، يعني اسم الإيمان، فاسم الإيمان يشمل العاصي والمطيع، والمذنب وغير المذنب، يدخلون كلهم في اسم الإيمان. يُقال: هذا معه إيمان، هذا من أهل الإيمان.

أما أهل الإيمان الكامل فهم الذين فعلو الواجبات، وكثيرًا من المستحبات

. . . .

أو جميعها، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات التي تشغل عن كثير من المستحبات، فهؤلاء أهل الإيمان المطلق التام، ولذلك فإنهم يدخلون الجنة على أول وهلة، وهؤلاء هم الذين لا حساب عليهم، وذلك لعدم السيئات التي اقترفوها، وإذا اقترفوا شيئًا من الذنوب، كانوا قد تابوا وأقلعوا عنه، فمحي عنهم بالتوبة، فهؤلاء هم أهل الإيمان المطلق الكامل، وهؤلاء هم الذين مدحهم الله في كثير من الآيات كهذه الآيات التي في أول سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

معلوم أن الله ما ذكر إلا خمس خصال، ولكن هذه الخصال تستتبع غيرها، فكونهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، يدل على أنهم سواء سمعوا ذكر الله بآذانهم، أو خطر ذكر الله بقلوبهم وجلت قلوبهم، أي خافت من هيبته، ولا شك أن هذا الوجل يحدث لهم ذكر الله، ويحدث لهم شكره وطواعيته، ويحدث لهم التزود من الطاعات، ويحدث لهم قوة الإيمان والمعرفة، والابتعاد عن الذنوب والسيئات والمخالفات، فكان هذا الذكر الذي يحصل به وجل القلب، يدخل فيه كثير من الحسنات أو يحدثها. هذه هي الخصلة الأولى.

وأما الخصلة الثانية: وهي زيادة الإيمان إذا تليت عليهم آياته، فالمراد بآياته: كلامه أو مخلوقاته التي جعلها دلالات على قدرته، فمتى تفكروا في

. . . .

مخلوقاته زاد إيمانهم، وكذلك متى سمعوا كلامه زاد إيمانهم.

كيف يزيد إيمانهم؟ مجرد السماع هل يكون سببًا في الزيادة؟

نعم؛ لأنهم متى سمعوا طبقوا، ومتى رأوا الآيات أو ذُكروا بها اعتبروا، فقوي إيمانهم الذي في القلب، بمعنى أنهم ازدادوا ثباتًا وطمأنينة في قلوبهم، ونتج عن ذلك أيضًا كثرة الأعمال، فتجدهم يكثرون من ذكر الله، ويكثرون من شكره والاعتراف بمنته، ويقبلون على التزود من أنواع عبادته، والتزود لاشك أنه يكون بأعمال يضيفونها إلى أعمالهم السابقة، فيكون ذلك زيادة في إيمانهم، فإن الإيمان - كما تقدم - يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فالآيات التي يسمعونها، إذا سمعوها عملوا بموجبها، فزادت حسناتهم وزادت أعمالهم الصالحة، فقوي وزاد إيمانهم ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وأما الخصلة الثالثة: وهي قوة توكلهم على الله وحده، فإن هذا وإن كان عملاً قلبيًا وهو التوكل، فإنه ينتج منه الرضا بالله حسيبًا ووكيلاً، بحيث يفوضون إليه أمورهم، ويرضون بتدبيره وتصرفه، ولا يعترضون على شيء من أحكامه وقضائه وقدره، وكذلك يتوكلون عليه في كل أمورهم وشئونهم وما أشبه ذلك ويثقون أنه حسب من توكل عليه.

أما الحديث: ففيه أيضًا نفي الإيمان عن بعض العصاة، فإن قول النبي ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع**



. . . .

الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[1] .

هذه الخصال الأربع من كبائر الذنوب، متوعدٌ عليها بوعيد شديد في الدنيا؛ بالجلد مثلاً للزاني غير المحصن وكذلك القاذف، أو الرجم للزاني المحصن، أو بقطع اليد للسارق، أو ما أشبه ذلك من العقوبات المقررة شرعًا. وهناك وعيد في الآخرة أيضًا، لأنه قد اختلف: هل الحدود مكفرة لتلك الذنوب المقترفة أو ليست بمكفرة.

فالحاصل أن هذه ذنوب وكبائر، وفيها وعيد شديد، ولو لم يكن فيها إلا هذا الحديث الذي فيه أنه ليس بمؤمن؛ **«لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** إذًا ماذا يكون؟ هل يكون كافرًا إذا شرب الخمر؟ من العلماء من يقول: إن الإيمان ينتزع عنه، إذا تلبس بالزنا خرج منه الإيمان، وصار عليه كالظُّلَّة، فإذا تاب رجع إليه، ولا يرجع إليه الإيمان كاملاً، بل يكون ناقصًا، وهكذا إذا تلبس بجريمة شرب الخمر، فإنه ينتزع منه الإيمان، فلا يكون مؤمنًا في تلك الحالات، فإذا تاب رجع إليه الإيمان، وهل يرجع الإيمان كما هو أم يرجع ناقصًا متغيرًا؟ لاشك أنه يرجع ناقصًا فهذا قول.

والقول الثاني: أننا نُسميه فاسقًا، لا نسميه مؤمنًا ولا كافرًا، بل نطلق عليه الفسق، وذلك لأن الفسق اسم للخروج عن الطاعة، وإن كان قد يطلق الفاسق على الكافر، وقد يحكم على الفاسق بأنه في النار كما قال تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٨٣ .

. . . .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠] لكن كأنهم في عرفهم جعلوا الفسق أقل من الكفر وفي منزلة دون الكفر.

فعلى كلِّ حال: أطلق بعض العلماء على هؤلاء العصاة ـ على الزاني والسارق وشارب الخمر، والمنتهب الذي يختطف أموال الناس، ويذهب بها ويخطفها غصبًا ـ أطلقوا عليه أنه فاسق، وأطلق عليه بعضهم أنه عاص، وقال بعضهم: إنه مؤمن بإيمانه، يعني بتوحيده وشهادته، وفاسق بكبيرته وذنبه الذي اقترفه، فيكون ليس بمؤمن كامل الإيمان، فيسلب الإيمان المطلق الذي ذكر في الآية التي فيها خصال الإيمان ولا يسلب مطلق الاسم، فإننا إذا سلبناه إياه أشبهنا المعتزلة أو الخوارج، فلا نخرجه من الإيمان، بحيث يكون دمه وماله حلالاً، ولا نعطيه وصف الإيمان الكامل الذي يستحق به أن يدخل الجنة على أول وهلة.

فبكل حال، العاصي والمذنب متوعد، وما دام أنه متوعد فينبغي له أن يخاف ويحذر ويعود إلى رشده وصوابه ويقبل على طاعة ربه، حتى ولو كان متوعدًا بأن يدخل النار وقتًا قصيرًا ثم يخرج منها، فإن هذا الوعيد كفى به زاجرًا له عن المعاصي وعن الأفعال القبيحة؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يصبر على العذاب في جهنم ولو لحظة واحدة، فكيف بمدة يكون فيها العبد معذبًا في جهنم ولا يعرف متى ستنتهي، قد تكون سنة أو سنتين أو مائة، أو ألفًا،

. . . .

وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما يعدون .

نسأل الله أن يحمينا من الفتن والمعاصي كبيرها وصغيرها .



الواجب نحو أصحاب الرسول ﷺ وذكر فضائلهم

[فَصْلٌ: ومِنْ أُصــولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿والَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بالإِيمانِ ولا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعةُ النبيِّ ﷺ في قَوْلِهِ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»[1].

ويَقْبَلُونَ مَــا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ والسُّنَّةُ والإِجْمــاعُ مِنْ فَضَــائِلِهِمْ ومَراتِبِهِمْ].



■ قــوله: (فصل: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ...):

هذا الفصل تكلم فيه المؤلف رحمه الله عن الصحابة وأطال فيه وفصَّل،

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٧٣) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً». ومسلم برقم (٢٥٤٠) في فضائل الصحابة، باب: «تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم». عن أبي هريرة رضي الله عنه



. . . .

والسبب في ذلك أن الرافضة ابتلوا بسبِّ الصحابة، وتسلطوا عليهم، فصاوروا يكفرونهم ويضللونهم.

وحيث إن الصحابة هم الواسطة بيننا وبين النبي ﷺ ، فإن الطعن فيهم طعن في الشرع كله، وذلك لأننا بواسطتهم عرفنا الإسلام، فهم الذين نقلوا لنا القرآن، ونقلوا لنا الأحاديث بعد أن سمعوها من النبي ﷺ ، وهم الذين نقلوا الأعمال التي عملها الرسول ﷺ والصحابة في زمنه، فهم الذين نقلوا لنا الحلال والحرام والفرض والواجب والمستحب والمكروه، وهم الذين نقلوا لنا الأذان على هذه الهيئة، والمواقيت علي تلك الكيفية، والصلوات على هذا العدد وكذلك بقية الأعمال، كالصوم والجهاد والحج وما أشبهه.

كل ذلك إنما تلقاه المسلمون بواسطة صحابة الرسول ﷺ ، فلما كان كذلك كان الطعن عليهم طعنًا في الإسلام، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمرهم بالتبليغ لمن بعدهم وقال: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»[1] ، وقال: «**بلغوا عني ولو آية**»[2] .

وحيث إن الصحابة هم الذين قرءوا القرآن بواسطة النبي ﷺ ، وكذلك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧، ١٠٥) في العلم، باب: «قول النبي ﷺ : «رب مبلغ أوعى من سامع». ومسلم برقم (١٦٧٩) في القسامة، باب: «تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٦١) في الأنبياء، باب: «ما ذكر عن بني إسرائيل». من حديث حذيفة رضي الله عنه.

. . . .

سمعوا أحاديثه، ورأوا أفعاله وأعماله ونقلوها لمن بعدهم، وتقبلتها الأمة التي نقلت عنهم، فإن إجماع الأمة على ثقتهم وعلى عدالتهم وعلى قبول رواياتهم، تزكية لهم.

فالتابعون قبلوا منهم فدلَّ على أنهم أهل أن تقبل منهم روايتهم، وكذلك أبناؤهم وتلامذتهم قبلوا منهم وزكوهم، ثم اتفق أئمة الجرح والتعديل على أن الصحابة لا يجوز الطعن فيهم، تقبل روايتهم كلهم، فقالوا: إن الصحابة كلهم عدول، فليس في الصحابة من يُطعن فيه، لا في عقيدته، ولا ببدعة فيه، ولا لسوء حفظ، ولا لتهمة بكذب، بل مع كثرة التتبع لأحاديثهم، شهدوا لهم بأنهم أهل العدالة والأمانة والذكاء، والحفظ والصدق، فلم يردوا رواية واحد منهم متى ثبتت عنه، فتزكية الأمة لهم دليل على عدالتهم.

أما أسباب الطعن فيهم فقد حدثت من الرافضة، وكان الرافضة أولاً ما بلغوا إلى درجة السب واللعن، كان منبعهم من العراق، وذلك لأنه في زمن بني أمية، ابتلي بعض الولاة بسبِّ عليٍ رضي الله عنه على المنابر، وبتنقصه وعيبه، وبتزكية ولاة بني أمية والشهادة لهم، فكان هناك بعض من يحب عليًا محبة شديدة من أهل العراق الذين أسلموا على يديه، وتعلموا على يديه، فكانوا يسمعون هذا السباب وهذا اللعن فيسوؤهم ويحزنهم، ولا يجدون مجالاً للإفصاح بما في نفوسهم، ولا يستطيعون الرد على أولئك الولاة والأمراء مخافة الضرب والتعذيب.

....

ففكروا في إنشاء جماعات فيما بينهم، يجتمعون في بيت أحدهم، ويتذاكرون فضائل علي رضي الله عنه وآثاره الحسنة ومزاياه، ثم دخل معهم بعض الجهلة، وصاروا يسمعون هذه الفضائل ثم أخذوا ينقلونها إلى غيرهم ممن هم على نحلتهم، وكان من بين هؤلاء من استحل المبالغة والكذب والزيادة، وحملتهم محبتهم لأهل البيت - علي وذريته - على أن يزيدوا، فزادوا في فضائله وفضائل أهل بيته ما ليس بصحيح، فسمع هذه الأكاذيب بعض الجهلة والدهماء فاعتقدوا أنه أفضل من الخلفاء، فعند ذلك طعنوا في الخلفاء، وأصبحوا يتتبعون أخطاء الخلفاء أو ما يظنونه هم أخطاء ويطعنون عليهم بسببها، ثم زاد الأمر، فلم يتركوا واحدًا من الصحابة إلا سبوه وكذبوا عليه، ورموه بمفتريات وطعنوا فيه بطعون.

فمنهم من وصل طعنه إلى الخلفاء الراشدين، وسيأتينا في هذه العقيدة - إن شاء الله - بيان تزكية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لهم، وهو قدوة هؤلاء والمعظم عندهم، وتجاوز آخرون ذلك كله فغلوا في علي وادعوا أنه أحق بالرسالة، وزعموا أن جبريل أُمِرَ بأن ينزل بالوحي على علي، ولكنه صرف الوحي إلى محمد، ولذلك يقولون: خان الأمين، وصدَّها عن حيدر.

الأمين هو: جبريل وحيدر هو علي: بمعنى أن جبريل انحاز وصرف الرسالة والوحي من حيدر إلى محمد.

وجاء شيطان آخر فأوقعهم فيما هو أكبر من جعل الرسالة لعلي، وهو

. . . .

ادعاء الإلهية فيه، أي أن عليًا هو الله وهو المعبود، وقد قيل ذلك في حياة علي رضي الله عنه، وكان أول من قال بذلك هو عبد الله بن سبأ. وكان يهوديًا دخل في الإسلام زندقة ليفسد على المسلمين دينهم وعبادتهم وإسلامهم، فانخدع به أناس كثير وقال لهم: اسجدوا لعلي فإنه ربكم. فلما خرج مرة علي سجدوا له كما يسجدون في الصلاة. فسألهم وقال: ما بالكم؟ قالوا: أنت إلهنا.

عند ذلك استتابهم فأبوا أن يتوبوا، فحفر لهم أخاديد وأوقد فيها نارًا، ومن لم يتب قذفه في النار وأحرقه، فتمسكوا بعقيدتهم أكثر وقالوا: الآن أيقنا بأنك إله لأنك عذبت بالنار، ولا يعذب بالنار إلا ربّ النار!! وكانوا يقذفون بأنفسهم في تلك النار ويقولون: ﴿وعجلتُ إليك ربِّ لترضى﴾ [طه: ٨٤] فأنكر عليهم علي ذلك وخدَّ لهم الأخاديد وجعل يقول:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أجَّجتُ ناري ودعوت قنبرا

وقنبر هو غلام علي رضي الله عنه.

فالحاصل أن هذه العقيدة ـ وهي اعتقادهم أن عليًا هو الله ـ لم تقتصر على ابن سبأ ومن كان في زمنه بل لا يزال من يعتنقها إلى الآن، في فرقة يقال لهم: القرامطة والباطنية من غلاة الرافضة، يزعمون أن عليًا هو الله، وأن محمدًا هو الرسول، وأن سلمان هو ملك الوحي، وكانوا من الفرس فغلوا في سلمان لأنه فارسي منهم.

....

وزاد غلوهم حتى إنهم كانوا يقولون : أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين ، ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين ، ولا مندوب له إلا سلمان ذو القوة المتين .

فالحاصل أن أول أمر الرافضة كان تفضيلًا لعلي ، وبحثًا في فضائله وجمعًا لها ، فدخل معهم بعض الجهلة فولّدوا أكاذيب وسبوا الصحابة ، وقالوا : إن الصحابة أعداء له ، ولا يتم حبنا لعلي إلا إذا أبغضنا كل الصحابة ؛ لأنهم أعداء لعلي ، وزادت طائفة أخرى فوصل بهم الأمر إلى أن جعلوه أولى بالرسالة ، وزادت طائفة أخرى إلى أن جعلوه إلهًا وخالقًا وربًّا فتعالى الله عن ذلك .

والذين يعبدونه الآن لا يقتصرون عند هذه العقيدة ، فإنك تسمعهم في المطاف يطوفون بالبيت وهم يدعونه ، ونسمعهم وهم في عرفة التي هي الموقف الأعظم ومعهم كتب قد يبلغ الواحد منها مجلدا كبيرًا ، ليس فيه إلا دعاء علي ، ووصفه بأوصاف لا يستحقها إلا الخالق ؛ يا علي الذي يملك الخلق والأمر ، يا علي الذي يملك النفع والضر ، يا علي الذي يملك العطاء والمنع ، يا علي الذي يتصرف في الكون كيف يشاء .

وإذا تأملت تلك الأوصاف فإذا هي متفرعة عن عقيدة الذين يزعمون أنه هو الله .

فالحاصل : أن المسلمين اهتموا بذكر فضائل الصحابة ليردوا بذلك عقيدة

. . . .

الرافضة ونحوهم.

والرافضة يسمون أنفسهم شيعة، يعني أنهم شايعوا عليًا، أي أنهم أشياعه وأعوانه وأحبابه وأنصاره، ولكن أهل السنة والجماعة يسمونهم رافضة، فأهل الإسلام قلوبهم سليمة لأصحاب النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى مدحهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فطلبوا من ربهم ألا يجعل في قلوبهم غلاً لأهل الإيمان، ومن المعلوم أن أولى الناس بالإيمان من هذه الأمة هم الصحابة لسبقهم وفضيلتهم، فكل من جاء بعدهم داعيًا لهم فهو من أهل هذه الآية، ومن جاء بعدهم مكفرًا لهم فليس من أهل هذه الآية، ولا يستحق الثناء ولا المدح المذكور في هذه الآية.

الرافضة يزعمون أن الصحابة قد خانوا في القرآن، وقد كتموا منه، وأخفوا منه شيئًا كثيرًا، أخفوا أكثر من ثلثيه، وستروا فضائل أهل البيت وفضائل علي رضي الله عنه.

وكل ذلك كذب لأن عليًا رضي الله عنه إنما كان يصلي بهذا القرآن، وحفظ عنه الصحابة القرآن، فكيف يكون هناك قرآن لم يقرأه وهو يعرفه.

كذلك المسلمون يحفظون وصية النبي ﷺ في أصحابه، حيث أوصاهم بأصحابه خيرًا، ثبت أن عبد الرحمن بن عوف كان من السابقين الأولين،

. . . .

وخالد بن الوليد كان من الذين أسلموا متأخرين في سنة ثمان، تسابًّا فقال النبي ﷺ لخالد: «**لا تسبوا أصحابي - يعني القدماء - فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[1] .

والمد هو ربع الصاع، والنصيف يعني نصف المد؛ يعني لو أنفقتم ذهبًا مثل جبل أحد الذي يُضرب به المثل في الكبر، أنفقتموه في سبيل الله، وأنفق أحدهم مدًا أو نصف مد من طعام لكان ذلك أفضل، وذلك لأنهم تبعوا الرسول في زمن الشدة، وصبروا على البلوى وعلى الأذى، وأنفقوا وهم محتاجون إلى من ينفق عليهم، وتركوا أموالهم وأولادهم وبلادهم لله تعالى، فكيف يقاس بهم غيرهم؟ وهذا أيضًا يُلحق به غيرهم، فإن كل الصحابة الذين أسلموا مع الرسول وناصروه لهم فضل الصحبة.

فالحاصل أن أهل السنة يحفظون وصية النبي ﷺ هذه لأصحابه، ولذلك فإنهم يعترفون بفضل الصحابة رضي الله عنهم.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٩٧ .

التفضيل بين الصحابة :

[ويُفضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ ـ وهُو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ـ وقَاتَل عَلى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وقَاتَلَ.

ويُقَدِّمُونَ المُهَاجِرينَ عَلى الأنْصارِ.

ويُؤمِنُونَ بأَنَّ اللهَ قَالَ لأهْلِ بَدْرٍ ـ وكَانُوا ثلثمائة وبضْعة عشر ـ : «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(١) .

وبأَنَّهُ لا يدخلُ النارَ أَحدٌ بَايعَ تحت الشَّجرة ؛ كَما أَخْبر به النَّبيُّ ﷺ(٢) ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ ، وكَانُوا أَكْثَر مِنْ أَلْفٍ وأَرْبَعِمائَةٍ(٣)] .



▪ قوله : (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل . . .) :

ذكر المؤلف في هذا الفصل مسألة التفضيل بين الصحابة رضي الله عنهم ،

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٧) في الجهاد والسير ، باب : «الجاسوس» . ومسلم برقم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة ، باب : «من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم» . عن علي رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦) في فضائل الصحابة ، باب : «من فضائل أصحاب الشجرة» . عن أم مبشّر رضي الله عنها .

(٣) قال جابر بن عبد الله : «قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربعمائة» أخرجه البخاري برقم (٤١٥٤) في المغازي ، باب : «غزوة الحديبية» .

. . . .

وأن بعضهم أفضل من بعض؛ فالمهاجرون الأولون الذين أسلموا قبل صلح الحديبية لاشك أنهم أعظم مرتبة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى، فالذين أسلموا قبل صلح الحديبية ـ وكان سنة ست ـ أفضل بكثير من الذين أسلموا بعده؛ لأنهم أسلموا في وقت الشدة، وتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في وقت الضعف، وهاجروا وجاهدوا وأنفقوا جميع ما يملكون، وصبروا على الأذى في ذات الله تعالى، فلا يلحق بهم غيرهم، وكلاً وعد الله الحسنى.

كذلك أيضًا من المعلوم أن الصحابة يتفاوتون، فالمهاجرون أفضل من الأنصار؛ وذلك لأن المهاجرين أسلموا قديمًا قبل الأنصار في مكة، وكثير منهم أوذي؛ كبلال وصهيب وعمار ونحوهم، اضطهدوا وضربوا وألقي بهم في الرمضاء، وعذبوا، وكانت نهايتهم أن هاجروا، تركوا بلادهم ووطنهم، وتركوا أموالهم وديارهم وما يملكون، وهاجروا لينجوا بأديانهم، كلٌ منهم يفر بدينه من الفتن.

والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ لهم فضل فهم الذين آووا ونصروا، ذكرهم الله تعالى بهذا، فبدأ بالمهاجرين ثم ثنى بالأنصار فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا** ﴾ [الأنفال: ٧٤]؛ الذين آمنوا وهاجروا هم المهاجرون والذين آووا ونصروا هم الأنصار.

وذكر المهاجرين أيضًا في قوله: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ [الحشر: ٨] ثم ذكر الأنصار

. . . .

بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر: ٩].

فالأنصار لهم مزية ولكن المهاجرين أفضل منهم، ولهذا يقدمهم الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. هذه أيضًا من فضائلهم، ولا شك أيضًا أن لهم فضائل ومزايا أخرى.

وهناك أيضًا من اختصوا بفضائل ومزايا وردت بها الآيات والأحاديث كأهل بدر، فإن من فضيلتهم أن الله اطلع على أهل بدر فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1] علم الله في سابق الأزل أنهم يموتون متمسكين فغفر لهم ما وقعوا فيه من أخطاء، وكان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو نحو ذلك.

فهؤلاء أغلبهم من الأنصار، وفيهم من المهاجرين، وقتل منهم نحو أربعة عشر ونصرهم الله وأمدهم بملائكته الذين قاتلوا معهم حتى هزموا عدوهم، هذه فضيلة لهم.

كذلك أهل بيعة الرضوان الذين شهدوا صلح الحديبية؛ وذلك أنهم لما كانوا تحت الشجرة، طلب منهم النبي ﷺ أن يبايعوه على القتال، وعلى ألا يفروا فبايعوه، وكانوا نحوًا من ألف وأربعمائة أو أكثر، فهؤلاء قد أخبر النبي ﷺ

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

. . . .

بأنهم يدخلون الجنة وقال: «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة»[1] وأخبر الله تعالى بأنه قد رضي الله عنهم في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

سادة الصحابة رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ الذين سماهم الله تعالى السابقين وسماهم المهاجرين والأنصار ـ كيف تتسلطون عليهم يا معشر الرافضة وتسبونهم، وتزعمون أنهم مرتدون، وأنهم أردأ خلق الله، وأنهم خانوا الأمانة وتفضلون أنفسكم عليهم؟!، لا شك أن هذا عناد ومخالفة للأدلة الصحيحة التي أشير إليها، ومخالفة أيضًا للواقع والمحسوس.

❋ ❋ ❋

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.



الشهادة بالجنة

[وَيَشْهَدُونَ بِالجنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَه رَسُولُ اللهِ ﷺ ؛ كالعشرةِ[١] وثابتِ بن قيسِ بن شماس وغيرِهِمْ مِنَ الصَّحَابة[٢]] .



■ **قوله: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة) :**

من المسائل التي تتعلق بالصحابة رضي الله عنهم: مسألة الشهادة بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ بها؛ فمن عقيدة أهل السنة أنهم لا يشهدون بالجنة ولا بالنار لمعين إلا تبعًا للنصوص، فمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة شهدنا له بها، ومن شهد له بالنار شهدنا له بها. وأما إذا ورد وعيد عام أو ثواب عام فلا نقول: هذا من أهل الجنة، وهذا من أهل النار على الإطلاق.

تقدم لنا ما يدل على شيء من فضل الصحابة، ومن ذلك قوله ﷺ في أهل بدر: «**إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٣] هذا في أهل بدر الذين حضروا غزوتها وكانوا ثَلَثَمائَة وبضعة عشر،

(١) سيأتي تخريج الحديث في ذلك ص ٢١٠ .
(٢) سيأتي تخريجه ص ٢١١ .
(٣) تقدم تخريجه ص ٢٠٥ .

. . . .

وتقدم أيضًا أن أهل بيعة الرضوان قد رضي الله عنهم وكانوا ألفًا وأربعمائة أو أكثر، ذكر الله أنه رضي عنهم : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ [الفتح: ١٨].

وثبت أن النبي ﷺ قال: «**إني لأرجو ألا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[1] ؛ وذلك لأن الله رضي عنهم، ورضاه عنهم يفيد أنهم من أهل الرضا، وأهل الرضا يبقون على تلك الخصال المحمودة التي رضيها لهم؛ إذا رضيهم ورضي أعمالهم ورضي حالاتهم، فمن آثار رضاه أن يوفقهم، ويسددهم، فلا يحدث منهم ارتداد، ولا يحصل منهم أعمال سيئة تحبط الأعمال.

أما الشهادة بالجنة يقينًا، فإنما تتوقف على النقل، فقد ثبت الحديث في مسند أحمد وغيره أن النبي ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة**»[2] . هؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة، فهؤلاء نشهد لهم بالجنة.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٤٩، ٤٦٥٠) في السنة. والترمذي برقم (٣٧٤٨، ٣٧٥٧) في المناقب وقال عن الثاني: حسن صحيح. وابن ماجه برقم (١٣٣) في المقدمة. وأحمد في المسند (١/ ١٨٧، ١٨٩) وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٥٠). وقال أحمد شاكر (١٦٢٩): إسناده صحيح.

. . . .

وكذلك ثابت بن قيس بن شماس الذي هو خطيب النبي ﷺ لما نزل قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢].

خاف ثابت أن يكون قد حبط عمله؛ لأنه كان جهوريَّ الصوت، فجلس يبكي في بيته، وجاء الخبر إلى النبي ﷺ، وأنه يقول: أخشى أن يكون قد حبط عملي وأني من أهل النار. فقال النبي ﷺ: «**ارجع إليه وقل له: إنك من أهل الجنة**»[1].

يقول الراوي: فكنا نراه يمشي بيننا وهو من أهل الجنة. استشهد رضي الله عنه في حرب أهل الردة؛ لما حارب الصحابة بني حنيفة، ثبت ولم ينهزم، ووقف في موقفه حتى قتل شهيدًا مقبلاً غير مدبر، فكان ذلك علامةً على أنه وفق للوفاة على العمل الصالح.

وثبت أنه عليه الصلاة والسلام شهد لأشخاص بدخول الجنة كقوله في الحسن والحسين: «**إنهما سيدا شباب أهل الجنة**»[2] وكذلك قوله في فاطمة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٣) في المناقب، باب: «علامات النبوة في الإسلام». ومسلم برقم (١١٩) في الإيمان، باب: «مخافة المؤمن أن يحبط عمله». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٦٨) في المناقب. وأحمد في المسند (٣/ ١٦٦، ١٦٧) وقال الترمذي: حسن صحيح.



. . . .

رضي الله عنها: «إنها سيدة نساء المؤمنين»[1] وقوله في عائشة رضي الله عنها: «إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2] كما سيأتي.

كما ثبت أنه شهد بالجنة أيضًا لبلال وقال: «إني ما دخلت الجنة إلا سمعت دَفَّ نعليك»[3]. فهذا ونحوه دليل على أنه شهد لأشخاص بالجنة، فيُشهد بها لهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٠) [٩٨، ٩٩] في فضائل الصحابة، باب: «فضائل فاطمة بنت النبي عليهما الصلاة والسلام». عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧٧٠) في فضائل الصحابة، باب: «فضل عائشة رضي الله عنها». ومسلم برقم (٢٤٤٦) في فضائل الصحابة، باب: «في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها» عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه مسلم برقم (٢٤٤٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١١٤٩) في التهجد، باب: «فضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار». ومسلم برقم (٢٤٥٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل بلال رضي الله عنه». عن أبي هريرة رضي الله عنه.



التفضيل بين الخلفاء الراشدين

[وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ عليٍّ بنِ أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرِهِ من أَنَّ خَيْرَ هذهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أبو بَكْرٍ، ثُمَّ عمر[1]. ويُثَلِّثُونَ بِعُثْمانَ، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثارُ، وكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلى تَقْدِيمِ عُثْمانَ في البَيْعَة.

مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفوا في عُثْمانَ وعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما ـ بَعْدَ اتِّفاقِهِمْ عَلى تَقْدِيمِ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ـ أَيُّهُما أَفْضَلُ؟

فقَدَّمَ قومٌ عُثْمانَ. وسَكَتُوا، و رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيّاً، وقَوْمٌ توقفوا.

لكنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثم علي، وإنْ كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعَلِيٍّ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ

---

(١) لما روى البخاري برقم (٣٦٧١) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»». عن محمد بن الحنفية قال: «قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين».
وصحت الرواية عن علي رضي الله عنه أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر ثم عمر، ولو شئت لسميت الثالث». أخرجه أحمد وعبد الله في المسند وزوائده (١/١٠٦، ١١٠) وابن أبي عاصم في السنة رقم (١٢٠١) وصححه الألباني. وقال أحمد شاكر (٨٣٦): إسناده صحيح.

فيها عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة.

لكِنِ الَّتي يُضَلَّلُ فيها مَسْأَلَةُ الخِلافَة، وذلك أَنَّهُمْ يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفةَ بعدَ رَسولِ اللهِ ﷺ: أبو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثمانُ، ثُمَّ عَليّ ومَنْ طَعَنَ في خِلافَةِ أَحَدٍ مِن هؤلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حمارِ أَهْلِه].



▪ قوله: (ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر...):

هذه مسألة التفضيل بين الصحابة؛ يعني من أفضل الصحابة؟ ومن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؟

أهل السنة يروون في ذلك آثارًا وأحاديث، فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كنا نقول والنبي ﷺ حيٌّ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره»[1] بمعنى أنه أقرهم على هذا التفضيل المرتب؛

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٢٠، ٢٢١) رقم (١٣١٣١، ١٣١٣٢) والبخاري رقم (٣٦٥٥، ٣٦٩٧) كتاب فضائل الصحابة وليس فيه ذكر النبي ﷺ. وأخرجه الطبراني أيضًا في مسند الشاميين رقم (١٧٦٤). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٦١) وقال: في الصحيح طرف من أوله، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأبو يعلى بنحو الطبراني في الكبير ورجاله وثقوا وفيهم خلاف.

. . . .

فأبو بكر هو أفضل وأولى وأقدم، ثم عمر أولى من بعد أبي بكر، ثم عثمان بعدهما في الفضيلة ثم علي بعدهم أيضًا، هذا هو ترتيبهم في الفضل.

ومن المعلوم أنهم مرتبون هكذا في الخلافة، فالصحابة رضي الله عنهم اختاروا بعد النبي ﷺ خليفته أبا بكر رضي الله عنه، وذلك لأنه ﷺ أنابُه في الصلاة عنه لما مرض فقال: **«امروا أبا بكر فليصَلِّ بالناس»**[1] فكان هو الذي يصلي بهم في حالة غيبته، حتى قبل مرضه؛ فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالمسلمين وقدموه لما ذهب النبي ﷺ يصلح بين بني عمرو بن عوف[2].

فقال الصحابة: رضينا لدنيانا من رضيه النبي ﷺ لديننا، فبايعوا أبا بكر بالخلافة، واجتمعوا على مبايعته كلهم، ورضوا ببيعته بما فيهم أهل بيت النبي ﷺ: عليٌّ وابناه والعباس وغيرهم، كلهم بايعوا أبا بكر وذلك لفضله، فاعترفوا بفضله، وبسابقته، وبصحبته القديمة، وإنفاقه ماله كله على النبي ﷺ حتى قال النبي ﷺ: **«ما نفعني مالٌ قطُّ كما نفعني مال أبي بكر»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨) في الأذان، باب: «أهل العلم والفضل أحق بالإمامة». ومسلم برقم (٤٢٠) في الصلاة، باب: «استخلاف الإمام إذا عرض له عذر...»

(٢) أخرجه البخاري مطولاً برقم (٦٨٤) في الأذان، باب: «من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول». عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٣، ٣٦٦). وابن ماجه برقم (٩٤) في المقدمة. وابن حبان برقم (٢١٦٦) وصححه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» برقم (١٣). وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧٤٣٩): إسناده صحيح.

. . . .

مات أبو بكر واستخلف عليهم عمر ورضيه لهم، واجتمعت عليه كلمتهم ورضوه، وسار فيهم السيرة الحسنة وصار خليفة المسلمين بعد أبي بكر.

ولما مات عمر جعل الأمر شورى بين ستة، وهم بقية العشرة إلا أن أبا عبيدة كان قد مات قبل عمر، وترك من العشرة ابن عمه سعيد بن زيد، فلم يجعله من الستة الذين جعل لهم الأمر، فبقي ستة وهم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص؛ جعل الأمر شورى بينهم، فتشاوروا فاتفقت كلمتهم على بيعة عثمان فبايعوه.

ولما قتل عثمان ظلمًا، اجتمع أهل المدينة على أن عليًا أفضل من بقي فبايعوه بالخلافة، ولم ينكر عليه خلافته أحدٌ، إلا أن أهل الشام لم يبايعوه طلبًا بثأر عثمان، فقالوا له: مكنًا من قتلة عثمان حتى نبايعك، فتوقفوا عن مبايعته لتلك الشبهة، وإلا فهم معترفون بفضله وأنه الأولى بالخلافة.

هذا ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **«عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»**[1] فوصفهم بأنهم خلفاء، وبأنهم راشدون، وبأنهم مهديون فكان ذلك شهادة بخلافتهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٧٦) في العلم. وأبو داود برقم (٤٦٠٧) في السنة. وابن ماجه برقم (٤٢) في المقدمة. وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧) وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

ثم بقيت مسألة الأفضلية أيهم أفضل؟ الصحيح أن ترتيبهم في الخلافة وفي الفضل سواء؛ فنقول: أفضلهم أبو بكر، ويليه في الفضل عمر، ويليه عثمان، ويليه في الفضل عليٌّ.

ولكن التفضيل بين عثمان وعلي مسألة مختلف فيها؛ وذلك لأن بعضًا من أهل السنة جعلوا عليًا مقدمًا في الفضل على عثمان، وبعضهم عكس. وقال: الفضل لعثمان ثم لعلي، وكلاهما متقاربان.

فمن فضائل عثمان: أنه من المهاجرين الأولين، هاجر إلى الحبشة.

ومن فضائله: أنه قريب من النبي ﷺ يجتمع معه في الجد الرابع عبد مناف.

ومن فضائله: أنه تزوج بنتين من بنات النبي ﷺ: تزوج رقية، ثم تزوج بأم كلثوم، وقالوا: لم يكن هناك أحد في الدنيا تزوج بنتي نبي إلا عثمان، ولما ماتت الثانية قال النبي ﷺ: **«لو كانت لي بنت ثالثة لزوجتها عثمان»**[١].

ومن فضائله أيضًا: أنه جهز جيش العسرة على نفقته الخاصة، وأنه اشترى بئر رومة من اليهود وجعله سبيلاً للمسلمين، وفضائله غير ذلك كثيرة، فلا ينكر إذن على من جعله أفضل من علي، ولا يضلل من ذهب إلى

---

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ١٨٤) برقم (٤٩٠) من حديث عصمة قال: لما ماتت بنت رسول الله ﷺ التي تحت عثمان قال رسول الله ﷺ: **«زوجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوجته، وما زوجته إلا بالوحي من الله عز وجل»**. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٨٣) وقال: فيه الفضل بن المختار وهو ضعيف.



. . . .

تفضيل عثمان على علي أو العكس، فليست هذه من المسائل التي يُضلل فيها.

الحاصل أنه استقر أهل السنة على تفضيل أبي بكر ثم عمر وبعضهم ثلث بعلي، وبعضهم ثلث بعثمان، ولم يكفروا ولم يُضللوا من ثلَّث بعلي أو من ثلث بعثمان، وذلك لأنها من المسائل الاجتهادية، ولكن الصحيح أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وأما الخلافة فلا شك أن الخلفاء على هذا الترتيب، ومن زعم أن أبا بكر مغتصب للخلافة فإنه ضال مضل؛ كالرافضة الذين يفضلون عليًا فإنهم يطعنون في أبي بكر وفي عمر وفي عثمان، ويطعنون في خلافتهم، ويزعمون أنهم مغتصبون للخلافة، وأن الولاية كانت لعلي وأنه هو الإمام، وأن النبي ﷺ نصَّ على ذلك قبل موته، ولكن هؤلاء ظلموه في الخلافة وقهروه وأخذوا ما ليس يستحقونه، فمن طعن في خلافة أحد من الخلفاء الأربعة على ترتيبهم فهو أضل من حمار أهله أي أنه ضال مخطئ خطأ بينًا.

فالخلفاء رضي الله عنهم كلٌّ منهم اجتمعت عليه الكلمة، وبايعه أهل الإسلام، ونصر الله بهم الإسلام نصرًا عزيزًا.

ففي خلافة أبي بكر ارتد بعد موت النبي ﷺ من حولهم من الأعراب، ولم يبق إلا أهل مكة وأهل المدينة الذين تمسكوا بالإسلام، أما من حولهم فكلهم نصبوا العداوة للمسلمين، ولكن أيد الله أبا بكر وقواه، فتصدى لهم

. . . .

حتى قهرهم جميعًا في أقل من نصف سنة، فرجع المرتدون إلى حظيرة الإسلام، وقتل منهم من قتل على الكفر، وذلك أن الله ثبته ثباتًا عظيمًا، ثم في السنة الثانية قاتلوا كل من بقي من أهل الردة، وغزوا أطراف البلاد النائية واستقر الأمر.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه: انتشر الإسلام وفتح الشام بأكمله، وفتحت مصر، وفتح العراق، ووصلت الفتوحات إلى خراسان إلى إيران وما حولها، وامتدت رقعة الإسلام في خلافة عثمان أيضًا حيث توسعوا في الفتوحات، ففتحوا الكثير من بلاد إفريقية والكثير من بلاد الهند والسند.

وهكذا توسعت الخلافة، وتوسعت الفتوحات الإسلامية؛ وذلك بسبب أن الله تعالى ثبت وقوى هؤلاء الخلفاء، ونصرهم على أعدائهم، حيث إنهم صدقوا الله فصدقهم الله.

وعلى كل حال فخلافتهم هي الخلافة الحق، والطعن فيهم طعن في دين الله وشرعه، وطعن في رسوله وأنه لم يبلغ البلاغ المبين، وطعن كذلك في أفاضل المسلمين وخيارهم.

* * *

أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم

[وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ويتولَّونهُمْ، ويحفَظُونَ فيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

حَيْثُ قالَ يومَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أَهْلِ بَيْتي»(١).

وقالَ أيضًا للعَبَّاسِ عَمِّه - وَقَد اشْتَكى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَني هَاشِمٍ - فَقالَ: «والَّذي نَفْسي بِيَدِه؛ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ لله ولقرابتي»(٢).

وقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، واصْطَفى مِنْ بَني إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، واصْطَفى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفَاني مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه». عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٠٧، ٢٠٨). والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٣٣). قال أحمد شاكر: (إسناده صحيح).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٦) في الفضائل، باب: «فضل نسب النبي ﷺ». عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

. . . .

الشرح

▪ **قـوله: (ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ ...):**

في هذا الفصل بيان لحق أهل البيت وفضائلهم، وقد اختلف في آل بيت النبي ﷺ الذين يصلى عليهم معه **«اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»**؛ قال بعض العلماء: آله: أتباعه على دينه، كآل فرعون يعني أتباعه؛ ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] أي أتباعه، قال في ذلك بعضهم:

آل النبي هُمُ أتباع ملته ... من كان من عجمٍ منهم ومن عربِ

وذهب آخرون إلى أن آله هم أهل بيته، واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيره.

إذن فآله الذين هم أهل بيته لهم مزية فضيلة، كما تدل عليه هذه الأحاديث، **فمن مزيتهم**: قربهم من النبي ﷺ. **ومن مزيتهم**: فضلهم وشرفهم، **ومن مزيتهم**: سبقهم إلى الإسلام وتحريم الصدقة عليهم؛ لأنها أوساخ الناس، كما علل بذلك النبي ﷺ.

فآله قيل: إنهم أهل بيته، وهم أزواجه وذريته وقرابته الذين حرمت عليهم الصدقة كبني هاشم. وقيل بعدم دخول زوجاته.

ففي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف وهو حديث غدير خم، لما رجع

. . . .

النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع، ونزل في هذا الغدير خطبهم مرة وقال: «**إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله**» فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»(١) .

يقول زيد بن أرقم راوي الحديث: لما قيل: أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته هم الذين حرمت عليهم الصدقة بعده، ثم عد منهم: آل جعفر، وآل العباس، وآل علي، وآل عقيل بن أبي طالب، أي كل من كان من بني عبد المطلب، ومن بني هاشم، هؤلاء لهم مزية وقرابة.

والصحيح أن زوجات النبي ﷺ من أهل بيته؛ وذلك لأن الله ذكر فضلهن ومدحهن في القرآن كقوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٣٢] الآيات، وذكر مضاعفة أجرهن مرتين لتميزهن واختيار النبي ﷺ لهن زوجات له في الدنيا والآخرة فإن الله أمره أن يخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الدار الآخرة فكلهن اخترن الدار الآخرة وقد أضاف بيوتهن إليهن في قوله: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وأضافها إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة، باب: «من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه». عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.



. . . .

طعام﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فدل على أن بيوتهن هي بيوت النبي ﷺ فهن من أهل البيوت ومعلوم أن جميعهن زوجاته وهو ينفق عليهن وقد عرف مثلاً أن عائشة رضي الله عنها ليست من بني هاشم، وقد بُعث إليها مرة بصدقة فأبت أن تقبلها وقالت: «إنا لا نأكل الصدقة» وقد كانت زوجاته لا يأكلن من الصدقة التي يؤتى بها إليه، بل كان يردها، ولم يكن يقبلها، ويأمر بإرسالها إلى أهل الصُّفة وإلى الفقراء والمحتاجين والمساكين، ولو كانت تحل لزوجاته لأباحها لهن، والدليل على أن نساءه من أهل بيته قول الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وردت هذه الآية بعد خطاب أمهات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أهل البيت يعني يا أهل البيوتات ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الصحيح أنها في أهل البيت الذين من جملتهم زوجات النبي ﷺ وبناته وأولاد بناته ونحوهم فكلهم داخلون في هذه الآية.

أما ما ذكره الرافضة ونحوهم من أنها خاصة بعلي وذريته وزوجته فليس على ذلك دليل، ورووا أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية دعا فاطمة وابنيها وعليًا وألقى عليهم كساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم

. . . .

الرجس وطهرهم **تطهيراً**»[(١)] ولا يصح هذا النقل، والصحيح أن زوجاته من أهل بيته.

وعلى كل حال فأهل بيته ـ زوجاته وقراباته ـ لهم هذا الفضل وغيره، ومن فضلهم أنهم يدخلون في الصلاة عليه؛ فيقول المصلي: **«اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»** . وفي بعض الروايات **«وعلى أزواجه وذريته»**[(٢)]، وفي بعض الروايات **«وأهل بيته»**[(٣)] فدل ذلك على أن لهم مزية وفضيلة.

وأهل السنة يتولونهم، ولا يقاطعون غيرهم من الصحابة ، أما الرافضة فإنهم يغلون في أهل البيت، ويقاطعون غيرهم، ويزعمون أن أهل السنة يبغضون أهل البيت، ويقولون: إنكم ما أحببتم أعداءهم إلا وقد أبغضتوهم، يقولون: لا يمكن أن يجتمع ولاء إلا ببراء، لا توالوا أهل البيت حتى تتبرءوا من غيرهم، وهذا خطأ لأن الصحابة كلهم أولياء، وكلهم صحابة، وكلهم أفاضل، وكلهم لهم سبقهم ولهم فضلهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٧١) في المناقب وقال الترمذي: هذا حديث حسن. قلت: فيه شهر بن حوشب سيئ الحفظ.

(٢) وهذه إحدى صيغ الصلاة على النبي ﷺ ، أخرجها البخاري برقم (٣٣٦٩) في الأنبياء، باب: «١٠». ومسلم برقم (٤٠٧) في الصلاة، باب: «الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد». عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٧٤). عن رجل من أصحاب النبي ﷺ . وصححه الألباني في صفة الصلاة ص (١٣٠).

. . . .

فعلي رضي الله عنه ـ كما تقدم ـ قد أخبر على رؤوس الأشهاد بأن أفضل الأمة أبو بكر ثم عمر، فكيف يكون أبو بكر وعمر عدوين لعلي وهما أفضل الأمة بشهادة عليٍّ نفسه؟

وكيف نجوز البراءة من هذين الرجلين اللذين هما أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ كما تدعيه الرافضة؟! فيقولون: لا ولاء إلا ببراء؛ يعني لا تكون مواليًا أهل البيت حقًا إلا إذا تبرأت من أعدائهم وأولهم أبو بكر وعمر، فهذا كله كذب وبهتان، فأهل السنة يتولونهم، ويحبونهم، ويدعون لهم، ويصلون عليهم مع النبي ﷺ ويترضون عنهم.

وهذا دليل على كذب الرافضة في دعواهم أن أهل السنة يبغضون عليًا وآله، فنحن نحبهم ونقربهم ونقبل منهم، ولكن لا نصل إلى ما وصلت إليه الرافضة من بغض بقية الصحابة، ولا من الغلو الذي وقعوا فيه تجاه آل البيت. حيث إنهم جعلوهم أندادًا يعبدونهم من دون الله، ويجعلون لهم شيئًا من حق الله تعالى، فإن هذا لا يجوز بل هو كذب وكفر وشرك.

وأهل البيت رضي الله عنهم لا يرضون أن يُشركوا مع الله، ولا أن يدعوا مع الله، ولا أن يُجعل لهم شيء من ملك الله ومن حقه، كذلك أيضًا لا يرضون أن يفضَّلوا على غيرهم.

والحاصل: أن أهل السنة يترضون عن أهل البيت، ويحفظون فيهم وصية

. . . .

الرسول ﷺ في هذا الحديث: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»(١)، كذلك أيضًا يحذرون من نقص العقيدة والإيمان الذي توعد به النبي ﷺ في هذا الحديث، لما أخبره العباس أن بعض قريش يجفو بني هاشم قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنوا حتى يحبوكم لله ولقرابتي**»(٢)؛ يعني لا يكون إيمانهم كاملاً ولا تكمل متابعتهم إلا إذا أحبوكم لله؛ يعني لكونكم مؤمنين بالله متبعين لسنة رسوله، وكذلك أيضًا يحبونكم لقرابة النبي ﷺ.

وقد تبين من قوله: «لله» أن هذا خاص بمن آمن منهم، أما من لم يؤمن فإنه لا يدخل في الولاية مثل أبي لهب؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه من أهل النار ﴿**سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ ولو كان عم النبي ﷺ، ومثل أبي طالب؛ فقد أخبر النبي ﷺ أنه: «**في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه**»(٣) وأن عليه شراكين من نار(٤)، ولو كان عم النبي ﷺ، ولو كان والد علي؛ لأنه مات على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

إذًا فالترضي والثناء والذكر الحسن خاص بمن آمن منهم، ولا شك أن الله

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٢٠.

(٢) تقدم تخريجه ص٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٥٦٤) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». ومسلم برقم (٢١٠) في الإيمان، باب: «شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) البخاري برقم (٦٥٦١، ٦٥٦٢) في الرقاق، باب: «صفة الجنة والنار». ومسلم برقم (٢١٣) في الإيمان، باب: «أهون أهل النار عذابًا». عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.



. . . .

تعالى قد ميزهم وفضلهم بقرابتهم للنبي ﷺ ، ولكن القرابة لا تنفع إلا مع حقيقة الإيمان والمتابعة، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**»(١) .

إذا كان نسبه شريفًا، ولكنه ليس متبعًا للنبي ﷺ وليس مطبقًا لشريعته، فلا ينفعه كونه قريبًا للرسول ﷺ ، ولا كونه من قريش ولا بني هاشم، أو غيرهم، بل تكون الحجة عليهم أكبر، والعقوبة عليهم أعظم، حيث إنه أولى الناس باتباع النبي ﷺ لقرابته وأهليته.

فلا شك أن الله تعالى قد فضل بني هاشم بهذه الفضيلة، وكما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم قول النبي ﷺ : «**إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٢) .

فأخبر بأنه سلالة من سلالة وصفوة من صفوة، فهو صفوة بني هاشم وخيرتهم، وبنو هاشم صفوة وخيرة قُريش، وقريش صفوة كنانة الذين هم قبيلة من مضر، وكنانة صفوة من بني إسماعيل، الذين هم من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، والاصطفاء: الاختيار، اصطفاني أي اختارني، وأصله من التصفية، كأنه صفي حتى كان صافيًا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب: «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٢٠ .



. . . .

وقد ذكر الله الاصطفاء لعباده الأنبياء ونحوهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عندنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧] المصطفين: يعني المختارين، فالنبي ﷺ هو المصطفى أي الصفوة من الصفوة.

فلما أخبر أن بني هاشم صفوة قريش، كان ذلك دليلاً على ميزة لهم وفضيلة، فيدل على أن لهم حق التكريم والاحترام، وأن لهم حق الشرف والفضل، وأن لهم حق الولاية والمحبة، ولكن ذلك كما عرفت خاصٌ بمن آمن بالله واتبع رسوله ﷺ، وإلا فالتقي لله تعالى والمطبق لشرعه هو أشرف الناس وأولاهم برسوله ﷺ ولو كان أبعد الناس وأضعفهم نسبًا، والعاصي أو الفاسق أو الكافر هو أبعد الناس من رسول الله ﷺ ولو كان من أشرف الناس نسبًا، كما قال بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه   فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس   كما وضع الشرك النسيب أبا لهب

فسلمان مع كونه فارسيًا، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سلمان منا أهل البيت»[1]، وأبو لهب مع كونه عم النبي ﷺ قال الله في حقه: ﴿ سَيَصْلَىٰ نارا ذات لهب ﴾ [المسد: ٣].

وروي عن جعفر الصادق أنه لما رآه إنسان يبكي ويكثر من الخوف

(١) أخرجه الحاكم والطبراني وهو في ضعيف الجامع الصغير رقم (٣٢٧٢).

. . . .

والوجل، ذكره بأن له حق القرابة وفضل النسب، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وإن صاحب التقوى هو المقرب عند الله، فمن كان تقيًا فهو المقرب ولو كان عبدًا حبشيًا، ومن كان عاصيًا فهو المبعد ولو كان شريفًا قرشيًا أو كما قال رضي الله عنه.

* * *

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

[وَيتولَّوْن أزْواجَ رَسـول اللهِ ﷺ أُمَّهـات المُؤمنين، ويُؤمِنُون بأَنَّهُنَّ أَزْواجُهُ في الآخِرَة:

خُصـوصًا خديجَةَ رَضِي اللهُ عنْهـا أُمَ أَكْثَر أوْلاده، وأَوَّل منْ آمنَ به وعاضدهُ على أمْره، وكان لَهَا منْهُ المَنْزِلَةُ العاليةُ.

والصِّدِّيقة بنْت الصِّدِّيقِ رضي اللهُ عنْها، الَّتي قَال فيـهـا النَّبيُّ ﷺ: «فضْلُ عائشَةَ على النِّساء كَفضْل الثَّريْد على سائر الطَّعام»[1]].



■ قوله: (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة...):

يتولى أهل السنة زوجات النبي ﷺ، فيترضون عنهن، ويشهدون لهن بالفضل، وأنهن أمهات المؤمنين، وأنهن زوجات النبي ﷺ في الآخرة؛ لأن الله خيرهن على لسان نبيه فاخترن الآخرة. قال تعالى: ﴿وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٢.

. . . .

كل منهن كانت تقول أريد الله ورسوله والدار الآخرة، فلشرفهن سُمِّين: أمهات المؤمنين، ولهن الميزة والفضل، لكونهن زوجاته ﷺ، واللاتي صبرن على شظف العيش وضيق ذات اليد معه ﷺ، وصبرن عن الأزواج بعده، ورضين بأن يكن زوجاته في الآخرة كما كن زوجاته في الدنيا، وحرم نكاحهن على غيره، فأهل السنة يترضون عنهن.

واختلف في أفضلهن؛ فقيل: أفضلهن عائشة، وقيل: أفضلهن خديجة، فالرافضة تفضل خديجة وتلعن عائشة لعنهم الله.

أما أهل السنة فيقولون: خديجة لها فضل السبق والنصرة والمواساة، فإنها واست النبي ﷺ بمالها، ولها فضيلة كونها أم أولاده واحتسبت موت أولادها وصبرت على ذلك، وماتت وهي متمسكة وصابرة، فلها فضيلة السبق.

وعائشة لها فضيلة العلم؛ لأن الله تعالى شرفها بحمل العلم، فحملت علمًا جمًا ونفع الله بعلمها، وكان الصحابة يرجعون إليها إذا اختلفوا في شيء، فيجدون عندها علمًا، فرزقها الله سعة العلم وسعة الحفظ، وسميت الصديقة بنت الصديق، وفضلها النبي ﷺ في هذا الحديث فقال: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[1].

والثريد في ذلك الوقت هو أشرف وأفضل أنواع الأطعمة، وهو عبارة عن لحم وخبز ومرق يؤكل جميعًا، يقول فيه بعضهم:

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢١٢.

. . . .

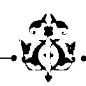
إذا مـا الخبـز تأدمـه بلحمٍ   فـذاك أمـانة الله الثـريد

فهو من ألذ الأطعمة، فلعائشة رضي الله عنها ميزة الفضل والعلم والعبادة والصحبة والصبر على البلاء، ونحو ذلك من الميزات والخصوصيات مع النبي ﷺ، ولها ميزة أخرى أن الله تعالى برأها في كتابه حين قذفها أهل الإفك، وأنزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، وذلك أيضًا دليل فضلها.

وبذلك يعرف أن زوجات النبي ﷺ لهن على الأمة حق الترضي والمحبة والموالاة، وأن من طعن فيهن من الرافضة فإنه قد طعن في الشريعة والقرآن.

فنسأل الله أن يرزقنا الحماية والعصمة عن المضلات والبدع.





موقف الروافض والنواصب من الصحابة رضي الله عنهم

[وَيَتَبَرَّؤُونَ مِن طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وطريقة النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ البَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

ويُمْسِكُونَ عمَّا شَجَرَ بيْنَ الصَّحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثار المرْوِيَّة في مساويهِمْ منْها ما هُو كذبٌ، ومنْها ما قدْ زيدَ فيه ونُقص وغُيِّر عن وجْهه، والصَّحيحُ منهُ هُم فيه معْذُورون: إمَّا مُجْتهِدُون مُصيبُون، وإمَّا مُجْتَهِدُون مُخْطِئونَ.

وهُم مع ذلكَ لا يعْتَقِدونَ أنَّ كُلَّ واحدٍ منَ الصَّحابَةِ معْصُومٌ عنْ كبَائرِ الإثْمِ وصغَائره، بلْ يجُوزُ عليْهِمُ الذُّنُوبُ في الجُمْلَة.

ولَهُمْ مِنَ السَّوابِقِ والفضائلِ ما يُوجبُ مغْفرةَ ما يصْدُرُ منهُمْ - إنْ صَدرَ -، حتَّى إنَّهُمْ يُغفرُ لهُمْ منَ السَّيِّئات ما لا يُغفرُ لمنْ بعْدهُمْ؛ لأنَّ لَهُمْ مِنَ الحسَنَاتِ الَّتي تمْحُو السَّيِّئات ما ليْس لمنْ بعْدهُمْ.

وَقدْ ثبت بِقوْلِ رسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خيْرُ القُرون[1]، وأنَّ المُدَّ منْ

(١) في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. . .» الحديث. أخرجه البخاري برقم (٣٦٥١) في فضائل الصحابة، باب: «فضائل أصحاب النبي ﷺ . . .». ومسلم برقم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة، باب: «فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». عن عبد الله =

أحدهمْ إذا تَصَدَّقَ بهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ[(١)] .

ثُمَّ إذا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أو أتى بحَسَناتٍ تمْحُوهُ، أو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سابِقَتِه، أو بِشفاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفاعَتِهِ، أَو ابْتُلِيَ ببَلاءٍ فِي الدُّنْيا كُفِّرَ بِهِ.

فإذا كَانَ هذا في الذُّنُوبِ الُمحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأمُورُ الَّتي كَانُوا فيها مُجْتَهِدينَ: إنْ أَصابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وإنْ أَخطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ واحدٌ[(٢)]، والخَطأُ مغْفُور[(٣)]].

= ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري برقم (٣٦٥٠). ومسلم برقم (٢٥٣٥). عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم برقم (٢٥٣٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا برقم (٢٥٣٦). عن عائشة رضي الله عنها.

(١) في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه». أخرجه البخاري برقم (٣٦٧٣) في فضائل الصحابة، باب: «قول النبي ﷺ : «لو كنت متخذًا خليلاً». ومسلم برقم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة، باب: «تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم».

(٢) يشير إلى حديث عمرو بن العاص أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ». أخرجه البخاري برقم (٧٣٥٢) في الاعتصام، باب: «أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ».

(٣) لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ : «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠٤٥) في الطلاق. والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٨). وابن حبان في صحيحه برقم (١٤٩٨) وحسنه النووي في الأربعين وصححه أيضًا العلامة أحمد شاكر والعلامة الألباني. انظر: إرواء الغليل رقم (٨٢).

. . . .

الشرح

■ **قوله: (ويتبرؤون من طريقة الرافضة الذين يبغضون الصحابة وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل...)**:

من تمام الكلام على الصحابة رضي الله عنهم أن أهل السنة يتبرؤون من طريقة الرافضة ومن طريقة الناصبة، وهما طريقتان متضادتان.

فالرافضة يبغضون الصحابة ويغلون في أهل البيت.

والنواصب بعكسهم، نصبوا العداوة لأهل البيت، ووالوا غيرهم. ولكن النواصب قليلون، إنما كانوا في أول الأمر في عهد بني أمية؛ كان هناك من يوالي بني أمية ويبغض عليًا وأهل بيته، فسموا نواصب؛ لأنهم نصبوا العداوة لأهل البيت، ولكن الرافضة إلى الآن تسمي أهل السُنة نواصب، وعندهم أن كل من أحب أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لعلي هو وذريته، وهذا خطأ وبهتان عظيم.

فأهل السنة يوالون الجميع ولا يعادونهم، والرافضة تزعم أن أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة أعداء ألداء لعلي، ولا يمكن لأحد أن يحب العدو وعدوه، فلا يمكن أن يوالي عليًا ويوالي أعداءه ولا يجمع بينهما؛ لأن عندهم أنه لا يكون ولاء إلا ببراء، فإذا واليت عليًا وأهل بيته تَبْرأ من الخلفاء الآخرين وإلا فقد عاديتهم، هكذا تزعم الرافضة.

فالرافضة هم الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ويشتمونهم، ويلحقون

. . . .

بهم المثالب ويبحثون عن المعايب، ويولّدون ويكذبون أكاذيب وترهات، فيستحلون الكذب في نصرة مذهبهم، وفي الطعن والتشنيع على أهل السنة.

وفي عهد بني أمية وبالأخص بعد خلافة معاوية إلى آخر القرن من عام إحدى وأربعين إلى عام تسع وتسعين، كان بعض خلفاء بني أمية يسبون عليًا على المنبر ويلعنونه ويتهمونه أنه اشترك في قتل عثمان إلى عهد عمر بن عبد العزيز الذي أبطل هذه العادة السيئة.

وكان هناك بالكوفة أشخاصٌ يحبون عليًا - من وزرائه وتلامذته في الكوفة - وساءهم وأحزنهم ما رأوه من سبه على رؤوس الأشهاد ولعنه، فصاروا يجتمعون في أماكن خاصة لهم ويتذاكرون فضائله، ثم دخل معهم من أراد أن يغلو، فصار يدخل معهم أناس يكذبون في فضله، يخترعون أحاديث مكذوبة في فضله، ويزعمون بذلك أنهم يجذبون الناس إليه وينفرون الناس عن بني أمية.

ثم ازداد عدد هؤلاء فقسموا أنفسهم جماعات، وصاروا يتكتلون ويكثرون، وكلما ازداد كذبهم وافتراؤهم زاد أتباعهم؛ لأن الناس يتبعون كل ناعق، فدخل مع هؤلاء من لم يكتف بهذا بل ضم إليه اختلاق الأحاديث والأخبار في ذم الصحابة الأطهار، وأنهم ظلموا عليًا وأهل بيته وسلبوهم حقهم في الخلافة وتآمروا عليهم وغير ذلك من الأكاذيب والضلالات.

فمن عقيدة أهل السنة أنهم يتبرأون من طريقة الرافضة، الذين يبغضون

. . . .

الصحابة ويسبونهم، ويتبرأون أيضًا من طريقة النواصب، الذين يعادون أهل البيت عليًا وذريته ويسبونهم.

والرافضة هم أشد الناس خصومة وبغضًا للحق وأهله، وللسنة وأهلها، وعقيدتهم أبعد العقائد عن الدين وعن الإسلام؛ وذلك لأنهم بطعنهم في الصحابة رضي الله عنهم يطعنون في الدين وفي الشرع؛ لأن الشريعة إنما نُقلت إلينا بواسطة الصحابة.

فالرافضة لما بالغوا في محبة علي وأهل بيته، عند ذلك اختلقوا أكاذيب في سب أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، وحفصة، وطلحة، والزبير، وسائر الصحابة وبالغوا في الحط عليهم وفي الكذب، وقدحوا فيهم، واعتقدوا أنهم قد ارتدوا بعد النبي ﷺ، واعتقدوا أنهم كتموا وصية النبي ﷺ؛ ففي زعمهم أن النبي ﷺ أوصاهم بأن يكون عليٌ هو الإمام، ولكنهم اتفقوا كلهم ـ على زعم الرافضة ـ على كتمان الوصية فلم يفصحوا عنها، وبايعوا أبا بكر وهو ليس بوصي، ويسمون أبا بكر مغتصبًا للخلافة وليس هو صاحبها، وهكذا عمر وعثمان؛ كلاهما مغتصب.

ثم من طريقتهم: الطعن أيضًا في القرآن؛ يقولون: إن هذا القرآن الذي بين أيديكم منقوص ومصحف ومحرف ومزيد فيه، وأن الصحابة لما كتبوه كتموا ثلثيه، وزادوا فيه ما ليس منه، ونقصوا وكتموا كل ما يتعلق بأهل البيت وبفضائل أهل البيت ونحو ذلك. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

. . . .

فهم بذلك يدعون أن القرآن غير محفوظ والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

وعلى زعمهم أيضًا يكون عليٌّ قد أقر هذا القرآن المنقوص؛ لأنه كان يقرؤه ويتعبد به، ولم يرد عنه أنه شكك فيه، ولا أن هناك غيره. وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قيل له: هل عندكم شيء غير القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة؛ إلا فهمًا يؤتيه الله أحدًا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[1]، وهي صحيفة كتبها عن النبي ﷺ فيها الديات، وفيها بعض الإرشادات، ولم يكن فيها شيء مما يزعمونه؛ كالنص على الولاية أو نحو ذلك، ولا مسبة أبي بكر وعمر ونحوهم.

فسب الرافضة للصحابة وتتبعهم لمثالبهم، حملهم عليه الحقد الذي ألقاه الشيطان في قلوبهم لما رآهم غلوا في حب عليٍّ، فقال لهم الشيطان: لابد وأن تبغضوا غيره حتى تكونوا محبين له غاية المحبة.

فالحاصل أن أهل السنة يتبرءون من طريقة هؤلاء وهؤلاء، ويحبون ويتولون الجميع، آل البيت والصحابة كلهم، ولا يتبرءون من أحد.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٧) في الجهاد والسير، باب: «فكاك الأسير». عن أبي جحيفة رضي الله عنه.

. . . .

▪ **قوله: (ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها...)**:

من طريقة أهل السنة والجماعة أنهم يتوقفون عما شجر بين الصحابة ويقولون: الحكم بينهم عند الله تعالى.

فما حصل بينهم من القتال كوقعة الجمل وصفين، نقول في ذلك كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تلك دماءٌ طهر الله منها أسيافنا، أفلا نطهر منها ألسنتنا؟ فنحن نقول: الله هو الذي يحكم بينهم؛ فلا نتدخل، ونعتقد أن كلاً منهم مجتهد؛ فعائشة وطلحة ومن معهم في وقعة الجمل كانوا يطالبون بقتلة عثمان، ويرون أن بيعة علي لم تنعقد حتى يأتي بهؤلاء الثوار الذين قتلوا الخليفة الشرعي، وعلي يطالب بالطاعة والدخول في الولاية؛ لأنه هو الإمام العام.

وهكذا في موقعة صفين؛ أهل الشام يطلبون منه أن يسلِّم إليهم قتلة عثمان لأن معاوية وبني أمية كانوا يرون أنهم أولياء دم عثمان، أما علي رضي الله عنه فكان يقول: لا أقدر على أن أسلمهم حتى تبايعوني وتجتمع الكلمة، فإذا اجتمعت الكلمة فهنالك نطلبهم ونقتلهم أفرادًا، ولا نبقي منهم أحدًا.

ولكن لما لم يتم هذا، حصل ما حصل نتيجة هذا الاجتهاد الذي كان من الطرفين. ولذلك فنحن نتوقف فيما شجر بين الصحابة، ولا نصدق أيضًا ما تتناقله الروافض والنواصب من المثالب والمعائب التي يقدحون بها في الصحابة

. . . .

ويسبونهم بها.

فهذه المثالب الموجودة في كتب الروافض كذب صريح؛ فإن الروافض قوم لا خلاق لهم ولا يتحاشون من الأكاذيب؛ ولذلك فإن كتبهم ملأى بالكذب.

وهناك مما يروون ما له أصل، ولكنهم يزيدون فيه ويحرفون الكلم عن مواضعه، حتى ينفون عن صاحب القصة أي مقصد صحيح؛ فتروى القصة على غير حقيقتها.

فما حصل بين الصحابة من قتال وحروب فإنهم معذورون فيه؛ لأنهم مجتهدون والمجتهد معذور؛ إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد وخطؤه مغفور.

هذه عقيدة أهل السنة فيما شجر بين الصحابة، وعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يرويه الرافضة والنواصب من المثالب والمعايب التي يطعنون بها في عدالة الصحابة، والتي يعتقدون أنهم لأجلها قد ارتدوا.

▪ قوله: **(وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة...)**:

من عقيدة أهل السنة أن العصمة ليست إلا للرسل، والصحابة ليسوا معصومين، بل هم بشر كسائر البشر يصدر منهم ذنوب، ويصيبون ويخطئون، إلا أنهم أفضل من غيرهم، فلكونهم أفضل من غيرهم نقول: هم أولى بأن يعذروا، ولكن لا نعتقد أنهم معصومون عن كبائر الإثم وصغائره

. . . .

وعن الذنوب كلها، بل يجوز صدور الذنب من أحدهم، ولكن إذا قدر أنه قد صدر من أحدهم ذنب، فإنه يمحى عنه لهذه الأسباب الخمسة: أما أن يكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ - فهم أحق الناس وأولاهم بشفاعته - أو ابتلي ببلاء كُفِّر به عنه.

هذه أسباب مغفرة الذنوب الحقيقية، فكيف بالذنوب التي ليست حقيقية إنما هي أمور يُجتهد فيها، فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور!.

نقول: إن الذنوب عادةً يغفرها الله بهذه الأسباب، وهذا ليس خاصًا بالصحابة بل ذلك ثابت لغيرهم، إذا أذنب الإنسان ذنبًا، فإنه يغفر له بهذه الأسباب.

فمن أسباب المغفرة: التوبة الصادقة: وهي أن يندم على ما مضى وما كان وما فعل، وأن يتخلى عن ذلك العمل الذي هو ذنب، وأن يعاهد الله على ألا يرجع إليه، ويكون صادقًا في ذلك، وأن يرد الحقوق إلى أهلها.

ومن أسباب المغفرة: الحسنات: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وقال النبي ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[1]. فالحسنات: الأعمال الخيرية من صدقات، ومن أذكار، وصلوات وعبادات ونوافل ونحو

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٩٨٧) في البر والصلة. وأحمد في المسند (٥/ ١٥٣، ١٥٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

. . . .

ذلك، والمحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل، كالتهجد بالليل، والإكثار من قراءة القرآن، والإكثار من الصلوات في سائر الأوقات، والإكثار من الأدعية، والاستغفار، والتسبيح، والتحميد، والذكر، والصيام تطوعًا، ومن الصدقة تطوعًا، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لعباد الله، فالحسنات هي الأعمال الخيرية وهي تكفر السيئات، وتمحو ما صدر من المسيء من الذنوب.

وكذلك من أسباب المغفرة: المصائب: فالمصائب تكفر الذنوب؛ يقول النبي ﷺ: «**لا يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا غم؛ حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه**»[1]

فلذلك كان كثير من السلف يفرحون بالأمراض ونحوها كما نفرح نحن بالعافية والشفاء، وقد قال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٠) في المرضى، باب: «ما جاء في كفارة المرض».
ومسلم برقم (٢٥٧٢) في البر والصلة، باب: «ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن». عن عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه البخاري برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢). ومسلم برقم (٢٥٧٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٥٧٣). عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) في الزهد. وابن ماجه برقم (٤٠٣١) في الفتن وقال الترمذي: حسن غريب.

. . . .

كذلك من أسباب المغفرة: شفاعة النبي ﷺ : لكن هذا إنما يكون في الآخرة.

كذلك من أسباب مغفرة الذنوب: الابتلاء والامتحان والفتن التي يبتلى بها الإنسان: فالعقوبات إما عقوبات من الله، وإما عقوبات وتسليط لعباد الله على الإنسان، فهذا الابتلاء وهذه الفتنة تكون سببًا لمغفرة الذنوب.

نقول: إن هذه الأسباب تكفر سيئات أولئك الصحابة إذا وقع منهم سيئات، مع أننا نشهد لهم بالفضل والسبق، فنقول للرافضة الذين يطعنون فيهم: كيف تطعنون فيهم بهذه الأمور التي أنتم أولى بها، فأنتم أكثر منهم ذنوبًا، حيث إنكم طعنتم في الشرع، وطعنتم في الدين والقرآن، وطعنتم في الصحابة الذين هم أهل السبق، وجحدتم فضائلهم حتى غزواتهم ونفقاتهم، وقد زكاهم النبي ﷺ وأخبر بأن لهم من السوابق ما يفوقون به غيرهم، وأخبر بأن من أنفق مثل جبل أحد ذهبًا لم يبلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه؛ يعني ولا نصف المدّ الذي هو ربع الصاع، والصاع هو أربع حفنات من يدين متوسطتين.

يقول: «**لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[1]؛ وذلك لأنهم صدقوا في وقت الشدة، وجاهدوا مع النبي ﷺ ، وحفظوا عنه شريعته، وبلغوها عنه، وقاموا بنصر سنته بعده أتم قيام، فكيف يدركهم من بعدهم، وكيف يقاسون بالرافضة الذين يسمون أنفسهم شيعة، ويزعمون

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٤ .

. . . .

أنهم يشايعون عليًا وأهل بيته، وهم أعدى الناس له ولأهل بيته؛ لأنهم لم يقبلوا ما جاء به، ولم يصدقوا بما أثر عنه، ولفقوا عليه وعلى أهل بيته الأكاذيب التي هو منها بريء، فكيف يكونون أذكى من الصحابة الذين هذه فضائلهم.

إذًا فطريقة أهل السنة هي محبة الصحابة على ما هم عليه، والشهادة لهم بالفضل والسابقة، والبراءة من كل من يمقتهم أو يطعن في عدالتهم، أو يطعن في ديانتهم أو يسبهم، واعتقاد أن هؤلاء الذين يطعنون فيهم ويسبونهم أولى بالسب والبعد عن الله تعالى والبعد عن الخير وأهله.

وأن الصحابة هم أبر هذه الأمة وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، واختارهم لتحمل دينه وتدبير شريعته، فهم أهل الفضل والكفاءة، فلن يصل إلى درجتهم ومرتبتهم أحد ممن جاء بعدهم، فكيف بهؤلاء الأنجاس والأوباش الذين يفضلون أنفسهم على أفضل الصحابة، بل يقومون بسبهم ولعنهم وشتمهم، ويمثلونهم بالأمثلة البشعة.

فأهل السنة يتبرءون من هؤلاء وهؤلاء، ويحبون جميع الصحابة ويترضون عنهم، ويشهدون لهم بما شهد الله به لهم من الفضل، وبما مدحهم به في كتابه، وبما ورد بفضلهم من الأحاديث الصحيحة التي تنص على فضلهم، وقد يجدها من طلبها في كتب أهل السنة، وفي القرآن أيضًا من الآيات التي تدل على فضلهم الشيء الكثير.

. . . .

هذه هي عقيدة أهل السنة، فمن تمسك بها في هذا الباب وغيره، فإنه لا يتأثر بما يسمع وما ينقل له من كتب الشيعة، التي امتلأت بالأكاذيب والعياذ بالله، نسأل الله العافية.

❋ ❋ ❋

محاسن وفضائل الصحابة

[ثُمَّ إنَّ القَدْرَ الَّذي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَليلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ في جَنْبِ فَضائِلِ القَوْمِ ومَحاسِنِهِمْ؛ مِن الإيمانِ باللهِ، ورَسُولِه، والجِهادِ في سَبيلِه، والهِجْرَةِ، والنُّصْرَةِ، والعِلْمِ النَّافعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ.

ومَنْ نَظَرَ في سيرةِ القَوْمِ بعِلْمٍ وبَصيرةٍ، وما مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِه مِن الفَضائِلِ؛ عَلِمَ يَقينًا أَنَّهُم خَيْرُ الخَلْقِ بعدَ الأنبياءِ، لا كَانَ ولا يَكونُ مِثْلُهُم، وأَنَّهُم الصَّفْوَةُ مِن قُرونِ هذهِ الأمَّةِ الَّتي هِيَ خَيْرُ الأمَمِ وأَكْرَمُها على اللهِ].



▪ قوله: (ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم...):

تقدم أن من طريقة أهل السنة أنهم يترضون عن الصحابة رضي الله عنهم، ويوالونهم جميعًا أهل البيت وغيرهم، وأنهم يكفون عما شجر بينهم من الخلاف والقتال، ويتوقفون عن الخوض في ذلك، ويقولون: حيث سلمت منه أيدينا نكف عنه ألسنتنا.

. . . .

كذلك أيضًا لا يبحثون في المثالب والمعائب التي ينقلها الرافضة عنهم، وأنهم أذنبوا بكذا وفعلوا كذا وكذا، وكذلك الأمور التي يطعنون بها على الصحابة ينكرها أهل السنة، ويقولون: أغلبها كذب صريح، ومنها ما بدلوه وحرفوه عن حقيقته، وإذا كان منها شيء صحيح فهم فيه معذورون؛ لأنهم إما مجتهدون مصيبون فلهم أجران، وإما مجتهدون مخطئون فلهم أجر واحد، وخطؤهم مغفور لهم. وقد سبق تقرير ذلك كله.

كذلك إذا نظرنا في سيرة الصحابة رضي الله عنهم بعلم وإنصاف، علمنا أنهم أفضل الأمة، لا كان ولا يكون مثلهم، وتحققنا أنهم خيرة هذه الأمة، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها عند الله تعالى.

وكذلك إذا نظرنا في أعمالهم، وجدناهم قد فاقوا غيرهم بالأعمال، وزيادة على الفضل في المضاعفة، فهناك أيضًا فضل في الكثرة.

فمن حيث الكثرة: هم السابقون إلى الإيمان، وهم الذين تفردوا بالهجرة أو أغلبهم، وتفردوا بالإيواء والنصرة.

وهم الذين انفردوا بالقتال مع النبي ﷺ وفدوه بأنفسهم، وقتلوا في سبيل الله في نصرة الإسلام، وهم الذين قاموا بالأعمال الصالحة، حتى قيل: إنهم كانوا رهبانًا بالليل، إشارة إلى طول عبادتهم وتهجدهم، وفرسانًا بالنهار إشارة إلى جهادهم لأعداء الله عز وجل، ففي الليل يقومون ويتهجدون ويصلون، فإذا

. . . .

أصبحوا اشتغلوا بقتال أعداء الله ورسوله ﷺ ، فلا يشغلهم الجهاد عن العبادة ولا العبادة عن الجهاد والأعمال الأخرى، بل كانوا يجمعون بين الحسنيين.

كذلك سبقهم بالنفقات، حيث أنفقوا في سبيل الله كل ما يملكونه أو أغلبه، ولم يُبقوا لأنفسهم إلا ما لابد منه، وذلك مشهور في قصصهم رضي الله عنهم، فكانوا إذا طلبت منهم الصدقة والنفقة أتوا بما عندهم أو أغلبه، ولم يمسكوا بخلاً وشحًا.

كذلك اجتهادهم في الأعمال الخيرية، والأعمال الصالحة مشهور؛ مثل: عتق الرقاب، والصدقة في سبيل الله، ونصرة المظلوم، والسعي في حاجة الناس، وتفريج الكروب، والأخذ على يد الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بحقوق الله خير قيام، ولذلك فقد فاقوا غيرهم في كل شرف وفضيلة، ولو لم يكن لهم إلا شرف الصحبة والرؤية لكفى بذلك ميزة لهم وفضلاً.

فالذين طعنوا فيهم ما تسلطوا بالطعن إلا على السابقين الأولين؛ فقد وجهوا طعنهم إلى أجلاء الصحابة وأكابرهم كالخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأكابر الصحابة من الأنصار وغيرهم، جعلوهم كلهم أعداء ألداء للإسلام والمسلمين، وطعنوا فيهم، وأخرجوهم من الإسلام، واستباحوا عيبهم وسبهم ولعنهم، كأنهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين، ومن فرعون وجنوده؛ وذلك أن الشيطان زين لهم أن

. . . .

هؤلاء أعداء لأهل البيت، وأنه لا يمكن موالاة أهل البيت إلا بمعاداة هؤلاء الصحابة.

عرفنا بذلك أن الصحابة هم خيرة خلق الله، فلا كان ولا يكون مثلهم، بل هم أفضل من أصحاب الأنبياء السابقين، فما من خير وفضيلة إلا وفاقوا غيرهم فيها. فهم الصابرون في وقت الشدة، وهم الثابتون في ساعة العسرة، وهم الباذلون كل ما يملكون في سبيل نصرة دين الله تعالى وشرعه.

فهؤلاء هم السادة النجباء، والأئمة الفضلاء، والأخيار النبلاء، فأحبهم يا طالب الحق وتمسك بحبهم وولائهم والثناء عليهم، ودع عنك تشغيب الروافض وغيرهم من أهل الجهل والضلال.

وقد مدحهم الله في آيات كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] ثم قال في آية أخرى بعدها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

فوصفهم بهذه الصفات: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ وهذه في المهاجرين. ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا﴾ هذه في الأنصار، ولا يدركهم في هذه الصفات غيرهم.

وهكذا أيضًا مدحهم بمثل قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

. . . .

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذه الأوصاف لا تنطبق إلا عليهم؛ لأنهم الذين معه؛ فهم الذين يغزون معه ويسافرون معه، ويُقاتلون معه، ويقيمون معه.

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ أي علامة السجود وعلامة العبادة، وعلامة السعادة وإشراق وجوههم وإضاءتها، ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ... ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

هذه أوصافهم، وقد ذكرهم الله أيضًا بقيام الليل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾ [المزمل: ٢٠] الآية. فهم يقومون كما تقوم، ويتهجدون ويصلون، فهم أهل هذه الأوصاف وهكذا أيضًا مدحهم الله في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الحشر: ٩] فالآية الأولى في المهاجرين، والثانية في الأنصار فهم الذين تبوءوا الدار والإيمان.

والثالثة في المتأخرين الذين جاءوا بعد الفتح وكذلك الذين جاءوا بعد موت الرسول عليه السلام؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

. . . .

وهكذا أيضًا ذكرهم الله بالرضا عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] ، فإنزال السكينة عليهم هي ميزة وفضيلة لهم في هذه الآية وفي آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

فهذه الآية أيضًا في وصفهم وفي مدحهم؛ أنهم أحق بكلمة التقوى وأنهم أهلها، وأن الله رضي عنهم، وأنهم أيضًا بايعوا النبي ﷺ وبيعته كأنها بيعة لله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

ولهذا تُعتبر هذه الآية من أبرز الآيات الدالة على شرف النبي ﷺ حيث جعل مبايعته مبايعة لله، ولهذا يقول بعض الشعراء:

كيف السبيل إلى تقضّي مدح من قال الإله له وحسبك جاهًا!!

إن الذين يبايعونك إنما حقًا يقال: يبايعون اللهَ

فمن فضائله ﷺ أن جعل بيعته كأنها بيعة لله تعالى، وفضّل الصحابة الذين بايعوه؛ وذلك لأنهم كأنهم بايعوا الله، وتلك ميزة وفضيلة وشرف للنبي ﷺ ولصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

فإذا عرفنا هذه الفضائل للصحابة، فكيف يدركهم من بعدهم؟ لا يستطيع أحد من أهل القرون المتأخرة أن يدركهم في الفضيلة والشرف، فإنهم خير

. . . .

قرون هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ ، وقد ثبت عنه أنه قال : «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» قال الراوي : فلا أدري ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة قرون[١] .

وهذا يدل على أن قرن الصحابة أفضل القرون ؛ ولهذا كان أسلم من البدع ومن الخوض فيما لا يعني ، فدلَّ على أن الخيرية - والتي هي الفضيلة - ثابتة للصحابة ولأبنائهم فهم خير قرون هذه الأمة .

أما بالنسبة إلى الأمة ، فقد تكاثرت الأحاديث في فضل هذه الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم ، ودلّ على ذلك من القرآن قول الله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] فهذا دليل على أن هذه الأمة أفضل الأمم .

ومن فضلهم سبقهم يوم القيامة إلى الجنة ، قال النبي ﷺ : «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[٢] أي ولو كنا متأخرين في الوجود ، فإننا نكون أسبق يوم القيامة إلى الجنة وإلى الثواب والجزاء .

كذلك بينت الأحاديث فضل هذه الأمة وأن ذلك بسبب مضاعفة أعمالها ؛

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٣ .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٢٤) في الأيمان والنذور ، باب : «١» . ومسلم برقم (٨٥٥) في الجمعة ، باب : «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة» . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

. . . .

فالحسنة من أحدهم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة، فإن تاب منها صاحبها تاب الله عليه.

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجيراً فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1].

فهذا وجه في تفضيل هذه الأمة على غيرها. وهناك وجه آخر وهو كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة؛ فإن هذه الأمة هي أكثر الأمم دخولاً الجنة، وقد قيل في قول الله تعالى: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] وكذلك قوله: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]: إن المراد هذه الأمة؛ ثلة من أوَّلي هذه الأمة وثلة من آخريها، وثلة من أولها وقليل من آخرها. والثلة أي المجموعة.

فعلى كل حال هذا ونحوه مما يدل على فضل الصحابة أولاً، وفضل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٦٩) في الإجارة، باب: «الإجارة إلى صلاة العصر». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

الأمة ثانيًا، وأن الصحابة إذا كانوا أفضل الأمة فهم أفضل من غيرها ما عدا الأنبياء.

فالأنبياء هم من الأمم السابقة خصهم الله بإنزال الوحي عليهم فهؤلاء يفوقون غيرهم بميزة الوحي والنبوة. وبعد الأنبياء في المنزلة أصحابهم، ولاشك أن أصحاب النبي ﷺ أسبق إلى الفضل من سائر أصحاب الأنبياء، فإذا عرفنا ذلك حَمَلَنَا على أن نحبهم، ونترضى عنهم، ونَحذَر ونُحذِّر من الانخداع والاغترار بأقوال الرافضة الذين يسبونهم، ويتقربون بسبهم ولو كثروا؛ فقد كثرت الرافضة في هذه الأزمنة، ومع كثرتهم فإنهم يُخفون أمرهم، ويُسرون عقيدتهم، ويبوحون بها عند من يثقون به؛ لئلا يستنكروا بين الناس.

فليكن المسلم على حذر منهم فحيث عَرف فضيلة الصحابة وأحقيتهم بالسبق، وعداوة الرافضة لهم، فقد عرف أن كل من يتكلم في الصحابة منتقصًا لهم ومشنعًا عليهم فإنه من جنس أولئك الرافضة، الذين يتسترون بحب آل البيت والدفاع عن حقوقهم، فهم من أخبث الطوائف وأبعدها عن الإسلام الصحيح . والله أعلم.

* * *

الإيمان بكرامات الأولياء

[ومِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّصْدِيقُ بكَرامـاتِ الأوْلِيـاءِ ومَا يُجْرِي اللَّهُ عَلى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوارِقِ العَادَاتِ في أَنْواعِ العُلومِ والمُكـاشَفَــاتِ وأَنْواعِ القُدْرَةِ والتَّأْثيراتِ ، والمأْثُورِ عنْ سَالِفِ الأمَمِ في سُورَةِ الكَهْفِ وغَيْرِها ، وعَنْ صَدْرِ هذهِ الأمَّةِ مِن الصَّحَــابَةِ والتَّابِعِينَ وســائِرِ فِرَقِ الأُمَّةِ، وهِيَ مَوْجودَةٌ فيها إِلى يَوْمِ القِيامَةِ].



▪ قوله: (ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات...):

الولي: مُشتق من الولاء الذي هو المُوالاة، بمعنى القرب أو التقريب والمحبة.

وقد ذكر الله أنه ولي المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهو وليهم وهو مولاهم، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وذكر أن المؤمنين أولياء الله، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ

. . . .

عليهم ولا هم يحزنون ﴿٦٢﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يونس: ٦٢] فأولياء الله هم أهل طاعته، وأهل الإيمان به، وأهل تقواه حق تقاته، وهم الممتثلون لأمره، المبتعدون عن نهيه، المحبون لطاعته.

فالله تعالى وليهم ومولاهم، وهو كذلك عدو من عاداهم؛ قال النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[1] فوليُّ الله هو القريب منه الذي يحبه ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه ويتقيه حق تقاته، هذا هو ولي الله.

وأولياء الله تعالى قد يجري الله على أيديهم خوارق للعادة، ويُسميها العلماء كرامات؛ إما إجابة دعوة في الحال، وإما رزق يرزقه إياه بغير سبب ظاهر، وإما نجاة من هلاك محقق أو غير ذلك مما هو خارج عن قدرة البشر.

وقد ذُكر لذلك أمثلة في القرآن، ومن ذلك ما ذكر الله تعالى عن أهل الكهف، فإنهم ليسوا بأنبياء ولكن وقع لهم كرامات؛ فأهل الكهف الذين ذكر الله أنهم فتية آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى، وربط على قلوبهم، لما دخلوا في الكهف، ضرب الله على آذانهم سنين عددًا ثم أحياهم.

وهذه معجزة وكرامة، فقد لبثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين ثم بعثوا، فلم تتغير أبشارهم بل ظلوا باقين على هيئتهم، ولم تأكلهم الأرض، فمن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢) في الرقاق، باب: «التواضع». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

كـرامـة الله لهم أنه كـان يقلبـهـم ذات اليمين وذات الشـمال حتى لا تـأكلهـم الأرض، وكـان معـهـم كلبـهـم باسطًا ذراعـيـه بالوصـيـد، يعني بـبـاب الكهف، وأصابه ما أصابهم من النوم الذي هو موت، ولكنه ليس بموت حقيقي، وبعدما بُعثوا اعتقدوا أنهم ناموا يومًا أو بعض يوم، ثم أرسلوا من يأتيهم بالطعام، فعثر أهل القرية عليهم، ولما عثروا عليهم رجعوا إلى مضاجعهم وماتوا.

فـغـلا فـيـهـم أهـل البلد، وبنـوا عليـهـم بنيـانًا، واتـخـذوا عليـهـم مسـجـدًا ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] وذلك من باب الغلو في الموتى وفي الأولياء.

ومن الكرامـات مـا ذكـره الله عن مريم، وليست نبية وإنما هي صـديقة، قـال تعـالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] فإذن هي من أوليـاء الله وقـد أجـرى الله لهـا كرامـة قال تعـالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ وذكر أنه وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء وهذا من كرامات الله لها.

وأما في هذه الأمة فقد جرى كثير من الكرامات لكثير من الصحابة وكثير من التابعين، وحدثت لهم عجائب الأمور التي قد يكذب بها ويستغربها من لم يؤمن بقدرة الله وبكرامته لأوليائه.

. . . .

فمن ذلك أن أبا إدريس الخولاني أحد أجلاء الصحابة ألقي في النار، أحرقه أناس باليمن في ولاية العنسي، فصارت النار عليه بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم، أي خمدت النار لما ألقي فيها، وليس هو نبيًا، وإنما هو ولي من أولياء الله، حقق الإيمان فأجاب الله دعوته، وحماه من كيد أعدائه.

ومن ذلك أن ابن العلاء الحضرمي غزا مرة جهة البحرين وحال بينه وبين العدو بحر أو نهر، فأراد أن يدرك العدو، فخاض هو ومن معه على خيولهم، فجعل الله البحر شِبْهَ اليَبَس، فصاروا يمشون فوقه ولم يغرقوا، ولم يفقدوا متاعهم، مشوا على البحر كأنه يَبَس مع عمقه، فلما رآهم الأعداء يمشون على البحر قالوا: ما هؤلاء إلا شياطين، فأدركوا العدو وقاتلوهم، ولم يفقدوا من متاعهم ولا من دوابهم شيئًا، وهذه كرامة لأولياء الله تعالى.

وكذلك وقعت كرامات لعمر بن الخطاب ومكاشفات، فاشتهر بأنه قال لرجل ما اسمك؟ قال: جمرة. قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب. قال: من أي القبائل؟ قال: من بني ضرام، فسأله أين يسكن؟ قال: بحَرَّة النار. فقال: ارجع إلى أهلك فإنهم قد احترقوا، فوجد الأمر كذلك، كأنه استنبط ذلك من اسمه واسم أبيه وقبيلته ومسكنه: الجمرة، والشهاب، والضرام، وحرة النار.

كذلك ذكروا أنه رضي الله عنه كان مرة يخطب، وفي أثناء خطبته تكلم بكلام لا يدرون ما سببه، وهو أنه أخذ يقول: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، وكان هناك سرية في الشام، تقاتل عدوها في تلك الساعة وقت

....

الخطبة ، وقائدها يقال له : سارية ، وهناك جبل أمامهم ، فناداهم أن يعتصموا بالجبل ويجعلوه خلف ظهورهم ، ويقاتلوا الأعداء من أمامهم ، فلما قاله سمعوه وهم بالشام ينادي : يا سارية الجبل ، فعند ذلك لجأوا إلى الجبل وقاتلوا الأعداء وانتصروا ، وذكر أنهم لما رجعوا منتصرين سألوه عن ذلك فقال : خطر ببالي شيء فنطقت به . فهذه تعتبر من الكرامات .

ومن كرامات الله لعثمان ذي النورين رضي الله عنه أنه لما قتل ، وقعت أول قطرة من دمه على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

ولما قرأ ابن عباس قول الله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٣] ، قال ابن عباس : إن معاوية ومن معه منصورون ؛ لأنهم يطالبون بدم عثمان ؛ ولأنهم أولياؤه فإنهم منصورون ، فتحقق نصرهم على قتلة عثمان وتحقق قول ابن عباس رضي الله عنهما .

وأما إجابة الدعوات فهو أمر مشهور يجل عن الحصر . ومن ذلك ما كان من سعيد بن زيد رضي الله عنه حينما ادعت امرأة أنه أخذ شيئًا من أرضها فقال : اللهم إن كانت كاذبة فاقتلها في أرضها . فاستجاب الله دعاءه ، فقد كانت تسير مرة في أرضها فعثرت فوقعت في بئر فكان حتفها .

وباب كرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات



. . . .

باب واسع وقد صنفت في ذلك المؤلفات والأسفار، إلا أن الغلو والشطط والبعد عن أصول وضوابط منهج أهل السنة والجماعة كان السمة الغالبة على أكثرها.

ولكن من أحسن ما كتب في هذا الباب ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وكذلك في كتابه: «النبوات» فقد ذكر ضوابط الكرامات الشرعية، وفرق بينها وبين أفعال السحرة والمشعوذين، وأن أهل الكرامات الشرعية هم من المؤمنين المتقين، أما السحرة وأهل الشعوذة فهم من الأفاكين المجرمين. وذكر أيضًا رحمه الله أمثلة كثيرة عن كرامات كثير من السلف رحمهم الله.

وكذلك ابن رجب الحنبلي رحمه الله في كتابه «جامع العلوم والحكم» يذكر كثيرًا من هذه الكرامات التي جرت لأولياء الله من إجابة الدعوات وتفريج الكربات، ونحو ذلك. ذكر ذلك عند شرحه لحديث: **«من عادى لي وليًا فقد بارزته بالحرب»**[1]، وكذلك عند شرح قوله ﷺ في حديث عمر: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**[2]. وغير ذلك من الأحاديث.

وفي غير هذا الكتاب أيضًا كالمحجة في سير الدلجة وغيره.

ولابن القيم رحمه الله أيضًا إشارات لهذا الباب في كتابه «مدارج

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨) في الإيمان. باب: «الإسلام والإيمان والإحسان».

. . . .

السالكين».

فهذه كرامات الأولياء وإجابة دعواتهم، وقد ألفت فيها مؤلفات للفرق بينها وبين معجزات الأنبياء وبيان ضابط المعجزة وضابط الكرامة، وأن الكرامة تجري على يد إنسان صالحٍ مستقيم، وأن الله تعالى يجريها له في تلك الحال لكرامته ومحبته وإخلاصه في اللجوء إليه عند الشدة وغيرها.

ولكن ذكروا أن الكرامة لا تدل على الرفعة المطلقة، فقد يوجد كثير من التابعين جرى لهم كرامات أكثر من الصحابة، وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الصحابة. قال بعض العلماء: إن الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة ليسوا بحاجة إلي هذه الخوارق لتقوي إيمانهم، بخلاف التابعين؛ فإن الناس في زمنهم كانوا بحاجة إلى ما يقوي إيمانهم، فأجرى الله على أيديهم كرامات كثيرة لتثبيت هؤلاء الناس على دينهم ولزيادة إيمانهم.

وذكر العلماء أيضًا أن الكرامة قد تجري على يد صاحبها وهو لا يشعر بها، فقد تجاب دعوته وهو لا يشعر، وقد يدعو على من لا يستحق الدعاء فيجاب، فقد ذكر ابن رجب أن الحسن البصري كان له ديك يوقظه قبل صلاة الفجر، فلم يَصِحْ يومًا، فتأخر الحسن عن الصلاة ثم قال عن الديك: ما له أخرسه الله!! فما صاح بعد ذلك البتة، فقالت له أمه: يا بني لا تدعو على شيء بعد ذلك أبدًا.



. . . .

وكذلك فإنه ليس من شرط الولي أن يكون مجاب الدعوة دائمًا بل قد يمنع ما أراده.

وكذلك ليس كل من جرت على يديه الكرامة استحق أن يكون وليًا، فلا يجوز أن يُرفع فوق حده، ولا يُعلى فوق طوره، كما يفعل الغلاة الذين إذا اشتهر عندهم أحد المتصوفة الذين يسمونهم أولياء ومات غلوا فيه، ورفعوه عن قدره، وعبدوه أو كادوا أن يعبدوه، وعظموه تعظيمًا غير مناسب، ثم أخذوا يكذبون عليه أكاذيب ليس لها أصل، ويزعمون أنه قال وأنه فعل، وتلك إما أن تكون كرامات له، وإما أن تكون أكاذيب.

فمن ذلك ما فعلوا مع عبد القادر الجيلاني، وبلا شك أنه من الصالحين ومن خيار أولياء الله، وله كرامات، ولكن لما غلا فيه المتأخرون، ولَّدوا عليه أكاذيب، وزعموها كرامات، ومن ذلك أنهم زعموا أنه قُرِّب إليه مرة كبش مشوي، فأكل منه هو ومن معه، ولما أكلوا لحمه وبقيت عظامه قال للكبش: قم يا كبش بإذن الله، قالوا: فقام الكبش حيًا ينفض شعره.

ولا شك أن الله قادر على إجابة دعوته وإحياء هذا الكبش ولكن يغلب على هذه الحكاية أنها مكذوبة؛ إذ لا فائدة من طلبه هذا في ذاك المقام إلا ما يكون من فتنة الناس به وغلوهم فيه.

وكذلك الأكذوبة الأخرى التي هي أعظم منها، وهي أنه جاءته امرأة وقالت: إن ابني مات، وليس لي ابن غيره، وإنه وحيدي، فادع الله أن يحييه، وأن يرد إليه روحه، قالوا: ثم إن عبد القادر طار في الهواء، فأدرك

. . . .

ملك الموت وهو بين السماء والأرض، وقد قبض أرواحًا كثيرة وجعلها في زمبيل معه، فقال: يا ملك الموت رُدَّ روح الصبي. فقال: لا أردها . فقال: ردها وإلا أخذتها منك، فأخذ منه الزمبيل، ورجعت الأرواح التي أخذها، فعاش حيًا كل ميت مات في ذلك اليوم. وهذه أكذوبة من أقبح الأكاذيب.

فالحاصل أنه ليس كل ما يلفَّق على من يُقال إنه ولي صحيحًا، ونحن نصدق بقدرة الله تعالى ولكن الذين غلوا زادوا في التلفيق على الأولياء ما ليس له أصل.

وعلى كل حال فالله تعالى يُجري على أيدي أوليائه كرامات، ويأتيهم بمكاشفات، ويكشف لهم شيئًا من أسرار الغيب، ويطلعهم على بعض الأمور المستقبلية، وذلك من باب كرامتهم ورفعة مقامهم، ولا يدل هذا على أنهم وصلوا إلى حالة صاروا فيها أرفع من الأنبياء، كما يدعي ذلك غلاة الصوفية، فإن المتصوفة لما اعتقدوا في الأولياء رفعوهم عن الأنبياء، ورفعوا الأنبياء عن الرسل، فجعلوا أعلى المقامات مقام الولي ثم يليه النبي، ثم أنزلها الرسول.

وفي ذلك ما حكاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أنهم كانوا يقولون في نظمهم:

مقام النبوة في برزخٍ فويق الرسولِ ودون الولي

وهذا كذب، فالولي مهما كان ومهما وصل ، لا يصل إلى مرتبة الأنبياء فضلاً عن مرتبة الرسل.

. . . .

ثم نُصدق أيضًا بما قد يجري على ألسنة المشعوذين والسحرة وأولياء الشياطين من شعوذة وأحوال شيطانية، إلا أنها لا تدل على أنهم أولياء لله، وإنما ذلك من آثار خدمتهم للشياطين ولمردة الجن، فإنها تلبس على الناس، وتظهر لهم هذا الإنسان في قالب المتصرف في الأشياء.

وهذا ونحوه يُسمى الأحوال الشيطانية؛ ولأجل ذلك يقول سفيان الثوري: إذا رأيت إنسانًا صاحب هوى، يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغتر به حتى تعرض أمره على الكتاب والسنة، فإذا عرفته عاملاً بالشرع ومطبقًا له، فاعلم أن ذلك كرامة، وإلا فهي أحوال شيطانية.

❋ ❋ ❋

اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع الخلفاء الراشدين

[فَصْلٌ : ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ اتِّباعُ آثارِ رَسولِ اللهِ ﷺ باطِنًا وظاهِرًا، واتِّباعُ سَبِيلِ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِنَ المُهَاجِرينَ والأنْصارِ، واتِّباعُ وَصِيَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، حيثُ قال : «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدي، تَمَسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدعةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[1] .

ويَعْلَمونَ أَنَّ أَصْدَقَ الكَلامِ كَلامُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ويُؤثِرونَ كَلامَ اللهِ على غَيْرِهِ مِن كَلامِ أَصنافِ النَّاسِ، ويُقَدِّمونَ هَدْيَ محمَّدٍ ﷺ على هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ] .



■ قوله : (فصل : ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٧٦) في العلم . وأبو داود برقم (٤٦٠٧) في السنة . وابن ماجه برقم (٤٢) في المقدمة . وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦ ، ١٢٧) . والحاكم في المستدرك (١/ ٩٥ ، ٩٦) وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحاكم : صحيح ووافقه الذهبي .

. . . .

باطنًا وظاهرًا...):

هذا الفصل في الاتباع وإدخاله في العقيدة بمناسبة أن الذي يصدق إنسانًا يتبعه؛ فالذين يصدقون الرسول ﷺ يتبعونه، ومن اتبعه في شيء دون شيء دلَّ على ضعف تصديقه، ومن قبل بعضًا دون بعض دلَّ على عدم تطبيقه، وعلى كذبه في شهادته له بالرسالة.

فلما كان أهل السنة صدقوا بأن الله هو ربُّهم وإلههم ومعبودهم، وصدقوا بأنه الذي كلفهم وأمرهم ونهاهم، وصدقوا بأنه الذي تعبدهم بهذه الشريعة التي فيها هذه الواجبات وهذه المحرمات، وصدقوا أيضًا محمدًا ﷺ وآمنوا به وبرسالته، واعتقدوا صحة ما جاء به، وبأنه مرسل من ربه، واعتقدوا أن شريعته هي شرع الله، وأنه ما جاء بشيء من نفسه إنما هو مبلغ ومُبين.

فلما اعتقدوا ذلك كله، عملوا به وقبلوه واتبعوه، فاتباعهم للقرآن يعتبر اتباعًا للنبي ﷺ ، واتباعًا لله تعالى.

وقد أمرهم الله باتباع القرآن في آياتٍ كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وكذلك أمرهم باتباع النبي ﷺ ورتب على اتباعه الأجر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] فجعل اتباعه سببًا للاهتداء.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

. . . .

ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل في اتباع النبي ﷺ فائدتين: حصولك على محبة الله، وحصولك على مغفرة الذنوب ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فمن طريقة أهل السنة ومن عقيدتهم: اتباع ما جاء عن الله تعالى في كتابه الذي أنزله وحيًا على محمد ﷺ، فبعد أن اعتقدوا أنه وحي من الله، وأنه كلام الله الذي وجَّهه إلى عباده وضمنه شريعته، اعتقدوا بعد ذلك إنه يلزمهم السير على نهجه، وأنه يلزمهم اتباعه وتطبيق ما فيه.

كذلك حقيقة الاتباع ليست مجرد انتساب، فكثير من الناس يقال له: ألا تتبع ما جاءك من الله فيقول: بلى أنا أتبعه هل رأيتني قد خالفته؟ فيقال له: ألا تتبع النبي ﷺ وتطبق ما جاء به؟ فيقول: بلى، أليس قد اتبعته، هل رأيتني خالفته؟. نقول: حقيقة الاتباع هي تطبيق كل ما جاء عن النبي ﷺ تطبيقًا دقيقًا، بحيث إن المُتبع لا يترك سنة إلا ويعمل بها، ولا يترك أمرًا إلا ويمتثله، ولا نهيًا إلا ويبتعد عنه وينزجر.

وقد أمر الله تعالى بتقبل ما جاء به النبي ﷺ، والانقياد له، فهو المبلغ عن الله تعالى، ولا بأس أن نذكر أنواعًا من الأدلة التي وردت بذلك:

فمنها: الأمر بالتأسي به؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وحقيقة التأسي هو تقليده، وفعل ما يفعله، فإذا

. . . .

عرفنا أن هذا الفعل فعله فإننا نفعله تأسيًا به واستنانًا واتباعًا له واعتقاداً أنه طاعة لله.

ومنها : الأمر بالطاعة، وقد ورد هذا كثيرًا في القرآن في نحو أربعين آية فيها الأمر بطاعة النبي ﷺ ، فتارة يعطفها على طاعة الله كقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة:]. وتارة تكون مستقلة كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُو لعلكم تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، ويرتب عليها الفوائد كما في هذه الآية حيث رتب على طاعة النبي الرحمة.

وأنت تعرف أن الطاعة تتمثل في امتثال الأوامر وترك الزواجر، فالذي تأتيه الإرشادات من النبي ﷺ ، ولكن يأخذ منها ما يناسب زمانه ويترك منها ما لا يناسب، فإنه ما أطاعه حق الطاعة.

وإذا سئل هذا المفرط عن سبب تفريطه احتج بأن أهل هذا الزمان لا يناسبهم كل ما جاء به النبي ﷺ ؛ لأن الزمان قد تغير والناس قد تطوروا وما أشبه ذلك، ونحن نعيش مع الناس، فينبغي لنا أن نسايرهم حتى لا ينفروا منا - على حدِّ زعمه - فإذا تمسكنا بكل ما جاء به الكتاب والسنة، هجرنا الناس وقلونا وتنقصونا.

فالواجب على هذا وأمثاله أن يطيع الله ورسوله ﷺ في كلِّ ما أمرا به، وأن ينتهي عن كل ما نهياه عنه، وإن حصل له ما حصل من الإبعاد والهجران، وله في نبي الله ﷺ وصحابته أسوة حسنة، فقد فارقوا الأهل

. . . .

والأوطان، وتركوا أموالهم وديارهم، وجادوا بأنفسهم طاعة لله عـز وجل واتبغاء مرضاته.

ومن الأدلة أيضًا: التحذير الشديد من المخالفة له وذلك في مثل قوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]. قال الإمام أحمد رحمه الله: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

يعني إذا ردَّ بعض قول النبي ﷺ، وقدم عليه عادات الناس وسيرتهم ومألوفاتهم، وقع في قلبه شيء من الزيغ، وهو بغض شيء من السنة، وتمنى أنها لم ترد، فيكون بذلك ماقتًا للنبي ﷺ منتقدًا له، كأنه يتمنى أنه لم يأمر بهذا الأمر، أو لم يحرم هذا المنهي عنه، فيكون هذا سببًا لزيغ قلبه، مما يوجب له الهلاك أو مقاربة الهلاك.

ومنها أيضًا: قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] وهذا يوجب للإنسان أن يمتثل الإرشادات ويمتنع عن المنهيات، وقد رتب النبي ﷺ الثواب والعقاب على هذه المتابعة؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: «ومن يأبى يا رسول الله؟» كأنهم استغربوا: هل هناك أحد يُقال له: ادخل الجنة فيأبى!! ولكنه ﷺ بين معنى ذلك بقوله: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد

. . . .

أبى»[1] ؛ فجعل طاعته وعصيانه سببًا إما للثواب وإما للعقاب.

فهذه أنواع من الأدلة التي يتبين بها وجوب التحاكم إلى شرع الله سبحانه وتعالى، واتباع ما جاء به نبيه ﷺ والرضى بذلك والتسليم، وعدم وجود شيء من الحرج في النفس لشيء من الأحكام كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ [النساء: ٦٥] فنفى عنهم الإيمان إلا بهذه الخصال: وهي أن يحكموه ؛ أي يجعلوه حكمًا بينهم، وإذا جاءهم حكمه رضوا به في كل ما شجر بينهم، وكل ما تنازعوا واختلفوا فيه، يرجعون به إلى حكم النبي ﷺ.

ثم إذا كان في ذلك الحكم شيء من مخالفة النفس أو الهوى، أو فيه شيء من مخالفة العادات المألوفة بين الناس فإنهم لا يبغضون ذلك الحكم ولا يردونه، فيقولون مثلاً: يا ليته ما أمرنا بإعفاء اللحى، أو ياليته ما أمرنا بترك الفواحش والزنى، أو يا ليته ما أمرنا بترك الربا، أو ياليته تركنا أحرارًا في أموالنا نتصرف فيها ونتعامل بها كيف نشاء، بل إنهم يتقبلون كل ما جاء به ولا يبغضون شيئًا من سنته.

فإذا قبلوا بعضًا دون بعض، أو قبلوا ما يناسبهم دون ما لا يناسبهم، أو فعلوا شيئا من المخالفات ولو مع اعتقاد التحريم، كأن يشربوا الخمر تهاونًا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٠) في الاعتصام، باب: «الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ».

....

بعقوبة الله المترتبة عليها مع اعتقادهم أنها محرمة ، فإن هذا من التهاون بعقوبة الله والاستهانة بحرماته ، فيكون ذلك تنقصًا لدين الله .

فالحاصل أن من عقيدة أهل السنة : اتباع النبي ﷺ ، واتباع كتاب الله ، واتباع طريقته التي سار عليها أقوالاً وأفعالاً.

ومن عقيدة أهل السنة أيضًا اتباع سيرة الخلفاء الراشدين ، عملاً بوصية النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح حيث قال: « **عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة** »[1] ، ولا شك أن الخلفاء الراشدين الذين هم الخلفاء الأربعة ما قالوا شيئًا من قبل أنفسهم، إلا ما للاجتهاد فيه مجال ، فإنهم يجتهدون إذا لم يعلموا الحكم فيما وقع لهم .

ولما كانوا قد صحبوا النبي ﷺ الصحبة التَّامة ، وعرفوا نهجه وسيرته ، وحفظوا عنه سنته، وعرفوا أهداف شريعته ومراميها، وصى النبي ﷺ باتباعهم ؛ لأنه عرف أنهم لا يميلون، ولا يُؤْثِرُون عليها باطلاً ، فهذا هو السبب في كونه وصَّى باتباعهم، وبالسير على سنتهم، وسماهم خلفاء لأنهم خلفوه ، أي : جاءوا بعده ، وقد خلف بعضهم بعضًا أيضًا.

فأبو بكر رضي الله عنه خلف النبي ﷺ في الولاية وإقامة الحدود وجمع الكلمة ، وفي تدبير الشؤون وفي تقرير العقوبات على مستحقيها وفي إقامة

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٦٥ .

. . . .

الحج والجهاد والجُمع والأعياد وما أشبهها.

ثم جاء عمر رضي الله عنه خليفة لأبي بكر، فسار بسيرته ونهج نهجه، وجهز الجيوش، وفتحت بتدبيره البلاد، وانتشر الإسلام، وكذلك أيضًا بلّغ ما علمه، وحكم بين الناس، وأفتى وعلم وفهم، وأوقف الناس على الأحكام، وعلى الحكم والمصالح.

وهكذا بقية الخلفاء، فلما كانوا كذلك كانت سنتهم وسيرتهم أولى بأن تُتّبع، ذلك لأنهم كانوا على نهج النبي ﷺ، سماهم راشدين اشتقاقًا من الرشد، والرشد ضد الغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فالرشد هو طريق الفلاح والخير والصلاح، وهم راشدون؛ أرشد الله بهم الأمة، وسماهم مهديين؛ لأن الله قذف في قلوبهم الهدى؛ هداهم وهدى بهم وسددهم، فهذه شهادة النبي ﷺ لهم بالخير، فلأجل ذلك قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[1].

والسنة: الطريقة التي يُسار عليها بالأعمال لا بالأقدام، فسنتهم نهجهم وأعمالهم التي عملوها وأقوالهم التي قالواها، فأمر باتباعهم في ذلك لأنهم كانوا على النهج القويم.

وأمر بالتمسك بالسنة فقال: «تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٥.

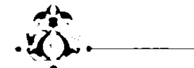
. . . .

والعضُّ معناه قوة الإمساك، وليس هو العض الحقيقي بالأسنان، إنما المراد: قوة العمل بها، كأنه يقول: لابد وأن تنالكم فتن، ولابد وأن تحبسوا، وتُضربوا إذا تمسكتم وصبرتم واتبعتم السنة، فقد يُستهزأ بكم، وقد يأتيكم من يتنقصكم، وقد يمقتكم كثير من الناس، ويرميكم برجعية أو بجمود أو بتزمت وتشدد وتعصب. فلا يزيدكم ذلك إلا تمسكًا، ولا يزيدكم ذلك إلا اتباعًا لهذه السنة وتمسكًا بها، تمثلوا بمن يعض على الشيء بأضراسه؛ فالنواجذ هي أقاصي الأسنان، فقد مثل شدة التمسك بالسنة كالذي يَعَضُّ على الشيء بأسنانه كلها، فإن ذلك أعلى قوته؛ أي تمسكوا بها ولو حبستم، ولو ضربتم وأوذيتم، ولو نالكم ما نالكم، فلا يصدكم ذلك عن السنة وهذه السيرة، واحذروا من المحدثات أو البدع.

فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام أمرنا باتباعه ﷺ واتباع أصحابه والتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، وحذرنا من البدع والمخالفات، وأهل السنة يعرفون أن البدعة هي المحدثة في الدين فيبتعدون عنها، ويعرفون أن السنة هي طريقة الرسول ﷺ وصحابته فيتمسكون بها ويؤثرونها، ويعرفون هدي النبي ﷺ فيسيرون على نهجه، ويتبعون وصيته في خطبته، فقد كان يخطب في كل جمعة بقوله: «**إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»[1] هكذا كان عليه الصلاة والسلام يقول.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٦٧) في الجمعة، باب: «تخفيف الصلاة والخطبة». عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.



. . . .

فالهدي معناه: السمت والدلُّ والعمل، فأحسن وأفضل الهدي والأعمال ما عمله النبي ﷺ، وأصدق الحديث وخير الكلام هو كلام الله الذي بلغه رسوله ﷺ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

فأهل السنة لما أنهم قدموا هديه عليه الصلاة والسلام على كل هدي، وقدموا سيرته ونهجه، وتمسكوا بكتاب ربهم، سموا أهل السنة، أي إنهم أهل سنة النبي ﷺ التي أوصاهم بها، وسموا كذلك أهل الجماعة؛ لأنهم المجتمعون على الحق، ولو قلّوا في بعض الأزمان فلا يضرهم، ولو كثر أعداؤهم ومخالفوهم فلا يضرهم.

فالحق حق ولو قل أهله، والباطل باطل ولو كثر أهله، فليس العبرة بكثرة الأتباع ولا بكثرة الناس الذين على طريقه، بل العبرة بنفس تلك الطريقة؛ صحتها أم عدم صحتها.

فأنت إذا أردت أن تسبُر أحوال الناس، اسبر قبل ذلك أعمالهم، وطبقها على شرع الله المنزل ووحيه المحفوظ، فما وافق هذا الوحي فإنه هو الحق، فاقبله وتقبله ولو قل أهله، وما خالفه فرده على من قاله.

* * *

سبب تسميتهم بالجماعة

[ولهذا سُمُّوا أَهْلَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسُمُّوا أَهْلَ الجَماعَةِ ؛ لأنَّ الجَماعَةَ هِيَ الإجماعُ، وضِدُّها الفُرْقَةُ، وإنْ كَانَ لفظُ الجَماعَةِ قَدْ صارَ اسمًا لنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعينَ.

والإجْماعُ هُو الأصْلُ الثَّالِثُ الَّذي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ في العِلْمِ والدِّين.

وهُمْ يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثَّلاثَةِ جَميعَ ما عليهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوالٍ وأعْمالٍ باطنةٍ أَوْ ظاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تعلُّقٌ بالدِّين.

والإجماعِ الَّذي يَنْضَبِطُ هُو مَا كانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالحُ ؛ إذْ بَعْدَهُم كَثُرَ الاخْتِلافُ، وانْتَشَر في الأمَّةِ].



▪ قوله: (ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة ؛ لأن الجماعة هي الإجماع، وضدها الفرقة...):

هذه العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، والمراد بالجماعة: المجتمعون على الخير والحق، ويُسمون أهل الجماعة من الاجتماع، واجتماعهم هذا هو اتفاق كلمتهم، وتطابق معتقدهم.

. . . .

وليس شرطًا أن يجتمعوا في بلد أو في دولة، بل ما دامت تجمعهم العقيدة فهم جماعة ولو كانوا أحادًا، ولو كانوا جماعة صغيرة متفرقين في بلد ما، وجماعة أخرى في بلد ثانٍ، وأخرى في مكان آخر فإنهم هم الجماعة، المجتمعون على الحق وعلى السنة وعلى العقيدة السليمة.

وقد تُطلق الجماعة على الكثرة، ولذلك ورد في بعض الأحاديث الحث على جماعة المسلمين وإمامهم، والتحذير من الفرق الضالة ومن الشذوذ، وكان النبي ﷺ يحث في خطبته على الجماعة وينهى عن الشذوذ؛ فيقول: «يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار»[1]. وفي حديث آخر: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة»[2].

فالجماعة هنا هي جماعة المسلمين وإمامهم، لكن قد يقال: إن أهل السنة والمتمسكين حقًا بالعقيدة السليمة أقل من الفرق الأخرى، فقد أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق ثلاثًا وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة[3]،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٧) في الفتن. وصححه الألباني دون قوله: «ومن شذَّ».

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٥) في الفتن وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع رقم (٢٥٤٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٣٩٢). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٢) برقم (٦٣). والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠١). والحاكم في المستدرك (١/ ٤٧). قال الألباني في تحقيقه السنة لابن أبي عاصم: إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات معروفون، غير عبّاد بن يوسف وهو ثقة إن شاء الله. وصحح إسناده أيضًا الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣) وبرقم (١٤٩٢). وفي ظلال الجنة برقم (٦٣).

. . . .

فرقة واحدة من ثلاث وسبعين فرقة سماها النبي الجماعة، فدل على أن تلك الفرق وإن كانت أكثر فليسوا جماعة؛ بل هم أهل فرقة.

وقد أمر الله بالاجتماع ونهى عن التفرق كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالفرقة هي كل طائفة تعتقد عقيدة، وتنتحل نحلة، وتذهب إلى مذهب، وترى رأيًا، فإنهم جميعًا فرق.

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بما كان عليه السلف الصالح، وبما ترك النبي ﷺ عليه أمته، ولهذا لما سُئل ﷺ عن الفرقة الناجية قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[1]، ولا شك أن ما كان عليه الصحابة في وقت النبي ﷺ هو التمسك بالوحي، والعمل بالشريعة وتطبيقها، وترك كل ما يضادّها ويخالفها، فمن كان على تلك العقيدة، فهو من أهل السنة ولو لم يكن إلا وحده.

فلو كان وحده في دولة فإنه يعتبر سُنِّيًا، ويعتبر من الجماعة. وقد ذكر الله أن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] فأطلق عليه أمة، حيث إنه كان في زمن لم يكن فيه مسلم

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١) في الإيمان، والحاكم في المستدرك (١/ ١٨) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٩). والآجري في الشريعة (٥/ ١٦). والمروزي في السنة ص ١٨. وابن وضاح في البدع والنهي عنها ص ١٥ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. وللحديث شواهد ترفعه لمرتبة الحسن. وحسنه الألباني انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٢٠٣) ورقم (١٤٩٢). وظلال الجنة (٦٣). وصحيح الجامع (٥٣٤٣).

. . . .

غيره.

وكذلك إذا قلَّ أهل السنة في زمان، اعتبروا هم الجماعة ولو كان السواد الأعظم مُخالفًا لهم. ولهذا يقول ابن القيم[1] :

هذا وسادس عشرها إجماع أهـ ـل العلم أعني حجة الأزمان

من كل صاحب سنة شهدت له أهل الحديث وعسكر القرآن

ثم قال:

لا عبرة بمخالفٍ لهمُ ولو كانوا عديد الشاء والبعرانِ

فقد يوجد ممن يخالفهم أعداد كثيرة، ولكن لا عبرة بهم، فأهل السنة حقًا هم أهل السيرة النبوية والهدي النبوي أينما كانوا وكيفما كانوا.

وقد بين المؤلف رحمه الله أنهم سموا بأهل الجماعة؛ لأنهم مجتمعون على الحق، ولأن الجماعة في الأصل: الاجتماع. ثم ذكر أن الجماعة قد تطلق على كل مجتمعين على شيء، ومن ذلك تسمية الصلاة في المساجد صلاة الجماعة حيثُ إنهم يجتمعون على إمام، فتطلق الجماعة على كل مجتمع فتقول: جاءنا جماعة، ذهبنا ونحن جماعة؛ أي عدد.

لكن الشرع أطلق اسم الجماعة على متبعي السنة النبوية ولو كانوا

---

(١) انظر الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم ص ١١٩.

. . . .

متفرقين. ثم ذكر أنهم أهل الإجماع، إذا اجتمعوا على شيء فاجتماعهم عليه يكون حجة.

والإجماع هو الدليل الثالث الذي يُستدلُّ به على صحة الحكم، ويستدل به على أن هذا حلال أو حرام أو لازم أو غير لازم، فالإجماع دليل من الأدلة الشرعية، وحجة قاطعة يُستدل بها؛ لأن الله تعالى عصم الأمة المحمدية أن تجتمع على ضلال أو تجتمع على خطأ.

ولهذا يقول بعض السلف: مارآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح. فإذا اجتمع المسلمون أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم على أمرٍ، فإن ذلك دليل على حسنه أو شرعيته، ولكن الأصل أن الإجماع لا يكون إلا مستندًا إلى دليل قوي قاطع، ولهذا تجدهم أجمعوا على الأشياء التي نصوصها قطعية؛ كإجماعهم أن صلاة الظهر أربع ركعات، وكذلك إجماعهم على أن فرض الزوج النصف مع عدم الفرع الوارث وذلك لوجود الأدلة الصريحة الصحيحة.

فالإجماع هو الدليل الثالث الذي يُستدل به على الأحكام الشرعية، وأهل السنة والجماعة يرجعون في أحكامهم إلى هذه المصادر الثلاثة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع فيزنون بها ما عليه الناس، وما يصدر عنهم من أقوال وأفعال.

. . . .

فإذا قال أحد قولاً في المعتقد، فإنهم يطلبون على ذلك الأدلة من كتاب الله أو من سنة نبيه ﷺ أو من إجماع الأمة، وكذلك إذا عمل عملاً طولب بدليل هذا العمل من هذه المصادر الثلاثة.

وهكذا أيضًا يطالبون بالدليل كلَّ من أدلى بشبهة، أو أحدث بدعة ضلالة، فإنهم يطالبونه بآية أو حديث ونحو ذلك. ولهذا فإن الإمام أحمد لما امتحن، جعل يطالب الذين امتحنوه في قضية خلق القرآن بدليل، ويقول: هاتوا لي دليلاً من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة، فلما لم يأتوه بدليل عرفهم أن ما هم عليه باطل وليس حقًا؛ إذ كيف يحدثون هذا القول الذي لم تدل عليه الأدلة من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ ولا من إجماع الأمة، بل إن الكتاب والسنة يدلان على خلافه، وكذلك أجمعت الأمة على خلافه.

والإجماع المعتبر هو إجماع السلف الصالح الذين هم صحابة رسول الله ﷺ والتابعون، فهذا هو الإجماع الذي يكون دليلاً، أما القرون التي بعدهم فقد تفرقت الكلمة، وتشتتت الأمة وكثر الخلاف، وكلٌّ ادعى أنه مجتهد وكلٌّ انتحل نحلةً، وكلٌّ ذهب بمذهب، فكثرة هذا الاختلاف سبَّبت صعوبة معرفة الإجماع في تلك العصور.

أما في عهد الصحابة والتابعين فقد كان الإجماع منضبطًا معلومًا لأنهم خير القرون وسادة هذه الأمة، وقد كانوا مجتمعين ومتقاربين ولم يكن بينهم



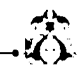
. . . .

اختلاف، ولم تحدث فيهم البدع التي حدثت بعدهم، وقد كان أهل البدع في زمانهم أذلاء محتقرين غير معترف بهم، ولكن لما تفرقت الأمة واختلفت فيما بينها، وتحزبت إلى فرق شتى وأحزاب متباينة، أصبح معرفة الإجماع أمراً عسيراً.

ولهذا روي أن الإمام أحمد قال: «من ادعى الإجماع فهو كاذب»؛ وذلك بسبب المشقة في معرفة أماكن العلماء، ومعرفة أقوالهم، ومعرفة خلاف من خالف.

فالحاصل أن أهل السنة والجماعة يستدلون بالإجماع ويعتبرونه حجة شرعية، كما يستدلون بالكتاب والسنة ومقياسهم في ذلك إنما هو إجماع الصحابة وتابعيهم بإحسان، وهذه الأصول الثلاثة هي أصول الأدلة، فلا ينبغي الخروج عنها.

* * *



خاتمة هذه العقيدة

في

مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال

[فَصْلٌ: ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذه الأصولِ يَأْمُرون بالمَعْروفِ، ويَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ على مَا توجبُهُ الشَّريعَةُ.

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ والجِهَادِ والجُمَعِ والأَعْيادِ مع الأَمَراءِ أَبْرارًا كانُوا أَو فُجَّارًا، ويُحافِظونَ عَلى الجَماعاتِ.

ويَدِينُونَ بالنَّصِيحَةِ للأمَّةِ، ويَعْتَقِدونَ معنى قَوْلِه ﷺ: «المُؤْمِنُ للمُؤْمنِ كَالبُنْيانِ المَرْصوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بعْضًا»، وشَبَّكَ بينَ أَصابعه[1]، وقوْله ﷺ: «مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوَادِّهِم وتَراحُمِهِمْ وتَعاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسدِ: إذا اشْتَكى منهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهرِ»[2]].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٦) في الأدب، باب: «تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا». ومسلم برقم (٢٥٨٥) في البر والصلة، باب: «تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم» عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠١١) في الأدب، باب: «رحمة الناس بالبهائم». ومسلم برقم (٢٥٨٦) في البر والصلة، باب: «تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم». عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

. . . .

الشرح

▪ **قوله: (فصل: ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة...):**

هذه الأمور التي ذكرها المؤلف رحمه الله من خصال الخير ومن محاسن الأخلاق؛ فإنها لو لم تأت بها الشريعة فإن العقل يدرك حسنها ويحبذ الأمر بها، فمن ذلك:

١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعــروف: اسم لكل ما تعرفه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، اسم لكل خير محبوب في النفس، تطمئن إليه النفس وتأنس به، وقد أصبح أيضًا اسمًا لما أمر به الله ورسوله، فإن ذلك يسمى معروفًا، فالأمر بالعبادة والأمر بالإخلاص أمر بالمعروف، والأمر بالصلوات والجماعة أمر بالمعروف، والأمر بذكر الله وتلاوة كتابه أمر بالمعروف، والأمر بالصدقات وأفعال الخير، والأمر بإخراج الزكوات والكفارات والوفاء بالنذور، ونحو ذلك، أمر بالمعروف.

وكذلك الأمر بالصوم المفروض أوالنفل، والأمر بحب أهل الخير والقرب منهم، والأمر بحضور مجالس الخير ومجالس العلم، وتعلم العلم النافع والأعمال الصالحة أمر بالمعروف، وهكذا كل أفعال الخير التي أمر الله بها وأحبها.

وأما المنكر: فهو اسم لكل ما تنكره النفوس وتنفر منه الطباع، وتستبشعه

. . . .

النفوس الأبية السليمة وتنفر منه، وهذا سبب كونه منكرًا. ولو وجدت نفوس دنيئة تستحسنه، فإنه لا عبرة بها. فالمنكر أولاً: منكرٌ طبعا، وثانيًا: أنكره الشرع وحرمه، فأصبح المنكر اسمًا لكل ما حرمه الله ونهى عنه، أو نهى عنه الرسول ﷺ وحذر منه.

فمثلاً أذى العباد والتعدي عليهم منكر، والسب والهجو والشتم واللعن ونحو ذلك منكر. وهكذا البخل بالواجبات، وشح النفس، والحرص الشديد على ما لا فائدة فيه، أو الحرص الذي يوقع في المحرم فهذا منكر تنكره النفوس، وهكذا الغش في المعاملات، والتعامل بالمعاملات الربوية، والغرر والخداع ونحو ذلك منكر، وهكذا أذى الجار وأذى الصديق ونحو ذلك منكر. وهكذا التهاجر والتقاطع منكر.

وقد تكون بعض المنكرات مألوفة عند بعض النفوس الدنيئة، ولا يكون إلفها دليلاً على استحسانها، فالذين يألفون الخمور ويستحسنونها، لا يدل هذا على أنها معروف بل هي منكر. والذين يألفون شرب الدخان ونحوه، لا يدل على أنه معروف بل إنه منكر في الحقيقة، وهكذا الذين يتعاطون المخدرات ونحوها، يلتذون بها ويرون أنها حسنة ومناسبة لنفوسهم الدنيئة، ولا يخرجها ذلك عن كونها منكرًا.

فمن صفات أهل الخير أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ومعنى توجبه الشريعة أي أنها جعلته من واجبات الإسلام،

. . . .

وقد كان عمر رضي الله عنه يقول : من أراد وعد الله فليحقق شرط الله .

وعد الله في أن تكون من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، لا يتحقق إلا بالشرط الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠]، انظر كيف قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، وذلك دليل على أنه من واجبات الإسلام .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ٧١]، انظر كيف قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فالتقديم يدل على الأهمية ، ويدل أيضًا على أنهما من واجبات الإسلام، وهذا معنى قوله : على ما توجبه الشريعة .

كذلك قوله ﷺ : **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[٣] ، فهذا يحدد درجات تغيير المنكر ، فلا يحق لأحد أن يتعدى هذه المراتب فمن كان يستطيع التغيير بيده، ولا يوجب ذلك منكرًا أكبر أو مفسدة أكبر ، كان فرضه أن يغير بيده، فإذا قدر مثلاً على إراقة الخمور وكسر دنانها وإتلاف علب الدخان وما أشبه ذلك من المنكرات فإنه يفعل ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٩) في الإيمان، باب : «بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .



. . . .

كذلك إذا قدر أن يعاقب العصاة والمبتدعين على الملاهي والأغاني بيده أو بعصاه ولم يترتب على ذلك مفسدة فإنه يفعل، فإذا لم يستطع انتقل إلى التغيير بلسانه، وذلك ببيان بشاعة هذه الأفعال وشناعتها وقبحها، وبيان دناءة نفوس أهلها وقبح ما بهم، وعكوفهم على هذه الأشياء التي تنكرها الشرعةُ والفطرة.

فإذا لم يستطع ذلك وخاف أن يترتب عليه مفسدة اقتصر على الإنكار بالقلب، ويتحقق الإنكار بالقلب ببغض تلك المنكرات والأفعال القبيحة ومقت من يفعلها والبعد عنها وعدم مجالسة أصحابها، والتحذير من مجالستهم أو مؤاكلتهم أو مخالطتهم، والتصريح ببغضهم والإنكار لما هم عليه، فإذا فعل ذلك صدق في أنه منكر بقلبه.

٢ ـ إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء:

فقوله: «**ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا**»، هذه أيضًا من خصال أهل السنة والجماعة، وذلك لأن الخروج على الأئمة والأمراء ونحوهم يحصل منه مفسدة عظمى وفتنة عمياء؛ لما ينتج عن ذلك من قتل وسفك دماء وفتن ونحو ذلك.

فلأجل ذلك أهل السنة يقولون: نسمع ونطيع كما أمرنا الله وكما أمرنا رسوله ﷺ، وقد أمر الله بطاعة الأمراء ولو كانوا فجاراً؛ لأن المفسدة التي تحصل من العصيان لهم، فيها مضرة، إلا إذا كانوا قد أمروا بمنكر، فلا طاعة



. . . .

لمخلوق في معصية الخالق.

فمن طاعتهم: إقامة الحج معهم، فقد كانوا في الزمن القديم يحتاجون إلى أمير يقيم لهم شعائر الحج؛ لأنهم إذا حجوا فُرادى اقتطعوا ؛ لأن هناك قطاع الطرق في تلك الفيافي وتلك المفازات والصحاري التي يسكنها الرعاع والبوادي، فإذا مر بهم الحاج أو المسافر، اقتطعوه وأخذوا ما معه، فاحتاج المسلمون إلى أن يؤمروا أميرًا يحج بهم ويحجون معه، ولو كان عاصيًا، ولو كان عنده فجور، ولو كان يشرب الخمر أو يحلق لحيته أو يقصر في أمر الله أو ما أشبه ذلك، فإن تقصيره على نفسه، وللمسلمين مصلحة في الاجتماع عليه.

فبالحج معه مثلاً يحصل الاجتماع والاطمئنان، وتحصل إقامة الشعائر، وذلك لأنهم يوافقونه في الرحيل، ويوافقونه في النزول، فإذا غربت الشمس صاح بهم: هلموا فانصرفوا من عرفة، فينصرفون، فإذا طلع الفجر نادى فيهم أميرهم أن صلوا فيصلون جميعًا، ثم يسيرون بعد صلاة الفجر والإسفار إلى منى، ثم إذا أذن الظهر نودي أن دخل وقت الرمي فارموا، فيذهبون إلى الرمي وهكذا، فهو الذي يقيم مناسك الحج وشعائره فيحجون على بصيرة.

وهكذا الجهاد يذهب هذا الأمير بالجيش إلى البلاد الأخرى ويجاهد، فلذلك يرى أهل السنة موافقته والغزو معه، ولو كان هو في نفسه يعكف على الأغاني والملاهي ولو كان متهمًا بشيء من التقصير في عبادته أو ما أشبه ذلك، فإن معصيته على نفسه ونفعه للمسلمين فيحجون معه، ويصلون معه،

. . . .

ويغزون معه، مهما كانت حالته؛ لحصول المصلحة في ذلك.

وأما الجمع والأعياد: فالعادة أن الذي يتولاها في المدن ويصلي بهم هو الأمير الذي ينوب على تلك البلاد، أو الملك والخليفة الذي في تلك المدينة، فهو الذي يتولى الخطبة بهم في الجمع والأعياد، فيصلون خلفه على ما كان منه من تقصير، ولو كان يشرب خمرًا أو يعكف على الغناء فلا يجوز الخروج عليه أو خلع الأيدي من طاعته مادام مصلحًا لا يأمر بالمنكر ولا ينهى عن المعروف، وهم مع ذلك يتخولونه بالنصيحة والموعظة، ويبينون له خطر المعاصي والذنوب، فإذا استقام فقد تم المراد، وإن أبى كانت معصيته على نفسه، فيجتمع المسلمون عليه في الخير ويشاركونه في الغزو والحج وإقامة الجمع والأعياد وغير ذلك.

٣ ـ المحافظة على الجماعة:

فمن خصال أهل السنة: المحافظة على الجماعة، والمراد بها جماعة المسلمين ولو كانوا قليلاً، والجماعة هم أهل السنة المتمسكون بها، فإذا جاء حديث يحث على الجماعة، كقوله ﷺ «عليكم بالجماعة»[١] فالمراد بها جماعة المسلمين.

ومنها اجتماعهم على الصلوات في المساجد وهذا دليل على محافظتهم

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٦٥) في الفتن، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٦).



. . . .

على الجماعة وتمسكهم بها.

ولو تفرق هؤلاء في بلد كانوا هم الجماعة؛ لأن الجماعة ما وافق الحق وإن كانوا قليلاً، فأهل السنة والجماعة قليل جدًا بالنسبة للفرق الأخرى، وكذلك فإنهم مضطهدون ومحاربون ومشتتون، ومع ذلك فإنهم هم الجماعة الذين وردت النصوص بالحث على التمسك بهديهم وطريقتهم، ولو خالفهم الجمُّ الغفير والعدد الكثير، فإنه لا عبرة بمخالفة هؤلاء لهم.

فالحاصل: أن أهل السنة يرون المحافظة على الجماعة.

٤ ـ النصيحة:

فقوله: **«يدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا» وشبَّك بين أصابعه[١]، وقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد: إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢]».**

هذا من خصال أهل السنة والجماعة أنهم يرون أن المسلم عليه أن ينصح للمسلمين، وأن يكون مخلصًا لهم وناصحًا. والنصح هو صفاء المودة، ومن آثاره: الدلالة على الخير الذي يعلمه خيرًا، واتقاء الشر الذي يعلمه شرًا، والبعد عن الغش؛ وذلك بأن تحب للمسلمين ما تحبه لنفسك، وتدلهم على ما

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٨٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٨٢.

. . . .

تحب أن تفعله؛ فإذا كان هناك مصلحة دنيوية فلا تستبد بها وتحرم إخوتك المسلمين، وإذا رأيت مسلمًا قد أقبل على هلكة، فإياك أن تتركه بل حذره من أسباب هذا الهلاك ونحو ذلك، وهكذا الدلالة على كل خير، سواء كان خيراً دنيويًا لا ضرر فيه، أو خيرًا دينيًا، فهذا هو محض المحبة؛ لأن المسلم ما دام محبًا لإخوته المسلمين، فإنه يدلهم على الخير ويساعدهم عليه، ولهذا شبههم النبي ﷺ بالبنيان أي الطين الذي يُجعل على طين فييبس ويتصلب ويشدُّ بعضه بعضًا.

هكذا المؤمن يشدُّ عضد أخيه ويساعده، ويعينه على ما وقع فيه من المشاكل ونحو ذلك، فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد يعني أنه إذا تألم واحد من أطراف المسلمين حزن له إخوته المسلمون، وحرصوا على إزالة الألم الذي وقع به. وإذا وقع به ظلم، تألم له كل مسلم في شرق الأرض وغربها، وحرص على أن ينجيه من هذه المظلمة التي وقع فيها؛ إذا سجن ظلمًا، أو أخذ ماله ظلمًا، أو اعتدي عليه أو نحو ذلك. فإن حقًا على المسلمين أن ينصروه كما قال النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[1]. والحاصل أن هذه الأمور من خصال أهل الخير التي إذا تأملها المسلم عرف أن الإسلام جاء بمحاسن الأعمال ومعالي الآداب.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٥٢) في الإكراه، باب: «يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل». من حديث أنس. وهو عند مسلم بنحوه برقم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

الصبر والشكر والرضا:

[وَيَأْمُرون بالصَّبْرِ عِنْدَ البَلاءِ، والشُّكْرِ عنْدَ النَّعْمَاءِ، والرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ].



■ قوله: (ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند النعماء، والرضا بمر القضاء):

هذه الأمور ليست من العقائد، ولكنها من مكارم الأخلاق، ومن محاسن الدين الإسلامي، وإذا تأملها المسلم عرف أن دين الإسلام جاء بكل خلق جميل، ونهى عن كل خلق رذيل؛ لأن هذه الأمور يستحسنها العقل، وتألفها الفطر السليمة، وإنما يخالف فيها من انتكست فطرته، أو من انحرف عن جادة السبيل، وإلا فأهل الجاهلية كانوا يفتخرون بتحقيق هذه الأمور.

وهكذا الكفرة في كل مكان، يفتخرون أيضًا بالاتصاف بها، ويعدون من اتصف بها من أشرفهم وأرفعهم مقامًا، وليس الذي يدعوهم إليها هو طلب الجزاء في الآخرة، فإنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعترفون بالجزاء فيها، وإنما يتحلون بها لأنها شيم ومكارم يُمدح بها ويُرضى عن أربابها.

وهذه الأمور تسمى الآداب الدينية والخلقية التي جاء بها الإسلام موافقًا لما في العقول الذكية من الميل إليها والاستحسان لها.

والتوسع في شرح هذه الأمور طويل، وقد ألفت المؤلفات في مكارم

. . . .

الأخلاق ونحوها، فكتاب «رياض الصالحين» مثلاً وضع لبيان جملة من هذه الأخلاق والآداب، وجعل مؤلفه لكل مسألة من هذه المسائل بابًا، وأورد فيه أحاديث، ومثله كتاب: «الترغيب والترهيب»، فإنه استوفى الأدلة في هذه الأشياء.

كذلك هناك كتب مقصورة على الآداب ككتاب: «الآداب» للبيهقي وكتاب: «الآداب الشرعية» لابن مفلح في ثلاثة مجلدات ضخمة تكلم فيه عن كل مكارم الأخلاق.

وهناك أيضًا كتاب: «أدب الدنيا والدين» للماوردي فيه ذكر لبعض الآداب، وكذلك تناولها أبو حامد الغزالي في كثير من كتبه أشهرها «إحياء علوم الدين» حيث بسط المقال فيها بكلام مرتب إلا أنه يستدل كثيراً بالأحاديث الضعيفة والموضوعة ولا ينبه عليها.

فالحاصل أن هذه الأخلاق الشرعية لا خصوصية لها بالعقيدة من حيث البحث، إلا أنه - كما هو معلوم - يزيد الإيمان بالتخلق بها وينقص بالتخلي عنها. ولذلك كان أهل السنة يتخلقون بها.

أولاً: الصبر عند البلاء:

والصبر في اللغة: هو الحبس والكف، وفي الاصطلاح: هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، ذكر ذلك ابن القيم.

والصبر واجب وأدلته كثيرة من القرآن والسنة وقد ذكرها غير واحد من



. . . .

العلماء، منهم النووي رحمه الله في كتابه: «رياض الصالحين»، وابن القيم رحمه الله في: «مدارج السالكين» وفي: «عدة الصابرين» وغيرهما.

قال الإمام أحمد رحمه الله: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا. قال ابن القيم: وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. ومعنى الصبر على البلاء هو ألا يجزع الإنسان ولا يتسخط على أقدار الله إذا حلت به البلوى، بل يقابل ذلك بالتسليم والانقياد كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

فهذا جزاء صبرهم أن جعل الله عليهم صلوات ورحمة ووفقهم للهداية.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد يسلط البلاء على الإنسان ليختبره، فمنهم من يصبر ومنهم من يجزع، يقول النبي ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد به شرًا أمسك عنه بذنبه»**[1].

وقال ﷺ في حديث آخر بنفس الإسناد: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) في الزهد. وقال: حديث حسن غريب. وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٨) وقال: صحيح.

. . . .

السخط»(١) .

فهذه أدلة على أن الابتلاء يكون لاختبار الإنسان أيصبر أم يجزع، فقد يبتلى بها الإنسان ويكون ضعيف الإيمان، فلا يتحمل فيجزع ويسخط وربما ارتد وخرج عن الإسلام.

فإذا ابتلي بحبس، أو بضرب، أو بمرض، أبو بموت أحد من أقاربه، جعل ذلك سببًا للاعتراض على أقدار الله والتسخط عليها، فينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ إذا أوذي أو حبس أو ضرب سوى فتنة الناس بعذاب الله، وخاف من الناس كما يخاف من الله.

فمثل هذا ليس من المؤمنين حقًا، وليس من الذين يعبدون الله حق عبادته؛ ولذلك فإنه ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يعني على طرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

فالله تعالى يبتلي العباد بالمصائب وبالعاهات ونحوها ليتبين الصادق في دعوى الإيمان من الكاذب؛ لأنه كما قيل:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦) مكرر، وابن ماجه برقم (٤٠٣١) في الفتن، وقال الترمذي: حسن غريب. وهو في صحيح الجامع رقم (٢١١٠)، وقال: حسن.

. . . .

فكل الناس يدعي الإيمان والتقوى والعبودية، فتأتي هذه الابتلاءات لتكشف زيف أولئك المدعين.

أما أقسام الصبر فهي ثلاثة: **الأول**: صبر على طاعة الله. **والثاني**: صبر عن معاصي الله. **والثالث**: صبر على أقدار الله المؤلمة.

ثانيًا: الشكر عند النعماء:

أي عند النعمة، وحقيقته هو الاعتراف بالنعمة لمسديها ومموليها والاستعانة بها على مراضيه، واستعمال كل نعمة فيما يقرب إلى الله.

وقد يكون الاعتراف هو الأساس والأصل، روي أن موسى ﷺ قال لربه: ياربِّ كيف أطيق شكرك وما بي من نعمة فمنك؟ قال: «**الآن قد شكرتني**»؛ وذلك لأنه اعترف بعجزه عن الشكر، وذلك لأن كل طاعة تستحق شكرًا، ثم الطاعة الثانية التي هي شكرٌ تستحق شكرًا، وهكذا.

يقول بعضهم:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة — عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله — وإن طالت الأيامُ واتصل العمرُ

إذا مسَّ بالسراء عم سرورُها — وإن مس بالضراء يعقبها الأجرُ

إذا أعطيت نعمة فقلت: الحمد لله، فتوفيقك لقول: الحمد لله، نعمة

. . . .

يستحق الشكر عليها، فإذا شكرته على ذلك فإن هذا أيضًا يحتاج إلى شكر وهكذا فإن العبد لا يستطيع أن يقوم بحق الشكر حق القيام، إلا أن المطلوب منه هو الاعتراف بنعم الله تعالى عليه، وأن يحمده على تلك النعم، وأن يستعملها في طاعته ومراضيه، فيستعمل السمع والبصر والعقل واللسان واليدين والرجلين والمال والولد وكل ما أعطي من جوارح في كل ما هو محبوب لله.

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله على هذين الأمرين: الصبر والشكر، في كتابه المشهور: «عدةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين» وبين حقيقة الشكر والصبر وصفة الشاكرين وصفة الصابرين والفرق بينهما، وأيهما أفضل.

والحمد أيضًا شكر؛ لأنهم يعرفونه بأنه: «ذكر محاسن المحمود، مع حبه وتعظيمه وإجلاله» هذا تعريف لبعضهم، ويعرفه آخرون بأنه: «فعل ينبئ عن تعظيم المنعم، بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره». ولكن يقولون: إن الرب تعالى يُحمد على صفاته، ويحمد على شرعه، ويحمد على قضائه وقدره، ويُحمد على النعم والخيرات، ويحمد أيضًا على البلاء والامتحان، فلا يحمد على الضراء غيره. هذا هو الحمد، ويكون الحمد باللسان هذا هو الأصل فيه، فيحمد الإنسان ربه بلسانه ويعمل بمقتضى ذلك الحمد.

أما الشكر فإنه أعم متعلقًا وأخص سببًا، فالشكر خاصٌ بالشكر على النعم، فسبب الشكر هو النعم، فتشكر الله على عطائه وعلى هدايته، وعلى

. . . .

إغنائك وعلى إعزازك، وعلى الخير الذي أسداه إليك، فالشكر إنما يكون بسبب واحد وهو الخير الذي وصل إليك.

أما الحمد فإن أسبابه كثيرة، فتحمد الله على الخير وتحمده على البلاء، وتحمده على صفاته، وعلى أوامره وآياته. فيحمد الله على أسباب كثيرة.

هذا من حيث السبب، أما من حيث المتعلق، فإن الشكر يكون باللسان، ويكون بالجنان، ويكون بالأركان، فالشاكر يشكر الله بلسانه، ويشكره بجوارحه، ويشكره بقلبه.

أما الحمد فإنه يكون غالبًا باللسان لقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجَّبا

يعني أن نعماءكم التي وصلت إليَّ أوجبت علي أن أعترف وأشكركم بيدي وبلساني وبقلبي، فالضمير المحجَّب هو القلب، فصار الشكر أخص سببًا وأعم متعلقًا، والحمد بعكسه؛ أعم سببًا وأخص متعلقًا.

والكلام على الحمد والشكر كثير لا يتسع له هذا المقام، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب: «عدة الصابرين» لابن القيم، فإن فيه فوائد قد لا يجدها في غيره.

ثالثًا: الرضا بمر القضاء:

فالقضاء هو ما يقدره الله على الإنسان من المصائب والعاهات ونحو



. . . .

ذلك، وقد اختلفوا هل يجب علينا الرضا بالمصائب والفقر وما أشبه ذلك، أو لا يجب؟

ومن المعلوم أن الإنسان يحزن ويكره هذه المصيبة إذا أصابته، ويكره المرض والفقر ويكره فقد الأقارب، لكن عليه أن يرضى بذلك، حيث إنه من الله فيقول: رضينا بما أتى من الله، واستسلمنا لأمره ولتصرفه، فالرضا من صفات أهل الإيمان.

والرضا إنما يكون بالقضاء لا بالمقضي، والمقضي هو نفس المكروه، كالمرض والفقر والموت وما أشبه ذلك، فنحن نرضى بهذه الأمور من جهة أنها من قضاء الله وقدره، ولكن لا يلزم من ذلك محبتها والتسليم لها من جهة عدم دفعها أو تخفيفها، فلا يجب علينا مثلاً أن نكون مسرورين بموت قريب لنا، أو بفقر أصابنا، أو بمرض ألمَّ بنا.

فإن هذه الأمور اتفقت الطبائع على كراهتها والنفور منها، بل علينا أن نسعى في تخفيف تلك المصائب إذا نزلت بأحد من إخواننا فنصبره، ونحثه على الاحتساب والرضا بقضاء الله، ونحاول أن ندفع عنه ما ألمّ به، فإذا أصابه الفقر تصدقنا عليه وأعطيناه حتى ندفع عنه ما أصابه أو نكون سببًا في تخفيفه.

فالإنسان يفر من قدر الله إلى قدر الله، ويواجه أقدار الله بأقدار الله، ويفر من الشر إلى الخير، فيكون هاربًا من قدر الله إلى قدر الله، فيعدّ لكل ضرر

. . . .

ومكروه ما يدفعه به.

فإذا أصابه الجوع سعى في إزالة هذا الجوع ولو كان من الله، وإذا أصابه البرد سعى فيما يزيل عنه هذا البرد باستخدام الأغطية ونحوها، فإنه ولو كانت هذه مصيبة قدرها الله تعالى، ولكنه يسعى في تخفيفها، وكذلك المرض فمع أنه يعرف أن هذا المرض مكتوب له، إلا أنه يسعى في إزالته أو تخفيفه حسبما يستطيع، وذلك بالذهاب إلى الأطباء، واستخدام الأدوية المشروعة غير الممنوعة.

أما ما قد وقع وانقطع فهذا سبيله الرضا والتسليم، فمثلاً إذا حصلت الوفاة، فليس لك إلا أن ترضى وتقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا تقول: يا ليتني فعلت وفعلت، يا ليتني ذهبت بولدي إلى فلان، أو يا ليتني استخدمت هذا الدواء، فلا يجوز هذا الكلام لأنه من السخط على أقدار الله، ولأنه أيضًا لا يغير من الأمر شيئًا كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] فالشيء الذي فاتكم لا تتأسوا عليه لأنه ليس لكم فيه نصيب، لو كان لكم فيه نصيب لأدركتموه.

وعلى ذلك يحمل قول النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**

. . . .

ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل»[1] أي هذا قدر الله لنا وما شاء الله فعله، ولا تقل: لو، لو؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان.

فالحاصل أنه إذا وقع القضاء وحصل ومضى فلا يتأسف عليه ولا يعترض، بل يرضى ويستسلم، أما قبل وقوعه فإنه يجب عليه أن يعدَّ له عدته ويدفع الشر والمكروه بالأسباب الشرعية التي تدفعه.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) في القدر، باب: «في الأمر بالقوة وترك العجز». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مَكارِمُ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنُ الأَعْمَالِ:

[ويَدعونَ إلى مَكارِمِ الأخْلاقِ، ومَحَاسِنِ الأعْمالِ، ويَعْتَقِدونَ مَعْنى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤمِنينَ إيْمانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا»(١) .

وَيَنْدُبُونَ إلى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

ويَأْمُرونَ بِبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وصِلَةِ الأَرْحامِ، وحُسْنِ الجِوارِ، والإحسانِ إلى اليَتَامى والمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ، والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ.

ويَنْهَوْنَ عَنِ الفَخْرِ، والخُيَلاءِ، والبَغْيِ، والاستِطالَةِ عَلى الخَلْقِ بحَقٍّ أَو بغيرِ حَقٍّ. ويَأْمُرونَ بِمَعالي الأخْلاقِ، ويَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسافِها].



▪ قوله: (ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا...»):

مكارم الأخلاق: هي الخصال التي تحبها النفوس ويمتدح بفعلها، وتسمى

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٢) في الإيمان. من حديث عائشة. وأبو داود برقم (٤٦٨٢) كتاب السنة. وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٠) من حديث أبي هريرة. والحديث صححه الترمذي وهو في صحيح الجامع برقم (١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢). وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٧٣٩٦): إسناده صحيح.



. . . .

معالي الأمور؛ لأنه لا يفعلها إلا أهل الكرم وأصحاب الهمم العالية. وضدها: مساوئ الأخلاق.

وقد عقد ابن حجر في آخر «بلوغ المرام» بعض الأبواب التي فيها ذكر الأخلاق مثل: «باب البر والصلة» و «باب الزهد والورع» و«باب الترهيب من مساوئ الأخلاق» و «باب الترغيب في مكارم الأخلاق».

وذكر في تلك الأبواب الأحاديث الدالة على محاسن الأخلاق مثل صدق الحديث، والوفاء بالوعد، والكرم، والشجاعة، وحسن المعاملة، والنصح للمسلمين، وكذلك محبة الخير لكل مسلم، وذكر أضدادها من مساوئ الأخلاق؛ كالكذب، والغش، والمخادعة، والخيانة، وخلف الوعد وما أشبه ذلك، كخصال المنافق التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»**[1].

ومن محاسن الأخلاق: طلاقة الوجه والتبسم عند اللقاء كما قال أحدهم:

بنيَّ إن البر شيءٌ هين ... وجه طليق ولسان لين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣) في الإيمان، باب: «علامة المنافق» ومسلم برقم (٥٩) في الإيمان، باب: «بيان خصال المنافق». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرج البخاري برقم (٣٤). ومسلم برقم (٥٨). عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا...**» الحديث.



. . . .

وكذلك نفع المسلمين والسعي في حاجات الإخوان، وتفريج الكروب كما قال النبي ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»(١).

وكذلك قال النبي ﷺ : «والكلمة الطيبة صدقة»(٢) ، وذكر أيضًا من الصدقات: أن تعين أخاك على متاعه، فترفع متاعه على راحلته، أو أن تفرغ من دلوك في دلو أخيك.

ومن مكارم الأخلاق: الإيثار الذي ذكره الله عن الصحابة في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] فهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم، فإذا نزل بهم ضيف قروه وأكرموه، حتى إن بعضهم نزل به ضيف مرة وليس عنده إلا عشاءه وعشاء أهله وأطفاله، فقدم هذا العشاء للضيف، وبات هو وأهله طاويين؛ إيثارًا للضيف على أنفسهم، فهذا

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء، باب «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر». عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٢٩٨٩) في الجهاد. ومسلم برقم (١٠٠٩) في الزكاة. وهو حديث عظيم، ويا ليت الناس يتدبرون ما فيه ويعملون به. وتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن محمد رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكلُّ خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة». فأين نحن من هذا؟ إلى الله المشتكى!!



. . . .

أيضًا أشرف مكارم الأخلاق.

فالحاصل أن محاسن الأخلاق هي الأخلاق الرفيعة النفيسة التي يُمدح المتخلق بها.

مسألة:

يدعي كثير من السفهاء أن محاسن الأخلاق توجد في الكفار أكثر منها في المسلمين، لكن هذا ليس بصحيح، وما يفلعه الكفار من تلك الأخلاق إنما هو لأهداف أخرى وللحصول على مكاسب مادية ومعنوية، ولذلك فإنهم يتخلون عن تلك الصفات إذا لم تكن هناك مكاسب لهم، فمذهبهم هو المذهب النفعي، حتى الأخلاق عندهم يجب أن تؤدي إلى منافع مادية.

فإذا كانوا يتقنون بعض الصناعات؛ فإن ذلك بهدف الترويج لهذه الصناعات، وإذا كانوا يصدقون في التعامل وفي البيع والشراء؛ فإن ذلك بهدف جذب الناس إليهم.

أما المؤمن فإنه يفعل ذلك طاعة لله أولاً ومراقبة له وخوفًا من عذابه، فالذي يحمله على ذلك هو مراقبة ربه تعالى وإيثار الآخرة على الدنيا.

أما غير المؤمن فإن الذي يحمله على مكارم الأخلاق والآداب أشياء كثيرة، منها: حبُّ المدح والثناء من الناس فهذا يجعله يتقن عمله ويصدق أحيانًا في بيعه وشرائه؛ لأنه يعرف أن ذلك دعاية له وشهرة، فإذا بنى بناءً مثلاً ورآه الناس قالوا: هذا بناء مخلص، هذا بناء عارف، أو هذا مهندس عارف،

. . . .

فيحصل بذلك أن يتسابق الناس إليه فتحصل له مصلحة.

إذًا الإسلام حثَّ على هذه الأعمال ؛ لأن المؤمن يعرف أن الذي يراقبه فيها هو الله تعالى، فيقوم بواجبه فيها، والعقل حث عليها أيضًا؛ لأن فيها مصلحة دنيوية.

ومن محاسن الأخلاق: الصلة والعطاء والعفو:

أما قول المؤلف: «**ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**» هذه أيضًا من محاسن الإسلام، وقد ورد حديث بهذا المعنى(١).

ومعنى «**تصل من قطعك**»: القطع هو الهجران والحرمان، فإذا قطعك أي هجرك وحرمك زيارته، أوحرمك بره وعطاءه ونفعه، أو أساء إليك، فتسبب في حرمانك من هذه المصلحة أو هذا العمل؛ بغضًا لك وانتقامًا منك وما أشبه ذلك، فإن من محاسن الإسلام ألا تقابل إساءته بإساءة، بل من الإسلام أن تعفو عنه حتى تجتلب مودته.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن قال تعالى: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴾ [المؤمنون: ٩٦] يعني ادفع السيئة بالتي هي أحسن ﴿ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ**

---

(١) وهو حديث عقبة بن عامر، أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٤٨، ١٥٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٢) وهو حديث حسن؛ في إسناد أحمد: علي بن يزيد الألهاني ضعيف. ولكن تابعه عبيد الله بن زحر فقوي الحديث بهذه المتابعة.

. . . .

كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فإنك متى أحسنت إليه رجع يلوم نفسه ويقول: يفعل معي هذا ويعاملني بالإحسان في مقابل أذيتي له!! فقد كنت أوذيه وهو يحسن إلي، كنت أحرمه وهو يطعمني ويعطيني، أنا الذي قد أخطأت، فيرجع ويلوم نفسه، وتعود إليك مودته وإخاؤه، ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

فقد أحسنت إليه بدلاً من الإساءة إليه؛ فأنت تمدحه وقد هجاك، وتدعو له بدلاً من أن تدعو عليه، وتثني عليه في غيبته بدلاً من أن تغتابه وتذمه، فهذا بلا شك سيكون سببًا في عودة محبته وإخائه لك، وسيعود على نفسه بالملامة وسيندم على ما كان منه تجاهك.

فهذا يبين فضيلة العفو عمن ظلمك، وكذلك تعطي من حرمك وتصل من قطعك، هذه الخصال كلها من مكارم الأخلاق فهي تبين منهج الإسلام في التعامل مع الناس، ولكن مع ذلك يجوز للإنسان أن ينتقم ويقتص من ظالمه بقدر حقه بدون زيادة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وهذا إنما هو لمن يريد العدل، فإذا ضربك بعصا مرة فلا تضربه مرتين، ولا تضربه بحديدة، ولا تضربه بعصا أغلظ من عصاه، ولكن

. . . .

لك أن تقتص منه بقدر مظلمتك.

وإذا شتمك مرة فلا تشتمه مرتين، إنما تقتص منه وتأخذ منه الحق، ولكن العفو خير، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وذكر الله أن من خصال المؤمنين العفو. كما في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]؛ فالكاظم هو الذي لم يظهر غيظه، ويقابل السيئة بالعفو ويقول: قد عفوت عنك، فهذه من خصال أهل الإيمان؛ أنهم يعطون من حرمهم، ويصلون من قطعهم، ويعفون عمن ظلمهم.

أما الكافر فإنه لا يستحق أن يُعفا عنه، إلا إذا كان ذلك العفو سببًا لاهتدائه وإيمانه وترغيبه في الإسلام ودعوته إليه، أما إذا عرف منه الإصرار على الكفر والمعصية، فلا يعفا عنه؛ لأن العفو عنه يكون من باب التعاون على الإثم والعدوان، فهذا ينبغي أن يؤخذ بذنبه وأن يعاقب على جرمه، ولا يعامل معاملة المسلمين؛ لأنه لا يستحق العفو والرحمة.

وكذلك المسلم إذا كان شريرًا فاسقًا مؤذيًا لعباد الله منتهكًا لمحارم الله، فإن الأخذ على يديه وإيقاع العقوبة به أولى من العفو عنه، ليكون عبرة لغيره

. . . .

ولينكف شره عن عباد الله، وقد تكون العقوبة زاجرًا له عن طريق الشر الذي يسير فيه، فيعتبر ويعود إلى رشده وصوابه.

أما إذا كان العفو عن الكافر سببًا لتأمله، وتعقله محاسن الشريعة الإسلامية، فيمكن العفو عنه لهذا الغرض، وقد كان النبي ﷺ يعفو عن كثير من المشركين الذين يؤذونه، ولكن عفوه كان سببًا لاهتدائهم وإسلامهم.

والحاصل أنه قد يكون قوله: «**تصل من قطعك**» في غير الرحم؛ لأنه معلوم أن على الإنسان أن يصل رحمه، يعني أقاربه الذين له بهم صلة قرابة من جهة الأبوين، أو الأجداد ونحوهم، فإن هؤلاء لهم حق الرحم، فقد يكون بعضهم قاطعًا فمن حقه أن تصله، فإذا قطعك فصله؛ لتكون صلتك له سببًا في رجوعه عن تلك القطيعة، وقد أمر الله بصلة الأرحام ولو كانوا كفارًا، ولكن لا يجوز للمسلم محبة الكفار ولا موالاتهم أيًا كانوا، فالصلة شيء، والمحبة والموالاة شيء آخر.

ومن مكارم الأخلاق: حسن الجوار:

وقد كثرت الأحاديث في الحث على حق الجار، حتى قال النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[1] أي يجعله وارثًا. وقد

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٤، ٦٠١٥) في الأدب، باب: «الوصاءة بالجار». ومسلم برقم (٢٦٢٤) في البر والصلة، باب: «الوصية بالجار والإحسان إليه». عن عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه البخاري برقم (٦٠١٥). ومسلم برقم (٢٦٢٥). عن ابن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

ثبت قوله ﷺ : «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قالوا: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[١]؛ بوائقه يعني غوائله وشروره، يعني لاينفعه الإيمان إذا خاف جاره أن يغتاله أو يسرقه أو يخونه في أهله وولده ونحو ذلك، فليس هذا بمؤمن.

ولما كان الجار هو الإنسان الذي يلاصق الإنسان أو يقرب منه، فإن عليك له حقًا بمصافاته ومصادقته، والإحسان إليه وإطعامه مما تطعم إذا كان محتاجًا، وعدم إيصال أي ضرر إليه، فلا تؤذه بدخان قدرك، حتى قال النبي ﷺ : «إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[٢] .

وهذا دليل على عظم حق الجار، وقد ذكره الله من جملة أهل الحقوق وجعل الجار قسمين بقوله تعالى: ﴿الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] ، الجار ذو القربى الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، والجار الجنب هو الأجنبي، وله حق الجوار، ولهما أيضًا حقٌ آخر وهو حق الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٦) في الأدب، باب: «إثم من لا يأمن جاره بوائقه». من حديث أبي شريح . ومسلم بنحوه برقم (٤٦) في الإيمان، باب: «تحريم إيذاء الجار». من حديث أبي هريرة واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٥) [١٤٢] في البر والصلة، باب: «الوصية بالجار والإحسان إليه». عن أبي ذر رضي الله عنه.



. . . .

ومن مكارم الأخلاق: الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك:

هذه أيضًا من خصال الإسلام؛ وذلك لأن هؤلاء من ضعاف خلق الله، والمسلم يكون إلى جانب الضعيف، **فاليتيم**: هو الذي فقد أباه في الصغر، وحقه كبير.

وقد نهى الله تعالى عن الاعتداء على حقوقهم، وجعل أكل مالهم بالباطل ذنبًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ** أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ **ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ** نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وقال: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وأما المساكين فالمراد بهم: ضعاف خلق الله؛ فهو المسلم الضعيف المسكين الذي لا يستطع أن يخلص حقه، ويدخل في هذا أيضًا الفقراء والمعوزون فهؤلاء حقهم على المسلمين أن يحسنوا إليهم وأن يتصدقوا عليهم، وأن يساعدوهم على أمورهم التي قد يعجزون عنها، وأن يواسوهم بقدر ما يستطيعون، ولهم حق في أموال المسلمين، وهو الحق المعلوم، كالزكاة والكفارات ونحوها.

وابن السبيل: هو المسافر المنقطع به، الذي جاء من بلاد بعيدة ليقصد بلدًا، ولكنه نفد زاده وانقطع، وإن كان في بلده ذا ثروة ومال، ولكنه لا

. . . .

يستطيع الوصول إليه، فقد أصبح غريبًا في هذه البلدة وأصبح ابن سبيل، سُمي ابن سبيل؛ لأنه على طريق، والسبيل هي الطريق، وابنها أي ملازم لها، وقد جعل الله له حقًا على المسلمين.

وكذلك قوله: «الرفق بالمملوك»، ويدخل أيضًا فيه الرفق بالمستخدم ونحوه؛ وذلك لأن المملوك والمستخدم ذليل بين يدي المخدوم، فمن حقه أن يُرفق به ولا يُكلف بما فيه مشقة عليه.

ومن مكارم الأخلاق: بعدهم عن الفخر والخيلاء والبغي وغير ذلك:

وأما قوله: **«وينهون عن الفخر والخيلاء والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق»** فهذه داخلة في مساوئ الأخلاق.

والفخر معناه الاعتزاز بفعل الآباء والأجداد والافتخار بالأسلاف ونحوهم، وهذه من خصال الجاهليةالتي حذر الرسول ﷺ بقوله: **«أربع في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»**[1].

فالفخر بالأحساب هوتعداد مآثر ومحاسن الآباء والأسلاف، كقول بعضهم: أنا ابن الذين فعلوا كذا وكذا، آبائي خير من آبائك، آبائي هم الذين

---

(١) أخرجه مسلم برقم(٩٣٤) في الجنائز، باب: «التشديد في النياحة». عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

. . . .

فتحوا، وهم الذين انتصروا، وهم الشجعان، وهم الكرماء، وهم وهم. فأنت ماذا ينفعك من فعل هؤلاء؟ لا ينفعك إلا عملك.

إذا افتخرت بأقوام لهم سلف قلنا: صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فأنت لست مثلهم، وما نفعك شرفهم ولا فضلهم، وما قلدتهم في أفعالهم، بل إنك تقلد المتخنثين من الكفار والمشركين حتى أصبحت خلفًا سيئًا.

ومن المعروف أن شرف الآباء يستدعي من الأبناء أن يحرصوا عليه، والشرف الذي يستحق أن يفتخر به ويمدح عليه هو الشرف بالعلم والدين، فإذا كان آباؤك أهل علم وديانة، فإن لهم شرفًا، ولكن ينبغي أن يحملك هذا على أن تسير على ضوئهم، وأن تفعل مثل أفعالهم، وتكون ممتثلاً طريقتهم في الدين والأخلاق، ولا تتبدل بذلك أفعالاً سيئة.

فالحاصل: أن الفخر بالأحساب والأنساب والقبائل وغير ذلك من الأمور التي تزرع البغضاء في القلوب والقبائل، وقد نهى الإسلام عن ذلك أشد النهي فقال النبي ﷺ: «**لا يفخر أحد على أحد**»[1].

وأما الخيلاء فهو الإعجاب بالنفس، من التخايل الذي هو الترائي أمام الناس بصفةٍ جاذبة للأعين، كتمايلٍ في مشية على وجه التكبر، ولبس لباس

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥) [٦٤] في الجنة، باب: «الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار». عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

. . . .

يلفت الأنظار، أو المغالاة في اللباس والافتخار به على وجه الكبر، أو جر الثياب على وجه الخيلاء، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **«لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»**(١) .

فهو بتخايله أمام الناس كأنه يظهر نفسه أعلى من غيره وأعظم شأنًا من الآخرين حتى يعظموه ويمدحوه ويعجبوا به، ولا شك أن الإنسان عليه أن يتواضع وأن يحتقر أعماله، ولا يفتخر، ولا يتخايل، ولايتكبر، فالخيلاء من الكبر الذي قد ذمه النبي ﷺ في قوله: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»** ثم فسر الكبر بأنه: **«بطر الحق وغمط الناس»**(٢) يعني احتقار الناس وصدّ الحق ورده وعدم تقبله.

والاستطالة: معناها الجرأة على الناس والتسلط عليهم، كتسلط القوي على المستضعفين، والتجبر وإظهار الجبروت، فإذا كنت ذا منصب ومركز، أو لك رئاسة أو إمارة أو ولاية عامة أو خاصة، فلا تسلط قوتك على المستضعفين؛ تذلهم وتؤخرهم وتقدم غيرهم مثلاً.

وكذلك أيضًا لا تسلط قوتك على الذين تبغضهم بغضًا دنيويًا. ؛ فلا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٨٣) في اللباس، باب: «قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾». ومسلم برقم (٢٠٨٥) في اللباس والزينة، باب: «بيان تحريم جر الثوب خيلاء». عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١) في الإيمان، باب: «تحريم الكبر وبيانه». عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

تقل: هذا الشخص كنت أكرهه سابقًا، والآن صار في ولايتي وتحت تصرفي، فتسلبه ماله دون حق، وتأمر بجلده على أتفه الأسباب، أو تودعه السجون وتتناساه، فتأخذ بالشبهات وتتهم بالباطل، وتحبس بالظن، فتكون بذلك قد استعملت سلطتك في غير موضعها، وظلمت الناس وأخذتهم بغير حق.

فالاستطالة منهي عنها حتى ولو كانت بحق؛ لأن الاستطالة تعني التعدي والعسف في معاملة الخلق والتكبر عليهم، فلو كانت لك ولاية وسلطة وسيطرة فلا تجعلها على شخص دون شخص وتنتصر لنفسك، بل اجعل الناس عندك سواسية في الحق، وكن لهم كالأب الرحيم والأخ الشفوق، لا فرق بين كبير وصغير وقريب وبعيد.

فالذي له ولاية، عليه أن يسوي بين ولده الذي من صلبه وبين أبعد الناس عنه، فإذا كان هناك حق على ولده أخذه منه بالقوة والقهر، فلو استحق ولده قتلاً قُتل، وإذا استحق حبسًا حبس، هذا هو الوالي العامل الذي يخشى الله ويتقيه ويخاف مقامه، فأما إذا جعل ولايته وسيلة إلى الظلم، وإلى الانتصار للنفس، فإنه والحالة هذه لايكون عادلاً بل يكون جائرًا وظالمًا.

والحاصل: أن من خصال أهل السنة: التواضع وترك التكبر، ومن خصالهم: البعد عن الخيلاء والافتخار والاعتزاز بالنفس، والبعد عن الاستطالة على الناس وظلمهم وتسليط القوة عليهم بحق وبغير حق.

. . . .

ومن خصال أهل السنة: أنهم يأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها:

معالي الأخلاق: هي الشيم الرفيعة؛ وذلك أن الإسلام جاء بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وجاء بما فيه رفع للنفس، ونهي عن إذلالها ، ففي الحديث: «**لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه**»[1]؛ وذلك بأن يدخل مداخل السوء، ومداخل الظن السيء، بل يعمل بكل ما أمر الله به وأمر به الشرع، ويبتعد عن كل ما نهى الله عنه.

ومعلوم أن هناك أخلاقًا شريفة يعرف الإنسان، شرفها بعقله، وأخلاقًا دنيئة يعرف دناءتها بعقله، تسقط الهيبة وتسلط على الإنسان سفهاء الخلق وأراذلهم ، فالمسلم يبتعد عن السفه، وعن مجالسة السفهاء، وعن كل ما يجر إلى السفه.

فمن ذلك كثرة المزاح وكثرة القهقهة والضحك في الأسواق ونحو ذلك، فإنها مما يجرئ السفهاء على الإنسان ، وهكذا ظهور الإنسان بالمظاهر المزرية؛ كأن يمشي في الأسواق حاسر الرأس ولم يكن هذا من عادة أهل البلد، أو كأن يمشي وهو مكشوف العورة أو بعضها، أو يمشي وهويقلب نظره في متابعة

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٥٤) في الفتن. وابن ماجه برقم (٤٠١٦) في الفتن. وأحمد في المسند (٥/ ٤٠٥) وحسنه الترمذي. وصححه الألباني، وهو في صحيح الجامع رقم (٧٧٩٧).



. . . .

النساء، أو يتكلم بكلام قبيح أو ما أشبه ذلك.

فكل هذا من صفات الدناءة التي يقبح بالإنسان أن يكون متصفًا بها، وذلك لأنها تسقط هيبته.

وقد ذكر العلماء خصالاً أسقطوا شهادة من اتصف بها، ومن ذلك: الأكل في الأسواق؛ فالإنسان الذي له هيبة وله منزلة وشرف، يترفع أن يأكل في السوق والناس ينظرون إليه إلا شيئًا يسيرًا لا يظهر، ولا يكون ذلك عادة له، فإذا اتخذ ذلك عادة له، بحيث يأكل في السوق أو الطريق دائمًا، أو يتكلم بالفسق والفواحش فلا تقبل شهادة من هذا حاله.

فالحاصل أن مساوئ الأخلاق وسَفْسافها وأراذلها إنما يفعلها ضعاف العقول وسفهاء الناس، أما أهل العقول الزكية فإنهم يبتعدون عنها، فلا يكثرون من المزاح والضحك، ولا يظهرون بأي مظهر يجلب عليهم السخرية والازدراء، ولا يتعاملون مع الخلق بالعنف والشدة، بل يتعاملون معهم بالرفق واللين والبر ومكارم الأخلاق.

فكل هذا مما حث عليه الإسلام، ودعا إليه، فالإسلام جاء بمعالي الأخلاق وترك سفسافها، وأمر بالصفات الشريفة التي يحبذها العقل ويحث على التخلق بها، ونهى عن أضدادها مما لا يفعله إلا السفهاء وأراذل الخلق.

* * *

خاتمة هذه العقيدة

[وكلُّ ما يَقُولونَهُ وَيفْعلونَهُ مِن هذا وغيرِهِ، فإنَّما هم فيه مُتَّبِعُونَ للكتابِ والسُّنةِ، وطريقَتُهُم هِيَ دينُ الإسلامِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ محمَّدًا ﷺ .

لكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ ستَفْتَرِقُ على ثَلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً، كُلُّها في النَّارِ؛ إلا واحدةٌ، وهيَ الجماعَةُ[1]. وفي حَديثٍ عنهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ على مِثْلِ مَا أَنا عليهِ اليَوْمَ وأَصْحابي»[2]؛ صارَ المتمسِّكونَ بالإسلامِ المَحْضِ الخالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ.

وفيهِمُ الصِّدِّيقونَ، والشُّهَداءُ، والصَّالِحونَ، ومنهُمْ أَعلامُ الهُدَى، ومَصابيحُ الدُّجَى، أُولو المَناقِبِ المَأْثُورَةِ، والفَضائِلِ المَذْكورَةِ، وفيهِمُ الأَبْدالُ، وفيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذينَ أَجْمَعَ المُسْلِمونَ على هِدايَتِهِمْ ودِرايَتِهِم، وهُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصورَةُ الَّذينَ قالَ فيهِمُ النَّبيُّ ﷺ : «لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي عَلى الحَقِّ مَنْصورَةً، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ، ولا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقومَ السَّاعَةُ»[3].

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٦ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٧ .

(٣) ورد هذا الحديث بألفاظ متعددة عن جماعة من الصحابة منهم: سلمة بن نفيل الكندي، وثوبان، ومعاوية بن أبي سفيان، وقرة بن إياس، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله ، =

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ وأَلا يُزيغَ قُلوبَنَا بعـدَ إذْ هَدَانا ، وأَنْ يَهَبَ لَنا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ . واللهُ أَعْلَمُ .

وصلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا] .



▪ قــوله : (وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره ، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة . . .) :

هذا الفصل في الكلام على خاتمة هذه العقيدة ، وفيه يبين الشيخ رحمه الله أن تلك العقائد والآداب التي ذكرها والتي تُشكِّلُ مذهب أهل السنة والجماعة ، مبنية على الأدلة الشرعية ، فلم يستحسن أهل السنة هذه العقائد والآداب من قبل أنفسهم وإنما اتباعًا للأدلة الصحيحة الصريحة ، وذلك لأن العقول تستحسن هذه العقائد والآداب .

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الأدلة على ما قرره من عقيدة أهل السنة والجماعة ، وبالأخص فيما يتعلق بالصفات ، فإنه ذكر أدلة كثيرة من الآيات

= وعقبة بن عامر ، فهو حديث متواتر . وانظر ألفاظ هذا الحديث الجليل في جامع الأصول لابن الأثير أرقام : (١٠٤٨ ، ٦٧٧٦ ، ٦٧٧٧ ، ٦٧٧٨ ، ٦٧٧٩ ، ٧٤٩٦ ، ٧٨٣٢ ، ٧٩١٧ ، ٨٨٧٩) وقد اتفق البخاري ومسلم على بعض تلك الألفاظ وانفرد كلٌّ منهما ببعضها ، وروى أصحاب السنن بعضها .

. . . .

والأحاديث، وذكر أيضًا أدلة فيما يتعلق بالقرآن، وفيما يتعلق بالرؤية، وفيما يتعلق بالإيمان والصحابة والقدر، وفيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر وما بعده، ذكر أدلة ذلك كله، ولكن على وجه الاختصار؛ لأن الأدلة واسعة في هذا الباب ويصعب حصرها في هذه العقيدة المختصرة.

فكأن المؤلف اختصرها في عقيدة تحتاج إلى بسط وشرح وتوسع في الأدلة، وإلا فقد كتب هناك عقائد مدعمة بالأدلة، وألفت في هذا الباب مؤلفات كثيرة، قد أشار إلى بعضها الشيخ رحمه الله في مؤلفه الذي سماه «الحموية الكبرى»، فإنه أشار إلى جملة كبيرة من كتب المتقدمين التي ألفوها في العقيدة وفي الأسماء والصفات ونحوها ونقل منها نقولات كثيرة، فدلَّ على أن أهل السنة لم يهملوا هذا الباب، بل اعتنوا به، ويدل أيضًا على أن السلف الصالح متمسكون بالأدلة غاية التمسك.

فالحاصل أنه يقول: إن كل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره، فإنما هم متبعون فيه للكتاب والسنة. والكتاب والسنة هما الدليل الكافي، فمن اتبعهما لم يلحقه عتاب ولا لوم، وقد أمر الله بردّ التنازع إليهما: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] يعني إلى الكتاب والسنة، وكذلك قوله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

وكذلك الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله في عدة آيات، ثم ذكر المؤلف بعد ذلك أن طريقة أهل السنة القائمين بهذه العقيدة والمتبعين لها، هي طريقة أهل



. . . .

الحق الطريقة السوية، وهي اتباع سبل الهدى؛ واتباع النبي ﷺ واتباع صحابته، واتباع من سار على نهجه، هذه هي الطريقة التي يجب أن تتبع.

وقد وضحت هذه الطريقة، فأدلتها ناصعة من الكتاب والسنة، ولكن خفيت مع وضوحها على كثير من الأدعياء، فهناك خلق كثير يدعون أنهم مسلمون، وأنهم على الحق، ولكن خفيت عليهم هذه الطريقة، فانحرفوا وتمسكوا بطرق ضالة، وزين لهم الشيطان أنهم على الهدى، فلا جرم أن كان أهل الحق وأهل السنة قلة قليلة بالنسبة إلى أولئك المنحرفين.

ولكن على الحق نور، فالذي يطلب الحق بإنصاف يجده، ولو أن أهل البدع والمحدثات طلبوا الحق برغبة وإنصاف لهدوا إليه ولما توقفوا في قبوله والانقياد له، ولكن سول لهم الشيطان أنهم على الحق وأن ما هم عليه من البدع والضلال هو الصواب، وحال بينهم وبين تأمل الأدلة والتعقل في دلالتها، وزين لهم أنهم أولى بالصواب من غيرهم.

وصدق كلام النبي ﷺ في إخباره أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأخبر أن الفرقة الناجية هم أهل الجماعة[1]، وفي رواية: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[2] فأهل السنة فرقة واحدة من تلك الفرق أما الفرق الأخرى المنحرفة فقد قيل: إنهم فرق أمة الدعوة، وقيل:

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٦.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٧٧.

. . . .

إنهم فرق أمة الإجابة.

فعلى القول الأول: يدخل فيهم اليهود، والنصارى، والمشركون، والمنافقون، والصابئة، والوثنيون، والدروز، والهندوس، وما أشبههم.

وعلى القول الثاني: لا يدخل فيهم إلا من يدعي الإسلام، ويدعي اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ويدخل فيهم الفلاسفة الإلهيون، ويدخل فيهم الباطنية، والقرامطية، ويدخل فيهم الأشاعرة، والمعتزلة، والقدرية، والشيعة الذين هم الرافضة، وإن كانت هذه الفرق بعضها أضل من بعض. فإن الخوارج مثلاً غلب عليهم التشدد، لذلك لما سئل عنهم علي رضي الله عنه فقيل له: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيرًا.

فالخوارج تشددوا تشددًا كبيرًا حتى أخرجوا المسلمين من الإيمان بالذنوب صغيرها وكبيرها، وحتى كفروا سادات الأمة واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وعلى عكس الخوارج كانت المرجئة؛ فقد تساهلوا تساهلاً شديدًا وقالوا: إن الإيمان مجرد الكلمة، وإن الأعمال لا تؤثر في الإيمان، فسوّوا بين إيمان أفجر رجل في الأمة وبين إيمان الصديق رضي الله عنه، وفتحوا باب الرجاء حتى جرءوا الناس على المعاصي والمخالفات.

فالحاصل أن هناك ثلاثًا وسبعين فرقة، منها فرقة واحدة ناجية والباقون

. . . .

في النار. فإذا قلنا إن هذه الفرق من أمة الإجابة كان هذا الحديث من أحاديث الوعيد، فإذا أدخلنا فيهم القدرية، مع كونهم يزعمون أنهم أهل العدل، وأدخلنا فيهم الوعيدية، وأدخلنا فيهم الجهمية والكرَّامية والكُلاَّبية وكثيرًا من فرق المعتزلة، كان في ذلك تسرع؛ فإن كثيرًا منهم لا يؤخذ عليه إلا بدعة خاصة، ولهذا فإن بعض العلماء جعل الفرق التي في النار هي الغلاة، وأما المقاربون لأهل السنة فإنهم لا يخرجون بذلك عن كونهم أهل السنة.

فالحاصل أنه لما أخبر النبي ﷺ بكثرة الاختلاف والتفرق، كان ولابد أن يكون أهل السنة طائفة من تلك الطوائف، وكان لابد من معرفة ما هم عليه، حتى يُتمسك بطريقتهم، وكان لابد أيضًا من حدوث هذه الفُرقة وكثرة الفرق الضالة.

ووصفهم النبي ﷺ بقوله: «**هم الجماعة**» وبقوله: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**» فدل ذلك على أن الطائفة الناجية هم المتمسكون بالسنة، سواء كثروا أم قلوا، فقد تكثر هذه الطائفة في بعض الأزمنة وتقل في بعض حتى يكونوا أفرادًا، وحتى يصبحوا غرباء بين الناس كما في قول النبي ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»[1] قيل: ومن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٥) في الإيمان، باب: «بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا». عن أبي هريرة رضي الله عنه.



. . . .

الغرباء؟ قال: **«الفرارون بدينهم من الفتن»**[(١)]، وفي رواية: **«الذين يصلحون عند فساد الناس»**[(٢)]، وفي رواية: **«الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتي»**[(٣)]، وفي رواية: **«هم النزاع من القبائل»**[(٤)]، أي يكون أفراد القبيلة كلهم منحرفين وعصاة إلا واحد أو اثنين في كل قبيلة.

وقد ألف ابن رجب رسالة في وصفهم سماها «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» يعني الغرباء الذين دعا لهم النبي ﷺ: **«فطوبى للغرباء»**،

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ص (١٨٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥) وفي الإسناد: سفيان بن وكيع قال ابن حجر في التقريب: صدوق إلا أنه ابتلي بورّاقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه فسقط حديثه.

(٢) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: الطبراني في الكبير (٦/ ١٦٤) وفي الصغير (١/ ١٠٤) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٨). والقضاعي في مسند الشهاب برقم (١٠٥٥) والدولابي في الأسماء والكنى (١/ ١٩٢، ١٩٣). وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٦٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وفي أسانيدهم بكر بن سليم الصواف. قال ابن عدي: وهو من جملة الضعفاء والحديث يرتقي إلى مرتبة الحسن بالطرق والروايات الأخرى.

(٣) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: الترمذي برقم (٢٦٣٠) في الإيمان وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٠). وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠ ـ ٩٨)، وأورده البغوي في شرح السنة (١/ ١٢٠، ١٢١) وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: فيه كثير بن عبد الله ضعيف جدًا، لكن الحديث صح من طرق أخرى وأصله في مسلم.

(٤) أخرجه بهذه الزيادة المفسرة: ابن ماجه برقم (٣٩٨٨) في الفتن. وأحمد في المسند (١/ ٣٩٨) وصححه البغوي في شرح السنة (١/ ١١٨). وقال أحمد شاكر (٣٧٨٤): إسناده صحيح.

. . . .

ونقل رحمه الله في ذلك آثارًا كعادته.

وتكلم عليهم كذلك ابن القيم في منزلة الغربة في كتابه «مدارج السالكين».

ولشيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا كلام جيد عنهم تجده في مجموع الفتاوى (جـ١٨/ ٢٩١-٣٠٥).

فالحاصل أن أهل السنة هي الفرقة الناجية، وهي خير الفرق وأفضلها وأقربها إلى الصواب وأقواها حجة، وأصحها دليلاً.

ومع ذلك فإننا نقول: ليس كل من انتمى إلى فرقة من الاثنتين والسبعين فرقة يكون هالكًا، فإن فيهم الجاهل والمقلد، والتابع لعلماء بلده، والباحث عن الحق المجتهد في طلبه ولم يوفق إليه، فهؤلاء لا يدخلون في الحكم، ولكن على كل حال فهم ملومون حيث إن على كل إنسان أن يفهم الحق ويحكم به ويتتبع الأدلة، ولا يكون مقلدًا مخافة أن يخطئ في تقليده.

فأهل السنة يقابلون أهل البدعة، ولاشك أن الرافضة مبتدعون، والجهمية مبتدعون، والمعتزلة مبتدعون، والجبرية الذين هم مقابل المعتزلة مبتدعون أيضًا، فكل منهم ليس على السنة، وأهل السنة هم الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وهم أهل الجماعة.

والكتب التي ألفت في الفرق كثيرة، منها كتاب «الفرق بين الفرق»، وكتاب الأشعري «مقالات الإسلاميين»، وكتاب «الفصل في الملل والأهواء

. . . .

والنحل» لابن حزم، وكتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، كلهم تكلموا عن هذه الفرق، وقد تصل هذه الفرق إلى الألف، وقصرها على ثلاث وسبعين فيه صعوبة.

وقرأت في أول كتاب ابن الجوزي الذي سماه «تلبيس إبليس» شرحًا لهذا الحديث، ثم قسم الفرق إلى ست فرق، وجعل كل فرقة اثنتي عشرة. قال: انقسمت الرافضة إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الجبرية إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت المعتزلة إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الخوارج إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت الجهمية إلى اثنتي عشرة فرقة، وانقسمت القدرية إلى اثنتي عشرة فرقة أو كما قال.

ولاشك أن هذا الحصر فيه تحكّم؛ لأن بعض الفرق قد تكون أقل من ذلك فإذا أراد أن يوصلها إلى ذلك العدد قد يأتي بفرق غير مشهورة وبأسماء غير معروفة، وبعضها أكثر من هذا العدد فيترك بعض الفرق ليصل العدد إلى ما أراده.

■ **قوله: (ومنهم الصديقون والشهداء والصالحون...):**

ثم واصل الشيخ رحمه الله في ذكر بعض فضائل ومزايا أهل السنة فقال: **«وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة».**

فأهل السنة منهم الصديقون والشهداء والصالحون الذين ذكرهم الله في

. . . .

قـوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩] فالصديقون: هم المبالغون في التصديق، ورئيسهم أبو بكر رضي الله عنه، وكل الصحابة غالبًا من أهل التصديق البالغ، كذلك الشهداء: ينطبق أيضًا عليهم أنهم من الشهداء الذين يستشهدهم الله تعالى ويشهدهم على خلقه كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والصالحون: هم الذين أصلحوا أحوالهم وأعمالهم، بحيث استقاموا على الأعمال الصالحة، فصلحت أعمالهم وصلحت أحوالهم ونياتهم فوصفوا بأنهم صالحون .

وأما قوله: «أعلام الهدى ومصابيح الدجى» فالمراد بهم علماء الأمة الذين هم بمنزلة الأعلام، والأعلام في الأصل: الجبال كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢] يعني كالجبال، فجعل الله هؤلاء العلماء يقتدى بهم في المسائل وفي السنة.

فوصف المؤلف رحمه الله علماء الأمة الذين هم علماء السنة في كل زمان بهذه الأوصاف: بأنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجي، فالأعلام: هي الجبال الشامخة التي يُقتدى بها، ويوصف المشهور أيضًا بهذا كما في قول الخنساء في

. . . .

أخيها:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وكذلك «**مصابيح الدجى**» فالدجى: الظلمات، والذي يسير في الظلمات يتخبط في سيره ويتيه ما لم يكن معه مصابيح تنير له الطريق، فهؤلاء العلماء الذين حملوا العلم الصحيح بمنزلة السُرج المضيئة في تلك الدياجير المظلمة .

وأما قوله: «**وفيهم الأبدال**»، فكلمة الأبدال كلمة ابتدعتها الصوفية، وهذا المصطلح ليس له دليل على اصطلاح الصوفية؛ لأنهم يزعمون أن في الأرض أبدال متى مات واحد استخلف واحدًا يكون سببًا في إصلاح الأمة وفي دفع العذاب عنها.

فعندهم: الأوتاد والأقطاب، والأبدال، أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، لكن كلمة الأبدال معناها صحيح، والمراد أن أهل الخير وأهل العلم يخلف بعضهم بعضاً، فإذا مات بعضهم أخرج الله بدلهم فيقومون مقامهم، وإذا مات علماء أهل الزمان، جعل الله بدلهم من يخلف مكانهم، ويكونون أبدالاً يعني بدلاً عمن سبقهم، هذا معى كونهم أبدالاً، وإن لم يكن لها أصل في الشرع، لكن معناها صحيح مطابق من ناحية اللغة.

وذكرها على حسن النية لا بأس به، ولكن على اصطلاح الصوفية ليس لها أصل، وكذلك الأقطاب والأوتاد على اصطلاح الصوفية ليس لها أصل.

فالأقطاب: يقولون: إن القطب بمنزلة القطب الذي في السماء،

. . . .

والأوتاد: يقولون: إنهم سبب ثبوت الأرض، كالجبال التي أرسى الله بها الأرض وقد كانت تميل فأرساها بتلك الجبال.

والصوفية يقولون: إن هؤلاء هم سبب ثبات الأرض وكونها لا تميل ولا تضطرب ولا تتحرك.

أما إذا استعملنا كلمة أبدال بمعنى: أن أهل العلم والدين والخير والصلاح يخلف بعضهم بعضًا، فلا بأس بذلك.

وكذلك وصفهم بأنهم الأئمة «أئمة الدين» يعني الذين يُقتدى بهم فالإمام بمعنى القدوة، وبلا شك أن علماء أهل السنة أئمة وأهل قدوة يُقتدى بهم في أعمالهم وفي سيرهم وسلوكهم، فلهم فضل على هذه الأمة.

ومن أشهرهم: أئمة المذاهب الأربعة، فإنهم كلهم على عقيدة واحدة، فلم يتفرقوا في العقيدة، عقيدتهم واحدة في أسماء الإيمان والدين، عقيدتهم واحدة في التصديق بالآخرة وما بعدها، عقيدتهم واحدة في الصحابة وما يقال فيهم، عقيدتهم واحدة في القضاء والقدر، عقيدتهم واحدة في القرآن، عقيدة الأئمة الأربعة واحدة.

وهكذا أهل زمنهم من الأئمة الآخرين؛ كالليث ابن سعد، وشعبة بن الحجاج، والأوزاعي، وحماد بن زيد، وابن سلمة، وسفيان الثوري، وكذلك تلامذتهم كيحيى بن معين، وعلي بن المديني، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ونحوهم، الذين حفظت أقوالهم

. . . .

وعقائدهم، ودونت أتم تدوين، منها ما كتبوه هم، ومنها ما كتبه تلامذتهم.

وهذا دليل على أن أهل البدع ما فشت بدعهم وتمكنت، إلا بعد أن مضى عهد أولئك السلف الصالحين، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: **«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**[1] يعني القرن الأول الذين هم الصحابة رضوان الله عليهم، والقرن الثاني وهم التابعون، والقرن الثالث وهم تابعو التابعين الذين رأوا التابعين، فهؤلاء هم أهل العلم والعمل، وبعدهم كثر الافتراق وتفرقت الأمة، وتشعبت إلى شعب كثيرة، فإذًا أهل السنة حقًا هم الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وصحابته، وساروا على نهجهم.

الفرقة الناجية:

وهم الفرقة الناجية المنصورة الباقية إلى قيام الساعة فقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**[2] هذه الفرقة هي أهل السنة وأهل الجماعة، هي الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، جعلهم فرقة لكثرة من خالفهم، ويعتبرون فرقة وجماعة واحدة، ولو كانوا متباعدين، قد يكون بعضهم في هذه البلاد، وبعضهم في بلاد أخرى بعيدة، لكن لما كان معتقدهم واحدًا، أصبحوا طائفة واحدة، ولا يلزم

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٠) في الإمارة، باب: قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ....." عن ثوبان رضي الله عنه.

. . . .

أن تكون الطائفة مجتمعة في بقعة أو مكان، بل هم طائفة ولو تفرقوا.

النبي ﷺ أخبر بأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة، أي منصورة بالحجة ومنصورة بالقوة، فحجتهم وأدلتهم قوية ينتصرون بها على من خالفهم، وكذلك يمدهم الله بقوة ينتصرون بها على عدوهم، ولو كان عدوهم أكثر عددًا، وأكثر عُددًا.

فأهل السنة والجماعة هم الذين أخبر بأنهم منصورون، وبأنهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، والخذلان معناه التخذيل، أي لا يضرهم من حقرهم، ولا يضرهم من فتَّ في أعضادهم وقال لهم: أنتم قلة، والناس كلهم ضدكم، ألا تسيرون كما يسير الناس؟ سيروا مع غيركم، افعلوا كغيركم، الناس قد تطوروا وتحضروا، وأنتم لا تزالون على عقيدة حدثنا وأخبرنا!! أنتم لا تزالون علي عقيدة الأولين وتتمسكون بها!!، الناس فكروا!! والناس نظروا!! وأنتم لا تزالون تقرءون في هذه الكتب الصفراء البالية!!

لاشك أن هذه تخذيلات، ولكنها لا تروج على هؤلاء الذين منحهم الله العقول الذكية فعرفوا الحق وآمنوا به وعملوا به.

وقد اختلف في هذه الطائفة التي أخبر النبي ﷺ بأنها باقية إلى قيام الساعة، فمن العلماء من قال: هذه الطائفة هم العُباد، أهل العبادة، أهل التقشف، ومنهم من قال: بل هم الصوفية الزهاد الذين زهدوا في الدنيا، وجعلوا أعمالهم للآخرة، ولكن لاشك أن من يسمون صوفية عندهم بدع

. . . .

ومحدثات لايليق بهم أنهم أهل السنة.

كذلك أيضًا منهم من يقول: إنهم أهل الحديث، وهذا هو الأقرب، روي أن الإمام أحمد رحمه الله سُئل: من هم هذه الطائفة الذين أخبر النبي ﷺ أنهم على الحق؟ فقال: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم. ومراده بأهل الحديث أي الذين اشتغلوا بعلم الحديث، والذين اشتغلوا بالعمل به، فمن رزق العلم بالحديث، رزق أيضًا التمسك به وتطبيقه، والعمل بإرشاداته وتعاليمه؛ لأن الحديث فيه بيان للقرآن، فالذين يحفظون الحديث ويعملون به هم أيضًا يحفظون القرآن ويعملون به، فلا يتركون شيئًا من أدلة الوحي إلا قبلوها وعملوا بها بعد التأكد من صحتها، فهؤلاء بلا شك أقرب أن يكونوا من الفرقة الناجية.

ومنهم من قال: إن الفرقة الناجية هم علماء السنة، أي العلماء الذين علموا السنة وحفظوها على الأمة، ويتبعهم كل من عمل بإرشادهم، بخلاف علماء البدعة ومن انحرف عن طريقهم بسبب دعايتهم فإنهم ليسوا من الفرقة الناجية.

وأنت تعرف أنه قد وقع في الأمة بدع كثيرة، وكل أهلها يدعون أنهم أهل حق وعلى طريق سوي، وأن الصواب في جانبهم، ولكن لاشك أن الحق أحق أن يُتبع، فالحق هو ما وافقه الدليل، فإذا كان الدليل مع طائفة من الطوائف فإن العارف يتبعه ولو لم يكن في طائفته، ولو خالف مذهبه وطريقة



. . . .

إمامه وأهل زمانه.

بلا شك أن هناك من يكون عالمًا بالسنة، عالمًا بالأدلة، ولكن لا ينفعه علمه، يعلم ولا يعمل، فيكون علمه وبالاً عليه وحجة عليه، ومثل هذا لا يتبع ولا يكون قدوة، حتى إنه يستنكر عليه العوام الذين لا يعرفون تفاصيل الأدلة.

فعرف بذلك أن الفرقة الناجية: أهل السنة والجماعة الذين هم منصورون إلى قيام الساعة، هم المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ، وقد ذكرهم شيخ الإسلام في أول هذه العقيدة وفي آخرها، بمعنى أن اعتقادهم هو اعتقاد واحد. قال في أول الرسالة: «أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله . . .» إلخ.

وقال في آخرها: «وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة» يعني الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. ثم دعا الله تعالى بهذا الدعاء حيث رغب إلى الله تعالى أن يجعله ـ هو ومن عمل برسالته وسائر الكتب التي تدعو إلى السنة ـ من أهل السنة والجماعة، وهي دعوة شريفة على المسلم أن يدعو الله تعالى بها في كل حالاته، وهي أن يحشر مع أهل السنة؛ لأن الحشر معهم سبيل إلى النجاة وذلك يستدعي محبتهم، ولا شك أن محبتهم تستدعي تقليدهم والسير على نهجهم، فمن كان كذلك فإنه

. . . .

سيحشر معهم لقوله ﷺ : «المرء مع من أحبَّ»[١] .

والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٧٠) في الأدب، باب: «علامة حب الله عز وجل». ومسلم برقم (٢٦٤٠) في البر والصلة، باب: «المرء مع من أحب». عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع	الصفحة

*****